

# ابن ڤرجینیا

نشر هذا الكتاب بالاشتراك

مع

مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر

# ابن ڤرچينيا

تأليف

أوين وستر

ترجمة

الدكتور محمد عوض محمد

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

# مقدمة

بقلم الدكتور محمد عوض محمد

وعدت أن أساهم فى المجهود الذى تبذله مؤسسة فرانكلين ، لكى يطلع أبناء الشرق العربى على نتاج أمريكا العقلى والروحى ، بعد أن اطلعوا على ما أنتجته من سيارات ، ومنسوجات من النيلون ، وصور متحركة وما شاكل ذلك .

وقد رئى أن تكون مساهمتى هذه ترجمةً لأحد الكتب الأدبية الأمريكية ، حتى يكون لى فى هذا تسلية وترفيه مما أعانيه من جهود فى نواح أخرى . غير أنى لم ألبث أن تبين لى أن الكتاب الذى قدم إلىّ لن تكون ترجمته تسلية محضة ، لأن الكتاب شائق ، ولكنه طويل ، ولم يسبق لى أن اضطلعت بترجمة كتاب طويل عريض كهذا . لهذا شعرت بشىء غير قليل من الارتياح حين أتممت هذه الترجمة فى الزمن الذى حددته لنفسى .

ولا بد لى الآن أن أقدم للقارئ العربى هذا الكتاب تقديماً يساعده على حسن تفهمه والإلمام ببعض النواحى التى لا يتيسر إدراكها لمن لم تسبق له دراسة خاصة للولايات المتحدة الأمريكية .

* * *

إن أمهات الكتب الأدبية عند جميع الشعوب تستمد مادتها فى الأغلب من أحوال الوطن الذى نشأ فيه الكاتب وترعرع . فالروائى الروسى دوستويفسكى يستمد موضوعاته من الحياة فى روسيا ، وتشارلز دكنز من انجلترة ، وتوماس مان من ألمانيا ، ومع أن بعض الروائيين قد يطوف بأقطار بعيدة ، ولكن الذى ننتظره من كل أديب أن يكشف لنا عن شئون بلاده ، أو المجتمع الذى يعيش فيه . وقد يقوم الكاتب بمعالجة موضوع فلسفى أو نفسى ولكنه يجعل الأشخاص

والمكان والمناظر كلها مستمدة من بلاده ! كما فعل الأديب النرويجى هنريك إبسن فى مسرحياته المشهورة .

وهذا الكتاب الذى بين أيدينا الآن هو من هذا الطراز ، ومع أنه لا يخلو من فلسفة وأوصاف نفسية وتحليل للمزاج والطبع البشرى. غير أن هذه الموضوعات ليست هى المحور الذى يدور عليه الكتاب . وإنما محوره لون خاص من ألوان الحياة فى جهات من الولايات المتحدة الأمريكية لا بد من الإلمام بها لمن أراد أن يدرك كيف تطورت الحياة فى تلك البلاد الفسيحة الأرجاء .

تشتمل الولايات المتحدة على ثمان وأربعين ولاية ، وكانت المجموعة الأولى التى نزلت بها الشعوب المهاجرة من أوربا هى الولايات الشمالية الشرقية ، التى أصبحت تدعى فيما بعد باسم انجلترة الجديدة ، وإن كان تعميرها لا يرجع إلى الإنجليز وحدهم ، بل ساهم فى ذلك الهولنديون بنصيب وافر . وكذلك لم تلبث الولايات الجنوبية أن انتشرت فيها الهجرات الأوربية ، وعلى الأخص فى البلاد الواقعة شرقى نهر المسيسبى . وبقيت البلاد الغربية زمناً طويلاً لا يهاجر إليها إلا المغامرون ، ولكن اختراع السكك الحديدية لم يلبث أن ساعد على التوغل نحو الغرب ، فأخذت الولايات الغربية تتكون بالتدريج بما فى ذلك الولايات الواقعة إلى الداخل والولايات الواقعة على المحيط الهادى .

وهكذا أصبح الناس يميزون بين الولايات الشرقية والغربية والجنوبية . وقد أكثر القصصيون الأمريكيون من التأليف فيما يسمونه الموضوعات الغربية ، وأكثرها كتب مملوءة بالمغامرات ومحاربات الهنود ، ونحو ذلك . ويغلب عليها الغلو والإسراف .

ومع التسليم بأن هذا الكتاب الذى ألفه أون وستر Owen Wister يتحدث أيضاً عن الغرب ، وعن رعاة البقر ، وحتى عن الهنود أحياناً ، فليس من الإنصاف أن نقارنه بكتب المغامرات المذكورة ، ولا أظن أننا نبعد عن الحقيقة كثيراً إذا نعتنا هذا الكتاب بأنه دراسات تاريخية وجغرافية صيغت فى ثوب

قصصي . وقد عاش المؤلف فى الإقليم الذى يصفه لنا فى العصر الذى ترجع إليه حوادث القصة ، فمادته مستقاة من تجاربه ومشاهداته ، مع حسن إدراك للطباع البشرية ومقدرة على حسن العرض والأداء .

والقصة الغرامية التى اشتمل عليها الكتاب ، على الرغم من طرافتها ، ليست هى لب لباب الموضوع ، بل الأمر المهم فى الكتاب هو وصفه لمرحلة من حياة ولاية من الولايات الغربية ! وهى ولاية ويومنج Wyoming ، والمجتمع الذى كان يعيش فيها فى الربع الأخير من القرن الماضى . ولا شك أن الطور الذى مرت به ويومنج لا يختلف كثيراً عما مرت به ولايات أخرى فى أمريكا الشمالية ، بل وفى بعض الأحوال المشابهة فى أمريكا الجنوبية أيضاً . ولذلك كانت هذه القصة صورة لطوْر من الأطوار الخطيرة فى تطور عدد غير قليل من الولايات فى العالم الجديد .

كانت هذه الولايات الغربية فقيرة من السكان جداً ، لأن عدد الهنود الأمريكيين – على أحسن الفروض – لم يكن يتجاوز المليون فى جميع أنحاء الولايات المتحدة فى أى وقت من الأوقات . كانوا يعتمدون فى حياتهم على الصيد . وكانت أسلحتهم بدائية ، ثم تعلموا من البيض استخدام البنادق واستئناس الخيل . ولم يكن فى أمريكا بالطبع خيل حتى جاءت مع المهاجرين الأوربيين . وقد تراجع الهنود بالتدريج نحو الغرب أمام ضغط المهاجرين من الشرق . وقد جرت بينهم وبين المهاجرين حروب عنيفة أزهقت فيها أرواح عديدة ، وأبدىَ فيها من البسالة والجرأة النادرة ما يفوق الوصف . غير أن العصر الذى يصفه هذا الكتاب لم يكن عصر النزاع بين المهاجرين والهنود ، فقد انتهى هذا النزاع كله أو جله فى منتصف القرن التاسع عشر وأخذت العلاقات والأوضاع تستقر بين الطرفين ، وكان من أهم مظاهر الاستقرار انصراف الهنود إلى حرفة جديدة وهى رعى الماشية ، مما يدر عليهم رزقاً أوفر ، وتخصيص جهات لهم ليستقروا فيها ولا ينازعهم فيها أحد وهى الجهات المحجوزة Reserves .

أما الموضوع الذى يعالجه الكتاب فهو الفتح الاقتصادى لهذه الجهات التى كانت من قبل خالية من السكان ، ومن المعروف أن أيسر الوسائل وأسرعها فى استغلال قطر جديد أن يخصص لتربية الماشية ، ومعها بعض المزروعات السريعة النمو مثل الذرة والقمح . ولكن الثروة الحقيقية تتمثل فى القطعان ، ولذلك نشأت فى هذه الجهات مزارع ضخمة تتناول الآلاف أو عشرات الآلاف من الأفدنة ، وخصصت لتربية البقر بوجه خاص .

هذه المزرعة ، أو الضيعة ، يطلق عليها هناك اسم Ranch ، وقد يكون فيها نهر أو بحيرة ومظاهر طبيعية متنوعة . وسيجد القارئ أن كثيراً من هذه المزارع لها اسم ينتهى بكلمة كريك Creek ، ومعناها : الجدول الصغير ، يتدفق منه الماء بسرعة ، مثل بير كريك Bear Creek : جدول الدب ، أو سنك كريك Sunk Creek : الجدول الغائر . ولا تزال آثار هذه الأسماء واضحة فى أى خريطة تفصيلية لولاية ويومنج .

ولا بد لصاحب هذه الضيعة الواسعة أن يستعين بعدد كبير من العمال ليقوموا برعى الماشية ، ووسم العجول بعد ولادتها ، وحمايتها من الوحش ومن اللصوص ، وجمعها فى موسم الربيع والصيف لتصديرها إلى الأسواق ، وعلى الأخص فى تشيكاغو ، ولا بد لهم أو لبعضهم أن يساعد فى حفر قنوات الري والمساعدة فى زراعة المحصولات . ولكن عملهم الأول هو رعى البقر .

فالشخصية التى يدور عليها محور الحياة الاقتصادية هى شخصية راعى البقر ، وهو فى ذلك الوقت كائن سليم النية ، ولكنه خشن ، لم تهذبه المدنية ، بل يحتقر الحضارة والمتحضرين . وقد احتشد فى الولايات الجديدة عدد كبير من هؤلاء الذين اشتهروا باسم فتيان البقر ، وقد ألفنا مناظرهم وملابسهم لكثرة ما رأيناها فى الصور .

ولا بد لرعاة البقر أن يستخدموا الخيل ، ولذلك قلما تراهم إلا على ظهور الجياد . والخيل التى نصادفها فى كتابنا هذا من طراز خاص . فإن أكثرها ليس

مستأنساً كل الاستئناس ، فمن المعروف أن الخيل من الحيوانات التى سرعان ماترتدإلى الحالةالوحشية ، وقد كانت فيافى الولايات المتحدة ومراعيهامن أكبر المغريات بحيث تلجأ إليها الخيل الضالة أو التى فقدت أصحابها فلاذت بالهرب فى تلك السهوب الفسيحة ، وارتدت إلى حالة الوحشية ، وكان لا بد لهؤلاء الرعاة أن يصيدوها من جديد وأن يعيدوها إلى حال الاستئناس . ولكنها ظلت حديثة عهد بالوحشية وشتان بين هذه الخيل الغربية ، وبين الخيول العربية التى نعرفها .

* * *

وقد اختار المؤلف لبطولة قصته أحد فتيان البقر ، وأمكنه أن يرينا أن هذه الجماعة التى يغلب عليها التوحش والخشونة قد ينشأ فيها شخص يتمثل فيه النبل والكرم والفهم ، كما ينشأ الماس وسط كتل الفحم . وقد استطاع المؤلف أن يجعل وجود مثل هذا البطل ، فى مثل تلك البيئة ، حادثاً طبيعياً خالياً من كل تكلف . ولا شك أنه أثبت بذلك براعته كمؤلف روائى من الطراز الأول . وقد جعل المؤلف بطله هذا شاباً من جوابى الآفاق منشؤه إحدى الولايات الجنوبية وهى فرجنيا . واكتفى بأن يسميه « الفرجينى » دون أن يضيف إلى ذلك أى اسم أو لقب آخر .

وهناك أمر آخر أظهر فيه المؤلف براعته ! وهو أنه أراد أن يقارن بين المجتمع الجديد فى ولاية ويومنج ، وبين المجتمع القديم فى انجلترة الجديدة ، حتى يظهر لنا الاختلاف الكبير بين الاثنين ! فجعل بطلة القصة فتاة من إحدى الولايات الشرقية المحافظة على التقاليد وهى ولاية فرمنت Vermont ، وهكذا جمع المؤلف فى كتابه هذا بين ثلاث ولايات تمثل الأقسام الرئيسية للولايات المتحدة ، وهى الجنوب والشرق والغرب ، وعرض أمام أعيننا الأحوال المتباينة فى كل قسم .

لقد تبدلت الأحوال فى الولايات الغربية عما كانت عليه فى الزمن الذى يتناوله هذا الكتاب ، فقد ازداد فيها عدد السكان ، وأصبحت تربية الماشية جزءاً من اقتصاد متنوع متقدم ، والمدن البدائية التى يراها القارىء هنا ، قد تطورت

وكبرت وازداد عددها . ولكن لا يزال هناك فروق بين الشرق فى الولايات المتحدة والغرب . وهذا الكتاب مما يساعد على إدراك هذه الفروق .

ولست بحاجة إلى أن أفيض فى وصف ما اشتمل عليه الكتاب من موضوعات عديدة متنوعة أرجو أن يجد فيها القارئ متعة وتسلية . وقد أعجبنى من المؤلف شدة حرصه على أن تكون موضوعاته وعباراته بعيدة عن ذلك الفحش الذى نراه شائعاً فى مؤلفات المحدثين من كتاب الغرب . والذى يقلده صغار الكتاب عندنا من كل عاجز عن اجتذاب القراء بأدبه وأسلوبه ، ولم يجد لديه بضاعة سوى تلك السخافات .

* * *

ولقد رأيت أن من الضرورى أحياناً أن أوضح بالهامش بعض الأمور التى خيل إلىّ أن من المفيد إيضاحها . وهى بالطبع ليست فى الكتاب الأصلى ، كما أنى أودعت هذه المقدمة معظم المعانى التى جاءت فى مقدمة المؤلف ، ولذلك لم أر ما يدعو إلى نقلها إلى العربية .

# ابن فرجينيا

## ١
## يظهر الرجل

كان منظرٌ ممتاز يجتذب المسافرين رجالاً ونساء إلى النافذة ، فنهضت من مجلسي فى مركبة القطار ودنوت لكى أطلع على فحواه ، فرأيت بالقرب من الطريق الحديدى فناء مسوراً ، حوله رجال يضحكون وبداخله غبار يتطاير ، وفى وسط الغبار خيل تتدافع ، وتتزاحم ، وتتقدم وتتراجع . كانت عبارة عن مجموعة من الأمهار ، فى داخل حظيرة ، وقد امتنع واحد منها على القناصين مهما بلغوا من البراعة فى رمى الوهق[1] . وكان لدينا من الوقت متسع لمشاهدة هذه الرياضة ، لأن قطارنا قد توقف لكى يأخذ الماء من الصهريج قبل أن يقف على رصيف محطة مدسن بو ، وقد تأخر القطار عن موعده ست ساعات ، فكنا فى أشد الحاجة إلى التسلية . كان ذلك المهر على نصيب وافر من الذكاء وخفة الحركة . هل رأيت مرة أحد الملاكمين يراقب خصمه بعين هادئة يقظة ؟ بمثل هذه العين كان المهر يرقب كل رجل يتناول الوهق لاصطياده ، وعبثاً يتظاهر الرجل بأنه ينظر إلى الجو ، وكان صحواً ، أو يتظاهر بالحديث الجدى مع أحد النظارة ، فإن هذا كله لم يكن يجديه نفعاً لأن المهر لم يكن ينخدع ، أو يغتر بالظواهر . لا شك أن هذا الحيوان كان كالرجل الخبير المحنك . فكانت عيناه لا تتحولان عن خصمه المخادع . وكان مظهره الجدى مما يبعث الضحك . ثم لا

( ١ ) حبل له أنشوطة يرمى على الدابة أو الإنسان لإمساكهما ، وفى الولايات الوسطى فى القرن الماضى كانت الخيل يطلق سراحها ليلا ، ولا بد لإمساكها فى الصباح من استخدام هذا الحبل عادة .

يكاد القانص يلقى عليه بالحبل فجأة . حتى يكون المهر قد تحول إلى مكان آخر
ولئن جاز للخيل أن تضحك ، فلا شك أن هذه الحظيرة قد امتلأت ضحكاً .
كان المهر يحاور أحياناً وهو منفرد ثم لا يلبث أن ينخرط وسط أقرانه فى مثل لمح البصر . وعند ذلك يأخذون جميعاً فى التدافع حول الحظيرة ، كأنهم أسماك مرحة ، ويثيرون الغبار فى الهواء ، وأكبر ظنى أنهم كانوا يضحكون . وكان وقع حوافرهم يصل إلى أسماعنا من وراء زجاج « البلمان » ، كما كنا نسمع اللعنات الشديدة تنصب من أفواه رعاة البقر .

ثم لاحظت لأول مرة رجلاً جالساً على باب الحظيرة العالى ، وهو ينعم النظر فيما يجرى أمامه . ثم جعل ينزل فى مثل انسياب النمر ، فى سهولة ويسر ، كأن عضلاته تنزلق تحت جلده . كان الآخرون قد ألقى كل منهم حبله بدوره ، وبعضهم كان يرمى الوهق من أعلا كتفيه . أما هو فلم أر ذراعه تتحرك أو ترتفع . بل كان يمسك الحبل منخفضاً بين رجليه . ثم رأيت الحبل ينقض كالأفعوان بأقصى طوله ، ويصيب الهدف ، وبذلك قضى الأمر . وأقبل المهر يتهادى وعلى وجهه مظاهر الخضوع والتسليم . فى تلك اللحظة أخذ القطار يتحرك بنا إلى المحطة . فصاح أحد المسافرين : « إن هذا الرجل على علم بحرفته » .

ولم أستطع أن أصغى إلى حديث المسافر عن تصيد الخيل بالحبال ، لأن محطة مدسن بو كانت هى بغيتى ، فودعت رفقائى فى السفر ، ونزلت إلى الرصيف غريباً فى هذه الأرض التى اشتهرت ببقرها . ولم ألبث فيها عشر دقائق حتى بلغنى نبأ زادنى غربة على غربتى .

ذلك أن أمتعتى فقدت ، إذ لم تصل معى بالقطار . بل كانت تائهة فى هذين الألفين من الأميال التى خلفتها ورائى . وقال الموظف المختص بالحقائب على سبيل التفريج عنى : إن المسافرين كثيراً ما يفرق بينهم وبين أمتعتهم ، ولكنهم فى الغالب يلتقون بها بعد فترة من الزمن . وبعد أن شجعنى بكلامه هذا ، انصرف إلى أعماله وهو ينفخ صفارته وخلفنى واقفاً فى حجرة الأمتعة بمحطة مدسن بو ،

وسط أكداس من الصناديق الصغيرة والكبيرة ، وفى يدى الإيصال . وقد استولى علىّ الغضب والكمد . ونظرت من باب الحجرة محدقاً فى السماء وفى المروج ، ولكن لم أبصر الوعول ترعى وسط الأحراج ، ولا جمال الغروب فى ولاية ويومنج . إن شيئاً واحداً كان يتمثل لعينى أينما نظرت ، وهو حقيبتى المفقودة . وإننى لفى حالة كمدى هذه أتمتم بصوت مسموع : « يا له من مكان خبيث ! » إذا أنا أسمع صوتاً من إفريز المحطة يقول فى تؤدة : —

« هل أنت راحل مرة أخرى فى طلب الزواج ؟ أولى بك أن تعدل . » كان صوت رجل من أهل الجنوب ، وكان رقيقاً هادئاً ، ولم يلبث أن اندفع يرد عليه صوت آخر يمتاز بالحدة والغضب :

« من زعم أننى أرحل مرة أخرى ؟ من قال إنها مرة أخرى ؟ . . ومن الذى نبأك هذا النبأ ؟ . »

فقال الصوت الأول ملاطفاً : « أنبأنى بذلك أنك تلبس أحسن ثيابك يا عم هيوى ، وإن لمعتها الباهرة لتتحدث بفصاحة وبيان عن الزواج والقران » .

فصاح العم هيوى متحمساً : « لست أعبأ بما تقول » .

واستمر الأول فى كلامه ملاطفاً : « أليست هذه القفازات التى تلبسها اليوم هى بعينها التى لبستها فى عرسك الأخير ؟ »

فصرخ العم هيوى بشدة : « إننى لا أعبأ بك . .ولست أعبأ بما تقول » .

فى تلك اللحظة كنت قد نسيت حقيبتى الضائعة ، وأخذت أحس جمال الغروب ، وصار أحب شىء إلىّ أن أستمع إلى المزيد من هذا الحوار الذى لم أسمع له مثيلاً فى حياتى حتى هذه الساعة . فمشيت إلى الباب وأخذت أنظر إلى إفريز المحطة . فرأيت شاباً مستنداً إلى الجدار ، فارع القامة نحيل الجسم يفوق جماله جمال الصور ، وقد دفع بقبعته العريضة إلى الخلف ، وتدلى من رقبته منديل أحمر ربطه ربطاً خفيفاً . وقد جعل إبهامه فى حزام البارود الذى يلبسه حول خاصرته .

وكان من الواضح أنه أقبل من مكان بعيد ، يشهد بذلك الغبار الذى كسا حذاءه غطاء أبيض ، وصبغ رداءه بلون الرماد . ومع ذلك فإن وجه الفتى الذى لوّحهُ الجو كان يشرق وسط هذا كله ، كما تبدو الخوخة الناضجة على شجرتها وقت الجفاف ، لم تستطع وعورة الأسفار ولا شعث الثياب أن تنقص من الروعة التى كانت تنبعث من شبابه وقوته . أما الشيخ الذى كان يوجه إليه عباراته فيثير حفيظته ، فكان ممشط الشعر فاخر المظهر ، كأنه عرسٌ مجلو مدهون إلى أقصى حد ، لولا سنه ، ولو أنى كنت العروس لما ترددت فى اختيار الشاب المارد على منظره الرث والغبار الذى علاه .

ولم يكن الشاب قد فرغ من محادثة الشيخ ، فقال له فى لهجة إعجاب : « إنك لتلبس ثياب العرس على جسمك كله ، فمن السيدة السعيدة التى تنشدها فى هذه الرحلة ؟ »

فقال الشيخ وهو يتكلف الغضب : « قلت لك إنه ليس هنالك امرأة أخرى ، وهل تحسبنى من طائفة المرمون ؟ »

— ولمَ هذا ؟

— إذا ما اعتبرتنى من المرمون ، فاذكر أسماء بعض زوجاتى ، اذكر اسم زوجتين ، بل زوجة واحدة ، وأتحداك .

— « الأرملة لارامى قد وعدتك . . »

— « كذب وافتراء . »

— لولا أن طبيبها أمرها فجأة أن تذهب إلى الجنوب .

— محض افتراء ، ما أنت إلا بلاغ كاذب .

— لذلك لم يحل بينك وبينها إلا ذات الرئة ، وبعد ذلك كدت تعقد قرانك على كيت لولا . . .

— قلت لك إنك بلاغ كاذب .

— لولا أنها شنقت .

ـ فأين الزوجات فى هذا كله ؟ أرنى الزوجات ، تكلم إن . .

ـ ثم تلك المرأة الريفية من رولنس ، التى أهديتها عصفور الكناريا .

ـ لم أتزوجها قط .

ـ أجل، ولكنك كنت من الزواج قاب قوسين أو أدنى . إنها هى المرأة التى أرسلت إليك ذلك الكتاب تنبئك أنها تزوجت من شاب من لاعبى القمار ، قبل موعد زواجك منها بيوم واحد ، ثم . .

ـ إنها لا تساوى تبنة ، وما أنت إلا طفل . .

ـ ثم قالت فى كتابها إنها لن تنسى أن تعنى بإطعام عصفور الكناريا الذى أهديته إياها .

ـ تبا لهذه البلاد، لقد أصبحت مملوءة بالأطفال . وبدا على الشيخ الارتياح والرضا بعد أن أدلى بهذا القول الحاسم . ثم غمز بعينيه كأنه يطلب المزيد ، فقال له الفتى الطويل ، وسمات الجد فى وجهه لم تتغير ، وصوته ممتلىء رقة وعطفاً :

ـ وكيف صحة تلك المنكودة الحظ . .

ـ نعم، نعم، صب الإهانات عليها صبا ! ، صب الإهانات على امرأة مريضة قد ألحت عليها العلل . ولمعت عينا العجوز بشهوة المكافح .

ـ حاش لله أن أصب الإهانات يا عم هيوى . .

ـ لا بأس ، لا بأس ، أنزل الإهانات كما تشاء .

ـ لا وحقك ، إنى قد سرى عنى كثيراً عند ما علمت أنها أخذت تسترد ذاكرتها ، وآخر ما سمعته عنها ، أنهم أنبأونى أنها قد استردت معظم ذاكرتها ، فأصبحت تذكر أباها وأمها وإخوتها وأخواتها وصديقاتها ، وطفولتها السعيدة وجميع تجاربها ما عدا وجهك أنت . وكان الفتيان يتراهنون أنها ستذكر هذا أيضاً إذا أعطيت الوقت الكافى ، ولكن يخيل إلى أن هذا أمر بعيد المنال ، بعد هذا المرض العضال الذى ألم بها . »

عند ذلك أخرج العم هيوى من جيبه ربطة صغيرة وقال : « هذا أكبر دليل

على جهلك . . انظر إلى هذه الربطة ، أتعرف ما هى ؟ هذا خاتمى ردّته إلىّ لأنها تحس أنها فى حالة من الإجهاد لا تسمح لها بالزواج . فهل معنى هذا أنها لا تذكرنى ؟ ها . . ها . . ألم أقل لك دائماً إنك بلاغ كاذب ؟ » .

فقال رجل الجنوب بصوت يبدو فيه القلق : « إذن فأنت الآن بسبيل تقديم الخاتم إلى خطيبة أخرى ؟ يا عم هيوى لا تقدم على الزواج مرة أخرى . . ما فائدة الحياة الزوجية »

فصاح العريس فى تهكم وازدراء : ما فائدتها ؟ انتظر حتى تكبر ، يكن لك رأى آخر

– من الطبيعى أن يختلف رأيى باختلاف سنى ، فأنا أفكر الآن تفكير ابن أربع وعشرين وأنت تفكر تفكير ابن الستين .

– « بل ابن الخمسين » . . . قالها الشيخ وهو يثب فى الهواء .

فتكلف ابن الجنوب مظهر الآسف النادم على ما فرط منه ، وقال : « ويلى كيف أنسى أنك فى الخمسين ، مع أنك لم تكف عن ذكر ذلك فى حرص وتوكيد طيلة الأعوام العشرة الأخيرة ؟ » .

هل تعرف الطائر الغاضب حين يحس الإهانة فينفش كل ريشه فى جسده؟ هكذا ظهر الأب هيوى ، وقد انتفخ كل شىء فيه ، ملابسه وشواربه ، ولحيته الكثة البيضاء ، ثم اندفع دون أن ينطق بكلمة إلى القطار المتجه إلى الشرق وقد انتقل القطار فى تلك اللحظة من القضبان الجانبية إلى الرصيف . كأنما جاء لينقذه من الحوار .

ومع ذلك فإن هذا لم يكن السبب الذى منعه من الهرب قبل ذلك فقد كان فى وسعه فى أى لحظة أن يهرب إلى قاعة الأمتعة ، أو أن ينتحى بعيداً عن صاحبه حتى يجىء القطار . والحقيقة أن الشيخ كان يجد لذة فى تلك المداعبات . فقد وصل إلى تلك السن التى يروقنا فيها أن نتهم بالعلاقات النسائية فى أية صورة من الصور .

ولم يلبث أن حمله القطار مشرقاً فى ذلك الاتجاه البعيد ، الذى أقبلتُ منه أنا . فأخذت أتبعه النظر وهو يمضى فى طريقه إلى الشواطىء البعيدة حيث الحضارة والمدنية . وأخذ حجمه يتضاءل وسط الفضاء الواسع ، حتى اختفت معالمه ولم يبق منها إلا الدخان المعقود فى سماء المساء . . وفى تلك اللحظة عادت ذاكرتى إلى حقيبتى المفقودة وأن مدسن بو مكان قفر ! وكأن سفينة من السفن قد قذفت بى فى بحر غريب . فكانت عربة « البلمان » تمخر العباب فى راحة واطمئنان إلى مرفأ الوطن ، أما أنا .. فأنّى لى أن أعرف السبيل إلى مزرعة القاضى هنرى ؟ وأين البقعة المسماة سنك كريك ( الجدول الغائر ) وسط هذه القفار الخالية من المعالم ؟ لم يكن هناك جدول أو ماء يجرى أينما وليت وجهى . إن مضيفى كتب إلىّ بأنه سيقابلنى فى المحطة ، ثم يحملنى إلى مزرعته . وهذا كل ما كنت أعلم ، ومع ذلك لم يحضر ، ولم يره حارس الأمتعة منذ زمن . ولا شك أن المزرعة أبعد من أن أصل إليها هذا المساء . وحقيبتى . . . كيف السبيل إليها ؟

وإنى لفى همومى هذه أرسل الطرف وراء قطار الشرق بعد أن اختفى عن العيون ، إذا بى أحس أن الفتى العملاق ينظر إلىّ فى اهتمام واضح . أى بنفس الاهتمام الذى كان يبدو عليه وهو يتحدث ذلك الحديث العجيب مع العم هيوى .

فلما رأيت عينيه مثبتة علىّ ، وإبهامه لا تزال مثبتة فى حزام القذائف ، عادت إلى ذاكرتى بقوة القصص التى يرويها الرحالة عن هذه الجهات . فهل قدر لى — بعد أن رحل العم هيوى — أن أحتل مكانه ، وأن أدعى مثلاً إلى الرقص فوق الرصيف على نغمات الطلقات النارية المسددة ببراعة نادرة ؟ عند ذلك تقدم منى الفتى الطويل القامة وقال : « أكبر ظنى أنك أنت السيد الذى أبحث عنه » .

## ٢

# ابتسم حين تدعونى بهذا الاسم !

ليس من السهل علينا أن نرى أنفسنا كما يراها غيرنا ، وإلا لأمكننى أن أعرف كيف بدت ملامح وجهى عند ما سمعت هذه العبارة من الفتى الطويل . ولم أبادر بالرد على كلامه لأنى كنت بين الشك واليقين .

فردد عبارته مرة أخرى : « إنك أنت السيد الذى أبحث عنه » .

فأجبته عندئذ : « إننى أبحث عن القاضى هنرى » .

فأخذ يقترب منى ، فرأيت أنه ليس عملاقاً كما كنت أتصور ، ولعل طوله لا يزيد على الستة الأقدام ، وإنما بدا عملاقاً بالمقارنة إلى العم هيوى . ومع ذلك فقد كان فى عينيه ، وفى وجهه ومشيته وفى شخصه كله ، قوة مهيمنة ، يحسها فيما يبدو لى كل رجل أو امرأة .

وقال لى موضحاً — بصوته وأدبه الجنوبى — : « إن القاضى أرسلنى إليك يا سيدى » ثم ناولنى كتاباً من سيده ، وكنت خليقاً أن أحكم بأنه أبعد الناس عن هذه المواهب ، لو لم أكن قد شهدت حواره العجيب مع العم هيوى. فأما وقد شهدت ذلك ، وأصبحت عليماً بحقيقته رغم مظهره ، ومطلعاً على سره بحيث أستطيع أن أنظر إليه نظرة العارف ، فعند ذلك أخذت أتبع معه أسلوباً ينطوى على الارتياح والاطمئنان . وكان مما يبعث السرور أن يكون المرء مرتاحاً مطمئناً مع هذا الغريب الطويل القامة . الذى يناولك كتاباً فى أدب ولطف ، بدلاً من أن يفاجئك بإطلاق الرصاص على قدميك .

فبادرته بسؤاله : « أكبر ظنى أنك من ولاية فرجينيا القديمة ؟ » .

فأجابنى فى تمهل : إذَنْ أصبتَ فى ظنك يا سيدى .

فأحسست عندئذ بشىء من الفتور يعترى حماستى . ولكنى مضيت أسأله فى انبساط : « هل تصادفك فى هذه الجهات أنواع غريبة مثل العم هيوى ؟ » .

« أجل يا سيدى ! إن المكان ليزخر بهذه الغرائب . وهم يفدون مع كل قطار » .

عند ذلك لم أجد بداً من ترك طريقة التبسط معه ، وقلت : « ليت القطار كان ينقل حقائب الركاب أيضاً » ، ثم أخذت أقصّ عليه مسألتى .

ولم أكن أنتظر منه أن يتأثر كثيراً لما فقد منى . ولكنه لم يعلق على الموضوع بكلمة ، وقال فى أدبه الذى لم يغادره لحظة : «سننتظر فى البلدة حتى تصل الحقيبة»

ولما كانت عينى لم تقع فيما سماه « البلدة » منذ وفدْتُ إليها الساعة إلا على كل قبيح دميم ، فإنى كنت أوثر أن أنام ليلتى هذه فى مزرعة القاضى ، إذا كان هذا ممكناً .

فسألته : « هل المزرعة أبعد من أن نرحل إليها هذا المساء ؟ » .

فنظر إلىّ نظرة ملؤها الدهشة :

وقلت له شارحاً : « إن معى حقيبة اليد هذه تحتوى كل ما أحتاجه الليلة ، بل إنى أستطيع أن أستغنى عن حقيبتى الكبيرة يوماً أو يومين ، إذا كان استحضارها يتطلب بعض العناء . فإذا استطعنا أن نبادر بالرحيل إلى المزرعة فلعلنا نبلغها الليلة دون أن نتأخر كثيراً .

وسكتّ لحظة . فقال الفرجينى : « إن بيننا وبينها مائتين وثلاثة وستين ميلاً ».

فصحت صيحة عالية لم يرد عليها بكلمة . بل تأمّلنى لحظة ، ثم قال : « إن العشاء أوشك أن يتم إعداده الآن . وتناول الحقيبة الصغيرة ، وجعلت أتبع خطواته نحو المطعم وأنا فى دهشة من أمرى .

وجعلت أتلو خطاب رب المزرعة أثناء السير ، فإذا هو كتاب قصير كريم. يأسف فيه على أنه لم يستطع السعى للقائى بنفسه ، إذ عاقه — بعد أن أعد المركبة — قدوم موظف المساحة . فاضطر لأن يرسل إلىّ رجلاً يثق به كل الثقة ،

لكى يرعانى ويحملنى إليه . وهم جميعاً يتطلعون إلى زيارتى فى شوق وسرور . هذا كل ما تضمنه الخطاب .

وظللت فى حيرتى . أعجب لهؤلاء القوم كيف ينظرون إلى المسافات الطويلة فهم يحدثونك بلهجة المودة عن السير إلى البلدة ، فإذا هى رحلة — ولم أكن أعرف ذلك من قبل — تستغرق بضعة أيام ، فعجبت لهم ماذا يقصدون حين يطلبون منك أن تلم بهم فى زيارة قصيرة . وكم من الأميال لا بد من قطعها حتى يكون المكان فى نظرهم بعيداً ؟ لقد أمسكت عن سؤال رفيقى ، « الموثوق به كل الثقة » ، لأن أسئلتى لم تلق نجاحاً كثيراً لديه. صحيح أنه لم يهزأ بى . ولكنه لم يحاول أن يرفع الكلفة بينى وبينه . لمَ هذا ؟ وما الذى فعلته حتى أستحق منه تلك السخرية المقنعة الماهرة حين قال لى : إن المخلوقات الغريبة تفد على كل قطار ، لقد أرسلوه لكى يعنى بأمرى . فقام بذلك خير قيام ، بل وبادر بحمل حقيبتى . ولكنى لم أكن أستطيع أن أحدثه حديث الفكاهة والدعابة . لأن هذا الفتى ، وليد هذا الثرى ، الذى لا يستقيم كلامه نحواً وصرفاً ، قد أقام بينى وبينه حاجزاً من أدبه الفاتر المتقن . وهيهات لأى رجل أن يحاكيه فى هذا . فعجبت من أمره ، ونظرت إليه ، فأدركت فجأة السر فى مسلكه هذا . فلو أنه حاول إسقاط الكلفة بينى وبينه ، فى الدقائق الأولى من تلاقينا ، لأنكرت هذا منه . فكيف يحق لى أن أحاول هذا الأمر معه؟ لو أنى فعلت ذلك لكان هذا منى بمثابة التفضل عليه ، ولا شك أنه بمسلكه هذا كان خير الاثنين

وهكذا بدت لعينى ، فى صورة شخص من لحم ودم ، حقيقة كنت أعرفها لفظاً وأجهلها معنى . إن الكائن الذى ندعوه « رجل المروءة » ، كثيراً ما يوجد فى قرارة قلوب الآلاف من الناس الذين يولدون وليس من حظهم أن يكتسبوا المظاهر الخارجية لذلك الكائن .

وقد جعلت أفكر تفكيراً صريحاً ما بين المحطة والمطعم ، ولكن أفكارى كان مقضياً عليها بأن تغمرها الدهشة لأعمال هذا الكائن النادر الذى رمتنى المقادير فى صحبته .

أما ما سموه البلدة فإنها كانت تزداد قبحاً كلما زدتها نظراً . ومع ذلك فنحن مضطرون لأن نطلق كلمة البلدة على مدسن بو ، إلى أن تتاح للغتنا أن تتسع وتبتكر كلمة جديدة أكثر انطباقاً على مثلها . لقد قدّر لى فيما بعد أن أرى وأن أبيت فى كثير من أمثالها ، فهى منتشرة انتشاراً واسعاً على الجبهة الممتدة فيما بين نهر كولمبيا وريو جراند ، وبين المسورى والسلاسل الجبلية الغربية . وهى مبعثرة فى مساحة واسعة من التراب العارى عن الشجر ، كأنها مجموعات من ورق اللعب القذر . كل واحدة منها تشبه أختها ، كما تشبه ورقة اللعب ذات الخمس النقط ورقة أخرى من نفس الطراز . فمنازلها ، وأكوام الزجاجات الفارغة ، والقمامة المتراكمة ، متشابهة كلها فى نظام مختل مضطرب ، ومنظرها أكثر وحشة من منظر العظام البالية ، وكانت تبدو كأنما حملتها الرياح وألقت بها فى أماكنها ، وكأنها تنتظر حتى تهب رياح أخرى لتحملها بعيداً . ومع ذلك فإن هذه الدمامة كانت تغمرها أضواءٌ هادئة صافية ، ليس لها نظير فى الولايات الشرقية . كأنها كانت تغتسل فى نسيم الصباح فى أول يوم من أيام خلق العالم . وقد أكسبها إشراق الشمس والنجوم أياماً وليالى آيةً فى البهجة والسحر .

كانت مدسن بو هى أول عهدى بتلك البلاد ، ولذلك جعلت أنعم النظر فى محتوياتها ، وهى عبارة عن تسع وعشرين داراً لا أكثر : مخزن للفحم ، مستودع للماء ، محطة ، متجر ، مطعمان ، ملعب للبلياردو ، بيتان لبيع الأدوات ، اصطبل ، ثم هنالك اثنا عشر بيتاً لا أريد — لأسباب شتى — أن أذكرها. ومع ذلك فإن هذه المجموعة الدميمة كانت تبذل بعض المجهود الفكرى لتحسين مظهرها . وبعضها كان يضع واجهة مزيفة ، لكى تبدو كأنها من طابقين ، وهى فى الحقيقة من طابق واحد . وهكذا كانت تبدو كلها فى قبحها وزيفها ، يحيط بكل منها إطار من الصفائح القديمة. وعلى أعتاب البلدة — برغم هذا كله — عالم من الضياء البلورى يمتد إلى غير نهاية ، كأنه الوطن القديم الفسيح الأرجاء ، الذى كان يجول فيه آدم ونوح كما صورهما لنا سفر التكوين . فى هذا الفضاء

العظيم يمتد طريق متعرج ، يعلو ، ثم يهبط مختفياً عن الأبصار ، ثم يظهر مرة أخرى ، ثم يختفى ، ثم يرتفع ويبدو صغيراً ضئيلاً ، لا تكاد العين تدركه ، ثم يبتعد ويختفى تماماً عن الأنظار .

ولم تمض لحظات حتى سمعت شخصاً يحيى رفيقى الفرجينى ، وقد خرج هذا الشخص مندفعاً من أحد الأبواب ، وانقض على قبعة الفرجينى ، غير أن ابن الجنوب أفلت منه بسرعة ، ورأيت مرة أخرى تموجات عضلات النمر ، فأدركت أن رفيقى هو بعينه صـــاحب الحبل الذى اصطاد الفرس فى الحظيرة من قبل .

ولم يلبث أن صاح بالرجل المندفع نحوه : « كيف حالك يا ستيف ؟ » وفى رنة صوته أحسست بسرعة صوت الصداقة القديمة التى تربط بين الرجلين ، وأدركت أن بينه وبين ستيف لا محل للكلفة .

وألقى ستيف علىّ نظرة ثم حول بصره عنى . فكان ذلك كل ما حظيت به من اهتمامه . ولا أظن أننى أحسست أنى غريب كما أحسست بذلك فى تلك اللحظة . ومع ذلك فإنى أحببت صحبة الرجلين ، ووددت لو أحبا صحبتى .

وقال ستيف للفرجينى : « هل وصلت الساعة إلى البلدة ؟ » .

— « هنا منذ الظهر ، كنت أنتظر القطار » .

— « أمسافر الليلة ؟ » .

— « نيتى السفر غداً » .

— « إن جميع الأسرة قد شغلت ؛ » .

أظن أننى كنت المقصود بهذه العبارة ، فلم أتمالك نفسى من إبداء تذمرى .

فقال ستيف : « ومع ذلك أظن أن أحد هؤلاء التجار المتجولين سيسمح لك بأن تشاركه سريره » . ولست أشك فى أن ستيف كان مرتاحاً لهذه النكتة ، ويحق له أن يضحك لأنه كان يحمل سرجه وأغطيته ولا يهمه أن يجد سريراً يضطجع فيه .

فسأله الفرجينى : « أتقول إنهم تجار متجولون ؟ » .

ــ نعم ، اثنان من اليهود يبيعان السيجار ، وأمريكى يتّجر بأدوية لقتل السل ، وهولندى يبيع الحلى » .

فألقى الفرجينى حقيبتى من يده ، وبدت عليه مظاهر التفكير ، وقال بلطف : « لقد كنت أبغى سريراً هذا المساء » .

فقال له ستيف : « يبدو لى أن الأمريكى أكثرهم اغتسالاً ونظافة » .

فقال الجنوبى : « هذا أمر لا يهمنى » .

ــ بل يهمك كثيراً إذا رأيتهم .

ــ « إننى أرمى إلى غرض آخر ، أريد سريراً لى وحدى » .

ــ « إذن لا بد لك أن تصنعه بيديك » .

ــ « أراهنك على أنى سآخذ سرير الهولندى » .

ــ « عليك بالرجل الذى لا يهاب ، أراهنك الخمر على أنك لن تستطيع أخذ سرير الأمريكى » .

فقال الفرجينى : « قبلت الرهان ، سآخذ سريره من غير جلبة ، وعليك تقديم الشراب للجماهير .

فابتسم ستيف ابتسامة ملؤها الحب . وقال : « ما إخالك إلا منتصراً علىّ يا ابن الـ . . بة ؛ عند ما تريد إبرام أمر من الأمور . والآن إلى اللقاء ، فإنى لابد لى أن أثبت نعال فرسى » .

كنت أتوقع من الفرجينى أن يبطش بالرجل فوراً ، فقد وجه إليه إهانة من أفظع الإهانات . وأدهشنى أن سمعتها تصدر من شفتى ستيف الصديق المخلص ، على غير انتظار . ثم ازدادت دهشتى لأنى تبينت أنه لم يكن يقصد إهانة . وكان من الواضح أن الفرجينى لم يعتبرها إهانة . وأن استخدام الكلمة على هذه الصورة كان مجرد تحية ، لا شك أننى قد نزلت عالماً جديداً علىّ ، وأن مظاهره الجديدة الطريفة تتوالى بسرعة ، لا تكاد تدع للمرء مجالاً للتنفس بينها . أما مسألة المبيت

والمكان الذى أنام فيه ، فإن دهشتى قد أنستنى هذه المشكلة تماماً . والآن ما عسى الفرجينى أن يصنع ؟ لقد بدأت أدرك أن هدوء هذا الرجل كهدوء البراكين ثم سألنى : « هل تريد أن تغتسل أولا ؟ » .

كنا فى تلك اللحظة على باب المطعم ، وقد حمل حقيبتى إلى الداخل ، ونظراً لقلة تجربتى أخذت أبحث عن المغتسل فى داخل المنزل ، فقال لى بمظهر جدى : « إن الغسل هنا فى الخارج يا سيدى » . وكان يحدثنى بلهجة أهل الجنوب ، والظاهر أنه كلما أحس روح الفكاهة ، كان يستخدم لهجته الجنوبية بقوة ، بينما تراه فى أوقات أخرى يتحدث فى غير لهجة خاصة ، دون الخروج عن صيغ النحو .

كان إلى يمينى حوض زَلِقٌ بسبب الماء الممتزج بالصابون ، وكان إلى جانب الحوض خرقة معلقة على بكرة ذات منظر منفر ، فجذبها الفرجينى وقلبها ظهراً على عقب ، فلم يكن فيها جزء نظيف فى مساحة الإصبع . فرفع الفرجينى قبعته ونظر من الباب إلى الداخل ، وقال : « إن فوطتك يا سيدتى كان الإقبال عليها عظيما للغاية » .

فخرجت ربة الدار ، وهى على قسط وافر من الجمال ، واستقرت عيناها عليه لحظة ، ثم نظرت إلىّ نظرة لا تنم عن الرضا ، ثم عادت فنظرت إلى شعره الفاحم . وقالت فى هدوء : « إن المقرر هو فوطة واحدة فى اليوم ، ولكن إذا كان الناس شديدى الحرص . .

وأتمت جملتها بأن انتزعت الفوطة القديمة وأعطتنا أخرى نظيفة بدلاً منها .

فقال لها رفيقى : « شكراً يا سيدتى » .

فنظرت مرة أخرى إلى شعره الفاحم ، وعادت إلى ضيوفها فى وجبة العشاء ، دون أن تقول كلمة أخرى .

وكان فى الحوض دَلوٌ « جردل » ليس به من الماء إلا قليل ، فأخذه رفيقى وملأه من البئر وكان هنالك بعض الصابون ينزلق فى باطن الحوض ، ولكنى

استخدمت صابونى الخاص ، ثم تناولت وعاء من الصفيح . وجعلت أزيل ما استطعت إزالته من الأوساخ التى خلفها السفر الطويل ، وكانت هذه أول تجربة لى فى الاغتسال فى حوض من هذا الطراز ، ولم تسفر التجربة عن نجاح باهر ، ولم ألبث أن دخلت واتخذت لى مقعداً على مائدة العشاء .

وكان عبارة عن لحم البقر المحفوظ فى العلب ، وقد وصفه أحد رفقائى فى المائدة وصفاً صحيحاً حين قال : « عند ما جعلت هذا اللحم بين أضراسى خيل إلىّ أنى أمضغ حبالاً . » ثم شربنا قهوة غريبة باللبن المحفوظ ، ولم أر فى حياتى ذباباً بهذه الكثرة ، ولم أحاول أن أتحدث إلى أحد ؛ إذ ليس فى هذه البلاد أحد يأنس إلىّ ، ولعل شيئاً ما فى ثيابى ،أو قبعتى أو نطقى كان يجعل الناس يعرضون عنى لأول نظرة ، ومع ذلك فإنى كنت أحسن حالاً مما ظننت لأن صمتى وانصرافى إلى معالجة اللحم المحفوظ ، جعلنى فى عين رعاة البقر خيراً من التجار المتجولين الثرثارين .

وهدأت الأصوات قليلاً عند ما دخل الفرجينى . ومن المدهش أنه استخدم حوض الغسل بنجاح باهر ، ولا أدرى كيف استطاع أن ينظف ثيابه ، بحيث أصبح أكثرنا نظافة ، على الرغم من خشونة ملبسه ، وقد أحنى رأسه محيياً بعض رعاة البقر ، ثم جلس يتناول طعامه صامتاً .

غير أن الصمت لم يكن من خلائق التجار المتجولين . وتستطيع الأسماك أن تعيش خارج الماء مدة أطول مما يستطيع هؤلاء أن يعيشوا دون كلام ، ونظر أحدهم عبر المائدة إلى الفرجينى فى مظهره الجدى وقميصه الصوفى ، وبعد أن تأمله لحظة توهم خاطئاً أنه قد وقع على ضالته .

فقال له باهتمام : « عم مساء » .

فرد الفرجينى : « عم مساء » .

قال التاجر : « هل أقبلت الساعة إلى البلدة ؟ » .

فرد الفرجينى بهدوء : « نعم أقبلت الساعة إلى البلدة » .

فسأل التاجر : « سوق المواشى فى صعود مطرد » .

فقال الفرجينى : « وهو يهم بتناول مقدار آخر من اللحم المحفوظ : « لا بأس » .

قال التاجر : « إنها على كل حال مما يفتح الشهية . »

فتناول الفرجينى بعض القهوة ، وجاءت المرأة الحسناء فملأت فنجانه دون أن يسألها .

وعاد التاجر فقال : « يخيل إلىّ أنى رأيتك من قبل » .

فنظر إليه الفرجينى لحظة ، فمضى الآخر يقول : « ألم أقابلك من قبل ؟ ألم أرك فى مكان ما ؟ انظر إلىّ . . إنك بلا شك كنت فى تشيكاغو ، أليس كذلك ؟ انظر إلىّ جيداً ، أتذكر محل إيكى ؟ .

ـ لا أظن أنى أعرفه .

ـ انظر ، هأنذا عرفت أنك كنت فى تشيكاغو ، منذ نحو أربع أوخمس سنوات ، أو لعلها سنتين فقط ، إنّ مرّ الزمان لا يهمنى ، ولكنى لا أنسى الوجوه أبداً . أجل يا سيدى إنى التقيت وإياه فى محل إيكى من غير شك . وهذه النقطة الخطيرة ذكرها التاجر وهو يوجه الحديث إلينا جميعاً ، وكأنه يدعونا لأن نشهد كيف أثبت هذه المعرفة القديمة بصورة قاطعة ؛ ثم مضى يتحدث بارتياح ظاهر ، أليس العالم مكاناً صغيراً ؟ تقابل الرجل مرة ثم لا تلبث أن تلقاه مرة أخرى . هذا هو الحق ، وليس مجرد حديث حانات . وكانت عيناه فى أثناء ذلك تنظر إلينا جميعاً . وقد جعلت أتساءل عما إذا كان قد وصل إلى تلك المرتبة الرفيعة من الإتقان ، التى يستطيع المرء عندها أن يصدق الأكاذيب التى يبتكرها .

أما الفرجينى فلم يبد شيئاً من الاهتمام ، بل أخذ يتناول طعامه ، بينما ربة الدار تسعى بين المطبخ وحجرة الطعام ، والتاجر المتجول يتابع حديثه .

ـ « أجل يا سيدى إن محل إيكى بالقرب من أسواق الماشية ، يؤمه رجالها ذوو الخبرة والدراية ، وهناك التقينا ، ولعل هذا كان منذ ثلاث سنوات . إن

الوقت لم يكن بالشيء الذى يهمنى . أما الوجوه فلا تبرح خاطرى ، سواء أكانت وجوه الكبار أم الأطفال ، ذكوراً أم أناثاً فلا أراها مرة ، حتى تستقر فى ذاكرتى ولا أنساها ،ولو دفعت لى خمسة دولارات عن كل وجه،وأنا أعنى بالطبع وجوه البيض ، أما الزنوج والصينيون فلا شأن لى بهم . أما أنت فإنك أبيض من غير شك .

وهنا تحول التاجر فجأة نحو الفرجينى لكى يوجه إليه هذه التحية الرفيعة . وكان راعى البقر قد استخرج غليونه وأخذ يملؤه شيئاً فشيئاً ، والظاهر أن هذه المجاملة لم تلفت نظره ، واستمر التاجر يقول :

إننى أستطيع أن أستدل على الرجل أنه أبيض ، سواء أكان فى محل إيكى ، أم وسط الحشائش والمراعى . ثم تناول سيجاراً ودفعه نحو الفرجينى .

فسأله الفرجينى : « أتبيع السيجار . » ؟

إنها بضاعة عظيمة أيهاالصديق ، من نتاج هافانا ، وهى أعظم ما عرف فى عالم التدخين نظير خمسة سنتات ، خذها جربها ، أشعلها ، وانظر إليها كيف تحترق ، وإليك الثقاب . ورمى إليه بعلبة الثقاب .

فألقى إليه الفرجينى قطعة ذات خمسة سنتات ، فقال التاجر : « لا يا صديقى لن آخذ منك ثمنها ، بعد التقائنا معاً فى إيكى ، إنى لا أنساك ، ألا ترى أننى ذكرت وجهك من أول نظرة ؟ هذا حق ، لقد رأيتك من غير شك فى تشيكاغو.

قال الفرجينى : « من الجائز أن تكون رأيتنى ، لأن إهمالى يدفعنى أحياناً إلى النظر إلى أشياء ليست بذات شأن . »

هنالك صاح الهولندى فى مرح : « ويحى . . لقد كذب ظنى ، كنت أؤمل أن أبيعه بعض السلع . »

فقال التاجر الأمريكى : « أنا لم يكذب ظنى فيه ، فإن بنيته أقوى من أن يحتاج إلى أدويتى ، ولذلك يئست منه لأول نظرة . »

وهذا الأمريكى هو نفسه الشخص الذى كان الفرجينى يريد الاستيلاء على

سريره ، وكان رجلاً عاقلا ، وأقل ثرثرة من زملائه التجار ، ولم يكن لدىّ شك فيمن سينتهى به الأمر إلى الرقاد فى السرير ، ولكن كان يهمنى أكثر من أى وقت أن أعرف كيف يتم هذا الأمر .

ونظر الفرجينى إلى فريسته متودداً ، وقال عبارة أو عبارتين عن العقاقير والأدوية المسجلة وانها لا بد أن تدر أرباحاً طائلة ، إذا كان يدير أمرها رجل ذو حيوية ونشاط . ولا شك أن الأمريكى قد داخله بعض الغرور لهذا الكلام ، فلم يكن على المائدة كلها شخص لقى من الفرجينى مثل هذا الاهتمام ، ولذلك استجاب الأمريكى له وأخذا يتجاذبان أطراف الحديث . ولم أكن أقدر أن الفرجينى قد بدأ ذكاؤه يتحرك ، وأن ما حدث ما هو إلا جزء من خطته الشيطانية أما ستيف فإنه أدرك حقيقة الأمر — فقد عاد إلينا ولم يزل بعضنا يتناول عشاءه ، بعد أن أصلح حوافر جواده وأطل برأسه من باب حجرة الطعام وأدرك فى لحظة ما يفعله الفرجينى بمجاذبة فريسته أطراف الحديث وقال بصوت مرتفع : « إنى خسرت . » ثم أغلق الباب وعاد أدراجه .

فسأله الأمريكى : « ما الذى خسره ؟ » فقال الفرجينى بلهجته الجنوبية : « لا يهمك أمره فإنه واحد من أولئك المازحين ، ذوى العقول الفارغة ، وهو لا ينفك يطوف من مكان إلى مكان ، يفتح الأبواب ويغلقها ، ونحن نصفه بأنه شخص لا يؤذى ولا يضر ، والآن لا بد لى أن أخرج من هنا لأدخن ، فالتدخين ممنوع فى هذه الحجرة ». ووجه الكلام بعبارته هذه إلى ربة الدار فى شىء كثير من اللطف فهزت رأسها ، واتبعته بنظرها وهو يغادر الحجرة .

والآن وقد صرت وحدى أخذت أفكر فى أمر مبيتى تلك الليلة ، ثم أخذت أتمشى وألتمس السلوى بتدخين سيجار . لم تكن الدار التى تناولنا فيها عشاءنا فندقاً ولم يكن فى مدسن بو فندق فيما يبدو ، ولكن كان هنالك مكان ملحق بالمطعم ، وهو الذى يشتمل على الأسرة التى أفهمنا ستيف أنها حجزت جميعاً ، فقصدت إلى ذلك المكان لكى أتحقق الأمر بنفسى ، فتبينت صدق ما زعمه ستيف ؛

فالمكان عبارة عن حجرة واحدة تشتمل على أربعة أسرة أو خمسة ، وليس بها أى شيء آخر ، والآن وقد رأيت تلك الأسرة فإن أسفى لحرمانى الرقاد فيها أخذ يتلاشى فليس مما يغرى أن ينام المرء فى مثل هذا الفراش وحده ، أما العادة الكريمة السائدة فى هذه البلاد ، وهى المشاركة . . .

فى تلك اللحظة كان الفرجينى واقفاً بجانبى وقال : « لا شك أنهم سبقونا إلى احتلال المكان . » فوافقت على كلامه ، فقال : « وقد ترك كل منهم على سريره ما يثبت حقه . . »

وقد صدق الفرجينى ؛ فإنهم قد فعلوا فى حجرة النوم هذه ما يفعله الناس لكى يحجزوا أمكنة لهم فى قطار ، فيجعلون على كل سرير قطعة من الأمتعة أو الثياب . دليلاً على شغل المكان . ودخل التاجران اليهوديان أثناء وقوفنا ، وأخذا يفتحان ويرتبان حقيبتيهما ، ثم تناول كل منهما رداء السفر وجعل يطويه . ثم دخل الحجرة أحد موظفى السكة الحديدية وأخذ يعد العدة للرقاد فى تلك الساعة ، قبل أن يغشى المساء سواد الليل — وكان استعداده للنوم يشتمل على خلع حذائه الطويل ، ووضع المعطف والصديرى تحت الوسادة ، ولم يكن يلبس سترة ، وكان عليه أن يبدأ عمله فى الثالثة صباحاً . وكنا لا نزال نتحدث حين أخذ يغط فى نومه .

قال الفرجينى : « إن صاحب المتجر فى هذه البلدة من أصدقائى ، وستجد بعض الراحة فى النوم على منضدة متجره ، هل لديك أغطية ؟ فأجبت بأن ليس لدىّ أغطية .

فى تلك اللحظة وصل التاجر الأمريكى وقال : « هل تبحث عن فراش؟. »

فأجاب من خلفنا صوت ستيف : « نعم إنه يبحث عن فراش » .

فقال الفرجينى وهو يجيل الطرف من سرير إلى آخر : « من العبث البحث عن فراش . ولم أكن أحسب أنى سأقضى الليلة هنا ، ومع ذلك فقد سبق لى أن قضيت الليل ساهراً . »

فقال الأمريكى وهو يجلس على سريره : « هذا فراشى ، ونصفه يكفينى . »

فقال راعى البقر : « إنك بلا شك عظيم الكرم ، ولكنى لا أفكر فى مضايقتك . »

– ليس فى هذا مضايقة ، والنصف الآخر لك ، فارقد فيه الآن إذا شئت .

– لا ، لست أريد الرقاد الآن والأوفق أن تحتفظ بسريرك لنفسك .

فقال التاجر محرضاً : « أنصت إلىّ ، إنى إذا أخذتك ، أمنت على نفسى من أن أضطر إلى قبول شخص لا أرغب فى صحبته ، فإن النوم فى مثل هذا المكان ضربٌ من المقامرة . »

فقال الفرجينى متراجعاً وكان بديعاً فى تراجعه : « إذا كنت تنظر إلى الأمر من هذه الناحية . . »

– أجل إنى أنظر إليه من هذه الناحية ، فأنت شخص نظيف ، وقد حلقت منذ لحظة ، فتعال وارقد أىّ وقت تشاء ، أيها الصديق ، أما أنا فلم يحن وقت رقادى بعد .

ارتكب التاجر الأمريكى هفوة يسيرة فى عبارته الأخيرة ، فما كان ينبغى له أن يقول للفرجينى : « أيها الصديق » وقد كنت أحسبه قبل ذلك مجرد شخص ودود يسره أن يتلطف إلى الناس أما عبارة « أيها الصديق » فكانت غلطة ؛ لأنها تحمل لوناً كريهاً من ألوان حرفته وهى التعجل بمصادقة الناس ، وإظهار الود المزيف ، الذى يجوز عند تسعة أعشار الناس على أنه الجوهر الصريح . ولكنه لا يجوز عند أبناء المراعى ، الذين يعيشون فى ظل الطبيعة ولا يخفى عليهم الزيف .

وقد قبل الفرجينى عبارة « أيها الصديق » من فريسته ؛ لأن لديه خطة يريد تنفيذها . ولذلك قال له : « إنى أشكرك أصدق الشكر »، وبعد قليل سأنتفع بالعرض الكريم الذى قدمته إلىّ .

وقد اندهشت لهذا . لأن الاحتلال تسعة أعشار التملك فى نظر القانون . وكانت فرصة الفرجينى الذهبية أن يبادر باحتلال الفراش . غير أن الفرجينى قد

أعد حيلة لا تتطلب احتلالاً — وفوق ذلك فإن الرقاد قبل الساعة التاسعة عمل كريه لشخص يزور المدينة للمرة الأولى منذ أسابيع عدة ، وجميع مباهجها ومواردها فى متناول يديه . ولم نلبث أن انتقلنا جميعاً إلى المتجر ومعنا التاجر المتجول وهناك تمت بسرعة ترتيبات مبيتى ، وكان هذا المتجر أنظف وأحسن مكان فى مدسن بو ، ويعد متجراً حسناً فى أى مكان ، وكان يقدم للبيع بضائع كثيرة ؛ وصاحبه رجل جم الأدب . وقد بادر بملاطفتى وجعل تحت تصرفى كلتاالمنضدتين .

وقد لاحظت أن الجانب الذى فيه البقالة ، يشتمل على قطعة من الجبن ، وهى من الضخامة والرائحة بحيث لا يكون الرقاد بالقرب منها مريحاً ، لذلك اخترت الجانب المخصص للأدوات وغيرها من البضائع الجافة . وهنا فرشت لى الألحفة ليكون الفراش وثيراً ، ولم يفرض علىّ أى شرط سوى خلع حذائى ، لأن الألحفة جديدة نظيفة ومعدة للبيع . والآن وقد ضمنت مضجعى لم يبق ما يشغل تفكيرى ، ولذلك انصرفت به إلى الرجل الآخر ، وكيف يحال بينه وبين فراشه .

وأكبر ظنى أن ستيف كان أكثر اهتماماً بالأمر منى ، فالوقت يمضى ، ولا بد له أن يعرف وأن يعد الشراب اللازم . وقد وقف أمام منضدة البقالة يتأمل الصديق الفرجينى ، ولكنه وجه حديثه إلىّ . وقد أنصت الفرجينى إلى كل كلمة :

— « أهذه أول زيارة لك لهذه البلاد »؟ فأجبته بنعم قال : « هل تحبها ؟ » قلت : إنى أتوقع أنى سأحبها كثيراً .

— ما رأيك فى هوائها ؟ قلت : إن هواءها جميل ولكنه يبعث الظمأ .

والظاهر أن هذه الملاحظة هى التى كان ينتظرها الفرجينى ، ومع ذلك فإنه هو أيضاً أخذ يوجه الخطاب إلىّ وقال : « أجل إنها تبعث الظمأ لمن ألف النعومة ، وسوف تخشوشن . »

قال ستيف : « ستجد هذه البلاد مقفرة من الشراب أكثر مما كنت تظن . »

قال الفرجينى : « إذا كانت عادتك الإكثار منه . »

قال ستيف : « إن فى ولاية ويومنج جهات تقضى الساعات تلو الساعات دون أن تجد فيها قطرة ترطب بها اللهاة . »

قال الفرجينى : « وإذا أطلت التفكير فى هذا حسبت الساعات أياماً طوالاً ».

عند ذلك لم يجد ستيف بداً من التسليم وألقى يده على كتف صديقه ضاحكاً وصاح به متودداً : « ويحك يا بن الـ . . . به »

فقال الفرجينى : « الآن حان الشرب ، وعلىّ الدفع ياستيف . أما انتظارك فإنه لا بد أن يطول قليلاً . »

وهكذا أخذ الصديقان يتحادثان مباشرة ، بعد أن كانا يجعلان منى شبه تليفون .

وسأل الفرجينى : « هل هناك من يلعب الورق هذا المساء ؟ »

قال ستيف : « بعض الغرباء يلعبون البوكر ».

قال ابن الجنوب : « أظن أن لى رغبة فى اللعب بعض الوقت . أتقول إنهم غرباء ؟ »

وقبل أن يغادر المتجر ، اتخذ أهبته للعب البوكر ، وأعد لذلك عدة بسيطة ، بأن أخرج مسدسه من جرابه ، وتأمله لحظة ، ثم جعله فى خاصرته بين قميصه وردائه ، ثم أرخى عليه الصديرى . ولم يلفت عمله هذا أنظار أحد غيرى ، أكثر مما لو كان يمشط شعره . وانطلق الصديقان معاً . وجعلت أفكر مرة أخرى فى ذلك النعت الذى نعت به ستيف صديقه وهو يضرب على كتفه . لا شك أن هذه البلاد الوحشية تتكلم لغة غير لغتى ، وأن هذه الكلمة تعبر هنا عن المحبة والمودة . هذا هو الرأى الذى وصلت إليه .

وكان التجار المتجولون قد فرغوا من مداولاتهم مع صاحب المتجر ، وأخذوا يتحدثون معاً . لدى الباب عند ما مر بهم الفرجينى خارجاً .

فانبرى الأمريكى إلى شريكه فى الفراش وقال : « أراك بعد قليل ، أيها الصديق » .

فقال شريك الفراش وهو يسرع بالخروج : « نعم » .

فنظر الأمريكى إلى زملائه وبريق الانتصار يلمع فى عينيه ، وقال مشيراً بإبهامه إلى الفرجينى : « إنه لرجل طيب سهل المراس . وكل ما فى الأمر أنك يجب أن تعرفه لكى تنتفع به . »

فسأله التاجر الألمانى : « وما غرضك الذى ترمى إليه ؟ »

قال : « النقطة الهامة ، هى أنه لن يشترى منكم أو منى شيئاً . ولكنه سيذكر الدواء الشافى لكل مصاب بالسل يصادفه ، وأحسبنى لم أفرغ منه بعد . » ثم حول نظره إلى صاحب المتجر وقال : « أتعرف ما اسمها ؟ »

— اسم من ؟

— « المرأة التى تدير المطعم ؟ »

— « اسمها جلن ، السيدة جلن »

— « أليست حديثة عهد بالمكان ؟ »

— « استقر بها المقام منذ شهر ، وزوجها سائق قطار البضاعة »

— « خيل إلىّ أننى لم أرها من قبل ، إنها على جانب من الجمال »

— « أجل . وجمالها من النوع الذى أفضل أن أراه فى امرأة رجل آخر ، لا فى امرأتى » .

— « هذا هو كنه أمرها إذن ؟ » .

— « الظواهر خداعة : فقد جاءت تصحبها هذه الشائعات ، ولكنها خيبت ظنون الجميع » .

— « هل هنالك تقصير من خاطبى ودها ؟ »

— « تقصير ؟ هل لك بعض العلم برعاة البقر ؟ »

— « وقد أخلفت ظنهم جميعاً ؟ لعل السبب حبها لزوجها ؟ »

— « أنَّى لنا أن نعرف ما بنفسها مع حرصها على الصمت ؟ » .

قال التاجر : « وبمناسبة الكلام عن سائقى القطارات » . ثم أخذ يقص علينا

إحدى النوادر وتقبلها السامعون بقبول حسن . ولكنه لم يكد يشرع فى سرد نادرة أخرى حتى بادرت بالخروج . فلم يكن فى قصصه من الفكاهة ما يعوض ما بها من الفحش ، وقد أحسست بخجل عند ما رأيتنى أشاركه الضحك .

غادرت الجماعة ، وهم يتهامسون بقصصهم البذيئة ، وانطلقت نحو الحانة ، فألفيتها يغشاها السكون والنظام ، والزجاجة الكبيرة من الجعة ثمنها دولار ، وهو أعلا ثمن عرفته ، ولكنى لم أجد بها عيباً سوى ثمنها . ثم دخلت من باب يصل بين البار الحقيقى ، بزجاجاته وجدرانه المزينة برؤوس الوعول ، إلى بهو « صالة » اللعب بموائده المختلفة ، فرأيت على إحدى الموائد رجلاً يوزع الورق من صندوق صغير ، وأمامه من الناحية المقابلة رجل آخر يضع القداح . وبالقرب من هذه المائدة ، رأيت رجلاً آخر يوزع الورق من حزمة ، وقدامه شيخ ريفى عابس الوجه يجمع النقود ويضعها على الأوراق المكشوفة .

ولكن فى تلك اللحظة سمعت صوتاً لفت نظرى إلى الركن البعيد من الحجرة : يقول صاحبه : « ولماذا لم تمكث فى ولاية أريزونا ؟ »

وهى كلمات تبدو بريئة حين أكتبها ها هنا . ولكنها لم تكد يتفوه بها ، حتى رأيت عيون الجميع تتجه نحو ذلك الركن من الحجرة . ولم أسمع الكلمات التى قيلت رداً عليها . وكذلك لم أعرف من المتكلم . ثم صدرت عبارة أخرى :

« أريزونا ليس فيها مكان للهواة » .

عند ذلك رأيت الرجلين اللذين يوزعان الورق بالقرب منى ، يوجهان بعض اهتمامهما إلى الجماعة الجالسة فى الركن البعيد ، وأخذت أحس رغبة فى مغادرة الحجرة ، فإن الساعات التى قضيتها من قبل فى مدسن بو ، كانت تمر فى جو من المرح ، والفكاهة السهلة ، وإذا بهذا كله يختفى فجأة كما تتحول الريح إلى شمالية وسط يوم حار ، ومع ذلك مكثت ولم أبرح ، خجلاً من نفسى .

فى ذلك الركن البعيد كان خمسة أو ستة ، جلوساً حول مائدة مستديرة تراكمت عليها القداح ، وكانت عيونهم مثبتة فى ورقهم ، وكان أحدهم يعطى

ورقة لكل منهم ، يتخلل ذلك فترات سكون ومراهنة . وكان كل من الفرجينى وستيف بينهم ، أما الآخرون فلم أرهم من قبل .

أعاد المتكلم عبارته : « ليست مكاناً للهواة » فعرفت أن المتكلم هو موزع الورق . وكان يبدو فى وجهه من القبح مثل ما اشتملت عليه عبارته .

وسمعت أحداً بالقرب منى يسأل : «من المتكلم ؟ »

ــ « ترمپاس »

ــ « وما هو ؟ »

ــ « راعى بقر ، ومروّض خيل ، ومقامر ، وغير ذلك من الحرف »

ــ وإلى من كان يوجه كلامه ؟

ــ « أظنه كان يوجه كلامه إلى ذلك الفتى ذى الشعر الأسود » .

ــ « أليس المفروض أن هذا لا يخلو من الخطر ؟ »

ــ « أظن أن الأمر سينكشف بعد دقائق »

ــ « هل كانت بينهما خصومة ؟ »

ــ « لم يتقابلا من قبل ، وأبغض شىء إلى ترمپاس أن يخسر المال لرجل غريب »

ــ « هل هو من أريزونا حقاً ؟ »

ــ « كلا من فرجينيا ، ولكنه عاد مؤخراً بعد زيارة قصيرة لأريزونا ، وقد قضى هناك بضعة أسابيع على سبيل التغيير . وهو الآن يشتغل فى مزرعة سنك كريك ( الجدول الغائر ) . بعد ذلك خفض المتكلم صوته أكثر منذى قبل ، وأسرّ شيئاً فى أذن صاحبه ، ابتسم لسماعه . وبعد ذلك أخذا ينظران إلىّ .

كان الصمت سائداً فى ذلك الركن ، ولكن لم يلبث ترمباس أن يتكلم مرة أخرى : وصاح : «وعشرة» ودفع ببعض القداح أمامه . ومن العجيب أن يسمع المرء صوته ، فيدرك كيف استطاع أن يجعل من هذه الكلمة نوعاً من التحدى . أما الفرجينى فكان ينظر إلى ورقه كأنه أصم لا يسمع .

وصاح اللاعب الذى عليه الدور بسهولة : وعشرون . أما الذى يليه فألقى أوراقه بين يديه . وبذلك جاء الدور على الفرجينى لكى يعلن رهانه ، أو يكف عن اللعب هذه المرة ، غير أنه أبطأ فى الكلام . فصاح به ترمپاس : « قل رهانك يا ابن الـ . . . به »

عند ذلك أخرج الفرجينى مسدسه ، وأمسكه على المائدة دون أن يصوبه وتكلم بصوت رقيق كعادته ، كأنه يتحدث ملاطفاً ، ولكن بألفاظ بطيئة ، كأنه يجعل بين الكلمات فترات سكون ، وقال مصدراً أوامره إلى ترمپاس : « ابتسم حين تدعونى بهذا الاسم ! » وجعل يحدّق فى وجهه من جانب المائدة .

أجل لقد كان الصوت رقيقاً ، ولكن وقعه فى أذنى جعلنى أحس كأنى أسمع دقات ناقوس الموت . وساد الصمت فجأة جميع أطراف القاعة الكبيرة . فقد شعر جميع الحاضرين فجأة بهذه الأزمة كأن تياراً مغناطيسياً أشعرهم بها ، أما أنا فلجهلى من جهة ، ولجمود تفكيرى فجأة من جهة أخرى ، وقفت فى مكانى جامداً ، وبدا لى أن بعض الأشخاص أخذ يتوقف ، ويغير جلسته .

وسمعت موزع الورق القريب منى يصيح بزميله : « اسكت . ألا ترى أنه لا يريد أن يثير الشر ؟ واكتفى بأن خير ترمپاس بين التراجع ، أو الالتجاء إلى الفولاذ » .

ثم لم تمض لحظة حتى عادت القاعة فجأة سيرتها الأولى ، فتعالت الأصوات ووزعت الأوراق ، وتطاير الدخان ، وامتلأت الأقداح بالشراب — غير أن هذا الانبساط السهل بعد الانقباض الشديد ، لا يدل على ما انطوت عليه النفوس ، أكثر مما يدل سطح البحر على بعد القاع .

ذلك أن ترمپاس قد اختار ، ولم يكن اختياره « الالتجاء إلى الفولاذ » . فإذا كان غرضه أن يعرف شيئاً عن غريمه ، فلا شك أنه قد عرف . ولم نعد نسمع إشارات أخرى إلى كلمة « الهواة » التى حلا له ترديدها من قبل ، إن الرجل ذا الشعر الأسود الفاحم لا يمكن أن يوصف بأنه غمر قليل التجربة بفن

الدفاع عن النفس : فى أى مجتمع كان .

بقى بعض الشك فى خاطرى . أى طراز من الرجال هذا الفتى ترمپاس ؟ إن التراجع أمام الملأ على هذه الصورة أمر له ما بعده ، عند بعض الطبائع على الأقل ، ونظرت إلى وجهه فألفيته عابساً ، ولكن يغلب عليه المكر لا الشجاعة .

وأمر آخر تعلمته ، فقد أطلق مرة أخرى على الفرجينى ذلك النعت الذى ردده ستيف مراراً . وكانت العبارة هى بعينها حرفاً بحرف . ولكنها فى هذه المرة أخرجت المسدس من قرابه . « ابتسم حين تدعونى بهذا الاسم ! » وهكذا شهدت مثلاً آخر للحكمة القديمة ، وهى أن العبرة ليست بالألفاظ ، بل بالروح الكامنة وراءها .

* * *

# ٣

## ستيف يقدم الشراب

قضيت دقائق عديدة ، فيما يبدو ، وأنا واقف أستنبط هذه الحكم الصامتة . دون أن يلتفت أحد إلىّ . واستمر القوم يتابعون نشاطهم بسلام وأصوات هادئة فيقامرون ويرفعون أقداحهم بالشراب . ثم قطع علىّ تفكيرى موزع الورق الذى سبق له أن تحدث بعقل ، وقد جعل هو أيضاً يدلى فى كلامه بعبارات الحكمة ، فقال لزميله ، الذى ظل يوزع له الورق ، ويستولى على نقوده : « ألم أقل لك ؟ »

— « لم تقل لى ، ماذا ؟ »

قال موزع الورق بشىء كثير من الارتياح : « ألم أقل لك إنه لن يطلق الرصاص ؟ إنك أخذت تستعد للهرب ، مع أن الأمر لا يعنيك من قريب أو بعيد ، وليس هو بالرجل الذى يخشاه الإنسان » .

فنظر اللاعب إلى الفرجينى نظرة يساورها الشك وقال: « لا أدرى من الرجل الخطر فى نظركم ؟ » .

قال موزع الورق بشىء من الإعجاب : « ليس هو بالرجل الخطر ، إنه شجاع ، ولكن هذا شىء آخر » . ولم يبد على لاعب الورق أنه استطاع أن يفهم هذه الحجة أكثر منى . فقال موزع الورق: « إن الذين أخشاهم هم الجبناء » . ثم سكت قليلاً حتى ترسخ هذه الفكرة فى الأذهان ثم قال : « لقد جاء هنا شخص يوم الثلاثاء الماضى ، فلم يلبث أن أثار نوعاً من سوء التفاهم حول المشروبات . وقبل أن نتمكن من أن نكفّ شره ، كان قد ألحق الأذى باثنين من المتفرجين الأبرياء ، ولم يكن لهما دخل فى الموضوع أكثر مما لك أنت » .

وكانت عبارته الأخيرة موجهة إلىّ فسألته: « هل كانت إصابتهما خطرة ؟»

قال : « أحدهم أصيب إصابة بليغة، وتوفى بعد ذلك » . قلت : « وماذا حدث للرجل ؟ »

قال : « لقد كفينا الناس شره ، كما قلت لك ، وقضى نحبه فى تلك الليلة . ولم يكن هنالك أقل داع لحدوث شىء من هذا كله . ولذلك لا أحب أن يجمعنى بأحد أولئك الجبناء مكان واحد . فلا يدرى أحد ما عساه أن يحدث . لأنه يبادر دائماً بإطلاق النار من غير موجب ، وما من ضمان أين تقع طلقاته . أما هذا الفتى ذو الشعر الأسود ( مشيراً إلى الفرجينى ) فليس فى أمره ما يدعو إلى القلق . وهنالك سبب آخر لعدم القلق ، وهو أنه عديم الفائدة . »

وبهذه الكلمات ختم موزع الورق مواعظه الثمينة ، التى خصص لها شطراً من عقله ، والآن اتجه بعقله كله إلى توزيع الورق . وأخذت أتمشى فى جوانب المكان أراقب رعاة البقر فى لعبهم وقمارهم ، دون أن ألقى ترحيباً أو استنكاراً . وباستثناء ترمپاس كنت أجد فى وجوههم جميعاً شيئاً يبعث على المحبة . فقد ألفيتهم رجالاً من الفرسان الأقوياء ، لوحت الشمس وجوههم ، وأثرت فيها العواصف ، وقد أخذوا بأسباب اللهو والتسلية فترة من الوقت : شبابٌ على الفطرة جلس ليقضى ساعة فى كسل ، لكى ينفق بسهولة ما اكتسبه بجهد شاق ، وقد تخيلت أمامى حانات المدن الكبيرة ، فلم أتردد فى تفضيل هذا المكان الواقع وسط جبال روكى فعلى الرغم من أنه بلا شك يشهد الموت أكثر ، فإن الرذيلة فيه أقل ، مما فى نظائره فى نيويورك . والموت شىء أطهر وأصفى من الرذيلة . وفوق ذلك فإن الرذيلة لم تكن مكتوبة على تلك الوجوه الوحشية ، التى ترتسم فيها الرجولة ، ولقد تلمح شيئاً من الضعة أحياناً ، ولكنها كانت شيئاً نادراً . بل المرتسم على تلك الوجوه هو الجرأة والضحك والجلد . كان هذا اليوم الذى بدأت فيه معرفتى بهم بمثابة بدء تاريخ جديد بالنسبة إلىّ . كان فى شخصهم وفى كيانهم شىء أثر فى قلبى — كرجل أمريكى — أثراً بليغاً ، لم أنسه ، ولن أنساه ما حييت. ففى أجسامهم كانت

تضطرب عواطفنا الوطنية اضطراباً صاخباً ، ولكن أرواحهم كثيراً ما كمن فيها النبل الصريح ، وكثيراً ما اتخذت أشخاصهم سمة البطولة النادرة .

إن موزع الورق وصف الفرجينى بأنه « فتى أسود الشعر » ولا شك أن هذا التعبير كاف لرسم صورة سطحية له . فإن هذا الفتى الذى يثق به القاضى هنرى كل الثقة ، والذى كتب لى أن أصحبه مسافة مائتين وثلاثة وستين ميلاً ، كان بلا شك ذا شعر حالك السواد . وكان هذا الأمر أول شىء يراه الإنسان حين يلقى نظرة على المائدة ، التى جلس يلعب الورق عندها . ولكن العين لا بد أن ترتد إليه ، يجذبها ذلك الشىء المبهم . الذى دفع موزع الورق لأن يتحدث عنه ذلك الحديث الطويل .

ومع ذلك فإن وصفه بأنه « الفتى الأسود الشعر » ينطبق عليه تماماً ، كما ينطبق على العمل الذى يوشك أن يقوم به ، وقد رسم له خطة كأنه شيطان موفق ملهم . وقد آن لبلدة مدسن بو التى تحسن تقدير أعمال البطولة ، أن تشهد مظهراً من مظاهر العبقرية .

لقد كان جالساً يلعب البوكر . وقد مضى وقت طويل بين الكسب والخسارة بحيث أتاح لترمپاس كل فرصة لكى يتبدل جده ، ويعود إليه حظه . ثم نظر إلى ستيف وقال : « ما قولك فى الرقاد الآن ؟ »

كنت واقفاً بالقرب من مائدتهم ، وقد تعلمت بالتدريج أن لعبة « البوكر » فى هذا الإقليم تشتمل على مقدار مما أسميه « الفلفل الأحمر » أكثر من نظيرتها فى الولايات الشرقية .

وقد تولى الفرجينى الرد على سؤاله فقال : « أرى أن وقت الرقاد قد حل » .

فتظاهر ستيف بعدم الاكتراث . ولا شك أنه كان منهمكاً فى التفكير فى رهانه وفى التاجر الأمريكى ، أكثر من اهتمامه باللعب . ومع ذلك فإنه رأى من المناسب أن يخرج من جيبه ساعة ذهبية ضخمة ، وأن ينظر إليها بإنعام ، ثم قال : « الساعة لم تتجاوز الحادية عشرة » .

فقال رفيقه ذو الشعر الفاحم : « أنسيت أنى من أهل الريف ، وقد مضى وقت طويل منذ رقد الدجاج فى عشه » .

وهكذا كان يتحدث بلهجته الجنوبية المشرقة، التى كانت مفقودة تماماً فى حديثه القصير مع ترمپاس . ولكل حالة نفسية نطقها الخاص بها عند الرجال الذين رزقوا هذه الموهبة . بعد ذلك قبض الفرجينى أرباحه . فقال له ستيف : « إنك منذ لحظة كسبت ما يعادل مرتب ثلاثة أشهر ». فقال الفرجينى : « لا زلت رابحاً عشرين دولاراً . والاعتدال أفضل من الإفراط . »

فى هذه اللحظة كان معظم الناس فى هذه القاعة قد أحسوا فى هدوء وغموض بأن شيئاً ما وشيك الوقوع .ولذلك انصرف كثير منهم عن اللعب وذهبوا نحو البار .

قال الفرجينى وهو يفكر : « أتـُراه قد ذهب إلى فراشه؟ »

فقلت « سأتبين جلية الأمر » . وانطلقت الى حجرة النوم المظلمة وأنا سعيد بأن يكون لى يد فى هذا الأمر . فرأيتهم جميعاً فى فراشهم ، وبعض الأسرة يرقد عليها اثنان ، ودهشت كيف استطاعا ذلك . ولكن لا شك أننى فى ذلك الوقت كنت كثير التدقيق والتأفف . وكان الأمريكى قد وصل متأخراً ، ولم يزل مستيقظاً

فقال لى : « حسبت أنك ستنام فى المتجر ؟ » فلم يسعنى إلا أن اخترعت كذبة صغيرة ، وقلت له : إنى جئت باحثاً عن الفرجينى . فقال : « أولى بك أن تبحث عنه فى مخابئ المدينة . . إن هؤلاء الشباب من رعاة البقر . لا يزورون المدن كثيراً . »

عند ذلك عثرت رجلى بشىء ، فقال التاجر : « هذا صندوق دواء قاتل للسل ، وأملى أن يبقى ذلك الرجل بعيداً طول الليل . »

فسألته : « هل السرير ضيق ؟ »

فأجاب : « إنه يضيق باثنين ، والوسادتان ضئيلتان جداً ، بحيث يجب أن تضع الواحدة فوق الأخرى ، قبل أن تحس شيئاً تحت رأسك » .

ثم أخذ يتثاءب ، فتمنيت له أحلاماً سعيدة .

لم يكد الفرجيني يسمع ما حملته من نبأ حتى ترك البار فوراً ، وانطلق إلى حجرة النوم . فتبعناه أنا وستيف ، ووراءنا آخرون يمشون فى صف يحدوهم حب الاستطلاع ، وهم يتساءلون : « ما الذي سيحدث ؟ » فلما تبينوا جلية الأمر وطرافته تجمعوا فى صمت تام خارج الباب الذى دخل منه الفرجيني .

ولم نلبث أن سمعنا صوت التاجر يحذر شريكه فى الفراش ويقول : « احذر أن تعثر قدمك فى صندوق قاتل السل ، إن أمير بلاد الغال قد أصيبت رجله منذ لحظة » . والظاهر أن ثيابى الإنجليزية هى التى أكسبتنى هذا اللقب .

وبعد ذلك سمعنا صوت حذاء الفرجيني وهو يخلعه . فهمس ستيف : « هل تستطيع أن تتبين ماذا يفعل الآن » ومن البديهى أنه كان يخلع ثيابه ؛ فقد سمعنا صوت الأزرار تفك بسرعة ، دلالة على أن صاحبنا الأسود الشعر يخلع معطفه .

ثم سمعناه يجيب على سؤال للتاجر : « كلا ، وشكراً لك ، سواء علىّ أرقد فى الداخل أم فى الخارج » .

« إذا كنت توافق على الرقاد إلى جانب الجدار » .

« بكل تأكيد » ، ثم سمعنا صوت تحريك الأغطية ، وصرير السرير . ثم قال الفرجيني : « إن هذه الوسادة فى حاجة إلى هواء الجنوب » .

فى تلك اللحظة كان عدد كبير من المستمعين قد تجمع لدى الباب . بينهم موزع الورق وزميله الذى كان يلاعبه ، كذلك أبصرت فى المحتشدين صاحب المتجر . ووكيل شركة السكة الحديدية . وقد صرنا جماعة كبيرة العدد . وأحسست بأننا يسودنا شعور الاهتمام ، الذى تحسه جماعة من الناس أمام عدسة المصور .

ثم سمعنا صوت التاجر يقول : « أظن أنك تحس بالسكين والمسدس تحت تلك الوسادة الرقيقة » فقال الفرجيني : « أجل أحسهما . »

— « أظن الأوفق أن تضعهما على الكرسى فتحس بالراحة » .

— « بل هذا يفقدنى الراحة » .

— « أظن أنك تعودت أن تلمسهما تحت رأسك » .

— « هذا صحيح ، تعودت أن ألمسهما ، وإلا افتقدتهما . فأصابنى الأرق من جراء ذلك » .

— « إذن ، طاب نومك » .

— « طاب نومك ، إذا أخذت أتكلم أو أتحرك فى نومى ، أو آتى أى عمل آخر ، فإنى أرجو أن تفهم بأنك . . . » .

— « يجب أن أوقظك » .

— أستحلفك بالله ألا تفعل ذلك » .

— « لا أفعل ذلك ؟ »

— « لا تلمسنى » .

— « إذن ماذا أفعل ؟ » .

— « ابتعد بسرعة إلى الجانب الآخر من السرير ، وهذه الحال لا تدوم أكثر من دقيقة» . بعد ذلك ساد الصمت لحظة ، ثم سمعت التاجر يتنحنح مرة أو مرتين ثم قال : « أظن أن الأمر لا يعدو أن يكون كابوساً ؟» .

— « بالطبع ، إنه مجرد كابوس ، ولا يحدث أكثر من مرة أو مرتين فى العام هل حسبت أنها نوبات تأتينى كثيراً ؟ » .

— « كلا ، وإنما أردت أن أعرف الحقيقة . فقد سمعت من قبل أنه ليس مما ، تؤمن مغبته أن توقظ شخصاً وهو فى كابوس » .

— « نعم ، وأنا قد سمعت هذا أيضاً ، غير أن هذا لا يؤذينى ، بل كل ما أردته ألا تتعرض أنت لأى خطر » .

— « أنا ؟ » .

— فرد الفرجينى مطمئناً رفيقه : « لن يكون هنالك بأس ما دمت قد عرفت جلية الأمر » .

— « اشرح لى حقيقة الأمر مرة أخرى ؛ »

فأجاب الفرجينى بصوت غلب عليه النعاس : « كل ما هنالك أنك لا تدع

يدك أو رجلك تلمسنى إذا أخذت أنتفض . لأنى عند ذلك أحلم بالهنود ، فإذا لمسنى شىء فى تلك اللحظة فإن من الجائز أن أطعنه بالسكين وأنا فى نومى . »

فقال التاجر وهو يتنحنح : « نعم . نعم . فهمت . »

كان ستيف يهمس مبتهجاً ، ودفعه السرور إلى أن يصف صديقه الفرجينى بعبارات ونعوت لا يمكن ذكرها هنا .

ثم أخذنا نصغى ، فلم نسمع أصواتاً أخرى . وأرهفت أذنى ، فأمكننى أن أتبين صوت تنفس عميق ، وحركة خفيفة فى السرير . وكانت صادرة من التاجر وأظنه كان ينتظر ، ولكنه لم ينتظر طويلاً . فلم نلبث أن سمعنا صريراً خفيفاً وخطوته الخفيفة بعد ذلك ، ولم يكن يريد أن ينتظر حتى يلبس حذاءه إلى جوار ذلك الحالم الخطر . وخطر لأهل مدسن بو خاطر بديع فانتظموا فى صفين ، بينهما طريق ممتد من الباب . ثم خرج التاجر ، وبسبب العجلة نسى صندوق « قاتل السل » فسقط عليه وهو فى طريقه إلى الباب ، وبعد ذلك سمعنا الفرجينى يرسل من فراشه صيحة مزعجة .

بعد ذلك أخذ كل شىء يحدث مرة واحدة ، فكيف تستطيع الألفاظ أن تسرده ؟ انفتح الباب مرة واحدة ، واندفع منه التاجر المتجول ، وليس فى رجله سوى جوربه ، يحمل فى إحدى يديه سترته وبنطلونه تتدلى منه الحمالة ، ويقبض بالأخرى على حذائه . فلم يكد يرانا حتى توقف فجأة فى هربه ، ونظر إلينا فسقط حذاؤه من يده ، وأخذ يصيح ويسب فجاوبه الجمع المحتشد من أهل مدسن بو بصيحات وضوضاء وضجة مزعجة ، ثم أخذوا يرقصون به رقصة فرجينيا . ونهض الراقدون فى الأسرة الأخرى ، ووثبوا منها ، وأكثر ما يلبسون من الثياب مسدساتهم كأنهم يستعدون للحرب :

وصاحوا : « ما هذا ؟ ما هذا ؟ »

فأجاب الفرجينى من سريره : « هذا ستيف ، يهدى الشراب للجميع » ثم ابتسم ابتسامة عريضة ، كانت الأولى التى رأيتها منه .

فصاح ستيف — وحلقة الرقص مستمرة : « سأقدم الشراب الليل كله » . وكان التاجر يصيح عبثاً أن يسمحوا له أن يلبس حذاءه على الأقل ، فلم يكترث لندائه أحد ، بل أخذوا يدفعونه من يد إلى يد فى حلقة الرقص .

واندفع قادة الرقص إلى حجرة النوم : وصاحوا : « غذوا حلقة الرقص ، غذوها ». ثم أمسكوا بالتاجر الألمانى الذى يبيع الحلى ، ودفعوا به وسط الحلقة ، وقد رأيته يطير كأنه كوز الذرة ، ولم يلبث أن غاص وسط حلقة الرقص ، ثم رأيت أحد اليهوديين يلقى به وراءه ، ثم قذفوا بموظف السكة الحديدية ، ثم باليهودى الآخر . وبينما أنا واقف كالمسحور ، إذا بقدمىّ تغادران الأرض . ويطاح بى من الحجرة فأندفع كأنى فِدامٌ « سدادة » من الفلين ، لكى أنضم إلى حلبة السباق ، متدحرجاً خلف الآخرين . وسط صيحات تنادى « هاكم أمير بلاد الغال ! » وسرعان ما بت وليس علىّ من ثيابى الانجليزية شىء كثير .

ثم أخذوا يصيحون فى طلب الموسيقى . فاندفعت جموعهم كأنها سحابة من التراب إلى حانة جلس فيها أحد لاعبى الكمان يعزف : وبعد أن التقطوا اللاعب والراقصات انطلقوا فى جموعهم المتزايدة التى لا تزال تتزايد وتتكاثر . وصاح ستيف فينا أن نكون أحراراً وأن كل شىء تحت تصرفنا ، واستحلفنا بأن نطلب ما نشاء وبأى قدر نشاء . وأصدر أمره بتفتيش البلدة واستحضار عدد أكبر من الأهالى لكى يساعدوه على الوفاء برهانه على الوجه الأكمل . ولكنه غير رأيه وأمر بأن تحمل البراميل والزجاجات فى الموكب أينما ذهب . وقد أصبح لدينا ثلاثة من لاعبى الكمان ، وقد أخذوا يعزفون لنا بهمة ونشاط . وأخذنا نتجول ونطرق كل كوخ أو منزل ، يظن أن به أشخاصاً لا يزالون — بأعجوبة — نائمين وسط كل هذه الجلبة . وأول رجل تعرضوا له أطل عليهم من النافذة معتذراً . ولكن مثل هذا الأمر كان متوقعاً ، وأعد له صاحب المتجر العدة اللازمة ، فإن هذا الرجل الذى يبدو عليه الاحتشام ، لم يلبث أن تقدم وهو يجر جهازاً استحضره من متجره ، يساعده الفرجينى . فلم يكد رعاة البقر يرونه حتى صاحوا هاتفين : لأنهم

عرفوه ، وعرفه كذلك الرجل المطل من النافذة ، فصاح متأوهاً ، وخرج من داره فوراً وانضم إلينا . ولم ألبث أنا أيضاً أن عرفت كنه تلك الآلة بعد بضع دقائق ، فقد مررنا بمنزل لم يعبأ أصحابه لا بأصوات الكمان ، ولا بطرق بابهم . فلم تمض لحظة حتى أديرت تلك الآلة الجهنمية . ولم تكن أجزاؤها التي تتألف منها — فيما يبدو — سوى برميل ضخم ولوح من الخشب . وقال لى أحد الأهالى إننى لن ألبث حتى تكون لدىّ فكرة جديدة عن معنى الضوضاء ، ولذلك أرهفت أعصابى لاستماع شىء عنيف من طراز المفرقعات . وجلس الفرجينى وصاحب المتجر على الأرض . وأمسكا بالبرميل . وجاء اثنان آخران فوضعا لوح الخشب فوقه كأنهما يريدان أن يتأرجحا عليه . ولكن البرميل واللوح قد دهنا من قبل بالشمع وأخذ الرجلان يجران ويدفعان اللوح فوق البرميل . فهل تعرف الصوت الذى تحدثه عربة نقل محملة بقضبان من الحديد فى حارة ضيقة ؟ إن هذا الصوت يعد أنشودة من أناشيد المهد ، إذا قورن إلى الضجيج المزعج العنيف ، الذى يخرج من ذلك البرميل . ولو أنك حاولت مثل هذا الأمر فى بلدتك ، فلن يكتفى بالقبض عليك ، بل تشنق بلا رحمة ، وسيغتبط الجميع لذلك ، ولن يقبل القسيس أن يقيم لك مراسم الدفن . وقد جعل هذا الضجيج العنيف رأسى يدور ، وأسنانى تصطك ، وعظامى تضطرب . ولم يلبث أن خرج من المنزل رجل وزوجته كما تخرج قطرات العصير من الليمونة . ولم يمهلهما الجمهور بل دُفعا دفعاً فى الجمع المحتشد ، والآن وقد أرغما على ترك فراشهما عنوة ، فإنهما انطلقا فى عنف وحماسة يهجمان على سائر المنازل فى مدسن بو . حتى لا يبقى أحد فى داره . وأخذ عدد كبير من الأهالى يركبون خيلهم بأقصى سرعة إلى الفلاة ذهاباً وإياباً ، واستمر الموكب ببرميله ولوحه ، وعازفى الكمان ، لا يهدأ له صوت ، ولا تسكن له ضوضاء .

ثم ساد السكون فجأة . ولست أدرى من الذى حمل النبأ لأول مرة ، ولكن لم يلبث أن تداول الناس خبراً فحواه أن هناك امرأة — وهى زوجة المهندس المقيم

بالقرب من مستودع الماء — وقد اشتد بها المرض ، وعادها الطبيب من بلدة لارامى وكان المهندس محبوباً من الجميع . فلم يعد يسمع للبرميل واللوح صوت . وكفكف الفرسان من غلوائهم . ولم تلبث مدسن بو أن آوت إلى بيوتها بالتدريج . فأخذت الأبواب تغلق ، والمصابيح تطفأ . ورأيت قليلاً من المولعين بالسهر يعودون إلى موائدالقمار . والتجار المتجولين يجتمعون للتأهب للنوم . وصاحب المتجر — الذى لن ترى من يفوقه فى مظاهر الحشمة والوقار — تمنى لى أن أقضى ليلتى مستريحاً على الأحفة . ثم سمعت ستيف يلح على الفرجينى أن يشرب معه كأساً أخرى وقال له : « لقد مضى زمن طويل على اجتماعنا الأخير » .

غير أن الفرجينى ، ذلك الرجل الفاحم الشعر الذى أقام البلدة وأقعدها ، رفض ما طلبه صديقه ، وقال معتذراً : « إن واجبى أن أظل محتفظاً بكل إحساس بالتبعة » . وعند ذلك التفت صديقه نحوى ، فخيل إلىّ أن هذا الرجل الذى ائتمنه القاضى علىّ ، يجدنى عقبة تحول دون تمتعه بهذه الإجازة ، ولكن إذا كان هذا رأيه ، فإنه لم يظهره لى فى أى وقت ، فقد أرسل لكى يقابل رجلاً غريباً ويأتى به إلى سنك كريك سالماً . ولن يسمح لأى إغراء أن يحول دون أداء هذا الواجب . ثم حيانى متمنياً لى ليلة سعيدة : وقال : « إذا كان هنالك شيء أستطيع عمله من أجلك فأخبرنى » . فشكرته : وقلت له : « ما أبدع ما شهدته الليلة ؛ » فقال : « يسرنى أنك وجدته كذلك » .

وهكذا كان أسلوبه مرة أخرى حائلاً دون الإفاضة فى الحديث . فعلى الرغم من أنى رأيته هذا المساء يلهو ويمرح ، فإن هذه أشياء لم يكن يريد التحدث فيها معى .

وخيم الهدوء على بلدة مدسن بو ، وأنا ماض فى طريقى إلى فراشى . وقد بلغ الهدوء حداً كنت أسمع صفير قطارات البضاعة من وراء الأفق ، على بعد أميال عديدة . ومررت فى طريقى بعدد من رعاة البقر الذين رأيتهم منذ ساعة يزأرون ويرقصون ، وقد التفوا بأغطيتهم ورقدوا تحت سماء الليل اللامعة .

فأخذت أسأل نفسى بصوت مسموع : « أى عالم هذا الذى أنا فيه ، أمن الممكن أن يكون فى هذا الكوكب نفسه مكان مثل شارع ففث أفنيو ؟ » [1] .

واستغرقت فى النوم ، وأنا أفكر فى أمر بلدى ووطنى .

* * *

(١) من أشهر شوارع نيويورك يمتاز بمتاجره ودكاكينه الفخمة .

# ٤

# التوغل فى بلاد الماشية

بدأ نشاط الصباح فى مدسن بو قبل أن أغادر ألحفتى بفترة من الوقت ؛ فقد بدأت حركة اليوم الجديد فى المتجر من حولى ، وكان معظم البيع والشراء فى الجانب المخصص للبقالة ، ولم يكن هنالك طلب كثير للبضائع الجافة . وقد نهض رعاة البقر مبكرين وانطلقوا إلى أعمالهم . والذين تبقى لديهم دولارات بعد قصفهم ولهوهم فى الليلة السابقة ، أخذوا ينفقونها فى شراء التبغ ورصاص البنادق والأغذية المحفوظة فى العلب مؤونة لهم فى سفرهم إلى مخيماتهم النائية . وكان الإقبال كبيراً على شراء السردين ، ولحم الدجاج ، ولحم الخنزير المحفوظ ،وأصناف تبدو لأول وهلة كأنها من غذاء المترفين ، يبتاعها أبناء الأحراج والأدغال . ولكن الضرورة تقضى بأن يكون للأغذية المطبوخة السهلة الحمل دور هام فى فتح هذه الجهات الجديدة ، فكانت هذه الصفائح والعلب أول ما أرسلته الحضارة من إنتاجها إلى تربة ويومنج البكر. وقد انتقل راعى البقر إلى عالم آخر خفى عن العيون ، وأطارت الرياح الرماد الأبيض المتخلف عن نيران مخيماته . ولكن صفائح السردين الفارغة لا تزال ملقاة صدئة على وجه الثرى فى الولايات الغربية .

هكذا أخذت أرقب بعين نصف مغمضة بيع هذه العلب ، وألفت منظر العلامة التجارية للحم الخنزير المحفوظ وهى علامة الشيطان بقرنيه وحوافره وذنبه مرسومة بكل وضوح بلون أحمر قانٍ . ولا يكاد الفارس من الرعاة يتم شراء حاجاته ، حتى يعود يجرر مهمازه على بلاط المتجر ، وبعد لحظة أسمع وقع حوافر جواده ،وهذا آخر عهدى به . وكنت ، وأنا بين الرقاد واليقظة ، أستمع إلى نتف من الحديث فى طيها بعض المعلومات النافعة ، فمثال ذلك أنى عرفت الفائدة

الحقيقية للطماطم فى هذه الأقطار . وكان أحد الأشخاص يبتاع علبتين منه . فسأله صاحب المتجر : « هل جفت مياه جدول مدو ؟ » .

فأجابه الراعى الشاب : « جفت منذ عشرة أيام » واتضح من كلامه أنه لن يصادف ماء فى طريقه قبل غروب الشمس ، لأن الماء فى جدول مدُو لم يعد يجرى ، فكان الطماطم شرابه الوحيد . وأنا كذلك قد اتخذت منه شراباً منذ ذلك الوقت .

وسأله صاحب المتجر : « أتريد جعةً ؟ » .

فنظر إليه الفتى بوجه مرتعش وقال : « لا تذكر لى اسمها ، فإنى لم أستطع الاحتفاظ بطعام الإفطار بعد الذى شربته أمس ، ثم وضع نقوده الفضية على المنضدة ، وقال : « لقد أقسمت أن أتجنب الشراب ثلاثة أشهر . وسأظل طاهراً نقياً كالثلج . » ثم انطلق من الباب يصلصل . لكى يركب خمسة وسبعين ميلاً إلى حيث يقضى ثلاثة أشهر فى عمل شاق فى العراء ، ثم يركب إلى البلدة بعد ذلك ، استجابة لدواعى شبابه الثائر .

ثم سمعت صوتاً جديداً يوقظنى من نعاس قصير وهو يقول : « لقد خفت وطأة المرض عنها هذا الصباح بفضل الدواء . » كان هذا صوت المهندس ، الذى كان مرض زوجته سبباً فى إسكات ضوضاء مدسن بو وأضاف قائلاً : « وسأعطيها تلك الأزهار بمجرد إفاقتها من رقادها . »

فسأله التاجر : « الأزهار ؟ »

— « ألم تترك تلك الباقة من الزهر على باب دارنا ؟ »

— « ليتنى فكرت فى ذلك ؟ »

— فقال المهندس : « إنها تحب منظر الأزهار» ثم خرج يمشى متمهلاً ، دون أن يقدم واجب الشكر لمستحقه . ثم عاد بعد قليل ومعه الفرجينى ،وفى رباط قبعة الفرجينى بعض الأزهار .

وقال الفرجينى وهو فى حالة ارتباك بسبب شكر المهندس له : « إن الأمر

لا يستحق الذكر ولو كنا نعلم البارحة . . . »

فقاطعه المهندس : « إنك لم تسبب لها أي إزعاج ، وهي اليوم أحسن حالاً وسأخبرها بتلك الأزهار . »

فقال الفرجيني بلهجة احتجاج مشرفاً على الغضب : « إنها لا تستحق الذكر فقد رأيت تلك الأزهار وهي تبدو يانعة فاقتطفتها . »

ووقعت عيناه عليّ حيث كنت راقداً على المنضدة فقال : « أظن أن قد حان وقت الفطور » .

فلم ألبث أن ذهبت إلى حوض الغسيل . ومع أن الساعة لم تتجاوز النصف بعد السادسة . فإن كثيرين قد سبقوني. ونظرة واحدة إلى الفوطة كافية للدلالة على ذلك . وخشيت أن أطلب من ربة الدار فوطة نظيفة ، فالتمست منديلاً جديداً وقمت بما تفرضه الضرورة من الاغتسال اليسير . وفي أثناء ذلك حضر التجار المتجولون واحداً بعد الآخر إلى الحوض . ولم يترددوا في استخدام الفوطة الملوثة . ولا شك أن حالهم أفضل من حالي من بعض الوجوه ، لأن القذارة ليست شيئاً خطراً في نظرهم.

وكنا آخر المستيقظين في ملسن بو ، فجلسنا معا لنتنارل الفطور ، وأخذ التجار يحاولون بعض العبث مع ربة الدار . فباءت محاولاتهم بالفشل ، فلم تكن عينها تراهم ولا أذنها تسمعهم ، وكانت تحضر لنا القهوة وشرائح لحم الخنزير بوقار ، لا تكاد الحشمة نفسها أن تضاهيه ، ومع ذلك فقد كان يبدو عليها في غير ضوضاء أنها بعيدة عن الحشمة ولن تستطيع بسهولة أن تفسر هذه الحقيقة لأنها كانت مختلطة بكيانها كله . وكان الصمت عادتها البارزة ، ولكنه كان أيضاً سلاحها . غير أن التاجر الأمريكي قد ألفاها قادرة على الإدلاء بالقول الفصل، حينما تدعو الحاجة إلى ذلك . ففي أثناء الطعام كان يمدح شعرها الذهبي ، ولا شك أن شعرها الذهبي يستحق المدح والإطراء ، غير أنها كانت تنفر من أمثاله . ومع ذلك فقد تركت الكلمة تمر ولم تزد على أن نظرت إليه ببرود . ولكنه عند ما هم بالانصراف وتقدم ليدفع ثمن الوجبة ، ازداد جرأة وتطفلاً فقال

لها : « يؤسفنى أن يكون هذا آخر العهد بيننا » فلما لم ترد عليه قال : « هل لك فى السياحة أحياناً ؟ إن لدىّ دائماً حيثما ذهبت مكاناً لاثنين . »

فردت عليه بهدوء : « إذن التمس لك حماراً آخر » .

فحمدت الله على أننى لم أطلب فوطة نظيفة .

ولم ألبث أن فارقت التجار المتجولين ، وأخذت أتجول وحدى بلا قصد ولا مأرب . وكانت الساعة قد بلغت السابعة . وبدت ملسن بو ساكنة خالية من الناس ، وقد هجرها رعاة البقر واعتصم السكان بديارهم يمارسون أعمالهم ، أو يخلدون إلى الكسل ضحى يومهم ، فلم يكن هنالك حركة فى أى مكان . والحمار الملقى على الرمال لم يكن أبعد عن مظاهر الحياة من ملسن بو فى تلك الساعة . ونظرت إلى المتجر فرأيت صاحبه جالساً ، وقد خمدت النار فى غليونه ، ونظرت إلى الحانة فرأيت موزع الورق يوزع الورق صامتاً لنفسه . ولم يكن فى السماء سحاب أو طير ، والورقة الجافة الملقاة على أديم الثرى ساكنة لا تتحرك . ورأيت الفرجينى مرة واقفاً لدى باب مفتوح ، حيث وقفت ربة الدار ذات الشعر الذهبى تحادثه . وكنت تارة أتمشى فى البلدة ، وتارة أضطجع خارجها فى السهول ، أتأمل حالماً أرض الحشائش ، حيث كنت أرى على بعد قطيعاً من الوعل الأبيض ، وعلى مقربة منى كلاب الفلاة جالسة تنعم النظر إلىّ ، والخواطر تمر بفكرى مختلطة فى ارتياح وقلة اكتراث ، سواء أكانت عن ستيف أو ترمباس أو حقيبتى المفقودة ، أو العم هيوى وزيجاته القصيرة الأجل ، فكنت أحس كأنى أسبح فى مياه محيط هادئ ، لا هى شديدة البرودة ولا شديدة الحرارة ، وهكذا مرت خمس ساعات دون أن أحس بمرورها . وإذا بقطار شركة ( يونين باسيفك ) يقبل كأنه آت من شواطىء مجهولة .

كان اقترابه صامتاً بطيئاً ، فاستطعت أن أبلغ البلدة والرصيف ، قبل أن يتم أخذ حاجته من الماء لدى الصهريج . ثم تقدم القطار إلى الرصيف ، ووقف لديه برهة ، فرأيت حقيبتى تخرج منه ، ثم أخذ يبتعد فى مثل هدوئه حين أقبل

يتصاعد دخانه ويتضاءل حجمه كلما ابتعد نحو أقطار بعيدة لا نعرفها .

وكان إلى جانب حقيبتى ، حقيبة أخرى مربوطة بأشرطة بيضاء فى إسراف ظاهر . وقد لفت نظرى أجنحتها التى تعبث بها الرياح ، ورأيت فجأة منظراً لم أر مثله من قبل . أبصرت الفرجينى فى الطرف الآخر من الرصيف وقد انثنى على نفسه من الضحك . وسرنى أن أعرف أنه خليق بأن يضحك بهذا الشكل إذا توافرت الأسباب ، وكان أقصى مظهر للفكاهة عنده قبل ذلك مجرد ابتسام . وأخذت حبات من الرز تضرب قبعتى ، وقذائف من الرز تترامى على الرصيف وجميع الرجال الباقين فى مدسن بو ظهروا فجأة كأنما حدث ذلك بسحر ساحر ، واختنق الهواء بمزيد من الرز المتطاير . وفى وسط هذه الضجة الشاملة ارتفع صوت قوى يصيح : « لا تصيبوا عينها أيها الفتيان ! » ومرّ بجانبى العم هيوى فى زهو وخيلاء ، وعلى ذراعه زوجة حقيقية . وإن كان مظهرها يدل على أنها حفيدته . ولم يلبثا أن صعدا الى مركبة . ووضعت الحقيبة خلفهما . وانطلق العروسان من البلدة ، وسط الهتاف والرز والنعال ، والتهانى الضخمة ، وقد أخذ العم هيوى يصيح بالخيل لتجرى ، والعروس تشير بيدها ، فى غير خجل ، إشارة الوداع .

كانت أسلاك البرق قد حملت رسالة من بلدة لارامى فحواها ، أن العم هيوى قد نجح هذه المرة ، فانتظروه بالقطار رقم ١ اليوم . ولذلك خرجت مدسن بو لاستقباله .

وتعالت الكلمات على أثر العروسين الراحلين :

— « منْ هى ؟ »

— « ماذا أعد لها ؟ »

— أعد لها منجم ذهب فى أعالى بير كريك ( جدول الدب ) .

وبعد أن تبادل سكان مدسن بو الملاحظات والتكهنات ، عادوا لتناول غدائهم .

وكانت هذه الوجبة هى آخر طعامى هنا لمدة طويلة . وعاد الفرجينى إلى

حمل تبعاته ؛ فقد دفع الواجب هذا الرجل الذى وثق به القاضى كل الثقة ، إلى أن يعنى بأمرى مرة أخرى . لم يسبق له أن التمس صحبتى من تلقاء نفسه مرة واحدة . وقد ظل على إعراضه ونفوره منى لما وقر فى نفسه عنى ، وإن كنت لا أعرف تماماً مبعث هذا النفور . فقد حسبت أن الاختلاف فى الزى واللهجة ليس مما يحمل على إساءة الظن فى مجتمعنا الديمقراطى . واللصوص يعتبرون أبرياء إلى أن يثبت جرمهم . ولكن هنا يحكم على صاحب البنيقة « الياقة » الناشفة فوراً . ومع أنى كنت ألقى من الفرجينى عبارات الاحترام والشكر ، غير أنى لم أسمع كلمة الصداقة . ولم يلبث أن ربط الجوادين إلى المركبة ، وحمل حقيبتى إليها ، ونصحنى أن أتزود للرحلة بزاد أشهى مما نصادفه فى طريقنا ، وقد أحسن بتذكيرى ذلك ، فبادرت بشراء مجموعة من الأطعمة الشهية ، وأنا أشعر أنه سيحتقرها ويحتقرنى فى قرارة نفسه . ثم لم ألبث أن اتخذت مقعدى إلى جانبه ، وأنا أعجب مما عسانا أن نتحدث به فى طريق طوله مائتان وثلاثة وستون ميلاً .

فى ذلك الزمن لم يكن الناس فى بلاد الماشية يودع بعضهم بعضاً . وقد وقف معارفنا يرقبون رحيلنا بهزة من الرأس أو بدون إشارة ، وأقرب العبارات إلى التوديع ما فاه به صاحب المتجر حين قال : « إلى اللقاء » ، ومع ذلك فقد لمحت وداعاً واحداً وإن كان صامتاً ، فعند ما مررنا بالمطعم ، انزاح الستار عن إحدى النوافذ الجانبية ، وظهرت ربة الدار تنظر إلى الفرجينى نظرتها الأخيرة ، وقد افترت شفتاها قليلاً وعيناها تقولان بأوضح مما تستطيع أن تقوله عينا امرأة : « أنا بعض ما تملك » . ولعلها نسيت أن قد يراها أحد ، فلم تكد نظراتها تلتقى بنظراتى حتى تراجعت إلى الجزء المظلم من الحجرة . ولا أدرى أى نظرة ألقى عليها الفرجينى على فرض أنه أعارها نظرة فى هذه الساعة وعلى مشهد من سائر الناس . فقد كانت نظراته موجهة إلى الحصانين ، وقد أخذ يسوقهما بنفس السهولة والبراعة التى أبداها وهو يصطاد المهر النافر بالأمس . ولم نلبث أن مررنا على « استحكامات » مدسن بو : أكوام غليظة وخطوط من العلب الفارغة ، وأكداس

متراكمة من الزجاجات التى لفظتها الحانات ، وقد لمعت تحت وهج الشمس فى مئات من المواقع . وفى لحظة تجاوزنا هذا إلى السهول النظيفة . حيث كلاب الفلاة ، وقطعان الوعل الأبيض ، يحيط بنا هواء عظيم هادئ ، له صفاء الماء ونشوة الخمر . وقد غمرت أشعة الشمس العالم ، وعلى صدر القميص الصوفى الذى كان يلبسه الفرجينى شعرة طويلة ذهبية اللون . وإذا كان التاجر الأمريكى الثرثار قد منى بالهزيمة ، فإن هذا المقامر الصامت قد أحرز انتصاراً سهلاً .

قطعنا فى سفرنا هذا خمسة أميال فى صمت ، يبدو لأعيننا الأفق حيناً ، ويختفى حيناً تبعاً لتموجات سطح الأرض . ونظرت خلفى فألفيت مدسن بو تبدو وراءنا وكأنها على مرمى حجر منا ، ولم ألتفت ورائى للمرة الثانية إلا بعد مضى نصف ساعة ، فإذا بى أرى مدسن بو قائمة لا تريم ، ومع الاعتراف بأن حجمها بدا أصغر مما كان ، ولكن معالمها كانت واضحة كل الوضوح كأنها جسم يرى من منظار معكوس . ورأيت القطار المتجه إلى الشرق ، وهو يقترب من المحطة ولاحظت البخار الأبيض المتصاعد من صفارته ، ولكن صوت الصفير لم يصل إلينا إلا بعد أن أوشك القطار أن يقف . ولما علقت على هذه الظاهرة تنازل الفرجينى بأن قال إنها أكثر ظهوراً فى أريزونا منها فى أى مكان آخر .

وقال : « جاء إلى أريزونا رجل ومعه منظار كبير لدراسة الأجرام السماوية ، وهو أمريكى صميم على جانب كبير من البراعة . وفى ليلة كنا نرقب السماء للعثور على بعض الشهب الساقطة الصغيرة الحجم ، زعم هو أن هذا أوانها . فرأيت أضواء تتحرك فوق الهضاب بسرعة شديدة ، فناديته فقال لى إن هذه أضواء القطار ، قلت لم أكن أعرف أنك تستطيع رؤية العربات من هذا المكان قال بل نستطيع رؤيتها . ولكن ما تراه الآن هو قطار الأمس . وهنا أخذ الفرجينى فى تقريع أحد الجوادين واسمه بك ، ثم قال : « والأمريكى لم يعن بالطبع كل ما قاله » ثم عاد فجأة إلى تقريع بك ، وقال : « لا شك يا سيدى أن لأريزونا جواً خداعاً » . وقد أبلغنى رجل آخر أنه رأى سيدة تغمزه بعينها ، مع أنه غادرها

منذ دقيقتين وهو يعدو عدواً سريعاً . » وعاد الفرجينى إلى بلك وفى هذه المرة ضربه بالسوط .

فسألته بشكل جدى أسوة بأسلوبه فى الكلام : « هذه الظاهرة التى تقصر المسافات على هذا النحو الخارق للعادة . ما تأثيرها فى زجاجة من الوسكى سعة رطلين ؟ »

فقال : « إذا كان الوسكى خارج البطن ، يا سيدى ، فكل مسافة تهون مهما طالت فى سبيل الحصول عليه » .

ثم نظر إلىّ بعين يبدو منها الارتياح والثقة أكثر مما استطاع أن يحسه نحوى من قبل . وبذلك خطوت خطوة أخرى فى تقديره ، وإن بقيت أمامى خطوات . وفى هذا اليوم كان يؤثر الأفكار التى تجول بخاطره على التحدث إلىّ ، وظل على هذه الحال طول هذا اليوم الأول من سفرنا ، مع أنى كنت أفضل حديثه على أفكارى وخواطرى . وقد أفسد بعض محاولات حاولتها للتحدث فى موضوع العم هيوى ، ولذلك لم أحس الشجاعة للكلام على ترمپاس . وذلك التصادم القصير الذى كان خليقاً أن تتطاير منه شرارة الموت . لم يخطر ترمپاس ببالى إلا فى أثناء هذا السفر الصامت الذى كنا فى بدايته . وتعجبت هل يتاح لى أن أراه هو أو ستيف أو أحد أولئك القوم مرة أخرى . وقد ذكرت عجبى هذا بصوت مسموع .

فقال الفرجينى : « لا سبيل إلى التكهن بما قد يحدث فى هذه البلاد . فالناس تجىء وتروح فى سهولة ويسر ، بخلاف الحال فى الجهات المستقرة فى الولايات الشرقية ، حيث يوجد لكل شخص مهما كان فقيراً بيت يؤويه . وحتى لو كان هذا البيت برميلا أو رقعة من الأرض فإنه يلازمه أو يعود إليه . فإذا طلبته وجدته . أما هنا فى إقليم الحشائش ، فإن الرجل كثيراً ما يكون بيته غطاء سرجه ، فتراه فجأة وقد رحل إلى تكساس . »

فقلت له : « أنت نفسك قد تنقلت كثيراً . »

غير أن هذه العبارة أغلقت فمه . فلم يزد على أن قال : « لقد ألقيت نظرة

على البلاد » ثم عدنا إلى ما كنا فيه من الصمت . ولكن دعنى أبلغك أنه قد بدأ يلقى هذه « النظرة على البلاد » وهو ابن أربعة عشر ربيعاً ، وهو اليوم فى الرابعة والعشرين . وفى أثناء هذه الفترة من حياته قد زار ولايات أركنساس ، وتكساس ، ونيو مكسيكو ، وأريزونا ، وكاليفورنيا ، وأريجون ، وايداهو ، ومنتانا ، ثم ولاية ويومنج . وأمكنه أينما ذهب أن يعنى بأمر نفسه وأن ينجو من كل ورطة . ولكن قلبه المتين لم يشعر بعد بالحاجة إلى المنزل والحياة المستقرة . دعنى أيضاً أقل لك إنه واحد من آلاف يعيشون هذه العيشة المضطربة. ولكن ليس فى الألف واحد مثله كما سترى .

لم تبق بلدة مدسن بو أمام أعيننا إلى الأبد ، ولم تكد تخطر ببالى حتى التفت ورائى فلم أجد سوى الطريق الذى سلكناه ، يبدو كأنه أثر جريان السفينة فى الماء ، ممتداً فوق موج من المرتفعات الأرضية . ولم نلبث أن أصبحنا فى وحدة هائلة تكاد تبتلعنا . ثم لاح لنا قبل الغروب كوخ ، أقمنا فيه ليلتنا ، وكان يعيش فيه رجلان يرعيان ماشيتهما . ولهما ولع خاص بالحيوانات . ففى الاصطبل ذئب مربوط بسلسلة . تارة يدور مندفعاً فزعاً ، وتارة يقعى على فخديه لكى يلتقط ما يلقى إليه من الطعام ، ثم وعل مستأنس ظل داخلاً خارجاً من باب الكوخ ، وفى أثناء العشاء حاول أن يدفعنى عن الكرسى الذى كنت جالساً عليه. كذلك رأيت كبشاً جبلياً نصف مستأنس ، يتدرب على الوثب من الأرض إلى سطح الكوخ . وقد زينت جدران الكوخ من الداخل باعلانات عن ملاعب الحيوان . وفرشت الأرض بجلود الدب والثعلب الفضى . وسهرنا إلى الساعة التاسعة ، وأحد الرجلين يتحدث إلى الفرجينى والآخر يعزف مرحاً على الهرمونكا . ثم أوينا إلى مضاجعنا وكان الهواء فى برودة شهر ديسمبر ، ولكنى كنت فى دفء تام بفضل أغطيتى وعباءة من جلد الجاموس التففت فيها . وهكذا أمكننى أن أنعم بذلك الصمت الذى كان يشمل جبال روكى . وعند ما ذهبت لاغتسل قبل الإفطار وجدت إبرا من الثلج فى جدول الماء . ومع ذلك فقد كان من

الصعب أن أتصور أن هذا الخلاء المقفر ، الفسيح الأرجاء الذى لا ترى فيه قمة من قمم الجبال ، هو مع ذلك على ارتفاع ستة آلاف من الأقدام . وبعد أن فرغت من تناول الفطور لم يبق هنالك أثر لبرد ديسمبر ؛ وعند ما قطعنا أنا والفرجينى عشرة أميال من طريقنا أصبحنا فى شهر يونيو ولكن الهواء الذى كنت أستنشقه ظل كما عهدته فى صفاء الماء ونشوة الخمر .

لم نصادف فى هذا اليوم شخصاً . وتارة كان يجرى نحونا بعض البقر الوحشى ، ثم يجرى مبتعداً ، وتارة يتأملنا عن بعد مائة ياردة بعض الغزلان ، وذئاب الفلاة كانت تعدو صاخبة وسط الحشائش ، لكى ترقبنا من فوق بعض الكثبان . وفى وقت الغداء قتلنا أفعى . وصدنا عدداً من دجاج الحشائش ، فكان لنا طعاماً شهياً فى العشاء ، وقد شويناه على نار الموقد .

ولم تكد الساعة تبلغ النصف بعد الثامنة ، حتى كنا غارقين فى النوم تحت نجوم السماء . وفى منتصف الساعة الخامسة كنت أشرب القهوة وأرتعد من البرد . وفى صباحنا الثانى هذا كان الحصان بلك نافراً ولم يكن من السهل إمساكه ولا أدرى هل استثاره منظر الكثبان . التى تحيط بنا هنا ، أو أن الماء المستطاب فى هذه المرتفعات قد أهاجه . وأحسست كأنى فى حرارة شهر يوليه ، قبل أن نوفق إلى ربطه فى المركبة آمنين ، ولكن الأرجح أننا لم نكن آمنين . لأن بلك لم يلبث أن استطاع أن يلقن زميله روح الشر بتلك اللغة الغامضة التى تتحدث بها الخيل ، وفى نحو الساعة الحادية عشرة تلامس الرأسان الشريران وقررا تحطيم أعناقنا .

فى ذلك الوقت كنا نسير — كما ذكرت من قبل — وسط كثبان عالية ، وفى قطر محدود المساحة ينمو فيه الشجر ويجرى الماء ، وقد غادرنا الأرض السهلة منذ فترة من الزمن ، وفى الطريق منحدرات وعرة ، ومواضع لو سقطت فيها لهويت إلى الحضيض وسط الجنادل ، ولكن لأمر ما لم يجد بلك أن هذه الفرص كافية ، واختار فرصة أبرع وأخطر . وكنا فى خانق ضيق خرجنا منه فجأة إلى

مكان فيه نحو خمسمائة رأس من الماشية وبعض الرعاة يشتغلون بوسم العجول بالنار داخل حظيرة ، ومع أن هذا من المناظر التى يعرفها بلك عن ظهر قلب ، فإنه اعتبرها شيئاً منكراً . ورأيته يرفس برجليه فى سبع جهات . ورأيت زميله مجنس يرفس فى خمس جهات ، وكانت الحركة من العنف بحيث أحسست أنها تقطع ظهرى كأنها السياط الحامية . فقبضت بكل قوة على مقعدى ، وسمعت شيئاً يصل صليلاً مزعجاً . وكان ذلك هو الفرملة .

عند ذلك صاح بى الرجل الأمين : « لا تثب من مقعدك » .

فأجبت وقبعتى تحملها الرياح : « سألزم مكانى » .

وكنا من البعد عن الناس بحيث لا أمل فى معاونة أحد . فمرقنا وسط الماشية دون أن نصاب بأذى ، ورأيت قرونها وظهورها تمر بنا سراعاً . وانهار بعض الثرى من تحتنا . وانحدرنا إلى منخفض فيه ماء والمركبة تهتز وسط الجنادل ، ثم صعدنا إلى الجانب الآخر فوق بعض الثرى المنهار . وسمعت صوت انقضاض ، ورأيت حقيبتى تهوى إلى النهر .

فقال الرجل الأمين : « إنها أكثر أماناً حيث هى الآن . »

قلت له : « صدقت » ، فقال : « سنعود لالتقاطها » . وكان يتكلم وعينه مثبتة على الخيل ورجله على الفرامل المحطمة . وأخذنا نقترب من واد جاف حيث لا مجال للدوران ، وتشرف عليه من الجانب الآخر مدرجات من الصخر الأصم ، ولم يكن لنا مفر من أن نسقط إلى الوراء فى صعودنا إذ لم نسقط إلى الأمام قبل ذلك فى هبوطنا . وجعل صاحبى يسوق الخيل إلى الأمام ، حتى إذا وصلت إلى قاع الوادى أدارها بمهارة مدهشة إلى اليمين فوق الطين المتجمد . فانطلقت بنا على طول القاع متجهة نحو منابع الجدول ، وهى تعدو وسط أدغال من الشجيرات الواطية . فأخذت عيدانها تنحنى تحت ثقل المركبة . فكانت تهتز وهى تمرق فوقها . غير أن غصونها أخذت تشتبك بأرجل الخيل ، فلم نلبث أن وقفنا آمنين وسط خميلة من ورق الشجر .

ثم نظرت إلى الرجل القوى الأمين . وابتسمت : فتأملنى قليلاً وقال : « أظنك الآن تحس كأنك ما بين ( ويلاه ) والحمد لله » .

فأجبته وأنا أنزل من مقعدى إلى الأرض : « صدقت » .

وبعد أن أجرى فحصاً دقيقاً أعلن أن شيئاً لم ينكسر ، ثم أخذ يتكلم بصوت خافت وبأسلوب فرجينى صميم : وهو ينظر إلىّ بعينيه نظرته الجدية : « السكون أيها السادة . لقد مرت لحظة كاد أن يعترينى الخوف فيها ، ويحك يابلك ؛ إن بعض الناس قد يضربونك الآن ضرباً مبرحاً حتى لا تستطيع أن تعرف هل أنت حصان أو حادثة قطار ، وما أجدرنى أنا نفسى أن أفعل ذلك ، لولا أن هذا لن يردعك . »

فقلت له : « إنى أحسب أنه قد أنقذ حياته وحياتى » . ولكنه كان يبغض عبارات الإطراء المفتوحة . فرد علىّ رداً جافاً ، وقاد الخيل إلى خارج العربة ، ثم أخذ يشرح لى أن بلك حصان طيب ، وكذلك زميله مجنس ، كلاهما فى العادة لا يأتيان منكراً . وأن هذا هو السبب الذى دعا القاضى إلى إرسالهما إلىّ .

ولكن الجياد لها هى أيضاً أيامها الشاذة . وقد لا تأتى مثل هذه الأيام إلا نادراً ، ولكن متى استولت على الجواد نزواته فلا بد له من أن يستجيب إليها ، وسيسلك بلك الآن مسلكاً حميداً لمدة شهرين على الأرجح . ثم ختم كلامه بقوله : « إن الخيل كبنى آدم سواء بسواء » .

لم يلبث عدد من الرعاة أن أقبلوا راكبين لينظروا هل بقى منا شىء . وعدنا أدراجنا منحدرين إلى سفح الكثيب ، فأدهشنى عند ما وجدت حقيبتى ، طول المسافة التى قطعناها والخيل نافرة ، وقد عثروا على قبعتى أيضاً ، فأمكننا أن نستأنف السير فى طريقنا .

وكان كل من بلك ومجنس مثالاً لحسن السير والسلوك فى البقية من طريقنا وسط الجبال ، وعند ما عسكرنا فى المساء رأيت من الغريب أن يسمح لبلك بأن يرعى حراً طليقاً . بدلاً من أن يربط بحبل أثناء نومنا . وكان رأيى هذا نتيجة

جهلى . فإن العمل الشاق الذى لا بد للجواد أن يؤديه يتطلب مرعى أوفر مما تسمح به مسافة بطول الحبل ، لذلك ترك حراً ، وفى الصباح لم نجد مشقة كبيرة فى إمساكه .

وعبرنا نهراً وقت الضحى ، ورأينا على بعد منا نحو الشمال جبال بولج تبدو شاحبة فى ضياء الشمس الساطعة . ومن منحدراتها الغربية يجرى سنك كريك ( الجدول الغائر ) هنالك أخذت مسافة المائتين والثلاثة والستين ميلاً تبدو لعينى شيئاً ضئيلاً . وأحسب أن كلا من بلك ومجنس مدرك تماماً ، أن غداً سيبلغهما دارهما . فهما يعرفان هذه الجهات . وعند ما وصلنا إلى مفترق طريقين أرادا أن يعرجا على الطريق الجانبى . فجذبهما الفرجينى بشدة إلى الطريق الأصلى . وقال لهما : « أتريدان أن تعودا إلى بلعم ؟ حسبتكما أعقل من ذلك . »

فسألته : « ومن بلعم هذا ؟ » .

قال : « رجل يسيء معاملة الخيل . ومزرعته فى بت كريك هناك » ( وأشار بيده إلى الأطراف البعيدة من الطريق الجانبى الذى أراد الجوادان أن يسلكاه ) . وقال : « لقد اشترى القاضى منه الجوادين فى الربيع » .

قلت : « إذن فهو يسيء معاملة الخيل » .

قال : « هذه هى سمعته فى جميع أنحاء هذا القطر ، إن الرجل الذى يفعل بالخيل وقت الغضب مايقال إنه يفعله ليس جديراً أن ينتسب الى البشر » ثم أخذ يذكر لى بعض التفاصيل . فارتفع صوتى بالتأوه . وكدت أصرخ لهول ما سمعت .

قال : «وأكبر ظنى أن هذا ما كان يفعله بالجواد بلك، عند ما وقف بعد نفاره . ولو أنى أمسكت رجلاً يفعل هذه الفعلة الشنعاء . . . »

وقطع علينا حديثنا مسافر تبدو عليه مظاهر الوقار ، راكباً جواداً فى مثل وقاره . فوقف الفرجينى المركبة ليتحدث إليه وقال : « عم صباحاً . يا تيلر ، ألا ترى أنك قد طوفت بعيداً عن مجالك المألوف ؟ »

فبادر مستر تيلر بوقف جواده ، وقال مبتسما : « إنك لفتى لطيف حقاً »

فقال الفرجيني : « قل لى شيئاً لا أعرفه ؛ »

فاستمر الآخر قائلاً : « وبلغ من لطفك أنك تصوب المسدس على شخص يلاعبك بالورق ، ثم تستولى على ماله . ألا ترى أن الأنباء قد سبقتك إلى هنا » ؟ .

فقال الفرجيني باسماً : « هل وصل ترمباس إلى هنا ليقص ما جرى ؟ »

فقال مستر تيلر محاوراً : « أهذا هو اسم فريستك ؟ كلا لم يكن هو الذى نقل الخبر . ومع ذلك فأخبرنى أنت بما حدث » .

فتمم الفرجيني قائلاً : « إذن لقد انتشر هذا الخبر ، ولم يكن يستحق أن يشيع إلى هذا الحد . » ثم أخذ يسرد الحقائق المجردة على تيلر ، وأنا جالس أعجب من قوة الإشاعة وكيف تنتشر انتشار العدوى . فقد أمكن لها أن تنتشر فى أطراف هذه الأرض الصامتة ، فى هذه الصحراء وهذا الفراغ ، كأنها تقلبات الجو .

ثم سأله الفرجيني : « هل هنالك أنباء من ناحيتكم ؟ »

قال الآخر : « أجل إن بيركريك ( جدول الدب ) قد قرر أن يبنى مدرسة»

فقال الفرجيني : « أعوذ بالله ؛ ولكن لماذا ؟ » .

وكان مستر تيلر قد مضى على زواجه بضع سنوات فقال مزهواً : « من أجل تربية ذرية بير كريك » فقال الفرجيني : وهو يفكر : «ذرية بير كريك؟ لا أذكر أنى أبصرت كثيراً من الذرارى ، لقد كان هنالك بعض الوعول والذئاب البيض ، ومجموعة من الأرانب الممتازة » .

فقال مستر تيلر محافظاً على مظهره الجدى : « إن أسرة سوينى قد أقبلوا من دريبون لأنها مكان لا يصلح للأطفال . وهنالك العم كرمودى ، وله ستة من الأطفال . وكذلك بن دو وقد أصبح وستفال رب أسرة » .

فصاح الفرجيني : « هل جيم وستفال أصبح رب أسرة ؟ ياللعجب ، ولئن

كان هذا القطر سيصبح ممتلئاً بأرباب الأسر ، وخالياً من الصيد ، فلا بد لى أن . . . » .

فقال مستر تيلر : « أن تتزوج أنت أيضاً » .

— « أنا ؟ إننى لم أبلغ بعد سن الزواج . كلا يا سيدى . ولكن العم هيوى قد تزوج أخيراً ، أتعلم ذلك ؟ » فصاح مستر تيلر : « العم هيوى ؟ » إنه لم يسمع بهذا النبأ لأن الشائعات تنتشر بشىء من التحيز ، فقص عليه الفرجينى القصة . فأخذ رب الأسرة يرتجُ فى سرجه من شدة الضحك .

فقال الفرجينى : « ابنوا إذن مدرستكم ، فإن العم هيوى سيستجيب إلى أمثال هذه المقترحات » .

« وهل وفقتم إلى العثور على معلمه ؟ »

## ٥

# تظهر المرأة

قال مستر تيلر : « نحن بسبيل اتخاذ الخطوات اللازمة ، فإن بير كريك لن تتسرع فى أمر المعلمة . »

قال الفرجينى : « بكل تأكيد ، ولا أظن أن الأطفال يريدون منكم أن تسرعوا . »

ولكن مستر تيلر – كما أشرت من قبل – رب أسرة ينظر إلى الأمور نظرة جدية فلم يكن ينظر إلى مشكلة تربية أطفاله إلا على ضوء ما يمليه العقل فقال : « إننا فى بير كريك لا نريد أن نقع فى الخطأ الذى وقعت فيه بلدة كالف ويجب علينا ألا نستخدم امرأة جاهلة . »

فقال الفرجينى مؤكداً : « بلا شك » .

قال مستر تيلر : « كذلك لا نريد فتاة طائشة لعوباً » .

قال الفرجينى برفق : « إنها يجب أن تثبت نظرها على السبورة » .

قال مستر تيلر : « فى وسعنا أن ننتظر حتى نحصل على الصنف المضمون ، وقد صح عزمنا على هذا ، وهذا لن يتيسر لنا هذا العام ، ولا حاجة بنا إلى العجلة وعمر الأطفال لا يزال صغيراً ، ثم لا بد من بناء المدرسة . » واستخرج من جيبه خطاباً ونظر إلىّ وقال : «هل لك سابقة معرفة بآنسة تدعى مس مارى ستارك ود ، من بلدة بننجتن فى ولاية فرمنت . . ؟ »

لم أكن أعرفها فى هذا الوقت فقال لى : « إنها هى المرأة التى تفكر فيها ، وهى تراسل مسز بلعم . » ثم ناولنى الخطاب وقال : » إنها كتبت لمسز بلعم ،

وقالت مسز بلعم : إن أفضل شيء أن أطلع على الخطاب وأحكم بنفسي . وأنا الآن ذاهب لأرده إلى مسز بلعم فلعلك تستطيع أن تقول لى رأيك فيه إذا قارنته بما يكتبونه من الرسائل فى تلك الولايات الشرقية . »

كان معظم الرسالة يعالج الناحية العملية ، ولكنها لم تكن تخلو من المسائل الشخصية مكتوبة بحرية ، ولا أظن أن الكاتبة كانت تتوقع أن يكون كتابها وثيقة يطلع عليها الناس ، وقد أبدت فيها رغبتها الشديدة فى مشاهدة الغرب . ولكنها لا تستطيع أن تجعل هذه الرغبة لمجرد المتعة ، وإلا لأمكنها منذ زمن طويل أن تلبى الدعوة الكريمة التى وجهتها إليها مسز بلعم ، بأن تزور مزرعتها . والتعليم فى المدرسة أمر يسرها أن تقوم به ، إذا كانت صالحة له . ثم كتبت تقول : « ومنذ تعطلت المصانع أخذنا كلنا نشتغل بمختلف الأعمال حتى يتاح لوالدتنا أن تحتفظ بمعيشتها وسكناها فى البيت القديم . ولا شك أن المرتب من المسائل المغرية ولكن أليس هواء ويومنج ضاراً بالبشرة ، يا عزيزتى ؟ هل أستطيع أن أطالبكم بتعويض عما قد يصيب بشرتى من التلف ؟ إنها لا تزال موضع الإعجاب وأستطيع أن آتى بشاهد واحد من الرجال على الأقل لإثبات ذلك . »

ثم عادت الكاتبة لمعالجة الناحية العملية فقالت إنها على فرض استطاعتها مغادرة أهلها وطنها فإنها ليست واثقة من أنها تستطيع التدريس فى مدرسة ، ولا ترى من الصواب أن تقبل منصباً ليس لها سابق خبرة به . ثم قالت : « إننى أحب الأطفال من غير شك ، وعلى الأخص الذكور منهم ، وعلاقتى بابن أختى على أحسن ما يرام ، ولكن تصورى كيف تكون حالى إذا أخذ فصل كامل من الأطفال يوجه إلىّ أسئلة لا أستطيع الإجابة عنها ؟ ماذا عسانى فاعلة ؟ ليس من الممكن أن أعاقبهم جميعاً ، وفوق ذلك كانت أمى تزعم أنى لا أستطيع تعليم الهجاء لأى إنسان ، لأنى أكتب كلمة الشرف ( Honour ) من غير حرف U »

وبعد الفراغ من تلاوة الكتاب أمكننى أن أؤكد لمستر تيلر أنه على جانب عظيم من الجودة إذا قورن بما يكتب فى الولايات الشرقية . وقد حمل الكتاب إمضاء

« العانس المخلصة لك جداً مولى ستارك ود . »

قال مستر تيلر : « ولكنى لم يسبق لى أن رأيت كلمة الشرف تكتب بحرف U » ولا شك أن أجزاء من الخطاب قد مرت دون أن يستوعب فهمها بعقله البسيط الذى لم يضرب فى شئون الحضارة بسهم عظيم .

وقد أفهمته أن بعض الأشخاص المحافظين لا يزالون يكتبون هذه الكلمة على تلك الصورة ، فقال مستر تيلر : « إننا فى بير كريك نرتضى أى الطريقين إذا استوفت الكاتبة سائر الشروط » .

كان الفرجينى فى ذلك الوقت يتأمل الخطاب بانتباه متجدد، ثم أخذ يقرأ ببطء وبصوت عال : « العانس المخلصة لك جداً » .

قال مستر تيلر : « أظن معنى هذا أنها فى الأربعين »

قال الفرجينى : « أكبر ظنى أنها أقرب إلى العشرين ». ثم عاد ينعم النظر فى الصحيفة التى بيده .

قال مستر تيلر : « إن خطها يختلف عن كل خط رأيته ، ولكن بير كريك لن تعترض على هذا ما دامت على علم بالحساب وجورج واشنطن وما شابه ذلك .

قال الفرجينى معقباً : « أظن أنها عانس شديدة الإخلاص » . وظل يتأمل الخطاب ممسكاً به كأنه رمز من الرموز .

هل سبق لأحد علماء النبات أن كشف عن حقيقة بذرة الحب؟ وهل أتيح لأحد فى أى قطر أن يشرح الطرق المختلفة لإنبات هذه البذور ؟ وفى أى أنواع من الأوعية الرقيقة الشفافة تسبح تلك البذور فى الفضاء الفسيح ؟ وأى ضروب مختلفة من التربة تقع عليها فتبقى حية مجهولة ريثما يحين الوقت لنموها وازدهارها ؟

لم يلبث الفرجينى أن رد إلى مستر تيلر تلك الورقة ، التى تضمنت كلاماً لفتاة تختلف اختلافاً شديداً عما يتكلم به النساء اللائى عرفهن ، ولئن كانت عيناه قد وقعتا على مثلها من قبل ، فإن الأعين لم تكن تتلاقى ، ولو أن فتاة مثلها تحدثت إليه لكان كلامها طبقاً لما تمليه التقاليد من التحفظ ، وأما هذا الكتاب

فيشتمل على عبارات حرة لا عهد له بمثلها ، ومع ذلك فإنها لم تكن فوق مستوى إدراكه كما كانت الحال مع مستر تيلر .

واستأنفنا السير وقطعنا ما يقرب من الميل ، ثم قطعنا ميلين ، وقد كان فى الفترة الأخيرة من رحلتنا كثير الكلام ، ولكنه الآن عاد شديد الإيجاز فى الرد علىّ . لذلك ساد الصمت بيننا إلى أن قطعه هو من تلقاء نفسه بعد أن سرنا نحو عشرة أميال فقال :

« إن المرأة العانس حقيقة لا تتحدث بهذه السهولة عن حالتها . » ثم ذكر شيئاً مما جاء فى الخطاب عن البشرة : « هل أستطيع أن أطالبهم بتعويض عما يصيب بشرتى من التلف ؟ أكبر ظنى أن هذا الشاهد الذى ذكرته سيبقيها فى فرمنت ، وبذلك تبقى والدتها فى البيت القديم . »

هكذا عبر راعى البقر عما يجول بخاطره وهو لا يدرى أن البذرة قد أقبلت سابحة فى الفضاء الفسيح حتى يئين الأوان لازدهارها فى قلبه .

فى الصباح التالى وصلنا إلى سنك كريك فكان ترحيب القاضى هنرى وزوجته خليقاً أن يمحو أى مشقة عانيتها مع أنى لم أعان من ذلك شيئاً على الإطلاق .

وانقضت فترة من الزمن لا أكاد أرى الفرجينى فيها . وقد عاد إلى مخاطبتى على عادة بلاده بياسيدى ، وهى عادة تنكرها هذه البلاد التى تتميز بالمساواة . وقد أسفت لانقباضه منى لأن الأخطار التى تعرضنا لها معاً بسبب نفار الجوادين بلك وبجنس قد خلقت بيننا ألفة كنت أود أن تدوم ، وأكبر ظنى أن تلك الألفة لم تكن لتنمو مرة أخرى لولا شخصية خاصة ، وأنا مضطر لأن أسميهما شخصية ، وإنى لمدين لها باكتساب صديق ، لولاها لما أمكننى أن أتغلب على نفوره منى . ولذلك سأقص عليك قصتها الصغيرة ، وكيف كانت أفعالها الشاذة ومصيرها المؤسف سبباً فى الجمع بينى وبين الفرجينى على أساس من التقدير والتفاهم . كذلك لولاها لما أتيح لى على الأرجح أن أسمع كثيراً عن قصة المعلمة ، وكيف حضرت هذه السيدة أخيراً إلى بير كريك .

## ٦

# إميلى

الشخصية التى أعنيها دجاجة فى مزرعة سنك كريك . . .

كانت مزرعة القاضى هنرى تمتاز بكثير من الأغذية النادرة . فاللبن مثلاً متوافر لديه . وفى ذلك العهد كان إخوانه من أصحاب المزارع يقتنون الآلاف من الماشية وليست عندهم قطرة من اللبن ، عدا النوع المحفوظ فى العلب . كذلك لم يكن لديهم من الزبدة شيء ، وعند القاضى الكثير منها . ويلى اللبن والزبد فى الندرة البيض . ولكن مضيفى كان يقتنى الدجاج . ولا أدرى هل يرجع هذا إلى أنه كان يعنى بعراك الديكة فى أيامه الأولى أو يرجع الفضل فيه إلى مسز هنرى . ولكنى أعرف أنى عند ما كنت أتناول وجبة خارج بيته ، فقلما يقدم إلىّ سوى الفاصوليا الغليظة والقهوة ، أما فى سنك كريك فكثيراً ما يقدم « عجة » البيض والفالوذج . ومما يبعث السرور فى قلب المسافر العابر أن يربط جواده ويجلس إلى مائدة القاضى ؛ فقد كانت شهرتهما تعم جميع أنحاء ويومنج .

يبدأ السياج الطويل الذى يحيط بمزرعة القاضى هنرى الرئيسية ، من أعالى سنك كريك حيث يخرج هذا الجدول من الخانق الذى يخترق جبل بولج . وقد أحسن رب المزرعة العناية بها دائماً حتى فى أيام العزوبة فترى فيها كتائب الماشية راقدة تحت ظلال الحور على ضفاف النهر ، أو متهادية فى مشيتها وسط المراعى لتتغذى من تلك الحشائش التى كانت غزيرة وطويلة فى تلك الأيام التى مضت ولن تعود ، فكانت الفحول تخرج من الحقل المفتوح مكتنزة لحماً وشحماً ثم تزداد سمناً فى المراعى الكبيرة . أما المرعى الصغير — وهو عبارة عن حقل مساحته

ثمانية أميال مربعة — فكان مخصصا لخيول القاضى فى كثير من المواسم . وفى هذه المساحة الواسعة كانت تكبر وتمرح تلك المهارى التى استولدها من الجواد« بلادن » الذى استورده لهذا الغرض . وقد أكد لى الكثير أنه بعد أن تزوج ظهر نفوذ زوجته واضحاً فى الدار وما حولها ، فزرعت الأشجار الظليلة والأشجار المزهرة وأضيفت الدجاجات الرومية إلى سائر الدواجن ، وإن كانت رعايتها أشق وأصعب . وقد كلفت — وأنا الضيف الزائر — بأن أضطلع بنصيبى من الواجبات بمجرد وصولى من الولايات الشرقية ، غمراً قليل التجربة . فوليت جهودى نحو الدوّار وأخذت أبنى للدواجن بيتاً أفضل ، والقاضى أثناء ذلك يستحدث مراعى جديدة وسط القفار الصفراء الغبراء . وكثيراً ما جاء بعض الرعاة إذا لم يكن لديه ما يشغله ، فيجلس إلى جوارى ويتأمل نجارتى فى صمت .

كانت لهؤلاء الرعاة أسماء وكنى متعددة المصادر . فهناك هنى وجن [١] وهناك نبراسكى [٢] ودولار بل ، وتشوكاى [٣] . وقد جاءوا من مزارع أو مدن شتى من مختلف الولايات ما بين مين فى الشرق وكليفورنيا فى الغرب . وقد اجتذبهم جميعاً حب المغامرة إلى هذا الملعب الأمريكى المترامى الأطراف ، الذى يستهوى قلوب الشباب .

وكانوا سواء فى شجاعتهم وكرمهم وعبثهم بى ، فكان كل واحد منهم يراقب ما أعمله بالمطرقة والأزميل ، ثم يعود إلى عنبر النوم ، فلا يلبث صوت الضحك أن يترامى إلى مسامعى ، غير أن هذا كله كان يجرى فى الصباح . أما فيما بعد الظهر فكنت فى كثير من أيام الصيف ، الذى قضيته فى مزرعة سنك كريك أخرج للصيد ، أو أركب إلى مدخل الخانق فأراقب الرجال يحفرون الخنادق حيث ترى مجموعة منسقة من القنوات يجرى الماء فيها وسط الحقول فتسمع صوت

---

( ١ ) أى وجن المعسول .

( ٢ ) نسبة إلى ولاية نبراسكا .

( ٣ ) ذو العين الطباشيرية

خريره بين مزارع الحبوب . وكانت حقول البرسيم الهندى تبدو وكأنها تتموج من تلقاء نفسها ، لأن الهواء كان ساكناً دائماً ، فإذا مالت أشعة الشمس فى المساء على السهول كانت فجوة الخانق تبدو وقد امتلأت بضوء بنفسجى جميل ، ويتحول منظر جبال بولج بما يسبح فوقها من الألوان التى لا يستطيع الخيال إدراكها . كانت الشمس تشرق دائماً فى سماء لا تشوبها سحابة ، وكان حر الظهيرة وبرد الليل سواء فى الاعتدال . وهكذا قضيت فى هذين الشهرين أياماً ناعمة ، أعنى فيها بأمر الدجاج ، وكان هذا مثاراً للتسلية والتندر ، وأعيش فى الهواء الطلق فى رضا وقناعة لا تشوبهما شائبة .

وقد لقبونى الغمر ( القليل التجربة ) عن جدارة واستحقاق . وقد حاولت مسز هنرى أول الأمر أن تدفع عنى هذه الوصمة ، ولكنها لما رأتنى مصراً على أن أظهر للعالم قلة إلمامى بأمور الغرب ، ورأتنى أستجدى المعلومات عن الأفاعى وكلاب الفلاة والبوم والقط ، أزرقه وأصفره ، ودجاج الوادى وكيف يحتبل الحصان ويعقد النِّسعْ ( حزام السرج الأمامى ) . ولما رأتنى امتلىء حماسة لمنظر شىء عادى مألوف كالوعل ذى الذنب الأبيض ، تركتنى أحمل بندقيتى وأذهب بها حيث شئت ، وكفت عن بذل أى مجهود لتذود عنى السخرية التى كانت أخطائى التى لا نهاية لها ، تثيرها فى نفوس رجال المزرعة وفى نفس زوجها الكثير الدعابة ، بل وفى نفس أى زائر طارىء جاء لتناول وجبة أو قضاء ليلة فى المزرعة .

وهكذا لم أكن أدعى باسمى بعد وصولى بساعات قلائل وما يصاحب هذه الساعات من مجاملات ضئيلة ، يقضى بها العرف نحو كل غريب الدار ، بل كنت أدعى فقط باسم الغمر أو ( الغشيم ) . وكنت أقدّمُ لسكان الإقليم فى دائرة تقرب من الثمانين ميلاً باسم ( الغشيم ) . وهكذا تعلم بلعم الذى يسىء إلى الخيل أن يدعونى بهذا الأسم حينما حضر للزيارة بعد رحلة يومين . وقد كادت هذه التسمية وما شاع عنى من العجز أن تكون سبباً فى قطع ما تبقى من العلاقة بينى وبين الفرجينى — فإن القاضى هنرى قد ثبت لديه أن شيئاً لن يحول بينى وبين

أن أضل السبيل ، وأننى كثيراً ما كنت أخرج بعد الفطور للنزهة ومعى بندقى فلا يمضى نصف الساعة حتى يستحيل علىّ التمييز بين الشمال والجنوب . فاتخذ الإجراء اللازم للمحافظة علىّ ، فخصص لى رفيقاً يلازمنى ولم يكن هذا الرفيق سوى الرجل الأمين الذى صاحبنى من قبل، فانتزع الفرجينى المسكين من عمله المفضل وأصحابه وكلفه أن يكون لى رفيقاً ملازماً ، وقد ظل هذا الامتهان فترة من الزمن يحز فى نفسه النافرة . كان عليه أن يصحبنى فى جولاتى وأن يشرف على ما أرتكبه من الأخطاء ، فينقذنى من كل تهلكة توشك أن تذهب بى نحو العالم الآخر ، وقد احتمل هذا كله فى صمت وأدب ، لا يتكلم إلا عند الضرورة . وجعل يرينى المعبر الأسفل للنهر. بعد أن استحال علىّ أن أجده بنفسى ، وكثيراً ما كنت أخطئه وأتجه نحو الرمال الغائرة . وعلمنى كيف أحسن ربط جوادى ونصحنى ألا أختار لإطلاق النار على الوعل الأبيض الذيل ، اللحظة التى تمر فيها مركبة المزرعة من خلفه فى الجهة المقابلة . ولا يكاد يوم يمر دون أن يضطر إلى المبادرة بإنقاذى من موت محقق ، أو من ارتكاب عمل يبعث السخرية ، وهو أنكى وأمر . ومع ذلك فإنه لم يضجر مرة واحدة . وظل ملتزماً الكلام بصوته العذب البطىء ، ومظهره الهادئ الوقور ، سواء أجلسنا معاً للغداء أم ذهبنا للصيد فى الجبال ، أو أعاد إلىّ جوادى بعد أن هرب لأنى نسيت مرة أخرى أن ألقى باللجام على رأسه ، وتركته يجره على الأرض .

فكان يقول : « إنه سيظل دائماً فى مكانه إذا ألقيت اللجام على رأسه . انظر إلى حصانى كيف يقف ساكناً لا يتحرك . »

وبعد أن يدلى إلىّ بمثل هذه الموعظة يعود إلى صمته ولا يخاطبنى ، ولا شك أن واجبات الرفيق الملازم هذه كانت بغيضة إلى نفسه . لأنه على الرغم مما يبدو من مظاهر الرجولة فى محياه وفى ضبطه لأعصابه وقدرته على معالجة كل مشكلة ، كان ممتلئاً شباباً، فخوراً بمهنته على خشونتها، يلبس كساءه الجلدى ويصلصل بمهمازه فى سرور ومرح ، وكانت حركته التى تحاكى حركة النمر وجمال جسمه

يفيضان بالشباب الغض المزدهر ؛ والقوة الكامنة تحت هذه المظاهر هى التى مكنته من أن يكبح جماح ضجره منى . ولكن على الرغم من علمى برأيه فى رجل « غمر » مثلى ، ظل حبى له ولصحبته الصامتة فى ازدياد مطرد . وقد تعلمت فى ملدسن بو أن فى وسعه إذا شاء أن يتكلم ويطيل . ولكن صمته الطويل الآن كان جديراً أن يمحو هذا الأثر من نفسى ، لولا أننى مررت صدفة بمنامة الرعاة فى ظلام المساء وكان هنى وجنس وسائر الرعاة مجتمعين فيها .

فى عصر ذلك اليوم خرجت أنا والفرجينى لصيد البط . فوجدنا منها عدداً كبيراً فى مختزن الماء فقتلت اثنتين منها ، كانتا جالستين جنباً لجنب ، ولكن التيار حملهما إلى مكان عمقه أربعة أقدام وخشيت أن يذهب بهما بسرعة إلى أسفل النهر ولم تكن كلبة القاضى الحمراء معنا لأنها كانت مشرفة على الوضع .

فقال الفرجينى : « إننا على كل حال لا نريدها معنا فهى لا تفتأ تعدو فى كل مكان من غير موجب وكثيراً ما تذهب وراء كلاب البرارى بدلاً من أن تقتنص الطير ، إنها حيوان تافه » .

غير أن حرصى على حيازة البطتين دفعنى لأن أغوص فى الماء بكامل ثيابى وعدت بهما بعد قليل وأنا كتلة من الماء والطين . وتأمل الفرجينى هذا المنظر لحظة ، ولكنه كعادته لم يعلق عليه بشىء .

وقال وهو يربط الطائرين إلى سرجه : « ليس لحمهما غاية فى الجودة ، لأنهما من النوع الغاطس » .

قلت : « الغاطس ؟ فلماذا إذن لم يغطسا . »

قال : « أكبر الظن أنهما لحداثتهما لم تتعلما بعد . »

وعلى الرغم مما أحسسته من الخيبة فإنى حاولت أن أمزح وقلت : « على كل حال لقد قمت أنا بالغطس اللازم . »

غير أن الفرجينى لم يقل شيئاً ، وناولنى بندقيتى الإنجليزية وكنت على وشك أن أتركها ملقاة على الأرض ؛ وركبنا إلى المنزل فى صمتنا المألوف والبطتان الهزيلتان

تتدليان من سرج جواده .

وفى منامة الرعاة فى ذلك المساء انتقم لنفسه ، فقد سمعت أثناء مرورى صوته الرقيق يلقى بروايته فى هدوء والآخرون ينصتون بانتباه شديد وفى اللحظة التى مررت فيها بالنافذة المفتوحة حيث كان يجلس فى ثياب خفيفة ، سمعته يتم قصته بقوله :

« وكانت قبعته على رأسه هى الدليل الوحيد على أنه لم يكن سلحفاة تغوص فى الماء ! ! »

وقد صادفت قصته نجاحاً عظيماً لدى مستمعيه فحثثت خطاى مستتراً بسواد الليل .

وفى الصباح التالى كنت مشتغلا بأمر الدجاج ، وكانت هناك معركة بين دجاجتين تحاول كل منهما أن ترقد على البيض الذى باضته دجاجة ثالثة ، ولم أكن أريد لهذا البيض أن يفرخ ، ثم رفست الدجاجة اميلى للمرة الثالثة وأبعدتها عن سبع حبات من البطاطس كانت قد قامت بجمعها لترقد عليها . ولا أستطيع أن أدرك أى نوع من الذرية يمكن أن تفرخه منها . وكان صياحها يتعالى فى بيت الدجاج عند ما أقبل الفرجينى ، وأحسبه حضر لكى يراقب ما أفعل مما قد يفيده فى تندره مع زملائه فى المنامة .

وبعد أن راقبنى فترة من الزمن قال : « لقد فقدنا أحسن ما عندنا من الديكة عند ما جاءت مسز هنرى لتعيش هنا . »

فلم أعره اهتماماً .

فقال : « ولقد كان ديكاً جميلاً رشيقاً » .

وكنت لا أزال أحس موجدة لتشبيهى بالسلحفاة فلم أبد اهتماماً بما يقول ، وظللت أمارس عملى فى بيت الدجاج ، والظاهر أن صمتى على غير مألوف عادتى كان دافعاً له إلى الكلام على غير مألوف عادته فقال :

« إن هذا الديك كان يعيش بيننا عند ما كان القاضى عزباً ، ولم ير فى حياته نساء أو أشخاصاً يلبسون ثياب النساء . هل تشكو الروماتزم يا سيدى . ؟

— أنا ؟ كلا .

قال : « لقد ظننت أن ذلك البط الغاطس الضئيل الجسم الذى بللت ثيابك من أجله . . »

ثم سكت فقلت له : « لا . . لا ! إننى لا أشكو شيئاً مطلقاً وأشكرك . »

قال : « رأيتك يبدو عليك بعض الانقباض هذا الصباح ويسرنى جداً أن ذلك لا يرجع إلى البطتين » . فقلت أخيراً: « وما خطب ذلك الديك ؟ » .

قال : « إنه لم ينشأ فى مكان يألف فيه ملابس السيدات . وقد حضرت مسز هنرى بالسكة الحديدية ومعها القاضى ، ووصلا إلى هنا بعد أن خيم الظلام وخرجت صباح اليوم التالى لتطلع على مسكنها الجديد ، وكان الديك يلتقط طعامه لدى الباب فرآها . فأطلق صراخاً عنيفاً جعلنى أعدو من المنامة ، يا سيدى . ثم لم يلبث أن وثب فوق السور ، مندفعاً على طول النهر لا ينقطع صياحه الرهيب . ولم يعد إلينا بعد ذلك . »

فقلت له — مشيراً إلى الدجاجة إميلى : « إن هذه الدجاجة التى تراها ليس فيها ذرة من العقل » . وكانت إميلى قد خرجت من بيت الدجاج ووقفت على سياج إحدى الحظائر . وقد انقطع صراخها إلا من صيحات ترسلها من آن لآن . ولما أخبرته عن حادثة البطاطس قال : « لم أكن أعرف اسمها من قبل . وقد كان ذلك الديك الشرود يبغضها وتبغضه كما تبغض سائر الدجاج . »

قلت : « أنا الذى أطلقت عليها هذا الاسم بعد أن راقبتها بدقة . وعندنا فى منزلنا امرأة عانس تحب الخير وتنتمى إلى جمعية الرفق بالحيوان . مع أنها لا تستطيع أن تعرف هل تخترق الشارع أمام الترام ، أم تنتظر حتى يمر ، وقد سميت الدجاجة باسمها . هل سبق لها أن وضعت بيضاً ؟ » .

قال الفرجينى : إنه لم يسبق له أن اهتم بأمر الدجاج .

قلت : « لست أظن أنها تعرف كيف تضع البيض ، وأظنها توشك أن تكون ديكا » .

قال : « لا شك أن لها مظهر الرجولة ، » وكنا قد وصلنا أثناء ذلك إلى سياج الحظيرة ، فأخذ الفرجينى يتأملها باهتمام .

كانت طائراً فذاً ، كانت كبيرة الحجم مستطيلة الجسم ، لها منقار أصفر ضخم ، وقد وقفت منتصبة متنبهة شأن الأشخاص الذين يحملون التبعات ، وكان فى ذنبها عيب واضح ؛ إذ كان مائلاً بشدة إلى أحد الجانبين ، وفيه ريشة واحدة أطول مرتين من سائر الريش ، ولم يكن على صدرها ريشة واحدة ، فقد انمحى الريش هنا تماماً لكثرة ما ترقد على البطاطس وأمثاله من الأجسام الصلبة الغريبة ، وقد جعلها هذا تبدو عارية الصدر ( ديكلتيه ) مما يناقض مظهر الحشمة الذى يغلب عليها ، ولعينيها بريق غريب ولكن لها نظرة الغاضب الثائر . كأنها تطوف بالعالم حانقة أبداً على أعمال وأمور لا حظتها ؛ وكانت رجلاها زرقاوين طويلتين قويتين جداً .

قال الفرجينى : « ما أجدرها أن تلبس السراويل الفضفاضة ؛ وستبدو فيها أحسن بكثير من بعض طلاب الجامعات ، أتقول إنها ترقد على البطاطس ؟ »

قلت : « إنها تظن أنها تستطيع أن تخرج الكتاكيت من أى شىء فقد وجدتها مرة راقدة على بصل ، وفى الثلاثاء الماضى كانت ترقد على كرتين من الصابون . »

خرجت بعد الظهر أنا وراعى البقر الطويل القامة لكى أصطاد وعلاً ، وبعد أن مرت بنا ساعة فى صمت تام قال :

« يخيل إلى أن هذه البلاد المقفرة والوحدة التى تسودها لم تلائم صحة الدجاجة إميلى ، فهى لا تلائم الكثير من بنى آدم ، وكثيراً ما أصيب الصيادون فى عزلة الجبال بنوع من الخبل فيتكلم الواحد منهم بصوت عال ، كأن بينه وبين من يحتمل أن يسمعه مائة ميل على الأقل ! »

فأجبته : « إن إميلى لا يجوز أن تشكو الوحدة لأن معها أربعين دجاجة . »

قال : صدقت وليس فيما قلته ما يفسر حالتها ؛ ثم عاد إلى صمته وهو

راكب إلى جانبى فى سهولة واسترخاء على سرج جواده وكانت قامته الطويلة تبدو مفككة غير متماسكة ، حتى إن وثوبه إلى الأرض بخفة بدا كأنه ضرب من المحال . وقد وثب لأنه رأى وعلاً من حيث لم أر أنا شيئاً .

وأشار إلىّ بأن أسرع ، فقلت : « أطلق أنت عليه النار ، إنك لم تصد مرة وأنا معك » فأجابنى : « إنى لست هنا من أجل ذلك ، والآن تركت الوعل يبتعد عنك » ، وكان الوعل حقيقة قد ذهب بعيداً ، ثم قال : « أمامى فرص كثيرة لصيد الوعول . بماذا تفسر حالة إميلى ؟ »

قلت : « ليس عندى لها تفسير » . عند ذلك تحول تفكيره ذلك التحول الذى يجعلنى أحبه ، فقال : « يجب أن يراها تيلر ، فإنها هى المعلمة التى تلائمهم بالضبط فى بير كريك »

قلت : « إنها ليست تماماً مثل السيدة صاحبة المطعم فى مدسن بو » ، فضحك ضحكاً عالياً وقال : « كلا ، إن إميلى لا تعرف شيئاً عن تلك المسرات . إذن ليس لديك ما تفسر به سلوكها الشاذ . لدىّ أنا فكرة . أظن أنها ولدت إثر عاصفة هائلة . »

قلت : « عاصفة هائلة ؟ » قال : « نعم . ألا تعرف شيئاً عن أثر العواصف فى البيض ؟ إن العاصفة ذات الرعد والبرق تفسد البيض فلا يفرخ . وظنى أن إحدى هذه العواصف قد أفسدت البيض الذى كانت إميلى واحدة منه ولكنها هى بالصدفة نجت من الفساد الكامل فأمكنها أن تخرج من البيضة بأعجوبة ولكن الصدمة أثرت فيها »

قلت : « لا شك أن إدراكها ضعيف . » قال : « إن نواياها شريفة جداً ، فإذا كانت عاجزة عن إنتاج البيض فإنها على الأقل تريد أن تفرخ وأن تكون أماً على كل حال . »

قلت : « لا أدرى ما حكم القانون فى دجاجة تفرخ من بيضة لم تبضها ؟ » ولكن الفرجينى لم يرد على هذا السؤال العابث ، وظل يحدق فى الفضاء

الواسع عابساً وكأنه ليس منتبهاً لشيء ، ولكنه كان دائماً يرى الصيد قبل أن أراه وكان يثب عن جواده ، وينبطح وسط الحشائش ، وأنا لا زلت أنتزع رجلى اليسرى من الركاب ، وقد وفقت أخيراً لصيد أحد الوعول ، وركبنا إلى المنزل ومعنا رأسه وفخذاه .

قال : « لا شك أن العاصفة هى السبب لا الوحدة . وأنت هل تعجبك حياة الوحدة فى هذا الإقليم ؟ » قلت له : إنى أحبها . قال — مشيراً بيده إلى الفضاء الواسع العريض —: « إنى لا أستطيع أن أعيش بعيداً عنها ، فقد تغلغلت فى لحمى ودمى ، لقد عدت مرة الى بلدى لأرى أهلى . وكانت والدتى يسعى إليها الموت ببطء ، وأرادت أن ترانى فمكثت هناك عاماً . ولكن جبال فرجينيا لم تعد تطيب لى . فبعد أن انتقلت إلى رحمة الله ، قلت الوداع لإخوتى وأخواتى ، وعلى الرغم من الحب المتبادل بيننا فإنى لن أعود . »

وجدنا أميلى جالسة على ثمرات من خوخ كاليفورنيا الأخضر أحضرها القاضى من القطار ، فقلت : « إنى لم أعد أغضب مما تفعل ، ولكنى أرثى لحالها » .

قال الفرجينى : « لقد كنت دائماً أرثى لحالها . وبغضها الشديد للديكة » . ثم قال إنه بدأ يكوّن مجموعة من كل شىء اتخذت منه بيضاً تستفرخه .

غير أن جهود إميلى فى جمع البيض لم تلبث أن انتهت فجأة فى صباح أحد الأيام ، واتجه نشاطها العظيم وجهة جديدة . فإن إحدى الدجاجات الرومية ، التى كانت راقدة من قبل على بيضها ظهرت فجأة ومعها اثنا عشر طفلاً ، وكذلك ظهرت فى نفس الوقت تقريباً أسرة من دجاج الحقل تتألف من الأم الصغيرة وكتاكيتها . وبينما إميلى فى حظيرة الجواد تفحص الأرض بأظافرها بجد وعظمة ، إذ لمحت الأسرة من خلال القضبان . فانطلقت تعلو من الحظيرة ، وقطعت الطريق على « كتكوتين » تخلفا قليلاً عن أمهما . ولم تلبث أن استحوذت عليهما ، وصاحت صيحة التهديد والوعيد فى وجه أمهما ، وهى الأصغر

والأضعف ، فاضطرت هذه إلى التراجع بما تبقى من أسرتها الكثيرة العدد ، عند ذلك تدخلت فى الأمر وقمت بتصحيح الأوضاع ، ولكن تدخلى لم يكن له إلا أثر مؤقت . فقد رأيت إميلى بعد ساعة ومعها فرخان آخران ، وهى منهمكة فى رعايتهما والعناية بهما عناية لا بد لى من الاعتراف بأنها أمومة ممتازة .

ثم حدث بعد ذلك الحادث الأول الذى جعلنى أشك فى سلامة إدراكها . فقد ذهبت بالفرخين اللذين تبنتهما إلى الفضاء الواقع خلف المطبخ ، حيث تجرى إحدى قنوات الرى مخترقة حقل البرسيم ومارة تحت السياج لتمد المنزل بالماء ؛ وعلى مسافة غير بعيدة فى داخل الحقل الذى حصد برسيمه حديثاً ، كانت الاثنتا عشرة دجاجة رومية ترعى بالقرب من حافة القناة . وإذا إميلى تنطلق مرة أخرى كالغزال النافر تاركة الكتكوتين ، فى حيرة من أمرهما . ولم تلبث أن اخترقت القناة بوثبة واحدة برجليها الزرقاوين المتينتين . وطارت فوق العشب حتى وقفت وسط الفراخ الرومية . وبغريزة الأمومة التى لا تميز ولا تحجم عن شىء ، أخذت تحاول أن تدفع بعض الفراخ أمامها لتذهب بها بعيداً . ولكن الأم لم تكن من دجاج الحقل ، فلم تمض لحظات حتى كانت إميلى قد هزمت شر هزيمة ، وأخفقت فى الحصول على أسرة من نوع جديد .

شهدت هذا المنظر أنا والفرجينى ، فكان أثره بليغاً فى نفسه ، وانطلق صامتاً إلى منامة الرعاة حيث جلس على فراشه منفرداً . وتوليت أنا نقل الفرخين المهجورين إلى أسرتهما الحقيقية .

كثيراً ما تساءلت عن رأى سائر الدجاج فى هذا كله . ولست أشك أنه أثر فيهم بعض التأثير . وقد يبدو هذا الرأى غريباً للذين لم يراقبوا عن كثب حيواناً آخر غير الإنسان . ولكنى واثق أن أى مجموعة من الكائنات تشاركنا بعض غرائزنا لا بد أن تشاركنا فى مشاعرنا المترتبة عليها . وأن للطير والدواب تقاليد يزعجهم الخروج عليها ، ولئن صحت نظرية التطور ، فإن هذه النتيجة لا مفر منها . ومهما يكن من أمر ، فقد ساد الاضطراب بيت الدجاج عدة أيام بعد

ذلك . وكانت إميلى تتعرض أحياناً لفراخ الغيط ، وأحياناً للفراخ الرومية ، وقد نفق بعضها بعد ذلك ، ولو أنى لا أريد أن أزعم أن هذا كان نتيجة تدخلها الذى لا مبرر له . ومع ذلك فقد أخذت أفكر جدياً فى حبسها حتى تكبر الفراخ قليلاً ، لولا وقوع حادث جديد ، ساد بعده الهدوء .

أقبلت كلبة القاضى صباح يوم تهز ذنبها . وكانت قد أنتجت ذريتها ، وقادتنا لترينا المكان الذى وضعتها فيه : فى الفراغ الواقع تحت أرضية أحد الأبنية وهناك ألفينا إميلى راقدة على المجموعة كلها . فقلت للقاضى : «إن هذا لا يدهشنى فهى خليقة أن تأتى كل أمر مهما كان غريباً » .

وقد وفقت الدجاجة أخيراً ، وهى تبحث عن نسل جديد ، إلى أم غير جديرة بالأمومة . فإن الكلبة كانت متضايقة من ذراريها . ورأت أن الجحر تحت المنزل مكان « مظلم » ممل إذا قيس إلى حجرة المائدة ، كما أن مصاحبتها لنا أرفه وأحب إلى نفسها من صحبة أولادها . والظاهر أن اتصالها بالجنس البشرى الأرقى ، وما لقيته من التدليل الكثير ، كان سبباً فى تنمية ذكائها فوق مستواه الطبيعى ، وجعل منها أماً غير طبيعية ، شديدة الإهمال تنسى واجبات الأمومة لانشغالها بملذات الحياة الدنيا .

وكانت تختلف إلى أبنائها فى فترات من النهار لترضعها . ولكنها كانت تتركها بمجرد الفراغ من أداء هذا الواجب الثقيل . وقد سرها أن وجدت ظئراً تتولى تربيتها . لذلك لم يحدث خلاف بينها وبين إميلى ، وكان بينهما تفاهم تام . ولم أر فى حياتى بين الحيوانات اتفاقاً كهذا مطابقاً لمظاهر الحضارة والمدنية ومخالفاً للعرف والطبيعة . وكانت إميلى بذلك سعيدة كل السعادة . ولو تراها وهى ترقد طول النهار باسطة جناحيها على بعض الجراء التى لم تتفتح عيونها بعد ، لكان فى هذا ما يكفى لإثارة العجب . ولكنى تمنيت أن لو أتيح لأحد علماء الحياة النوابغ أن يراها بعد ذلك وقد كبرت الصغار وأمكنها أن تخرج من الجحر ، وهم يمشون خلفها . وهى تسعى أمامهم . ولقد شعرت أن جهلنا يجعلنا غير جديرين بمشاهدة

هذه الظاهرة . وقد جعلت إميلى تفحص الأرض وهى تصيح صيحاتها المتقطعة . والجراء تجرى إليها ، فتداعبها بأرجلها الصغيرة السمينة ، ثم تعتصم بجناحها وهى تلعب لعبة الاختفاء . وفى وسعك أن تتصور إذا استطعت ما كان يدور بعقلهم الصغير ، الذى اختلط عليه أمر الكلبة وماذا عسى أن يكون بينهم وبينها من صلات .

قال الفرجينى : « أكبر ظنى أنهم يحسبونها المرضعة » .

ولما كبرت الجراء وأخذ عبثها وضجيجها يشتد ، أدركت أن رسالة إميلى تشرف على نهايتها . فإن وزن كل جرو منها ازداد كثيراً ، واتسع مجال لعبها إلى أبعد مما تستطيع إميلى احتماله . وقد ألقوا بها على الأرض مرة أو مرتين . فنهضت وأخذت تنقرهم بشدة ، فتراجعوا بعيداً عنها . وجلسوا فى دائرة ينبحون فى وجهها . وإخالهم قد أخذوا يدركون أنها برغم كل شىء ما هى إلا دجاجة . فانصرفت عنهم إميلى بشىء من عدم الاكتراث أدهشنى أول الأمر ، إلى أن تذكرت أن قد حان الحين لتركهم حتى لو كانوا فراخاً .

على كل حال أصبحت إميلى مرة أخرى «خالية شغل » — كما قال الفرجينى ونظرا إلى أن هنالك « كتاكيت » أخرى توشك أن تظهر فى بيت الدجاج ، فإنى لم أرد أن أشهد تكراراً لقصة الفراخ الرومية وفراخ الغيط . واتقاء لما قد يحدث من اضطراب رأيت أن أحتال بحيلة على إميلى فذهبت إلى جدول سنك كريك وانتقيت بعض الحصا الناعم البيضى الشكل لترقد عليه . وقد ارتاحت لذلك تماماً وقضت يوماً راقدة عليه فى صندوق ، فقال الفرجينى : « إن هذا ليس عدلا . أتريد أن تعبث بها وتتركها على هذه الصورة ؟ » . قلت : ولم لا ؟ . قال : « لقد قامت بتربية الجراء أحسن قيام . ألم تثبت لنا أنها تعرف كيف تنهض بواجبات الأمومة ؟ . إن إميلى لن تضيع وقتها عبثاً وأنا موجود هنا » . ثم مد يده وأمسك إميلى برفق وأنزلها من الصندوق إلى الأرض . وقد انزعجت لذلك وانطلقت تجرى بين الحظائر فى حالة اضطراب عصبى شديد .

قلت : « لست أرى أى خير فى تدخلك . »

فلم يرد علىّ بل أمسك بالحصا ورفعه من فوق الحطب وقال فى تأثر : « انظر ما أشد دفئه ! ويحها من مخدوعة غررت بها . » ثم لم يلبث بعد أن وصفها بهذا الوصف العجيب أن رمى بالحصا فانطلق فى الفضاء كأنه سرب من الطير . ثم قال : « إن أمر إميلى أخذ يؤثر فى نفسى . ولا حاجة بك لأن تضحك من ذلك ، ألست ترى أن لها نوعاً من الشعور والرغبات البشرية ؟ وقد كنت أعلم من قبل أن فرسى ، بل وجميع الخيل كلها تشبه الآدميين . وقد يبدو هذا القول هراء . ولكن إميلى ستنال الآن فى هذه اللحظة بيضة حقيقية لكى ترقد عليها » ثم تناول بيضة من تحت إحدى الدجاجات ووضعها فى الصندوق وقال : « سنجعل إميلى ترقد على هذه البيضة هنا ، فلا يذهب وقتها عبثاً ومجهودها هباء ».

ولم يتم التنفيذ بسرعة لأن إميلى — لأمر ما — أبت أن ترقد فى الصندوق الذى أخرجت منه عنوة ، وبعد قليل وجدنا لها مكاناً آخر تأوى إليه ، وفى هذه البيئة الجديدة ، وقد أصبح لديها عمل تؤديه ، رقدت إميلى على البيضة التى اختارها لها الفرجينى بكل عناية .

وهكذا أمكن للقضاء أن يضرب ضربته ، بفضل الصدفة ، والنوايا السليمة الطيبة ، كما هى الحال دائماً فى جميع مآسى الحياة .

فقد رقدت إميلى على بيضتها مساء الجمعة . وفى بكرة الصباح التالى تطاير النوم من عينى تدريجياً بسبب صراخ غريب لا ينقطع . يخفت أحياناً كأنه يبتعد ، ثم يقترب بعد ذلك ويدور وينتقل إلى الجانب الآخر من المنزل . ثم تأكد لدى أن هذا الصوت ، أيا كان مصدره ، أخذ يمر ببابى ، فنهضت من فراشى وكان الصوت الشديد بتموجاته المتدافعة كأنه صادر من آلة موسيقية تقريباً ، بل لعله كان أقرب إلى الصوت الحاد لآلة تدور وإن كان أقل عنفاً . فلم ألبث أن وثبت إلى خارج المنزل بملابس النوم .

فألفيت أمامى إميلى وقد انتفش ريشها . تمشى فى دهشة واضطراب ، وقد

أفرخت بيضتها الوحيدة بأعجوبة عجيبة ، بعد أن رقدت عليها عشر ساعات ، وخلفها كرة صفراء من الزغب تمشى متعثرة وراءها أينما ذهبت وعلى قدر استطاعتها . ماذا حدث إذن للمدة المقررة للتفريخ ؟ لقد هممت أن أرى فى الأمر معجزة أو نذيراً من النذر ، وكدت أشارك إميلى دهشتها ورعبها ، لولا أن وضحت لى جلية الأمر . فإن الفرجينى قد تناول بيضة من تحت دجاجة كانت راقدة على بيضها منذ ثلاثة أسابيع .

أخذت أرتدى ثيابى بسرعة ، وأنا أسمع صيحات إميلى الجنونية ، وهى مطردة لا يكاد يتخللها توقف ملحوظ للتنفس ، وكان الصوت دليلاً على تنقلها المضطرب بين الاصطبلات والأزقة والحظائر ، وأخرجنا هذا الضجيج جميعاً لكى نراها . ورأيت فى بيت الدجاج أن الفراخ الجديدة قد أنتجت فى الوقت المحدد .

على أن هذا التفسير الطبيعى لم يمكن للدجاجة الحمقاء أن تدركه ، وظلت دائبة على طوافها بأرجاء المكان وذيلها المعوج وريشتها الطويلة تهتز وراءها وهى تسير على غير هدى . وأرجلها القوية تخطو خطوات عالية غريبة ، وقد رفعت رأسها حتى أوشك أن ينفصل عن رقبتها . وفى لمعان عينها الصفراء ما يعبر عن السخط . بل ما هو أشد من السخط ، على هذا القلب لقوانين الطبيعة . ومن خلفها يسعى نسلها الصغير منسياً مهملاً كل الإهمال . لم تنظر إليه إلا مرة واحدة ، ومضى كل منهما إلى عمله ، وظل صراخها المدوى ، الذى لا ينتهى ، يتجاوب فى أرجاء المكان طوال النهار المشمس . وقد قدم لها الفرجينى الطعام والماء ولكنها لم تذق شيئاً . ويسرنى أن الفرخ الصغير قد أصاب منهما كفايته . وأكبر ظنى أن عين الدجاجة لم تكن تبصر ، اللهم إلا على طريقة الأشخاص الذين يمشون فى نومهم .

ثم برد الهواء ، وأخذ اللون البنفسجى يبدو فوق أعالى النهر ، ومضت ساعات ولكن إميلى لم تكف عن الصراخ. ثم رأيناها فجأة تثب إلى شجرة . وتجلس فوقها دون أن تنقطع ضوضاؤها . وقد ارتفع صوتها أخيراً عدة درجات فأصبح حاداً

ملؤه الرعب والفزع . ولم يعد مشابهاً لصوت الآلة أو لأى صوت آخر سمعته من قبل أو من بعد . وقد وقف الفرخ الصغير الحائر ، يصيح صياحه الخافت ، ويثب وثبات صغيرة لكى يصل إلى أمه .

قال الفرجينى : « أجل إن سخرية الأقدار أبت إلا أن تجعل بيضتها مخالفة لكل بيضة أخرى » . ثم سكت لحظة وهو ينظر إلى السهول الواسعة ، التى اصفرت زروعها ، وعليه سيما الجد الذى يعتريه كثيراً ، ثم نظر إلى إميلى على الشجرة ، وإلى فرخها على الأرض . وقال : « ليس فى الأمر ما يبعث على الضحك . »

وبعد أن ذهبنا إلى العشاء خرجت فألفيت الدجاجة ملقاة على الأرض ميتة . فحملت الفرخ الصغير إلى أسرته فى بيت الدجاج .

حقيقة إن القصة لم تعد مما يبعث على الضحك . ولم ينقص تقديرى للفرجينى ، حينما فاجأته وهو يحفر حفرة فى الحقل ليودع فيها جثمانها . وقال : « سبق لى أن دفنت فى مختلف الجهات أناساً كان احترامى لهم أقل من احترامى لها . »

فعند ما آن الأوان لمغادرتى سنك كريك ، كانت آخر كلمة قلتها للفرجينى : « لا تنس إميلى » . فقال : « هيهات أن أنساها ، فإنها رمز من الرموز العجيبة» .

وقد كف الفرجينى منذ حين عن مخاطبتى بيا سيدى . إلا إذا كان يستخدم لهجة بلاده فرجينيا ، وقد قيل لى إن رحلاته العديدة كادت تمحو أثر هذه اللهجة من كلامه إلى أن أحيتها زيارته الأخيرة لبلده . وقد زالت الآن جميع الحواجز التى كانت تفرق بيننا وانعقدت بيننا أواصر الصداقة . وتبادلنا كثيراً من الأسرار سواء ما اتصل منها بالحياة المادية أو الروحية . وبلغ من تودده إلىّ أن وعدنى بأن يكتب لى أنباء سنك كريك إذا أرسلت إليه سطراً من آن لآخر . ولدىّ الآن منه رسائل عديدة . وقد أصبح هجاؤه على مر الزمن سليماً لا غبار عليه ، ولم يكن أول الأمر أردأ من هجاء جورج واشنطن .

وقد أوصلنى القاضى نفسه بمركبته إلى السكة الحديدية بطريق آخر مخترقاً

جبال بولج ، ثم متجهاً إلى الجنوب ماراً بمزرعة بلعم وبلدة دريبون إلى رُكْ كريك — الجدول الصخرى — .

فقلت له : « سيكون حنينى شديداً إلى هذه الديار . »

فقال لى : « تعال واطرق الباب متى شئت . »

وليتنى كنت أستطيع ذلك ، فما أظن أن بلداً يمتاز بالراحة والدعة قد أثر بسحره فى إنسان كما أثر فىّ سحر ويومنج .

## ٧

# ما بين جليدين

« صديقى العزيز » هكذا كتب إلىّ الفرجينى فى الربيع « تسلمت كتابك ، إن الوقوع فى المرض أمر يبعث على الأسف . عند ما أطلقت علىّ النار فى كنيادا دى أورو ، كاد الحادث أن يوقعنى فى المرض ، لو أن الرصاصة أصابت منى مكاناً أوطأ أو كنت من المكثرين للشراب ، وما أجدرك أن تفيق من سقمك لو أنك هجرت حياة المدن وشاركتنى فى الصيد فى أغسطس أو سبتمبر ، إذ يكون وعل الإلك منتشراً وسط الأعشاب .

الأحوال هنا لا تسرنى كثيراً فى الوقت الحاضر ، وسأعالجها بالرحيل ، ولكن يسرنى أن أراك ، وسيكون من بواعث سرورى ، لا مجرد عمل أؤديه ، أن أريك كثيراً من الوعول ، وأن أعمل على تقويتك ، وليس فى نيتى أن أستغيث بالقاضى أو أن أشكو ما ألاقيه . واثقاً أنه سيردنى إلى خدمته بعد مضىّ وقت قليل ، والوقت خير علاج .

والآن أجيبك إلى ما سألتنى عنه : من الجائز أن تكون الدجاجة إميلى تعاطت بعض حشائش ( لوكو ) إذا كانت مما يتعاطاه الدجاج . ولكنى لا أعرف حيواناً يتسمم بتلك الحشائش سوى الخيل والماشية . أما المدرسة فلم يتم بناؤها ، والقوم فى بير كريك ثرثارون . لم أر ستيف أخيراً ، على الرغم من وجوده بالقرب منا ، وإنى أرثى لحاله . وقد ذهبت إلى مدسن بو ولقيت فيها ما أبغيه من الترحيب. هل تذكر رجلاً لاعبته البوكر ولم يسره لعبى ؟ إنه يشتغل الآن فى المزرعة العليا بالقرب من تن سليب . وهو شخص لا يقام له وزن إلا عند الضعفاء العاجزين .

رزق العم هيوى توأمين . وقد أثار فتياننا غضبه حول هذا الأمر . ورأبى أنه هو أبوهما . هذا كل ما لدىّ من الأنباء اليوم . ويسرنى أن أراك قريباً . ولا معنى لأن تظل مريضاً » .

وفى الجزء الباقى من الكتاب أخذ يوضح لى أفضل مكان نلتقى فيه إذا ما قررت أن أشاركه الخروج للصيد .

وقد خرجنا معاً للصيد . وفى الأسابيع التى قضيناها معاً أدلى إلىّ بعبارات استبنت منها الأسباب التى حملته على ترك خدمة القاضى ذلك السيد العظيم . ولم يطل الكلام فى هذا الأمر ، إذ ليس من طبعه أن يتحدث كثيراً عن متاعبه الخاصة . والظاهر أن رئيس الرعاة أو الرئيس المساعد كان يغار منه . فرأى نفسه يؤدى دائماً أعمال غيره من الناس ، ولكن بطريقة مرتبة بمهارة فائقة ، بحيث لا يحصل من وراء ذلك على تقدير أو أجر . وأبت عليه نفسه أن ينزل بها إلى الشكوى . ولذلك هداه تفكيره السريع ونظره الثاقب إلى حل بسيط وهو أن يغادر المزرعة . وفى تقديره أن القاضى سيدرك بالتدريج أن هناك صلة بين رحيله ، وبين اضطراب العمل ، وكانت نيته أن يعود بعد فترة من الوقت ، إلى جوار سنك كريك وينتظر النتيجة .

أما عن ستيف فلم يدل بأقوال أكثر مما جاء فى خطابه . ولكن كان من الواضح أنه لأمر ما قد انقطع ما بينهما من الصداقة .

وقد رفض بكل شدة أن يقبل أجراً على خدماته لى أثناء الصيد . وقال إنه لم يؤد عملاً يكفى لكسب قوته . وقد انتهت رحلتنا فى ركن غير مطروق فى يلوستون بارك ، بالقرب من خانق بتسستون . حيث شهد هو والفتى لن ماكلين وآخرون مأساة حزينة مرعبة ، قد سجلت تفاصيلها فى مكان آخر . وقد صدق الفرجينى فيما تنبأ به عن تطور الحوادث فى سنك كريك . والأمر الوحيد الذى لم يتنبأ به هو الأثر الذى تركه مسلكه فى نفس القاضى .

فقد زار القاضى الولايات الشرقية فى أواخر الشتاء وفى صحبته مسز هنرى ،

وأمكننى بوساطتهما أن أكشف عن بعض الأمور ، وقد عاد الفرجينى إلى سنلك كريك . وقالت مسز هنرى : « وما كان له أن يتركها لو أن رأبى نفذ يا حضرة القاضى » .

قال زوجها : « نعم يا عقيلة القاضى . أعرف هذا تماماً ، وقد كنت دائماً يعجبك المظهر الجميل للرجال » .

قالت وهى تبتسم : « بلا شك . ولقد كنت بعد رحيله فى شوق لأن أراه يحضر لى جوادى كعادته وقد صفف شعره بإتقان . ولف حول عنقه ذلك المنديل الأزرق ذا النقط البيضاء . »

قال : «شكراً لك يا عزيزتى على هذا التحذير : وقد رسمت خططاً للمستقبل من شأنها أن تبقيه غائباً عنا دائماً » .

ثم أخذا يتكلمان بأسلوب أقل عبثاً فقالت السيدة : « لقد عرفت دائماً أنك أصبت كنزاً يوم جاء إلينا هذا الرجل » .

فضحك القاضى وقال : « عند ما تبين لى كيف احتال لكى أعرف مقدار خدماته لى بحرمانى منها ، أخذت أشك فى أن من المأمون أن أعيده إلى الخدمة . »

فصاحت مسز هنرى : « من المأمون ؟ »

قال القاضى وهو يضحك مرة أخرى : « أجل ليس من المأمون . فإنى أخشى أنه يوشك أن يعادلنى ذكاء وفهماً ، وهذا أمر خطر فى أحد الأتباع . غير أن مسلكه نحو الرجل الذى يدعونه ستيف قد أراح بالى » .

هنالك أدركت أن الفرجينى قد تبين بوسيلة من الوسائل أن ستيف زالت عنه تلك الأمانة التى تقدس ما يمتلكه الآخرون من الماشية . ومع أن الأمر لم يكن ثابتاً كل الثبوت ، فإن العجول أخذت تختفى من بلاد الماشية ، وكثيراً ما وجدت الأبقار قتيلة . والعجول الموسومة بوسم خاص فى صحبة أمهات لها وسم آخر . وقد أخذت هذه الأعمال تنتشر فى بلاد الماشية . وأخذت الشبهات تحوم حول البعض ممن يمارسونها . ومع أن الشبهة لم تثبت تماماً حول ستيف فقد بات معلوماً أن

الفرجيني قد هجر صحبته هجراً تاماً . وإن لم ينبس أحد الرجلين بكلمة فى هذا الأمر .

ونبأ آخر بلغنى وهو أن المدرسة فى بير كريك قد تم إنشاؤها . سقفاً وجدراناً وحجراً وأرضاً . وأن سيدة من بننجتن فى ولاية فرمنت ، صديقة لمسز بلعم ، قد قررت فجأة أنها تقبل أن تجرب مقدرتها على تثقيف الجيل الجديد .

وقد عرف القاضى وزوجته ذلك لأن مسز بلعم أبلغتهم أسفها الشديد على تغيبها عن مزرعتها فى بت كريك ، بسبب حضور صديقتها ، وأن هذا سيحرمها من استقبالهما . والظاهر أن صديقتها قد اتخذت قرارها هذا فجأة ، ولا بد لنا أن نجعل هذا موضوع الفصل التالى .

## ٨

# العانس المخلصة

لست أدرى على أى التقديرين وافقت : أعلى تقدير مستر تيلر ، أم على رأى الفرجينى . هل ظننت أن الآنسة مارى ستارك ود بلغت الأربعين كما زعم الأول ؟ إذن تكون أخطأت الظن . فحينما أرسلت كتابها إلى مسز بلعم ، وهو الكتاب الذى أوردنا أجزاء منه فى هذه الصفحات ، كانت فى عامها الواحد والعشرين ، أو بعبارة أدق كانت قضت من العمر عشرين عاماً وثمانية أشهر .

وليس من الأمور العادية المألوفة أن تقوم فتاة فى العشرين برحلة تقارب الألفين من الأميال . إلى بلد تعيش فيه الهنود والوحوش حرة طليقة ، اللهم إلا إذا قامت بالرحلة فى صحبة شخص يحميها ، أو لكى ترتمى بين ذراعى حام آخر فى نهاية الرحلة . وكذلك ليس التدريس فى بير كريك من الأمور العادية التى يتطلع إليها مثل تلك الفتاة .

غير أن الآنسة مارى ستارك ود لم تكن شخصاً عادياً . وذلك لسببين :

أولهما نسبها وأرومتها . وهى لو شاءت لكانت عضواً فى أى عدد من تلك الجمعيات الوطنية ، التى كثيراً ما اعتادت آذاننا الأمريكية أن تسمع بها . كان فى وسعها أن تنضم إلى جمعية الشاى ببسطن ، أو إلى إيتان ألن تيكوندروجاس ، أو إلى بنات الجبل الأخضر ، أو إلى حلقة سراتوجا المقدسة . أو غيرها . فقد كانت تنحدر مباشرة من نسل تلك السيدة العظيمة « مولى ستارك » التى تحمل اسمها . والتى أبت أن تكون أرملة بعد المعركة التى حارب فيها زوجها الكابتن جون بشجاعة فائقة ، بحيث ظلت قصته تهز مشاعر الأجيال المتتالية من فتيان

المدارس . وهذه الجدة هى التى أكسبتها الحق فى عضوية تلك الجمعيات اللامعة التى ذكرتها . ولكنها أبت أن تنضم إلى واحدة منها ، على كثرة ما أرسل إليها من دعوات الانضمام ولا أستطيع أن أخبرك عن سبب امتناعها . ولكن فى وسعى أن أذكر لك ما يلى :

إذا ذكرت هذه الجمعيات أمامها فإن وجهها المشرق يزداد إشراقاً . وتجارى الحاضرين فى إسباغ عبارات المدح والثناء عليها. ولكنها إذاتسلمت دعوة للانضمام إلى إحدى تلك الجمعيات فإن محياها أثناء مطالعة الدعوة كان يتخذ صورة من تلك الصور التى يصفها أصدقاؤها بأنها «ترفع أنفها فى الهواء » ولا أظن أن السبب الذى حمل مولى على رفض تلك الدعوات من الأسباب القوية . وكان أعز شىء تمتلكه — وهو بمثابة كنز تصطحبه معها ، وإن لم تغب عن دارها أكثر من ليلة واحدة — عبارة عن صورة صغيرة لمولى ستارك . للسيدة مولى ستارك الأولى ، وهو ذخر موروث ، وقد رسمت الصورة عند ما كانت تلك السيدة لا تكاد تتجاوز العشرين ربيعاً . كانت مولى الصغيرة تذهب كل صيف لتزور البقية الباقية من أقاربها الذين يحملون اسم ستارك فى مدينة دنبارتن بولاية نيو همبشير ، طبقاً لتقاليد الأسرة . ولم تكن كلمة أحب إلى سمعها فى تلك الزيارات من عبارة ترددها إحدى خالات أمها ، حين تأخذ بيدها وتتأمل وجهها بشوق وحب ثم تقول :

« إنك يا عزيزتى تزدادين كل عام شبهاً بزوجة الجنرال ! »

فترد عليها مولى : « أظنك تقصدين بذلك شكل أنفى » .

— « كلا أيتها الطفلة ، إن لك الأنف الطويل الذى يميز الأسرة ، وما سمعت يوماً أن هذا كان مثاراً للنقد . »

— « ولكن لا أظن أن لقامتى من الطول ما يتناسب معه » .

— « حسبك ، اذهبى الآن إلى غرفتك والبسى ثيابك لتناول الشاى . فإن أسرة ستارك شديدة الحرص على المواعيد » .

وبعد هذا الحوار الذى كان يتكرر سنوياً تمضى مولى إلى مخدعها ، وهناك تجلس بمفردها لحظة طويلة تتأمل فى شيئين . وإن كان فى هذا ما قد ينزل بها عن مستوى المحافظة على المواعيد الذى اشتهرت به أسرة ستارك . أما الشيئان ، وأظنك قد عرفتهما ، فهما صورة زوجة الجنرال ، والمرآة .

وحسبنا ما تقدم شرحاً لنسب الآنسة مولى ستارك ودْ .

أما السبب الثانى الذى جعل منها شخصاً خارجاً عن المألوف فهو خلقها . وقد كان هذا الخلق ناتجاً عن الأنفة والشجاعة المتوارثة فى أسرتها ، وهما يكافحان من أجل الأسرة إبان محنتها .

وكان قد بقى عام واحد على الموعد المحدد لكى تقدم مولى رسمياً إلى العالم ، لا إلى العالم الضخم فى العواصم ، ولكن إلى عالم يرحب بها ويكرمها فى حفلات الرقص ودعوات العشاء المحدودة فى بلاد مثل تروى ورتلند وبرلنجتن ، غير أن الحظ فى تلك السنة قلب لأسرة ود ظهر المجن . ولم تكن ثروة الأسرة فى أى وقت عظيمة ، ولكنها كانت كافية بحيث أمكن لها على مر الأجيال أن ترسل أبناءها وبناتها إلى مدارس السادة . وأن ترتدى ملابس السادة . وكانت كاالسادة فى حديثها ومشربها ، وكالسادة فى حياتها ومماتها . ثم تدهورت المصانع وهى عماد ثروتها .

وبدلاً من أن تفكر فى اقتناء أول « فستان » للسهرة ، نرى مولى وقد وجدت تلاميذ تعلمهم دروس الموسيقا ، ووجدت مناديل تطرز عليها الحروف الأولى ، ووجدت فواكه لتصنع منها المربى . وكانت الآلة الكاتبة التى نعرفها اليوم قد ظهرت . ولكن اليوم الذى احترفت فيه النساء الكتابة عليها لم يكد يشرق فجره بعد . وإلا لكانت مولى فيما أظن تفضلها على المناديل والمربى .

وكان فى بلدة بننجتن أناس يعجبون كيف تطوف الآنسة ود من منزل لمنزل لتعلم البيانو وهى سيدة ذات حسب ونسب ، وأحسب أنه كان فى العالم دائماً أناس من هذا النوع ، لأن العالم دائماً يشتمل على كومة من القمامة . وليست بنا

حاجة الى أن نطيل الحديث عنهم بأكثر من ذكر عبارة أخرى ذكروها خاصة بمولى . فقد قالوا جميعاً بصوت واحد إن سام بانيت زوج كفء لأية فتاة تطرز الحروف المزخرفة بسعر خمسة سنتات للحرف الواحد .

وقالت مسز فلنت ، زوجة القسيس لطائفة المعمدين : « أكبر ظنى أن له جدة قديمة لا تقل نبلاً عن جدتها » .

فرد عليها مطران الكنيسة الأسقفية فى بلدة هوسى : « إن هذا جائز من غير شك ولكننا لا نعرف من هى ؟ » وكان المطران من أصدقاء مولى . ولم تقل مسز فلنت كلمة أخرى بعد هذا الرد ، بل أتمت مشترياتها فى المتجر الذى التقت فيه صدفة بالمطران . ثم قالت بعد ذلك لأحد أصحابها : إنها كانت تظن دائماً أن الكنيسة الأسقفية متكبرة متعجرفة ؛ والآن أصبحت واثقة من ذلك .

وهكذا ظل الرأى العام حانقاً على مسلك مولى ، التى لم تتورع عن النزول إلى مستوى العمل لكسب النقود ، ومع ذلك تترفع عن أليق شاب فى بلدة هوسى وكل هذا لأن هناك اختلافاً بين جدتها وجدته .

ولكن هل كان هذا هو السبب الحقيقى الذى دعاها إلى رفضه ؟ هل هذا هو السبب الكامن فى قرارة نفسها ؟ لا أستطيع أن أقطع فى الأمر برأى ، لأنى لم أكن يوماً من الأيام فتاة ، أحس كما تحس .

فربما كانت ترى أن العمل لا ينزل بها عن مستواها ، فى حين أن الزواج قد يهبط بها عن منزلتها . ومهما يكن من الأمر فإن الذى أعلمه أن مولى ود ظلت دائبة على تطريز المناديل وصنع المربى وتعليم التلاميذ ، وعلى رفض سام بانيت بحزم وإصرار .

وظلت الحال على هذا المنوال حتى بلغت العشرين ، ثم أخذ أفراد أسرتها يخبرونها أن سام يوشك أن يثرى ، بل لقد أثرى فعلاً . وكان هذا هو الوقت الذى كتبت فيه إلى مسز بلعم عن شكوكها ورغباتها فى المهاجرة إلى بير كريك. وهذا هو أيضاً الوقت الذى ازداد فيه وجهها شحوباً ، حتى ظن صواحبها أنها

ترهق نفسها بالعمل ، وزعمت مسز فلنت أنها أخذت تفقد جمالها . وهذا هو الوقت أيضاً الذى استحكمت فيه أواصر المودة بينها وبين خالة أمها العجوز فى بلدة دنبارتن ، وأخذت تدلى إليها بمكنون سرها ، فتتلقى منها من النصح ما يقويها ويشد أزرها .

قالت لها العجوز : « لن تقبليه أبداً ؛ وخصوصاً إذا لم تستطيعى أن تحبيه » .

قالت مولى : « إنى لا أبغضه ، وهو شخص كريم » .

قالت السيدة مرة أخرى : « أبداً ؛ متى حانت وفاتى ستحصلين على شىء ، وهذا أمر لا يطول كثيراً الآن » .

فلفت مولى ذراعيها حول خالتها ، وأسكتتها بقبلة .

وبعد هذا بعامين ، فى عصر يوم من أيام الشتاء ، وصل الأمر إلى غايته المحتومة .

فى ذلك اليوم أغلق باب المنزل القديم ، وقد خرج منه ذلك الخطيب المصمم وكانت مسز فلنت ترقبه وهو ينصرف فى مركبته الفخمة .

فقالت مسز فلنت وهى ثائرة : « إن هذه الفتاة لحمقاء » ثم تراجعت عن نافذة مخدعها ، حيث كانت واقفة تراقب ما يجرى .

وفى داخل المنزل القديم أغلق باب آخر . وكان هذا هو باب غرفة مولى الخاصة . وهناك جلست فى طوفان من الدموع . إذ لم تكن تحتمل أن تجرح إحساس رجل يحبها بكل ما فى نفسه من قوة الحب .

وعند ما حان وقت الغروب فتح بابها ودخلت بهدوء سيدة متقدمة فى السن وقالت : « يا عزيزتى ، ألم تستطيعى ؟ »

فصاحت الفتاة : « أماه ، أجئت أنت أيضاً لتقولى هذا لى ؟ »

فى اليوم التالى كانت الآنسة ود قد حصدت عزيمتها وأبرمت أمرها ، وفى ثلاثة أسابيع قبلت الوظيفة فى بير كريك . وبعد شهرين بدأت رحلتها بقلب حزين ، ولكن بروح تتوق إلى المجهول .

## ٩

# العانس تلتقى بالمجهول

فى ظهر أحد أيام الاثنين انتظمت جماعة صغيرة من الفرسان على طول الطريق الآتى من سنك كريك ، لكى تجمع الماشية من المساحة التى خصصت لها . كان الربيع متخلفاً عن موعده ، لذلك كان الرعاة لا يفتأون يلعبون فى مرح ، وأحياناً ينشدون الأغانى ، وهم منطلقون لجمع الماشية فى أسبوع كان هواؤه بارداً . وكانت تبدو على الفرجينى سيما الجد والزهد فى الكلام . ولكنه مع ذلك كان لا يقصر فى إنشاد أغنيته ، وكانت تتألف من تسع وسبعين مقطوعة ، ثمان وسبعون منها مما لا يمكن أن يطبع . وكانت مبعث سرور هائل لإخوانه من الرعاة . كانوا يعرفون غرابة أطواره ، ولذلك لم يكونوا يلحون عليه أن ينشدهم . وآثروا أن يتركوه لمزاجه ، حتى لا يمل ترديد الأنشودة ، غير أنه بعد أن يمضى يوم وهو يلزم الصمت التام ، لا يلبث أن يرفع عقيرته ويأخذ فى ترتيل أنشودته :

« إن جئت تعبث يا فتى بعروسى
فأنظر فإنى هكذا أجزيكا
سأقد قلبك يا شقى بخنجرى
وكذا بنار مسدسى أرديكا »

فيبادر الآخرون بترديد الشطر الأخير بصوت أجش ، مرتين وثلاثاً وعشر مرات ، ويحفرون فى الأرض بأرجلهم حفراً وهم يرقصون على نغمتها .

وفى أثناء تجوالهم فى منخفضات بير كريك الواقعة وسط المرتفعات والكثبان

المنفردة صادفوا المدرسة الجديدة ، وقد تم بناؤها وإعدادها لتلقى أول محصول وطنى فى ويومنج . فكانت رمزاً لفجر جديد يشرق على هذه الناحية ، وأحدثت تغييراً فى هواء تلك القفار . وقد انقبضت لمنظرها أنفس الرعاة الحرة ، فأخذ بعضهم يقول لبعض إن هذه البلاد لن تصلح طويلاً للرجال ، بسبب ما حاق بها من زوجات وأطفال وأسوار من السلك . وتوقفوا قليلاً لكى يتناولوا الغداء عند صديق قديم ، وأطلوا عليه من أعلى الباب الخارجى ، فألفوه يعبث فى أرض حديقته . فصاح به الفرجينى : « أتجمع أزهار الزنبق ؟ » فسأله الرفيق القديم : « ألا تستطيع أن تعرف البطاطس إلا وهى فى الطبق ؟ » ومع ذلك فإنه أخذ يبتسم فى شىء من الخجل لأنه لم يكن دائماً من أصحاب الحدائق . ثم اصطحبهم إل داره حيث رأوا شيئاً صغيراً يحبو على الأرض وفى يده حزمة من الثقاب . فهمّ الوالد أن يتناول منه الثقاب ، ولكنه اضطر للتراجع مرتعداً بسبب الصراخ العالى الذى ملأ الحجرة . وأقبلت الأم من المطبخ لكى تنصح زوجها بأن يلاحظ النجل كرستوف ، فلما رأت الثقاب فى يده وقفت مذهولة . ولكنها لم تكد ترى طفلها بين ذراعى الفرجينى هادئاً ساكناً ، حتى ابتسمت للراعى وعادت إلى المطبخ .

فقال الفرجينى ببطء : « كم عدد الغرباء الصغار عندك يا جيمس ؟ »

— « اثنان فقط »

— « كيف ؟ ألم يمض على زواجك ما يقرب من ثلاثة أعوام ؟ أولى بك يا جيمس ألا تدع الزمان يسبقك . »

فأخذ الزوج يبتسم مرة أخرى وهو ينظر إلى ضيوفه ، وهؤلاء أيضاً أخذوا يبدون الأدب والخجل لأن مسز وستفال لم تلبث أن دخلت مسرعة مبتهجة ووضعت اللحم على المائدة ، وبعد ذلك كانت هى وحدها التى تتكلم وضيوفها منهمكون فى الأكل ، يتمتمون من آن لآخر بعبارة « نعم يا سيدتى » أو « لا يا سيدتى » وهم عاكفون على الصحاف ، على حين تحدثهم ربة الدار عن الأسر المتزايدة فى بير كريك وعن المعلمة التى ينتظرونها ، وعن نجلها ألفريد وقد أخذت

أسنانه تظهر قبل أوانها ، وأنه قد آن الأوان لهم جميعاً بأن يصبحوا أزواجاً مثل جيمس . وأنصت فرسان العزوبة إليها فى صمت وحياء وهم منهمكون فى تناول الطعام إلى النهاية . وبعد قليل ركبوا وانصرفوا مطرقين مفكرين . لم يكن فى بير كريك بعد إلا قليل من الزوجات . والمنازل مبعثرة . ولم تكن المدرسة سوى شجيرة نابتة وسط عالم فسيح تجول فيه الوعول والدببة ، والهنود . وفى تلك الليلة عند ما استلقى الرعاة على فراشهم فى العراء حول موقد النار ، سمع الفرجينى وهو يتمتم بصوت خافت : « الفرد وكرستوف ! ما أحلى وما أظرف ! »

أعجب الرعاة بهذه الملاحظة وما انطوت عليه من دعابة . وأخذ الفرجينى ينشدهم مقطوعة جديدة تناسب المقام . يسرد فيها كيف أخذ عروسه إلى المدرسة لكى تتعلم الحروف الأبجدية . ولما كانت القطعة تجمع بين الابتكار والفحش ، فإن المعسكرين رفعوا صوتهم بالصياح والضحك ، ثم التفوا بالبطاطين وناموا تحت النجوم اللامعة .

فى ظهر أحد أيام الاثنين أيضاً ( وهكذا شاءت المصادفات ) كان عدد من النساء يذرفن الدمع ، ويلوحن بالمناديل مودعات قطاراً كان يغادر مدينة بننجتن فى ولاية فرمنت . وأطل عليهن وجه فتاة تبتسم لهن . ثم ترتد إلى الداخل حتى لا يشهد المودعات اختفاء تلك الابتسامة .

لم يكن معها إلا القليل من النقود والثياب . ولكن قلبها امتلأ عزماً وتصميما على ألا تكون عبئاً على كاهل أمها ، أو أن تخضع لرغبات تلك الأم . والبعد وحده كفيل أن يمكنها من تنفيذ عزمها . ولم يكن معها إلى جانب تلك الأشياء سوى كتب الهجاء والمطالعة ، وصورة صغيرة تحتفظ بها ، وذلك الشوق إلى الكشف عن المجهول ، الذى تقدم ذكره . ولئن كانت أرواح السلف الكامنة فى نفوسنا تتعاقب علينا لتوجهنا فى أعمالنا وتفكيرنا ، فلا شك أن الجدة القديمة ستارك كانت فى يوم الاثنين المذكور هى المهيمنة على روح الآنسة مولى .

وفى محطة هوسى ، التى لم تلبث أن مرت بها ، رأت القطار العائد إلى

بلدتها وشاهدت المهندس والسائق — وهى تعرف وجهيهما تمام المعرفة — فأوشك أن يخونها الجلد ، وأغمضت عينيها حتى لا ترى هذه الأشياء التى ألفت رؤيتها وتوشك أن تبتعد عنها . وقد اضطرت الى أن تقبض بشدة على باقة الزهر التى فى يديها .

غير أنها لم تلبث أن اضطرت إلى أن تفتح عينيها ، لأن سام بنيت ظهر أمامها ، يلتمس منها أن تسمح له باصطحابها إلى محطة مواصلة روتردام . فردت عليه فى قسوة ناتجة عن الجهاد العنيف الذى تطارد به أحزانها . وقالت : « كلا ، لن تصحبنى ميلاً واحداً ، ولا إلى محطة ايجل بردج . أستودعك الله »

أما سام . فماذا صنع ؟ إنه أطاعها وأذعن لأمرها . وبودى أن أرثى لحاله . ولكن الطاعة لم تكن المسلك الذى يليق بالعاشق اليوم . وقد سنحت له الفرصة الذهبية فوقف متردداً ، فصاح العامل بالركاب أن يصعدوا ، وانطلق القطار ، وعلى الرصيف سام الخاضع المطيع ، وقد طارت فرصته الذهبية كما يطير الفراش.

ولم تلبث مولى أن وصلت بعد أربعين دقيقة إلى مواصلة روتردام . وانتقلت إلى المركبة التى ستمكث فيها إلى نهاية الرحلة ، وقد استردت كل شجاعتها وجلست تفكر فى العالم المجهول الذى تسعى إليه . وقد خيل اليها عند ما بلغت ولاية أوهيو فى صباح الثلاثاء ، أنها وصلت إليه . وكتبت عنه خطاباً إلى بنتجتن. وفى عصر يوم الأربعاء كانت أكثر اطمئناناً فكتبت كتاباً آخر أكثر تنميقاً من سابقه . ولكنها فى اليوم التالى بعد أن تناولت فطورها فى ولاية نبراسكا كتبت خطاباً مطولاً جداً ، وذكرت فيه أنها أبصرت خنزيراً أسود واقفاً على كومة من عظام الجاموس يلتقط قطرات الماء المتساقطة من صهريج السكة الحديدية . كما ذكرت فيه أن الشجر نادر جداً . وهى حقيقة ازدادت وضوحاً كلما ابتعدت عن الخنزير المذكور متجهة نحو الغرب . وعند ما بلغت نهاية رحلتها فى الليلة الرابعة ، — والقطارات أبطأ فى ذلك الزمن منها اليوم — وغادرت القطار فى محطة رك كريك ( الجدول الصخرى ) فى ساعة متأخرة ، أدركت أنها قد وصلت حقاً

إلى العالم المجهول . وبادرت بإرسال برقية غالية الثمن لتنبئهم أنها فى حالة طيبة .

ولم تكد الساعة تبلغ السادسة صباحاً حتى كانت مركبة المسافرين منطلقة بأفراسها الأربعة وليس فيها من الركاب أحد سواها . وعند الغروب أتيح لها أن تجتاز بعض أخطار هذا العالم البدائى . ذلك أن الخيل قد استبدل بها غيرها ولم يكن للأفراس الجديدة عهد بجر المركبات ، ولم تعجبها هذه البدعة ، فأخذت تنحدر إلى قاع الوادى على أرجلها الخلفية الثمانية ، وجلست مس ود ساكنة رابطة الجأش إلى جانب السائق . من أجل ذلك بادر السائق — بعد أن انتهت الأزمة وعادوا الى الطريق المستقيم — فطلب منها جديا أن تقبله زوجا ، وأعاد الطلب مراراً خلال الخمسة عشر ميلاً التالية ، وجعل يغريها بكوخه الجميل وخيله والمنجم الذى يملكه . فنزلت من مقعدها بجانبه وجلست داخل المركبة وعينها تلمع ببريق مستمد من استقلالها ومن جدتها ستارك . فلما بلغا يونيت أوف ركس حيث تنتهى مرحلته ويتسلم المركبة سائق آخر ، تناول كل منهما عشاءه ، وقد خلب لبه محياها الوسيم فحادثها مرة أخرى عن كوخه ، وقال بحزن إنه يأمل أن تذكره . فأجابته برقة إنها ستجتهد وناولته يدها مسلمة ، فمهما يكن من أمر فإنه فتى طلق المحيا ؛ وقد قدم إليها أكبر تحية يعرفها أى فتى أو رجل .

أما السائق الجديد فقد أبعد عن خاطرها السائق الأول ، فإنه لم يكن طلق المحيا وكان قد عب الكثير من الوسكى ، وبات يحتسيه طول الليل ، على حين جلست المسافرة ، داخل المركبة المضطربة منتصبة القامة قدر جهدها ، وقد طار النوم عن عينيها . ولم تكن الأصوات التى سمعتها فى دريبون مما يزيل ما بها من القلق . وطلعت الشمس على المركبة البيضاء وهى تسعى مضطربة على الأرض الصخرية ، وعلى المقعد الأمامى سائق وزجاجة ، وفى الداخل فتاة يعلوها الشحوب تحدق فى السهول التى حولها وتعقد منديلها على بعض الأزهار الجافة الذابلة . ولم يلبثا أن وصلا إلى نهر ، فضل السائق عن مكان العبور ، فغاصت عجلتان فى الطين ، وسقط غطاء المركبة كأنه صقر ينقض . وأخذ الماء يتقاطر إلى داخل

المركبة، فلما أحست أن مقعدها يميل من تحتها، أخرجت رأسها وسألت وهى ترتجف عما عساه قد حدث . ولكن السائق كان منهمكاً فى توجيه اللعنات إلى الخيل وفى ضربها بالسياط .

فى تلك اللحظة ظهر فارس مديد القامة إلى جانب العجل الغائر ، وحملها فجأة من المركبة إلى ظهر جواده ، فصرخت لهذه الحركة الفجائية ، وأحست بتدافع المياه . ورأت الفيضان يسبح من حولها ثم رأت نفسها وقد أنزلها الفارس على الشاطىء فى أمان . وقال لها ما فحواه : إنه لابأس عليها وأن كل شىء على ما يرام . غير أن تفكيرها قد تجمد فلم تحر كلاماً ولم تشكره على صنيعه، ولعلها بعد أن قطعت أربعة أيام فى القطار وثلاثين ساعة فى المركبة ، قد رأت من العالم الجديد مرة واحدة أكثر مما تستطيع احتماله . وغادرها الرجل الطويل القامة لكى تتمالك نفسها . فنظرت إلى المركبة المائلة وقد التف حولها النهر الجائش ، ورأت عدداً من الفرسان وفى أيديهم الحبال ، ولم يلبثوا أن أقاموا اعوجاج المركبة ، وعادوا بها بسرعة إلى الأرض الجافة ، ثم اختفوا بسرعة ومعهم قطيع من البقر وهم يزجونها بقوة .

ورأت الرجل المديد القامة يتريث ويخاطب السائق ، وكان صوته خافتاً فلم تصل إلى مسامعها كلمة ، إلى أن صاح السائق صيحة احتجاج لأن الرجل قد رمى شيئاً ظهر فيما بعد أنه زجاجة الوسكى التى ارتفعت فى الهواء ثم هوت إلى النهر ، وتحدث إلى السائق مرة أخرى ، ثم وضع يده على سرج جواده ، وتأمل هنيهة فى وجه المسافرة الجالسة على الشاطىء ثم طأطأ رأسه محولاً عينيه عن عينيها ، ثم أدار رأس فرسه وانطلق مبتعداً عنها فى اللحظة التى فتحت فيها شفتيها وتمتمت بصوت ضعيف : « شكراً ، شكراً لك . » وهى تخاطب ظهره المولى عنها .

وأقبل عليها السائق متأثراً وساعدها على الركوب وسألها عن حالها بصوت ملؤه الأسف . ثم عاد إلى مقعده وديعاً كوداعة خيله ، وأخذ يسوق المركبة نحو جبال بولج برفق وتؤدة كأنها عربة أطفال .

أما مس ود فقد عاد إليها وعيها شيئاً فشيئاً . وأخذت تسائل عما عسى أن يكون رأى الفارس فى مسلكها . إنها بلا شك غير جاحدة لجميله ، ولو أتاح لها فرصة لأمكنها أن توضح له الأمر . وإذا كان يتوهم أنها لم تقدر حسن صنيعه — وهنا ، فى أثناء هذه التأملات ، تذكرت فجأة أنها قد صرخت ولكنها لم تكن تعلم تماماً متى حدث ذلك . فأخذت تتمثل الحادث من أوله فتبين لها أن هناك أمراً أو أمرين يكتنفهما الغموض. وسألت نفسها—على سبيل المثال—كيف كانت حالها وهى محمولة على ظهر الحصان ، فكان من الصعب عليها أن تقرر بصفة قاطعة ماذا فعلته بذراعيها . وكانت تعرف أين وضع هو إحدى ذراعيه . وتفقدت منديلها ذا الأزهار فلم تجده . وعبثاً حاولت أن تبحث عنه . وهل صحيح أو غير صحيح أنها أبصرته يضع شيئاً فى جيبه ؟ وماذا حملها على أن تسلك مسلكاً ينافى طبعها ؟ بعد أن قطعت مس ود بضعة أميال أخرى أخذت تحس أن أنوثتها قد جعلتها حانقة على منقذها ، كما جعلتها فى الوقت نفسه تؤمل أن تراه مرة أخرى .

* * *

إلى هذا المعبر عاد الفارس مرة أخرى عند ما أخذ النهار يقصر ، والمعبر فى ذلك الوقت عبارة عن رمل جاف والنهر سكة ملتوية من الحصا . ومع ذلك فقد كان فى مجرى النهر غدير — لأن الغدران تكتنف هذا النهر طول السنة — وبعد أن سقى جواده ، تناول غداءه فى البقعة التى حمل إليها الراكبة الخائفة فى ذلك اليوم المشهود . وجلس حيث كان النهر يتدفق من قبل ، وأخذ يتأمل مجراه الذى أصبح الآن مأموناً إلى أقصى حد . ثم قال وهو ينظر إلى طعامه : « إنها بلا شك لن تحتاج الى أن تمسكنى بشدة فى يوم كهذا ، وما إخالها إلا مندهشة جداً إذا قلت لها إن التيار بات ضئيلاً لا يخشى منه شىء » .

ثم أمسك بقطعة من الخبز مغطاة بالسردين وناولها جواده فتلقاها بمهارة . فقال : « ويحك يا مونتى إنك أصبحت من أكلة الفطير . ولكنى لن أتمنك على الشليك والقشدة . كلا يا سيدى على الرغم من أنك قد أنقذت سيدة من الغرق

فأخذ الجواد يمسح بأنفه كتف سيده .

بعد ذلك شد الفارس حزام السرج الأمامى وركب ، وسار الجواد بخطاه المعتدلة الرزينة ، لأنه أقبل من مكان بعيد ويسعى الآن إلى مكان بعيد ، وهو يعرف هذا كما يعرفه الفارس .

ارتفعت أسعار الماشية ارتفاعاً فجائياً ، أو على حسب اصطلاح بلاد الماشية : « قفزت الفحول إلى خمسة وسبعين » . ولا شك أن هذا كان ارتفاعاً هائلاً فى ثمنها ، وليس العهد بعيداً بهذا الحادث ، ولا حاجة بك أن تكون اليوم من الموتى أو حتى من الكهول إذا كنت ممن أثروا فى ذلك الزمن . ومع ذلك فإن الأمر أصبح من أساطير ويومنج ، ويعادل فى غرابته أسطورة البقرة الوثابة [١] . مع أن كثيراً من الناس كانوا يجتمعون ويدفعهم المرح إلى أن يفعلوا بأنفسهم ما يشابه ما جاء بتلك الأسطورة . وقد مضت أسابيع والناس فى مقاطعة جونسن ونطرونا وغيرها لا ينفكون عن اللهو واللعب والوثوب نحو القمر ، وكل ذلك بسبب ارتفاع ثمن الفحول . وبفضل هذا السعر الذى بلغ خمسة وسبعين قرر الأخوان سونتن أن يقيما وليمة وحفلة رقص فى مزرعتهما فى بير كريك ، المسماة جوس اج ( بيضة الإوز ) وقد دعوا إليها بالطبع جميع سكان الإقليم ، وأكثرهم سيقطع أربعين ميلاً لكى يشترك فى الحفلة ، وبعضهم سيقبل من جهات أشد بعداً . والفرجينى نفسه لا بد له أن يقطع مائة وثمانية عشر ميلاً . وقد خطر له خاطر فجائى — كما سنوضح فيما بعد — أنه يود أن يرى كيف حال الناس فى بير كريك . وكلمة « الناس » هى اللفظ الذى استخدمه وهو يتحدث إلى معارفه . وكان هؤلاء المعارف هنا يجهلون أنه قد اشترى لنفسه سروالاً « بنطلوناً » جديداً وكوفية ، من نوع أفخم بكثير مما تتطلبه مثل هذه الزيارة العادية . كذلك كانوا يجهلون أنه أمكنه أن يعرف بمحض الصدفة من هى السيدة التى كانت فى المركبة بعد الحادث بيومين اثنين . فقد احتفظ بهذا السر لنفسه ، ولم يلاحظ رفقاؤه

( ١ ) أسطورة خرافية عن بقرة أرادت أن تثب إلى القمر .

الرعاة أنه لم يعد ينشدهم المقطوعة الثمانين التى ألفها عن المحبوبة التى تتعلم الحروف الأبجدية . وهى المقطوعة المفرطة فى الفحش . فقد محاها محواً تاماً ، واكتفى بأن ينشد أصحابه المقطوعات التسع والسبعين فى فترات مختلفة . فلم يدرك الرفاق أنه يخفى أمراً ، بل رأوا فيه رفيقاً لا يسمو كثيراً إلى مستوى الملائكة — سواء فى المدينة أو فى المعسكر — يقدرونه أحسن قدر ، وإن لم يفهموه كل الفهم .

وقد قضى الربيعَ يرعى الماشية ، والصيفَ فى حفر الخنادق ، ومنذ قليل فرغ من جمع الفحول لإرسالها إلى السوق . وبالأمس كان فى مزرعة الخنازير ببلدة دريبون ينفق المال فى بعض حاجاته ، فسمع أحد المسافرين يتحدث عرضاً عن بير كريك ، وعن الأسوار التى أقيمت حول مزارعها وعن غلاتها الزراعية وعن أسرة وستفال ، والمعلمة الشابة القادمة من ولاية فرمنت ، وكيف بنت لها أسرة تيلر بيتاً مجاوراً لبيتهم . ومع أن المسافر لم يرها بنفسه فإن مسز تيلر وسائر السيدات معجبات بها أشد الإعجاب ، وقد أنبأه لن ماكلين أنها على جانب عظيم من الجمال . ولا شك أنْ سيطلبها للرقص كثير من الرجال فى وليمة سونتن . إن هذا الارتفاع العظيم فى ثمن الفحول مصدر خير وبركة للإقليم .

أنصت الفرجينى لهذا القول ، ولم يفه بكلمة ، وغادر البلدة بعد ساعة ، وهو يحمل البنطلون والكوفية وراءه فى السرج . وبعد أن زار المعبر مرة أخرى ، على رغم ما طرأ على المكان من التبدل ، سار فى طريقه لا يلوى على شىء . ومن البديهى بعد أن ينهمك فى العمل الشاق بضعة أشهر ، أن يقضى الأيام الأولى من أوقات الفراغ ممعناً فى التأمل والتفكير . ثم أفاق من تفكيره بعد برهة وجعل يخاطب جواده مونتى ويحثه على السير ، والحصان يخفض أذنيه وينفخ بمنخريه متكلفاً ، ثم قال له مداعباً : « ويحك هل تظن نفسك حقاً بطلاً من الأبطال ؟ إنها لم تكن حقيقة مشرفة على الغرق أيها الجواد الذى يأكل الفطير ! » وأخذ ينظر الى الأرض الصخرية القلوية التى اجتازتها المركبة من قبل ، وقال : « ومع ذلك

فإنى لا أحسب أنها نسيت ذلك الحادث ، ولعل الأفضل ألا أذكرها كيف أمسكت بى بشدة وغير ذلك من أحداث ذلك اليوم ، فإنها ليست من النوع الذى يجوز للرجل أن يردد له مثل هذه الأشياء . لقد كانت عينها ملؤها الصفاء» .

وهكذا انطلق فى سبيله ، وقد جلس بقامته الطويلة على السرج فى سهولة ويسر ، ليقطع الستين ميلاً التى تفصل بينه وبين الوليمة والرقص .

# ١٠

# حيث يولد الحب

بعد معسكر ليلتين بالعراء ، حمل الجواد مونتى صاحبه الفرجينى ، غير متعب ولا مجهد ، إلى وليمة سونتن فى موعد مبكر . ولم يلبث الجواد أن أصاب أجود العلف ، كما أصاب الفارس أجود الوسكى ، وكيف لا وقد وثب ثمن الفحل إلى خمسة وسبعين ؟

وفى داخل المطبخ بمزرعة جوس اج كانت تطهى الأغذية الشهية ، وفى الخارج كان يشوى عجل بأكمله . وكانت النار التى تحته تزداد توهجاً كلما تقدم المساء ، الذى أخذ ظلامه يغشى الوهاد . وكان أصحاب الدار يغدون ويروحون بجد ونشاط . أما المدعوون فكان بعضهم واقفاً ، والبعض مضطجعاً بالقرب من موقد النار . وكان بينهم تشوكاى ونبراسكى وترمپاس وهنى وجن وآخرون ينعمون بالفرصة التى أتيحت لهم . غير أن هنى وجن كان أكثرهم انبساطاً ، وقد التف حوله فريق منهم وجلس بينهم يوجه إليهم الخطاب والنكات .

ولم يلبث أن رأى الفرجينى فقال : « هلو ؛ أراك قد أقبلت لتأخذ دورك ، ترتيبك السادس أليس كذلك أيها الشاب ؟ »

قال الفرجينى وهو يستلقى بين الجميع : « هذا أمر يتوقف على الشخص الذى ينظم الترتيب . »

قال ترمپاس : « لقد رأيت ترتيبه الأول حين لم يكن حوله أحد . »

قال الفرجينى ضاحكاً : « على أى بعد كنت واقفاً عند ما شاهدت ذلك ؟ »

قال وجن : « أظن — أيها الشباب الناهض — أن الآنسة المعلمة هى التى

ستحكم مَن الأول . »

فقال الفرجينى بغير اكتراث : « إذن لقد حضرت إلى هذه البلاد ؟ »

قال ترمپاس : « حضرت ؟ أين كنت ترعى فى هذه الأيام الأخيرة ؟ »

قال : « على بعد كبير جداً من مراعى البغال ! »

فتدخل وجن مرة أخرى وقال : « إن نبراسكى ورفاقه تفقدوك فلم يجدوك . حدثنى يا نبراسكى ، من الذى نهاك عن تقديم عصفور الكناريا هدية إلى المعلمة ؟ »

ففتح نبراسكى شفتيه بابتسامة يشوبها الخجل . فمضى الآخر يقول : « لا تنس أنها سيدة محتشمة ، فلا تقبل الهدية إلا إذا قبلت الرجل ، ولكن يجمل بك مع ذلك أن تسترد تلك الخطابات التى كتبتها إليها . أجل ينبغى لك أن تطلب منها تلك الرسائل الثمانى »

فصاح الشاب نبراسكى محتجاً على هذه النكتة ، إذ كان الجميع يعرفون أنه لا يستطيع كتابة اسمه .

ورأى وجن فريسة أخرى وأخذ ينقض عليها وقال : « ها هو ذا بوكى بالدى قد أقبل ؛ هل وجدت الخف الجميل يا بالدى ؟ ألم تعثر عليه بعد ؟ إليكم أيها الشباب هذه القصة المحزنة والطالع المنكود الذى صادفه بالدى ، إذا كنتم لم تسمعوها من قبل . إن بالدى — كما تعلمون — يستطيع أن يركب الفرس الطيع الذلول ، كما تفعل السيدة المعلمة سواء بسواء ، وإذا أعطيتموه إبرتين من إبر التطريز الصغيرة تناولهما برقة وعذوبة ، وقد استطاع أن يصنع بهما خفين جميلين للآنسة وود ، وقد طرز عليهما نبات الكرنب باللون الوردى . »

قال بالدى متورطاً : « « بل اشتريتهما فى ملسن بو . »

فقال له المازح البارع مصدقاً كلامه : « بالطبع ، لقد اشتراهما بالدى . وبينما هو ذاهب إلى دارها بالقرب من بيت تيلر خطر له أن الخفين قد يكون حجمهما كبيراً . وأخذ يدرس ماذا عساه أن يفعل فصمم على أن يخبرها أنه غير

واثق من الحجم ، وما عليها إلا أن تخبره إذا كان الخف يسقط من قدميها ، فيبادر بتغييره . ولكنه عند ما وصل إلى الباب خانته شجاعته ، فدفع بالطرد من تحت سور الدار ، وأخذ ينشد أناشيد العشق والغرام . غير أنها لم تكن فى داخل الدار ، بل فى بيت تيلر المجاور لها . وهكذا وقف بالدى يغنى أنشودة : « ذهب الغرام بكبرياء محبكم ! » ينشدها منزلاً خالياً من السكان . وفى تلك اللحظة كان لن ماكلين ماراً بحظيرة تيلر حيث يوجد الثور الخطر المستورد من تكساس ، وألفى بالدى المسكين ، وقد مزق الثور بنطلونه ، فبادر لن وأعاد الثور إلى حظيرته ، وسطا أحد اللصوص على الخفين المشترين من ملدسن بو . هل تنوى أن تطرز لها خفين آخرين يا بالدى ؟ »

قال بالدى مبتسماً : « إن نصف ما قلته بعيد عن الصواب » .

قال الآخر : « أى نصف تعنى ؟ أهو النصف الذى تمزق من بنطلونك ؟ على كل حال لا تبتئس يا بالدى ، فإنها ستهجر لن ماكلين كما تهجركم جميعاً . »

فسأل الفرجينى : « هل هم كثير ؟ » وظل مستلقياً على ظهره ينظر إلى السماء .

قال وجن : « لست أدرى كم عدد الذين خلفتهم فى البلدة التى نشأت بها . أما هنا فقد حضر شاب من سائقى المركبات يوماً ، ورجع فى اليوم التالى ، ثم جاء رئيس الرعاة فى مزرعة ٧٦ ، ومروض الخيل من دائرة بار ، واثنان من أقطاب الشرطة ، وزمرة من الرعاة الواحد تلو الآخر ، وكلهم أصابه ما أصابه . والقاضى الشيخ براج حضر فى شهر أغسطس من بلدة شيين لكى يخرج إلى الصيد ، فظل مقيما هنا ولم يذهب مرة للصيد . ثم جاء سارق الخيل المشهور بالوسامة والحسن . فأراد تيلر أن يحذرها منه ، فقالت مسز تيلر إنها ستعنى بأمرها إذا دعت الحال إلى ذلك. غير أن حضرة سارق الخيل لم يلبث أن انصرف بأسرع مما فعل أكثرهم . ولا أظن أن الست المعلمة أدركت أن لسارق الخيل زوجة فى بويزن سبيدر إلا بعد ذلك . وقد رفضت أن تركب بصحبته ، مع أنها قد تركب

مع البعض ، وتصطحب معها أحد الأطفال . »

هنا صاح ترمپاس صيحة استهزاء : فانصرف الفرجينى عن النظر إلى السماء وأخذ يرقب ترمپاس عن كثب ».

قال نبراسكى : « ومع ذلك فإنى أحسبها تشجع الإنسان أحياناً ».

قال وجن : « ماذا تعنى بالتشجيع ؟ ألأنها تدعك تعلمها كيف تطلق النار ؟ » أنا لا أدعى أننى أهل لأن أحكم . ومن عادتى أن أبتعد عن أولئك النسوة الفضليات ، لأنى لا أستطيع أن أفكر فى شىء أتحدث به إليهن . ولكنى واثق أن الأشخاص الوحيدين الذين تشجعهم هم أطفال المدرسة وهى تقبلهم جميعاً . »

وقال ترمپاس ساخراً : « تركب الخيل وتطلق النار وتقبل الصغار ! أظن أن هذا عبث أطفال لا يلائم مزاجى » . فضحك الآخرون ، ومن دأب سكان المراعى أن يميلوا إلى السخرية .

غير أن ترمپاس لم يكتف بما ذكر بل مضى يقول : « فتشوا عن الرجل ، أليس موجوداً هنا ؟ إنها تدع بالدى جالساً على السور ، بينما هى مع لن ماكلين »

فقهقهوا ضاحكين من الصورة القبيحة التى رسمها ، ثم انقطع الضحك ؛ لأن الفرجينى نهض واقفاً وأطل على ترمپاس وقال : « تستطيع أن تقف الآن وتقول لهم إنك تكذب . »

وأعقب ذلك صمت رهيب ، وظل الرجل لحظة صامتاً ، ثم قال : « حسبتك تزعم أنك لا تعرفها ولا تعرفك . »

قال : « قف على قدميك أيها السلحفاة وقل إنك كاذب ! »

فامتدت يد ترمپاس وراء ظهره ، فقال الجنوبى : « دع عنك هذا وإلا حطمت عنقك » ولا شك أن عين الرجل هى أمضى الأسلحة الفتاكة ، فلم يكد ترمپاس ينظر إلى عين الفرجينى ، حتى وقف ببطء وقال : « لم يكن قصدى . » ثم وقف وقد تورم وجهه .

قال الفرجينى : « حسن ، سأكتفى بهذا ، ابق واقفاً لحظة ، ولن أطيل إزعاجك . إنك باعترافك أنك كاذب استطعت أن تنطق بالحق الصريح مرة فى العمر . وإنك تعلم ياهنى وجن أننى وأنت وسائر الفتيان لكثرة اختلافنا إلى البلدان ، أبعد الناس عن التدين والصلاح . » وتوقف قليلاً وهو يستعرض « الرأى العام » الذى يحيط به فى انتباه وسكون : ثم قال : « أجل لسنا زمرة مخلصة لتعاليم الدين . ومن الجائز أنا نسينا طبيعة المسلك الشريف . ولكنى أزعم أننا لا زلنا نذكر على الأقل معنى الشرف. والآن تستطيع أن تجلس إذا شئت. »

غير أن الكذوب ظل واقفاً ، وهو ينظر ساخراً إلى « الرأى العام » . ولكن « الرأى العام » — ذلك المعبود الكثير التقلب — لم يعد فى صفه . وقد سمع الجمع يعلق على مقال الفرجينى بعبارة : « هذا صحيح ؛ » و « إنها لسيدة فاضلة » وغير ذلك من الأقوال . لذلك لزم ترمپاس الصمت . إلى أن انصرف الفرجينى إلى حيث يشوون الثور ، وأخذ الرأى العام ينبسط بعد انقباض . ويحس بتلك الراحة التى نستشعرها بعد نهاية الموعظة فى الكنيسة ، عند ذلك جلس ترمپاس وسط هذا الابتهاج المتجدد ، وأخذ يحاول مرة أخرى أن يتندر ويمزح .

غير أن وجن صاح فيه برفق : « اغلق فمك . فلست أبالى إذا كان يعرفها ، أو أنه تكلم دفاعاً عن المبدأ . وقد قبلت الحجة التى أدلى بها . وأنت ما عليك إلا أن تشرب جرعتك ، وترضى بنصيبك ، فأنا والفتيان نؤيده فى هذا الأمر . »

وهكذا ابتلع ترمپاس جرعته . ولكن ما خطب الفرجينى ؟ لا شك أنه انتصر للضعيف ونطق فى الاجتماع بما يرضى الشرف . وكان جديراً بعد ذلك أن يمشى وسط الهدوء الذى تسبغه الفضيلة ، طبقاً لجميع النواميس الأدبية والخلقية ، ولكنه مع ذلك قد تحدث إليهم ، فأتاح لهم أن يسترقوا نظرة إلى قلبه وقرارة نفسه. وعند ما ابتعد عن الجمع ، الذى أثبت أمامه انتصاره للشرف ، لم يكن يحس الرضا بل السخط . كذلك عراه الاضطراب لأمور أخرى ؛ فقد بات يعلم أن لن ماكلين يحوم حول المعلمة . ومع ذلك فقد ذهب إلى بن سونتن وهو يبدى الرضا

والارتياح . وتناول شيئاً من الويسكى ، وبعد أن مدح البرميل العظيم دار بينهما الحوار التالى :

— « من المؤكد أن أحداً لن يشكو من أنه لا يجد كأساً ثانية » .

— « أرجو أن يجدوا كفايتهم ، ولكننا مع ذلك ينقصنا بعض الأصناف . فالبط مثلاً قليل جداً» .

— « ولكن عندك هذا البرميل . ترى هل رآه لن ماكلين ؟ »

— « كلا ؛ لقد بحثنا عن البط فى كل مكان حتى مزرعة لابارل . فإن الوليمة لا تكمل — . »

— « فى بير كريك ظمأ عظيم . ولا أظن أن لن ماكلين يهمه أمر البط » .

— « لن ليس به عطش للخمر هذا الشهر . »

— « هل أمضى تعهداً لمدة شهر ؟ »

— « لا تعهد ، ولكنه يتغزل فى معلمة المدرسة »

— « إنهم يزعمون أنها فتاة مليحة الوجه حقاً . »

— « نعم ، نعم ، فى غاية اللطف ، ثم لا تلبث أن ترى نفسك مولهاً متيماً . »

— « عجباً لما تقول ! »

— « إنها عاكفة على تعليم الصغار الملاعين ، ولا تبدى — فيما يظهر — أى اهتمام بالرجل الصالح . »

— « عجباً لما تقول ! »

— « لقد كان من الممكن فيما مضى أن تحصل على ما تشاء من البط فى مزرعة لا پارل ، ولكن طباخهم المجنون قد صمم هذا العام على تربية الفراخ الرومية . »

— « إن معلمة المدرسة لا بد أن أشرفت على الغرق فى الحادث الذى جرى لها فى سوث فورك . »

— « لا علم لى بهذا الأمر ، متى حدث ؟ إنى لم أسمع أنها ذكرت شيئاً من

هذا القبيل . »

— « الأرجح أن سائق المركبة قد التبس عليه الأمر . »

— « أجل ، ولعله قد أغرق شخصاً آخر . ها هم أولاء مقبلون . وهذه هى الراكبة على الجواد . وهؤلاء أسرة وستفال . وأنت إلى أين تجرى الآن ؟ »

— « لأصلح شكلى ، هل لديكم صابون هنا ؟ »

فقال الآخر بصوت مرتفع ، لأن الفرجينى كان قد ابتعد عنه — : « ستجد المنشفات وكل شىء عند الخندق . » ثم انطلق لاستقبال أول ضيوفه الرسميين .

لم يلبث الفرجينى أن وصل إلى سرجه واستخرج من حقيبة السرج سراويله الجديدة وكوفيته ، وقال يحدث نفسه : « إنها إذن لم تذكر شيئاً عن الحادث ولم ألحظ لن فى أى مكان حولها . » وكان الآن قد وصل إلى الخندق حيث أخذ فى إصلاح هندامه ومظهره ، وأصبح فى لحظة نظيفاً ولم يبق أمامه سوى أن يفرق شعره ويعقد كوفيته ، وأخذ يرفع الشمعة ويخفضها أمام المرآة ، ويرفع المرآة ويخفضها أمام وجهه ، وهو يتمتم : « لو أنها كانت فى جزيرة جرينلند لما صعب علىَّ أن أعرفها . ومن الغريب حقاً أنها لم تذكر شيئاً عن حادث النهر . » ثم أضاف عقدة أو عقدتين إلى كوفيته ، وانطلق نحو أصوات الكمان ، وهو يشعر برضا وارتياح تام لمظهره وهندامه ، ماراً بالمخزن الواقع وراء المطبخ ، وأخذ يمشى بهدوء وتؤدة ، حتى لا يوقظ العشرة أو الأثنى عشر طفلاً الراقدين فوق المائدة وتحتها . والعادة فى بير كريك أن يذهب الأطفال مع آبائهم وأمهاتهم إلى الولائم والمراقص ، لأن الظئر لا وجود لها بينهم . وهكذا كان الصغير ألفرد وأخوه كرستوف وآخرون وسط اللفائف والأغطية ، وبجانبهما صغار تيلر وكرمودى ولى ، وجميع الصغار الذين لا يستطيعون أن يتجولوا فى الحفلة بأنفسهم ويضايقوا والديهم الأعزاء فى قاعة الرقص .

قال الفرجينى وهو ينظر إلى الناس : « عجباً إن لن لم يحضر بعد . » ورأى مس وُدْ واقفة تستعد للرقصة الرباعية ( الكوادريل ) . فقال : « لست أذكر أن

شعرها جميل إلى هذا الحد ، ولكنها قصيرة القامة حقاً . »

والحقيقة أن طول قامتها خمسة أقدام وثلاث بوصات . وإن كان هو يستطيع أن يحلق فوق رأسها بقامته الطويلة .

وصاح العازف الأول : « حيوا بعضكم بعضاً أيها الراقصون والراقصات ، فانحنى كل راقص تحية للآخر ، فلم تكد مس ود أن تلتفت حتى أبصرته واقفاً بالباب . فلما رآها خفض عينيه كما فعل من قبل عند النهر . أما هى فأدركت بسرعة السبب الذى دعاه إلى الحضور بعد نصف عام : وتذكرت المنديل والصرخة التى صرختها فى النهر ، فامتلأ قلبها استبداداً وترقباً لما قد يحدث ، ولا شك أنه كان جميل المنظر ولكنها مضت فى رقصها ، وهى تظهر أنها لا تحس له وجوداً .

وصاح بها رفيقها فى الرقص يذكرها بأن دورها قد جاء لكى تقف فى الوسط : « هل نسيت الرقصة منذ الدور السابق ؟ »

غير أن مولى ود لم تنس مرة أخرى ، بل أخذت ترقص بكل نشاط وإخلاص ، وقالت لصاحبها : « إنى أرى وجوهاً جديدة هذا المساء . » قال : « إنك دائماً تنسين وجوهنا نحن المساكين . »

— « كلا ، بل هناك شخص غريب — من هذا الرجل الأسود الواقف بالباب ؟ »

— « إنه رجل من فرجينيا ، ولن يسمح لأحد أن يدعوه بالأسود . »

— « أظن أنه رجل غمر ، قليل الدراية . »

فضحك رفيقها وقال : « هذه أيضاً ملاحظة بديعة . » ثم أخذ ببساطة يشرح للآنسة مولى ود الشىء الكثير عن الفرجينى . وبعد أن انتهت الرقصة رأت الرجل الواقف بالباب يخطو خطوة نحوها ، فقالت بسرعة لزميلها : « ما أشد الحر فى هذه القاعة ؛ لا بد لى أن أذهب لأرى كيف حال الأطفال ، ثم مرت بالفرجينى فى غير اكتراث . فتبعتها عيناه فترة من الزمن ، وقال : « إنها عرفتنى من أول

نظرة » ثم استند إلى جدار الباب وقال : « إنها زعمت أن الهواء حار . مع أن الحر ليس شديداً إلى هذا الحد ، أما انصرافها لكى ترعى ألفرد وكرستوف مع أن أمهما الطبيعية واقفة بالقرب منها فأعجب وأغرب . ولست أحس أنها غاضبة ». ثم التفت مرة أخرى إلى المكان الذى انصرفت إليه . ولم تلبث مس ود أن مرت به ثانية منشرحة الصدر وذهبت فوراً للاشتراك فى الرقصة الاسكتلندية . فقال الفرجينى لنفسه : « لاشك أنها عرفتنى . وتجنّبت لكيلا ترانى . أما غرضها من هذا كله فإنه بلا شك أمر يثير شغفى . »

وفى تلك اللحظة رأى لن ماكلين فصاح به : هلو . فرد عليه الآخر مغمّا : هلو . وقد نظر قبل ذلك إلى المطبخ .

قال الفرجينى : « ألا ترقص ؟ » قال الآخر : « لا أعرف الرقص . »

ــ « ألعلك أصبت بالحمى القرمزية ، فنسيت ماضيك »

فأجابه الآخر بابتسامة عريضة . فقال الفرجينى :

ــ « أولى بك أن تحرض ( الست ) المعلمة لكى تعلمك . إنها ستعلمنى أنا أيضاً . »

فصاح مستر ماكلين صيحة استنكار ومشى ببطء نحو دن الوسكى . فتبعه الفرجينى وقال له : «عجباً ، إنهم يزعمون أنك لا تشرب الخمر هذا الشهر . » قال الآخر : « بلى ، وفى صحتك . » فشرب كل منهما نخب صاحبه بأقداح من الصفيح . وقال مستر ماكلين فى غيظ : « لن أرقص هذه الوالس معها فقد قالت لى إننى شاذ . »

صاح الفرجينى بسرعة : « أهذه رقصة والس ؟ » ثم سمع صوت الموسيقى فاندفع بسرعة نحو القاعة .

لم يكن يعرف رقصة الوالس فى بير كريك إلا القليل . وحتى هؤلاء القليلون كان رقصهم بعيداً عن الخفة والرشاقة ، لهذا كان الفرجينى حريصاً على أن يستفيد من مهارته . فدخل القاعة ورأته غانيته مقبلاً نحوها ، وكانت فى تلك

اللحظة جالسة وحدها . فأخذت الخواطر تتعاقب فى ذهنها بسرعة .

قال : « هل تسمحين يا سيدتى برقصة ؟ »

قالت : « ماذا تبغى ؟ » ورفعت إليه بصرها بتكلف ظاهر .

قال : « إذا كنت ترغبين فى رقصة الوالس ، فهل تسمحين بأن ترقصيها معى ؟ »

فنظرت إليه بأدب وهى جالسة فى مكانها — لأن الجلوس مما يكسب المرأة قوة وسلطاناً . وجميع المعلمات الماهرات يعرفن ذلك . وقالت : « فهمت أنك من فرجينيا ؟ »

— « نعم يا سيدتى من فرجينيا » .

— « وسمعت أن أهل الجنوب يعرفون آداب اللياقة » .

قال لها : « هذا صحيح » . وأخذ وجهه يحمر ، ولكن صوته ظل عذباً رقيقا .

فواجهت نظراته بجرأة ، ولاحظت « كوفيته » الجميلة ووجهه الحليق ، وقالت : « لدينا فى ولايات نيو أنجلند جرت العادة على أن يقدّم الرجال إلى السيدات ، قبل أن يطلبوا منهن الرقص . »

فوقف لحظة أمامها ووجهه يزداد احمراراً . وهى كلما نظرت إلى وجهه المليح زاد اهتمامها . وكانت تنتظر منه أن يذكر لها حادث النهر ، فتبدى له دهشتها أول الأمر ، ثم تتذكر بالتدريج ، وتأخذ فى ملاطفته ومجاملته . ولكنه لم ينتظر ، بل قال لها : « عفواً يا سيدتى » وبعد أن انحنى أمامها انصرف عنها ، وتركها وهى تخشى ألا يعود . ولكن أخطأ ظنها فى الرجل فإنه لم يلبث أن عاد ومعه مستر تيلر ، ولم يلبث أن قدّم إليها تقديماً رسمياً ، واحترمت جميع التقاليد .

ومن المستحيل أن نعرف ماذا كان يريد الفرجينى أن يقول لها بعد هذا التعارف الرسمى . فإن العم هيوى لم يلبث أن حضر إليها ومعه قدح من الماء ، وكان قد غادرها من قبل ليحضره . وطلب منها الرقصة فأعطته إياها بكل ارتياح وانطلقت فى رقصتها إلى مكان قصىّ ، لكى تبتعد عن موقف أخذت تخشى

حرجه . فنظر الفرجينى لحظة إليها وهى تدور برشاقة وخفة . ثم خرج إلى برميل الوسكى .

لقد تركته لترقص مع العم هيوى : إن الغيرة شيء عميق وإحساس دقيق ، وتتخذ نقمتها مظاهر شتى ، فإن الفرجينى كان مستعداً من قبل لأن ينظر إلى لن ماكلين نظرة العداوة والبغضاء . ولكنه لم يكد يراه لدى البرميل ، حتى أحس نحوه بشعور الأخوة . واستحالت عداوته إلى إحساس واتجاه جديد . وقال له وهو يعاطيه الخمر فى أقداح الصفيح : « فى صحتك » .

قال ماكلين وهو يبتسم : « هل تلقيت بعض الدروس ؟ لقد خيل إلى وأنا أنظر من النافذة أنى رأيتك تتعلم بعض الخطوات ؟ »

فعاطاه الفرجينى كأساً أخرى وقال : « فى صحتك العظيمة ! »

قال لن : « هل قالت لك إنك شيء شاذ أو ما شابه ذلك ؟ »

قال : « أجل ، إن ما قالته قريب جداً من ذلك . »

قال لن مغتبطاً : « إذن فلنشرب نخبك ! »

ثم مضى مستر ماكلين فى كلامه وقال : « إن مجرد كونك من ولاية فرمونت ليس سبباً للأنفة والتكبر ، أنا نفسى قد نشأت فى ولاية ماساتشوزتس التى تخرج منها كثير من العظماء مثل دانيل وبستر وإسرائيل بتنام وكثير من هؤلاء السياسيين [1] » .

فقال رجل الجنوب : « وكذلك فرجينيا ولاية عظيمة قديمة — كلاهما يفوق فرمونت بمراحل . »

— « ومع ذلك فقد قالت لى إننى أول شخص شاذ صادفته . »

---

(١) Daniel Webster ( ١٧٨٢ — ١٨٥٢ ) من كبار رجال السياسة والقانون و Israel Putnam ( ١٧١٨ — ١٧٩٠ ) من الشخصيات التى لمعت فى حروب التحرير بين انجلترة وأمريكا ، وقد حارب مع جورج واشنطن ، واشتهر بشجاعته وجرأته . ومن أخلاق الأمريكيين الافتخار بالولاية التى ينتمى إليها الإنسان .

« وما القاعدة التى كنت تحاول إثباتها فى ذلك الوقت يا لين ؟ »

« كل ما فى الأمر أنى بدأت أقبلها »

« ويحك هل فعلت ذلك ؟ »

« إننى لم أقصد شيئاً من وراء ذلك »

« أكبر الظن أنك تراجعت فجأة ! »

« لقد كنت أركب معها — نركب إلى المدرسة ونركب من المدرسة ، فى الذهاب وفى الإياب ، وهى تتبسط فى الحديث معى وتسألنى أسئلة عديدة كل يوم عن نفسى ، وعن حالى ، وكنت لا أكذب عليها كثيراً ، فتوهمت أنها لن ترى بأساً فيما فعلت ، وكثير من النساء يحب ذلك ، أما هى فغضبت . »

قال الفرجينى : « يا لها من فتاة ! » وقد كان فى ضميره فخوراً بهذه السيدة التى أهانته فقد أنقذها مرة من الغرق ، ودافع عنها من غير مقابل دفاع الأبطال فى هذا المساء ؛ وكان يحس بموجده نحوها وإن لم يتحدث عن ذلك إلى لن لأنه كان يحس أيضاً — بخياله وذاكرته — كيف طوقته بذراعيها عند ما حملها إلى الشاطئ على ظهر جواده . ومع ذلك فقد تمتم فى نفسه قائلاً : « إن هذا لمن المضحكات » عند ما أحس ظلمها له ، وهو يصغى إلى ماكلين يتم قصته قائلاً :

« لقد داست علىّ هذا المساء من غير إنذار : فقد بدأنا رحلتنا للوصول إلى هنا وكان تيلر وزوجته أمامنا فى العربة . ووقفت ممسكاً جوادها أساعدها على الركوب ، كما سبق لى أن فعلت أياماً عديدة . لم يكن هنالك أحد يرانا وخيل إلىّ أنه لا مانع عندها ، ومع ذلك فقد سمتنى شخصاً شاذاً .

وناهيك بما قالته لى عن رجال الغرب وعن قلة احترامهم للنساء . كان ذلك آخر كلمة دارت بيننا ، ثم سرنا خمسة وعشرين ميلاً وهى راكبة أمامى وحصانها يثير التراب فى وجهى . وأحسب أن المسز تيلر أحست بأن فى الأمر شيئاً ولكنها لم تتكلم . »

— « وهل تظن أن مس ود تكلمت ؟ »

— « ليست هى التى تكشف عما فى صدرها ، وأراهنك على أنها قادرة على الاهتمام بجميع شئونها . »

كانت أصوات الكمان تتصاعد عالية من البيت ، وكذلك أصوات الأقدام ، ولا شك أن الراقصين قد ارتفعت حرارتهم وكانت أشباحهم الراقصة تبدو فى النافذة وهى تتحرك ذهاباً وإياباً . فاقترب الراعيان من إحدى النوافذ وأخذا يتفرجان فى غيظ وكمد .

قال لين : « ها هى ذى ».

قال الفرجينى بحرارة : « ومع العم هيوى مرة أخرى ، وكأنما نسى أن له زوجة وتوأمين ، فتراه يرقص بهذا التبجح . »

قال ماكلين : « وها هو ذا وستفال يأخذ دوره معها »

قال الفرجينى : « نعم — جيمس — وهو الآخر له زوجة وأسرة ومع ذلك يحصل على الرقص أيضاً . »

فقال لين : « وها هى ذى تتنقل إلى تيلر » .

فقال الجنوبى : « وهو أيضاً رجل متزوج » .

ثم أخذا يسيران نحو غرفة الخزين واخترقا المطبخ إلى حيث يدور الرقص بهمة ونشاط فألفيا مس ود لا تزال ترقص مع مستر تيلر .

قال الفرجينى : « دعنا نشرب بعض الوسكى » وبعد أن تناولاه عادا وقد ازداد إحساس الفرجينى بالغيظ وبما لحقه من الإهانة وقال : « الآن قد استولى عليها كارمودى وهو يرقص البولكا كأنه كتلة صخر تنقض ، وهى فوق ذلك تعلم طفله ، الذى يشبه وجهه وجه القرد ، كيف يتهجى كلمة كلب وكلمة بقرة فى كل يوم ؛ وكان جديراً بالشيخ كارمودى أن يكون الآن ملتفاً فى فراشه يغط فى النوم » .

وبعد ذلك وقفا برهة فى ذلك المكان الذى خصص لنوم الأطفال الصغار ،

وفى تلك اللحظة أخذ اثنان منهما يصيحان صيحة خافتة وهما راقدان تحت أحد الكراسى . غير أن ضجيج الرقص كان من الشدة بحيث يحتاج الأمر إلى صياح عدد كبير من الأطفال وبصوت أعلى ، حتى يصل إلى مسامع آبائهم . أما فى هذا الركن الهادئ فإن صياح الطفلين قد لفت انتباه مستر ماكلين فالتفت ليرى ما خطبهما . غير أن الصغيرين كانا نائمين فى هدوء تام .

قال ماكلين : « هذان هما توأما العم هيوى . » فسأل الفرجينى وقد أثار هذا الأمر اهتمامه : « كيف عرفت ذلك ؟ »

قال الآخر ! « رأيت زوجته تضعهما تحت الكرسى حتى تجدهما بسهولة عند ما تخرج لتعود إلى دارها » .

فأخذ الفرجينى يفكر ويردد : « حقاً تريد أن تجدهما بسهولة — هذان هما توأما العم هيوى » . ومضى إلى موضع يستطيع منه أن يرى الرقص وقال : « يا للعجب ! ! إن المعلمة قد أصبحت بلا شك مشغوفة بالعم هيوى فها هو ذا يرافقها فى رقصة جديدة »

كان الفرجينى يتحدث الآن بصوت خال من الحقد ولكن كلماته كانت تخرج من فمه ببطء وهذا منه نذير بالشر . فقد أخذ الآن يدير عينيه فى مجموعة الأطفال الملفوفين فى مختلف الأغطية و « الكوفيات » المطرزة . ثم أخذ يعدهم ويقول بصوت عذب : « تسعة — عشرة — أحد عشر من الصغار النائمين وهم جميعاً على جانب كبير من الجمال »

هل بعضهم من أبنائك يا لين ؟ »

قال مستر ماكلين بابتسامة عريضة : « لا أظن ذلك »

ومضى الآخر يقول وهو يعدهم : « أحد عشر — اثنا عشر — هنا يرقد كرستوف الصغير ملتفاً باللحاف الأزرق — ثم ما هذا الآخر ذو الشعر الأصفر ؟ لا شك أن الملائكة قد أخذت تمطر الأطفال بكرم وسخاء على بير كريك . »

— « ما هذا السخف الذى تنطق به ؟ »

قال الفرجيني : « لئن كانوا متشابهين إلى هذا الحد فى الحدائق السماوية التى أقبلوا منها ، فإن أبغض شيء إلى نفسى أن أكون الشخص الذى يميزهم من بين سائر القطيع . »

« وهذه أيضاً فكرة عجيبة خطرت لى . ألم تقل لى إن هذين الصغيرين الراقدين تحت الكرسى هما توأما العم هيوى ؟ »

ثم انحنى وأخذ الطفلين الناعسين ووضعهما تحت مائدة من الموائد ، ثم قال : « كلا إن هذا لا يكفى » وبمهارة عجيبة وحرص على سلامة الأطفال أخذ ينزع عنهم اللفافات التى كانت تغطى كلا منهم ، وبعد ذلك أخذ ينقل ثياب كل طفل ويلف بها طفلاً آخر . ووقف ماكلين لحظة يحدق فى الفرجينى مندهشاً فلما أدرك سر ما يقوم به ضحك وأخذ يساعده .

وظل الاثنان منهمكين فى تغيير اللفائف والأحفة فى حين كان الآباء والأمهات يرقصون بهمة ونشاط فلا تصل إلى مسامعهم الصيحات القليلة التى كانت تصدر من ذراريهم .

## ١١

# ستحبينني ولو بعد حين

انتهت وليمة آل سونتن ، وسكت صوت الكمان ، وأكل العجل ، وأصبح الدن فارغاً أو كاد ، وأطفئت الشموع . ولم يبق حول المنزل ونيرانه الخامدة حركة أو صوت للضيوف ، بعد أن رحلت كل أسرة إلى مسكنها . وقد استطاع آل سونتن ، بعد وليمتهم الكريمة الساهرة أن يستسلموا إلى النعاس .

انطلق مستر وستفال وزوجه فى مركبتهما تحت جنح الليل . وعند اقترابهما من مسكنهما ، ارتفع صوت خافت ضئيل من بين اللفائف . فقالت الزوجة : « ألم أقل لك يا جيمس ان ألفرد سيصيبه برد ؟ »

— « على رسلك يا ليزيا ، ولا تقلقى لغير سبب ، فما هو إلا حولى ، ومن الطبيعى أن يسعل قليلاً » ، ثم انحنى الوالد الشاب وقبل زوجته العزيزة .

قالت : « كيف تتحدث عن ألفرد بهذه الصورة ، فتسميه حولياً ، كأنه عجل من العجول . ومع ذلك فهو ابنك كما أنه ابنى سواء بسواء . يا عجباً لك يا جيمس وستفال ! »

— « بربك ماذا تقصدين بهذا الكلام كله ؟ »

— « ها أنت ذا تعود إلى كلام لا طائل تحته . أستحلفك أن تعجل بالسير إلى المنزل ، فإن الطفل يسعل سعالاً غريباً . »

وهكذا أسرعا إلى الدار . وقطعا الأميال التسعة الباقية فى وقت قصير . وانصرف جيمس ليفك الخيل عن المركبة فى ضوء مصباح الاصطبل ، فى حين أسرعت الزوجة لكى تضع الطفلين فى الفراش . ولكن جيمس لم يكد يفرغ من

إخراج الجوادين من المركبة حتى سمع زوجه تناديه ، بصوت فزع له ، فأشهر مسدسه وهو يعدو نحوها ، لكنه لم ير هنوداً أو دباً ، بل طفلين غريبين على الفراش ، وزوجه تحملق فيهما ! !

فلما رآهما تنفس الصعداء ، وألقى سلاحه .

— « استبق سلاحك يا جيمس وستفال ، فستحتاج إليه . انظر ما هذا ؟ »

— لا أظن أنهما يقظان ، ولكن لمن الطفلان ، وأين تركت ابنينا ؟ »

— « أين تركتهما ؟ كيف تجرؤ أن تسألنى مثل هذا السؤال ؟ اسأل لن ماكلين ، اسأل ذلك الرجل الذى يطلق الثيرة على الناس . ويسرق الخفين ؟ سله ماذا صنع بحملينا الوديعين وخلطهما بأطفال الآخرين ، من المرضى الذين لاينقطع سعالهم . إن هذا الملفوف فى ملابس ألفرد ، هو شارلى تيلر . ولقد كنت أعرف أن ألفرد لا يمكن أن يسعل بهذا الشكل وقلت لك إن هذا شيء عجيب . أما الآخر الذى وضعوه فى ثياب ابننا كرستوف . . . فإنه . . . ليس . . غلاماً . »

لم يكد جيمس وستفال أن يتبين هذه الجريمة التى جناها مرتكبها على المجتمع ، حتى ارتمى على أقرب قطعة من الأثاث وأخذ يضحك ملء شدقيه ، غير عابئ بدموع زوجته أو بطفليه اللذين استبدل بهما غيرهما . ولا شك أنه بعد أن توهم أن هنالك دباً وأفزعه ذلك ، قد خانته أعصابه ، غير أن عقيلته لم تلبث أن ردت إليه جأشه ، وبعد أن أعاد لف الطفلين ، وهما يصيحان بلا انقطاع ، وأخذت المركبة تعدو بهم جميعاً صار يشارك زوجته شعورها بالغضب والسخط ، طبقاً لما يفرضه عليه واجبه كزوج وأب . وعند ما وصلا إلى منزل آل تيلر ، أنبأتهم مس ود أن الطفل الذى خلعت عنه اللفائف ، لم يتعرف عليه أحد ، ولذلك انطلق به مستر تيلر وزوجته بسرعة إلى دار آل سونتن ، هنالك أخذ جيمس وستفال يستحث الجوادين ، وبه ظمأ إلى الانتقام لا يقل عن ظمأ زوجه .

* * *

لم يعد فى الموقد الذى اشتووا فيه العجل ، سوى رماد أبيض بارد ، وكأنما

أحس مستر ماكلين برودة الفجر . فاستيقظ وجلس باحتراس وسط الراقدين فى العراء ، وأيقظ رفيقه الفرجينى . وهمس فى أذنه : « إن النهار يوشك أن يطلع ، ولا بد لنا أن نفر من هنا . . لم أكن أتوهم أنك قادر على كل هذه الألاعيب الجهنمية . »

قال الفرجينى بهدوء : « لا شك أن بعض الفتيان قد يرتكبون بعض الحماقات » وظل مدثراً بأغطيته .

قال لن للمرة الثانية : « قلت لك لا بد لنا أن نهرب من هنا . » ثم أخذ يدعك رأس الفرجينى الأسود ، وهو الشيء الوحيد الذى كان يبدو من جسمه .

فأجابه الآخر : « إذن اهرب أنت . وأمعن فى الهرب ، إلى أن يقدروا دعابتنا حق قدرها . »

وازداد الفرجينى تعمقاً فى فراشه . فأبلغه ماكلين أنه مجنون ، ثم نهض وأسرج جواده ، واستخرج من كيس السرج ربطة ، وضعها برفق بجانب بوكاى بالدى ، وركب وانصرف . ولما استيقظ بالدى فيما بعد وجد أن الربطة تحتوى خفين مطرزين بالأزهار .

هيهات أن يكون مستر ماكلين هو العاقل ، وإن وصف الفرجينى بأنه مجنون . فإن الناس تلصق التهمة دائماً بالغائب .

ولم يكد ماكلين يبتعد ميلاً عن الدار ، حتى استيقظ الجميع على صوت قعقعة العجل ؛ فقد وصلت أسرة تيلر ، ولم تكد تطرق الباب وتوقظ سكانه ، حتى وصلت مركبات أخرى تقل مستر كرمودى وزوجه ، والعم هيوى وعقيلته ، وبعدهما بقليل وصل مستر داو وحده ، وأخذ يقص عليهم أن زوجته قد أصابتها نوبة من نوباتها ، وهى التى أوصى الدكتور باركر الطبيب من دريبون بأن تتجنب كل ما من شأنه أن يثير أشجانها . وأخذت أصوات النساء والأطفال تتصاعد ، وأقبل وستفال وزوجته ، كلاهما يرغى ويزيد ، وكذلك توماس وزوجه ، فلم تكد الشمس تطلع حتى كان قد احتشد جمع من الآباء والأمهات

والنظارة والذرارى الصارخة والصاخبة ، لم يسبق أن احتشد مثله فى أى جيل من الأجيال البشرية . ولا تزال الأساطير تروى أنباء هذا الحادث إلى اليوم من تكساس إلى منتانا . ولكنى سأكتفى هنا بذكر الوقائع :

كان من الطبيعى أن يجمعوا على أن لن هو المذنب ؛ فقد كان الفرجينى يبذل قصارى جهده لخدمتهم ، فيمسك بزمام الخيل ، ويعاون السيدات على النزول ، أما اسم ماكلين فكان لا يذكر إلا مصحوباً بالتهديد والوعيد . وسرعان ما تألفت جماعة للبحث عنه بقيادة مستر داو ، وخيل للفرجينى أن يضللهم عن الطريق الذى سلكه ، ولكنه عدل عن ذلك وهو موقن أن بحثهم سيذهب عبثاً .

وقد استطاعت مسز وستفال أن تجد نجلها كرستوف بسرعة فى الشال الأخضر لابنة المستر داو أنا ماريا ، ولكن التعرف على سائر الأطفال لم يتم فى لمحة الطرف ، لأن ماكلين ، على حد قول جيمس وستفال ، لم يكتف باستبدال طفل بطفل ، بل خلط الثياب والأطفال خلطاً تاماً . فأخذ الجميع يلعنون هذه اللعبة الشيطانية . ولم يقم الآباء بأية مساعدة تستحق الذكر . أما الأمهات فقد اضطلعن بالأعباء الثقال . ولما بلغت الساعة العاشرة بقيت مسائل دقيقة لم يتيسر حلها بعد ، وبلغ من دقتها أن استدعى الأمر تنظيم مؤتمر للسيدات فى حجرة خاصة — محظور دخولها على الرجال — ولا أعرف ما دار فيها إلا على سبيل الحدس .

وفى أثناء انعقاد المؤتمر عادت البعثة التى ذهبت للقبض على ماكلين ، دون أن تقف له على أثر ، وكان كل ما وقعت عليه لافتة معلقة على شجرة مكتوب عليها : « بارك الله فى بيوتنا » وقد قبضت البعثة على هذه اللافتة .

وكللت جهود المؤتمر بالنجاح ، وخرجت كل أم وهى مطمئنة إلى أنها قد تسلمت ذريتها الصالحة ، وأخذ كل أب ينظر إلى جاره بارتياح ، بعد أن اجتمع شمل أسرته ، ولا غرو ، فإن الرجل بعد أن يبلغ به الغضب مبلغاً يهون عليه فيه أن يفتك برجل آخر ، وبعد أن تشتعل نيران الفتك فى قلبه ، كما اشتعلت بلا

شك عدة ساعات فى قلوب هؤلاء الآباء ، فإن من المألوف أن اللهيب لا يلبث أن ينطوىء ، هذه هى الحال دائماً فى القلوب السمحة الكريمة ، إلا إذا كان سبب الغضب باقياً لم يتغير . ولكن ما دام الأطفال قد تم التعرف عليهم ، ولم يلحق بأحدهم أذى ،وما دام كل منهم نال قسطه من التغذية ، فقد قضى الأمر ، واليوم صحو مشرق ، وقد تبقى من الوليمة ما يكفى لأكلة عظيمة . فلا عجب إذا خبت نيران الغضب المشتعلة فى قلوب هؤلاء الآباء من سكان بير كريك . وأكثرهم أقرب إلى أن يكون عشيق زوجته لا والد أطفاله ، ولذلك أخذوا يدركون الناحية الفكاهية فى هذه المغامرة ، ولم يعودوا يحسون أى موجدة نحو لن ماكلين .

أما النساء ، فكن على خلاف ذلك . ولم ينقطع نداؤهن لطلب الثأر . ولكن صيحاتهن ذهبت عبثاً ، وقابلها الرجال بالابتسام .

وأصرت مسز وستفال على أن المجرم يجب أن يلقى عقابه . وقالت : « إنه بلغ من استهتاره أن وضع تلك اللافتة على الشجرة ، ولقد كنت جديرة بالصفح عنه لولا هذا . »

عند ذلك تكلم الفرجينى بين أيديهم وقال : « أجل إن هذا لم يكن عملاً كريماً ، وعلى الأخص لأنى أنا الرجل الذى تنشدونه ! »

فظل الجميع جلوساً يعلوهم الوجوم .

قال وهو يدير الطرف فيهم : « تعالوا اقتلونى فإنى لن أقاوم ! »

غير أنهم جميعاً لم يستطيعوا أن يقاوموا نظراته التى أدارها عليهم . وقد اختار اللحظة الملائمة للاعتراف . كما يختار قائد الفرسان اللحظة الملائمة للهجوم . وقد وجهوا إليه بعض عبارات اللوم ، وكان أشدها وأقساها صادراً من الأمهات . فلم يتمالك أن قال : « إننى لا ألقى إلا حساباً يسيراً ! »

قال وستفال : « ولكن لماذا فعلت هذا ؟ »

قال : « ليتنى كنت أدرى . وأكبر ظنى أن مرد ذلك إلى الوسكى ! »

قالت مسز وستفال : « لقد تنال بعض الصفح لو أنك أظهرت بعض

الأسف أو الإحساس بالخزى » .

فهز الفرجينى رأسه نادماً وقال : « إننى أبذل جهدى لكى أظهر الأسف والندم ! »

وهكذا ظل يحاورهم ويرد التّهم عن نفسه ، إلى أن شغلوا بطعام الغداء الوفير المتبقّى من الوليمة . ولم يشاركهم فى هذه الوجبة . لقد سبق لى أن ذكرت أن مسز داو هى السيدة الوحيدة التّى كانت غائبة فى هذا اليوم المشهود . ولكن الحقيقة أن سيدة أخرى تخلفت عن هذا الجمع .

* * *

خرج الفرجينى راكباً بوقار وهدوء فى صحو الخريف . ثم أخذ يوجه إلى حصانه مونتّى سؤالاً : « أتظن أنها نسيتك أنت أيضاً يا آكل الفطير ؟ » ولم يكن يلبس « بنطلونه » الجديد ، بل السراويل الجلدية التّى يلبسها الرعاة ، ولكنه ربط كوفيته الجديدة حول عنقه . وكم من رجل يتمنّى لو كان له مثل مظهره ، وقال لجواده : « أتظن يا مونتّى أنها فى دارها ؟ »

كان اليوم يوم الأحد والمدرسة معطلة فوجدها فى مسكنها المجاور لمنزل آل تيلر . فرآها وقد لمعت عيناها ، فقال : « لقد خطر لى أن أؤدى واجب الزيارة »

قالت : « مما يؤسف له أن مستّر تيلر وزوجته غائبان . »

ـ أجل ، إنهما فى شغل شاغل . وهذا ما دعانى إلى الزيارة ، فهل تسمحين بأن نركب معاً يا سيدتى ؟ »

ـ « أنا . . »

ـ « تستطيعين أن تركبى جوادى ، فهو مطية ذلول . »

ـ « أأركب وتمشى أنت »

ـ « كلا يا سيدتى . كذلك لم أقصد أن نركبه نحن الأثنين هذه المرة ! »

احمر وجهها عند ما سمعت هذه العبارة ، ولاحظ هو ذلك فقال : « سآتى بأحد جياد مستّر تيلر ، فإنه يعرفنى . »

قالت : « لا ، لا أظن أنى أريد الركوب الآن . شكراً جزيلا . ولا بد لى أن أذهب الآن لأرى كيف حال النار فى موقد آل تيلر . »

— « دعينى أعْنَ بهذا الأمر . وبودى لو خرجت للركوب اليوم . فليس لك اليوم أطفال يهمك أمرهم . »

وكانت عبارته هذه بمثابة غمزة أهاجت روح جدتها القديمة فى نفس حفيدتها ، فلم تلبث أن أعلنت الحرب فى أنفة وكبرياء ، وصاحت : « لست أدرى ماذا تعنى أيها السيد ! »

كان الموقف حرجاً ، وخطراً عليه ، إذ كان من السهل عليه أن يلجأ إلى رد وقح فيسألها عما دعاها إلى التكلم بهذه الخشونة ؟ أو نحو ذلك من العبارات التى تلتى بسهولة ، ولكنها سرعان ما تفقده المعركة . ولكن الفرجينى لم يكن الشخص الذى يخسر مثل هذه المعركة بمثل هذه السهولة ، لقد أصابت الرمية التى رماها . فقد حسبت أنه أشار بعبارته إلى أولئك الأطفال الذين انصرفت للعناية بهم مساء أمس بلا مبرر . وتركته لكى تعنى بأمرهم . ولعل ضميرها كان يؤنبها . وكان هذا هو ما أراد أن يثبته قبل أن يمضى فى خطته .

ثم جلس بالقرب من باب دارها ، وقال فى سهولة وهدوء : « إن كل ما عنيت بكلامى أن اليوم يوم الأحد . وليس هنالك مدرسة تعوقك عن التمتع بالخروج والركوب . وفى التنزه ما يجعلك أكثر قدرة على تثقيف الأطفال غداً يا سيدتى . » وقال وهو يبتسم : « يوشك أن يكون هذا من واجبك يا سيدتى . »

فصاحت : « واجبى . ليس من المألوف أن يحدثنى الغرباء . »

قال وهو يوجه طعنته الأولى : « وهل أنا غريب ؟ إنهم قدمونى لك يا سيدتى » . ورآها يحمر وجهها مرة أخرى فقال : « أؤكد لك أننى أبعد الناس عن التطفل ، وإن شئت فإنى منصرف الساعة » . ثم نهض واقفاً بهدوء وقبعته بيده .

فارتبكت مولى لأنها لم تكن تريد أن ينصرف عنها ، فإن هذا المخلوق كان

يختلف كل الاختلاف عن سائر المعجبين بها . فمنذ أن نزلت هذه الديار شاهدت كثيراً من الشبان ، والشيب ، يرتدون تلك السراويل الجلدية وحزام القذائف ، وقميص الصوف ، و الكوفية المعقودة حول العنق ، فلم تعد هذه الأشياء جديدة عليها ، ولكنها — وقد لبسها هذا الرجل الواقف ببابها — بدت ملؤها الشعر والخيال . ولم تكن تريد منه أن ينصرف ، بل كانت تريد أن تكسب معركتها . غير أن ارتباكها قد دفعها لأن تكون قاسية صارمة ، كما كانت فى محطة مواصلة هوسى ، وكأنها أرادت أن تنزل به عقاباً لا ينساه فقالت له : « إنك تدعو نفسك رجلا ، على ما يظهر ؟ »

ولكنه لم يبد عليه أقل خوف أو رعب . بل اهتز طرباً لعبارتها القاسية ، وسرت فيه روح التملك .

فقالت : « أ أنت رجل كامل الرجولة ، بحيث تحمل تبعة ما تعمل ؟ »

فقال وقد عاد إلى الجلوس : « نعم يا سيدتى ، أظن أنى كما تذكرين . »

— « ومع ذلك تركتهم يظنون أن مستر ماكلين — أظنك لا تستطيع أن تنظر إلى وتزعم أن مستر ماكلين هو الذى ارتكب ما حدث بالأمس ؟ »

— « لست أزعم ذلك يا سيدتى . »

— « أجل ، ولقد عرفت ذلك ، وقلته منذ أول لحظة . »

فقال متمتماً : « ومع ذلك فإنى رجل غريب لا تعرفينه . »

كانت هذه العبارة طعنة ثانية وجهت إليها وتركتها لحظة عاجزة لا تحير كلاماً .

فقال لها : « ولمن قلت هذا يا سيدتى ؟ »

وقالت ، وهى ترجو أن تصيب منه مقتلا : « لماذا ؟ أ أنت خائف ؟ » ثم ضحكت ضحكاً خفيفاً .

قال : « إنى أخبرتهم بنفسى فكانت دهشتهم صادقة صريحة ، ومن أعجب العجب أن يكونوا تكلفوا الدهشة ، مع سابق علمهم بحقيقة الأمر

لأنك رأيتنى وأنا أعمله . »

— « إننى لم أرك ، ولكنى عرفت أنه لابد أن تكون أنت . وبالطبع لم أخبر أحداً . وأما عبارتى بأنى قلته منذ أول لحظة فلم أكن أعنى — أظنك تدرك تماماً ما أعنى . »

— « أجل يا سيدتى » .

فقالت مولى ، وهى توشك أن تضرب الأرض برجلها : « ويا لها من لعبة حمقاء لعبتها ! هل ترى من الرجولة أن تخيف النساء وتزعجهن لأنك — بل لغير ما سبب ، ما كان ليخطر لى ببال أن يكون هذا من عمل رجل يحمل مسدساً ضخماً ويركب حصاناً فخماً . وإنى لجديرة أن أخاف أن أركب فى صحبة حام قليل النضج إلى هذا الحد . »

— « صدقت ، لقد كان عملا صبيانياً . إن كلماتك تحز فى النفس قليلا ، لأنى ربما قمت بأعمال تقرب من عمل الرجولة فى بعض الأحيان . لاشك أننى نسيت بالأمس أن ألتمس من يقدمنى إليك . فلماذا نسيت ذلك ؟ أظنك تستطيعين أن تحدسى هذا الأمر بعد أن كشفت عن حقيقة أمر آخر ؟ »

— « إننى لا أستطيع أن أجلس هنا لكى أحدس السبب الذى يحمل الناس على أن يجانبوا اللياقة ، مع أنهم يبدو عليهم العلم بالأصول . »

— « على رسلك سيدتى . لقد كنت صريحاً واعترفت لك بكل شىء . هذا خلاف ما تصنعينه معى الآن . وإنى ألتمس منك العذر إذا كنت أقول الآن ما يحق لى أن أقوله ، بلغة لا ترقى إلى المستوى الذى أريد أن أتحدث به إليك . ولكن من الذى قدمنى إليك يوم التقينا فى معبر النهر بسوث فورك . وهل شكوت فى ذلك اليوم من أننى رجل غريب لا تعرفينه . »

قالت بحدة : « كلا » ثم قالت بعذوبة : « إن السائق أخبرنى فيما بعد أن المكان لم يكن خطراً إلى هذا الحد . »

— « ليست هذه هى النقطة التى أثرتها . إنك امرأة كاملة تحمل التبعات . وقد أقبلت من مكان بعيد بمفردك ، إلى بلد خشن وحشى ، لكى تربى الأطفال الذين يمارسون لعبة الاختفاء وغيرها من الألعاب وضروب العبث التى لابد لهم أن يهجروها بعد أن يكبروا . ألا تظنين أن هذا التظاهر بأنك لا تعرفين رجلا — بقطع النظر عن اسمه — وقد رحبت بمساعدته لك يوم كنت فى حاجة إلى المساعدة ، ألا تظنين أن هذا لا يكاد يختلف عن لعبة الاختفاء التى يلعبها الأطفال ؟ إننى لست واثقاً من أن هذه الحجرة لا تحتوى الآن زوجاً من الأطفال : أنت وأنا » .

فنظرت إليه نظرة جريئة وقالت : « لست أظن أنك تعجبنى . »

قال : « هذا كلام صريح . ستحبيننى ولو بعد حين . . . وددت لو خرجت لنركب معاً . يا سيدتى . »

قالت : « عجباً ! إذن سأحبك يوماً ما ؟ عجباً كيف تستطيع ذلك ؟ أعرف رجالا يتوهمون أنه ما عليهم إلا أن يجلسوا ويظهروا القوة وينفخوا صدرهم أمام الفتاة . »

قال : « حاش لله أن أنفخ لك صدرى . » ثم ضحك لحظة فأعجبها ضحكه . فقال لها محرضاً : « أرجوك أن تركبى معى . فإن اليوم من أجمل الأيام . »

فنظرت إليه نظرة ملؤها الصراحة . وسكتت لحظة ، ثم قالت : « إنى أريد أن أسترد كلمتين قلتهما اليوم، فإنى أظن أنك تعجبنى ، وأنا واثقة أننى إذا ذهبت للركوب معك فلن أكون فى حماية رجل غير ناضج . » ثم مدت إليه يدها إتماماً لاعترافها بفضله ، وقالت : « لقد كنت دائماً أريد أن أشكرك على صنيعك عند النهر . »

فتناول يدها وقلبه يكاد أن يثب فى صدره . وقال : « إنك لسيدة عظيمة المروءة . كأى جنتلمان »

وهنا ملكها الضحك بدورها وقالت : « لقد كنت دائماً أود أن أكون رجلا » .

قال وهو ينظر إليها : « من حسن الحظ أنك لست رجلا . »

ــ ورأت مولى أنها قد تلقت من الوخزات ما يكفى ليوم واحد ، ولم تعد تطيق أكثر مما تعرضت له . ولذلك ضبطت نفسها ، وقالت : « أين تعلمت إلقاء هذه الخطب البديعة ؟ لا بأس ، فإن من الواضح أنك قد مرت بك تجارب كثيرة جداً لمن كان فى سنك . »

قال الفرجينى : « أنا فى السابعة والعشرين » ، ثم أدرك أنه قد نطق بعبارة تنم عن الحماقة .

قالت مولى بلهجة السخرية الهادئة : « من ذا الذى يحلم بأنك قد بلغت هذه السن ؟ »

وأدركت أنها انتصرت عليه أخيراً ، وأنها هى التى كسبت المعركة . فقالت : « وعسى ألا تفرح كثيراً لأننى لست رجلا » وكان فى صوتها شىء من التحدى .

قال : « سأخاطر » .

قالت وهى تتم عبارتها : « لأننى قد ناهزت الثالثة والعشرين » ونظرت إليه نظرة تؤكد بها كلامها » .

قال لها فى إصرار : « ألا تخرجين لنركب ؟ »

قالت : « كلا . » فأدرك أنه لن يستطيع تحريضها . وقال : « إذن أستودعك الله . وسأعود مرة أخرى . وسأحضر معى فى المرة القادمة حصاناً وديعاً . »

ــ « مرة أخرى . ربما ذهبت معك فى المرة القادمة . أين تسكن ؟ »

قال وهو يشير إلى ما وراء الجبال : « إننى أعيش فى مزرعة القاضى هنرى هناك ، وهى واقعة على نهر سنك كريك . والطريق وعر نوعاً ، ولكنى

أستطيع أن أحضر فى يوم لأراك . والآن فإنى أدعو لك بالصحة والعافية يا سيدتى . »

فقالت مولى من خلفه وهو يهم بالركوب : « بقى شىء لم أقله . وهو أنى لا أهاب الخيل ولا حاجة بك لأن تحضر حصاناً وديعاً جداً . لقد كنت متعبة جداً فى ذلك اليوم عند النهر . وليس من عادتى أن أصيح من الفزع . »

فالتفت ونظر إليها نظرة اضطرت أن تتحاماها ، وقال : « يا رعاك الله ؛ هل لك أن تمنحينى زهرة من تلك الزهرات ؟ »

— « بكل تأكيد . يسرنى دائماً أن أرى من يحب هذه الأزهار » .

— « إن لونها شبيه بلون عينيك . »

— « دعك من عينىَّ . »

— « أنىَّ لى ذلك ، بعد أن رأيتهما فى سوث فورك . »

ثم أثبت الزهرة فى شريط قبعته ، وانطلق يعدو على ظهر جواده مونتى . ومكثت مس ود فى مكانها لحظة ، ثم سارت بضع خطوات نحو الباب الخارجى ، ومنه يمكن رؤية الفارس وهو يبتعد . ثم رفعت رأسها وانطلقت إلى داخل دارها وأغلقت الباب .

وفى مساء ذلك اليوم التقى الفرجينى بمستر ماكلين . فنظر هذا إلى قبعته . وأخذ ينشد بحسن نية : « إن فتاتى لولو اقتطفت زهرة . »

قال ابن الجنوب : « أرجوك يا لن أن تكف عن هذا » .

قال لن : « لك ما تريد . »

وهكذا افترق الفرجينى عن سيدته هذه المرة . دون أن تقال كلمة عن المنديل الذى اختفى فى حادثة سوث فورك .

كثيراً ما تجول خواطرنا ، عندما ننام الليل ، ما بين عالم الحس وعالم الخيال . وقد أخذت مولى ورأسها على الوسادة — تتناوبها هذه الأفكار : « ما لون عينيه ، إن شاربه ليس شائكاً مثل أكثرهم . . . لم يلق سام على مثل

هذه النظرات فى محطة هوسى . . . كلا . . . لن تستطيع أن تذهب معى . . . انزل عن جوادك . . . إن جميع الركاب ينظرون إلينا . . . »

وبينما كانت مولى تحلم بأن الفرجينى قد دخل عربة القطار راكباً جواده ، وجلس إلى جانبها كانت النار فى الموقد الحجرى الضخم ، فى دارها تلتهب بهدوء ، فينبعث منها بين آن وآن شعاع يضىء الصورة الصغيرة لجدتها ستارك ، المعلقة على الجدار .

وكان الفرجينى معسكراً على الطريق إلى سنك كريك ، يحدث نفسه وسط أغطيته :

« لست كبير السن بحيث لا أقبل التعلم . وأحسبها ستعيرنى بعض الكتب ، وسأراقب أسلوبها وأتعلم . . . الزم السكون يا مونتى . . . وبوسعى أن أتعلم أكثر من تلاميذها الأطفال . . . ويحك يا مونتى يا آكل الفطير . . . إلزم السكون . . . إنه قد أكل كتابك يا سيدتى . . . ولكنى سأحضر لك غيره . . »

ولم يلبث أن غرق فى سبات عميق .

# ١٢
## شرف الحسب والمساواة

كانت حلقة الأقارب فى بننجتن ترحب بكل كتاب يرد من بير كريك ، فتجتمع لكى تستمع إلى أنباء وأشياء غريبة كل الغرابة على ولاية فرمنت . وعندما حمل البريد قصة الأطفال ، واستبدال طفل بطفل ، أثارت اهتماماً أكثر من المألوف ، وقرئت على عدد كبير من الجيران ، فمنهم من ضحك ، ومنهم من نفر منها . وقالت مسز وُد : « لست أحب أن تكون ابنتى حيث تجرى أمثال هذه الأحداث . قال زوج ابنتها أندرو بل : « ليتنى كنت هناك ! » قالت مسز أندروبل : « ولكنها لم تذكر من الذى دبر هذه الحيلة . » قالت مسز وُد : « إن هذا لن يزيدنا علماً بالأمر . » قال أندرو : « وددت لو التقيت بمرتكب الفعلة . » قالت مسز وُد : « بعداً لهم ! إنهم جميعاً فظعاء . » وبادرت بالكتابة لابنتها ترجوها أن تأخذ حذرها وأن تحافظ على نفسها . وأن تكثر من رؤية مسز بلعم ما وسعها ذلك . « وعليك أيضاً بصحبة من يجاورك من السيدات . إذ يبدو لى أنك تعيشين فى مجتمع من المتوحشين . ليتك تستطيعين أن تتركى هذا كله وتعودى إلينا ! هل كنت تنتظرين منى أن أضحك من قصة الأطفال ؟ »

وعندما سمعت مسز فلنت — التى لم تدع لسماع الكتاب — بالقصة ، قالت إنها كانت تشعر دائماً بأن مولى وُد قد انحدرت قليلا إلى مصاف العوام ، منذ أن أخذت تطوف بالمنازل لتعطى دروساً فى الموسيقى ، كأنها امرأة ألمانية وضيعة .

غير أن مسز وُد قد سرى عنها كثيراً عندما تسلمت الكتاب التالى ،الذى خلا من الكلام المزعج عن الولائم والأطفال . وكان يصف جمال الهواء الباهر ، وكيف جعلها تحس الصحة والقوة . كذلك طلبت أن ترسل إليها كتب كثيرة من جميع الأنواع : « كتب القصص والشعر ، والجيد من المؤلفات القديمة والحديثة ، التى يمكن الاستغناء عنها . على أن تكون طبعتها من نوع رخيص . » فقالت مسز وُد : « ستنال ما تطلبه ، إن المسكينة قد أصبح عقلها ظمآن فى تلك البلاد الفظيعة » . ولم يكن الكتاب طويلا ، ولم يتضمن ، عدا مسألة الكتب ، سوى عبارات عن جمال الطقس وما يتيحه من الفرص للرياضة فى الهواء الطلق : وقد جاء فيه : « وما أبدع الركوب ، وعلى الأخص إذا كان الفرس نشيطاً مرحاً ، وقد أصبحت الآن أجيد هذه الرياضة . »

قالت مسز وُد وهى تضع الكتاب : « أرجو ألا يكون الفرس شديد المرح » . قالت ابنتها مسز بل : « ولكن مع من تخرج للركوب ؟ » قالت أمها : « إنها لم تذكر ذلك يا سارة ، ولكن لماذا تسألين ؟ » قالت : « لا شىء ، غير أن لها أسلوباً غريباً فى إهمال ذكر بعض الأشياء من آن لآن . » قالت الأم مؤنبة : « قَدْكِ يا سارة ! » قالت : « إنك تعلمين يا أماه أنها كثيراً ما تسلك مسلك الاستقلال ولا تعبأ بالتقاليد . » قالت الأم : « أجل ولكن الأمر لن يصل إلى هذا الحد . وقد رفضت أن تركب مع سام بانت المسكين ، مع أنه شخص مناسب على كل حال . »

ومع ذلك ، فإن مسز وُد نصحت ابنتها فى كتابها التالى بألا تثق بشخص لا ترضى عنه مسز بلعم رضا تاماً . ولم تدرك هذه السيدة الطيبة القلب أن مسز بلعم تسكن على مسيرة يوم كامل من بير كريك . وأن مولى لا تراها أكثر من مرة واحدة فى كل ثلاثة أشهر .

وقالت الأم فى رسالتها : « لقد أرسلنا إليك الكتب ، وقد تبرع كل ببعض مما لديه من مؤلفات شكسبير وتنيسن وبرونِنج ولنجفلو ، وقصصاً من تأليف

ثاكرى ، وجورج أليوت وهوثرن ، وكتاب أقل شأناً . كما أرسلنا بعض مجلدات من تأليف أمرسن . ومؤلفات جين أوستن كلها لأن لك بها ولعاً خاصاً .

وقد وصلت هذه الرسالة من المؤلفات الأدبية إلى بير كريك قبل عيد الميلاد بنحو أسبوع فلم يأت عيد رأس السنة حتى كان الفرجينى قد بدأ يتعلم ويتثقف . وعندما زار مولى فى دارها فى شهر فبراير قال : « لقد استطعت بعد لأى أن أتم قراءتها . » وألقى بالكتابين على مائدتها .

فسألته : « وما رأيك فيهما ؟ »

— « رأيى أننى أستحق أن تركبى معى اليوم مسافة طويلة . »

— « ولكن جورجى تيلر قد أصيب كعبه بالتواء » .

— « لم أقصد هذا النوع من الركوب ، إننى أستحق أن تركبى معى ، وحدنا ، لا يصحبنا أحد . لقد قرأت كل كلمة فى هذين الكتابين . »

— « سأفكر فى الأمر — هل أعجبك الكتابان ؟ »

— « كلا ، لم أعجب بهما كثيراً ولو كنت أعلم أن أحدهما قصة بوليسية لطلبت منك أن تجربى فىَّ نوعاً آخر . فإن كل ما فى تلك القصص أنها تسألنا : « هل تستطيع التكهن عن القاتل ، أو أن المؤلف أقدر من أن يمكنك من ذلك ؟ لاشك أن المؤلف كان أبرع مما أظن . ولكن هذا لم يضايقنى . أما الكتاب الآخر فإنه كثير الثرثرة . »

فاندهشت مولى ، وأكدت له أنه من أعظم الكتب .

قال : « نعم نعم ، هو كتاب عظيم ، ولكنه يمعن فى الكلام ، فلا يترك شيئاً للقارئ . »

— « وهل شعرت بالأسف على المسكينة ماجى تليفر[1] ؟ »

— « أجل ، أسفت لها بلا شك ولتومى كذلك ، ولكن المؤلف أحسن

---

* اسم لشخصية فى رواية The Mill on the floss من أهم كتب George Eliot الروائية الإنجليزية المعروفة ، التى اتخذت لنفسها اسم رجل ، ولذلك التبس الأمر على الفرجينى .

صنعاً بإغراقهما جميعاً . »

ـ « ليس المؤلف رجلا بل امرأة ! »

ـ « المؤلف امرأة ؟ من الطبيعى إذن أن تكثر من الثرثرة . »

فصاحت فيه مولى : « إذن لن أركب معك . » ولكنها فعلت . وعاد بعد ذلك إلى سنك كريك ، ولم يأخذ معه هذه المرة قصة بوليسية ، بل رواية روسية .

وقبيل أبريل أعاد إليها الكتاب ، ولم يستطيعا أن يخرجا للركوب بسبب عاصفة ممطرة فقضى وقته جالساً معها ، ولم يقل كلمة واحدة عن الحب . وعندما حان وقت رحيله طلب منها كتاباً آخر لهذا المؤلف الروسى . ولكن لم يكن لديها منه شىء آخر .

قال : « ليت عندك مؤلف آخر لهذا الكاتب ، فلم أر فى حياتى كتاباً يروى الحقائق كما يرويها هذا الكاتب . »

فسألته مولى ، التى لم تكن تستسيغ هذا الكتاب : « ولكن ماذا أعجبك منه ؟ »

فأجابها : « كل شىء وبوجه خاص هذا الفتى الطموح ، وأسرته التى لم تستطع أن تفهمه . لأنه واسع الأفق ، وهى ضيقة الأفق . » ثم نظر إليها لحظة فى شىء من الحياء ، وقال لها ـ وقد احمر وجهه ـ : « لقد كدت أن أبكى عندما أدركت هذا الشاب الطموح منيته ، وهو يقول لنفسه : ( لقد كنت من العمالقة ) . إن مأساته أن الحياة قد جعلته فتى واسع الأفق ، ثم حرمته الفرصة . »

وقد أحبت مولى من الفرجينى احمرار وجهه ، فقد زاده ملاحة . ولكنها ظنت أن خجله يرجع إلى ما ذكره من أنه كاد يبكى . وفاتها أن تدرك السبب الأعمق ، وهو أنه مثل ذلك البطل المشرف على الوفاة ، يحس أن الحياة قد جعلته هو أيضاً واسع الأفق ، ثم حرمته الفرصة . فإن الطبيعة الخصبة كثيراً

ما تنتج الآلاف من هذه البذور الثمينة ، ثم تلقى بها فى فيافى الحياة .

وقد أخذ معه فى ذلك اليوم مجلداً لشكسبير ، وهو يقول : « لقد شهدت له عدداً من المسرحيات الجيدة . »

وقد راقبته مسز تيلر من دارها المجاورة ، وهو يركب وسط المطر المنهمر ، إلى الطريق الجبلى الوعر . فقالت لزوجها : « لئن لم تستعد هذه الفتاة لقبوله زوجاً فى أقرب وقت ، فإنى أعرف ما أقوله لها . »

فاندهش الزوج . وقال : « وهل هو يفكر فيها ؟ »

قالت زوجته : « عجباً يا مستر تيلر . ولماذا لا يفكر فيها ؟ » فاكتفى الزوج بأن حك رأسه وعاد إلى مطالعة جريدته .

* * *

كان الجو دافئاً فى بير كريك ، ويجمع بين الدفء والجمال ، وقد لمع الثلج على قمة جبال بولج . وعلى منحدراتها أخذت أشجار الصنوبر تهتز بحفيف رقيق . وعلى سفوحها تمتد السهول يغشاها الزهر اليانع .

وقد جلست مولى وصاحبها الفرجينى بجانب ينبوع ، كثيراً ما ركب معها إليه . وكان فى هذا اليوم يودعها قبل أن يرحل فى أخطر مهمة أسندها إليه القاضى هنرى . وقد زودته من أجل هذه الرحلة برواية كنلورث Kenilworth من تأليف سير والتر سكوت . وقد رد اليها شكسبير بعد أن ابتاع لنفسه نسخة منه . وقال : « إننى لم أكد أروض نفسى على قراءته ، حتى أدركت أننى سأجد متعة فى مطالعته . »

غير أنه فى هذا اليوم لم يطل الكلام عن الكتب . وقد التزم الصمت طويلا ، وجعلها تصغى إلى العندليب . وقد تساقط شدوه وسط الهدوء الشامل كأنه قطرات منتظمة من الموسيقى العذبة . وأراها المكان الذى اختفى فيه سرب من القطا ، عندما مرا به راكبين . وبعد أن جلسا إلى جانب الينبوع فترة من الزمن ، أخذ يتحدث فجأة وبقوة عن حبه فلم تقطع عليه حديثه ، وانتظرت حتى

بلغ نهايته ، ثم قالت له وهى تحاول تهوين الأمر : «إننى لست الزوجة التى تصلح لك. »

فأجابها بشيء من الخشونة : « أنا الذى يقضى فى هذا » . فكانت خشونته من دواعى سرورها ، وإن جعلتها خائفة من نفسها . فلقد كانت حين يغيب عنها ، وتجلس فى دارها تتأمل فى صورة جدتها ستارك ، وتطالع رسائل أهلها ، تجد من السهل عليها أن تتوهم أنها تستطيع أن تلعب نحوه الدور الذى رسمته ورتبته ، وهو دور المرشد والصديق المجامل ، والأرفع مقاماً . ولكن هذا الدور يغدو من الصعوبة بمكان حين يجلس بجانبها ، فعند ذلك كانت قلعة أنوثتها ترتج بتأثير قوة لا عهد لها بمثلها . لم يكن فى وسع سام بانيت أن يوجه إليها النظرات التى يوجهها هذا الرجل . عندما يتحول بريق عينيه البارد إلى لهيب حار ينبعث من قلبه المتأجج . ولم تزل حائرة تسائل : « ما لون عينيه ؟ » أمن الممكن أن يتغير لونهما ؟ » وقد خيل إليها ، حين تقف على صخرة وتحدق فى ماء البحر الصافى ، أن اللون نفسه كامن فى أعماقه ، فتسائل : أهو أخضر ؟ أم رمادى ؟ ولكنها فى هذه اللحظة لم تلتفت نحوه لكى تتأكد ، بل ظلت تتجه ببصرها إلى المناظر التى حولها .

قال لها فى هدوء وبطء : « يولد جميع الناس سواء » .

فأجابت بسرعة وبقوة المجادل : « نعم . وبعد ؟ »

قال وهو يحاورها : « لعل هذه القاعدة لا تنطبق على النساء . »

قالت : « بل أظنها تنطبق »

قال : « وهل تعلمين هذا للأطفال ؟ »

قالت : « بلا شك أنى أعلمهم ما أرى — أنه حق . »

فأطرق ملياً وقال : « لقد كنت أطالَب وأنا طفل بأن أحفظ إعلان الاستقلال[1] ولكنى كنت أكره الكتب والحفظ وأنا طفل صغير . »

---

(١) إعلان الاستقلال هو أهم وثيقة فى دستور الولايات المتحدة . وهو ينادى بالحرية والمساواة للجميع وهو من أهم الوثائق السياسية فى تقرير حقوق الإنسان .

ـ « ولكنك لم تعد تكرهها . »

ـ كلا . لم أعد أكرهها . ولكنى كثيراً ما كنت أحبس بعد انصراف التلاميذ لبلادتى . وقد كنت فى معظم الأوقات الأخير فى فصلى . أما أخى فكثيراً ما كان الأول .

قالت مولى : « إن جورج تيلر الصغير هو أحسن تلاميذى . »

ـ « أيحفظ واجباته دائماً ؟ »

ـ « دائماً ، ويليه هنرى داو ».

ـ « ومن الأخير ؟ »

ـ « هو بوب كرمودى المسكين . إنى أنفق من الوقت فى تثقيفه أكثر مما أنفق على سائر زملائه ».

قال الفرجينى : « يا للعجب ! أليس هذا أمراً غريباً »

فنظرت إليه وهى حائرة فى لهجته : « لن ترى فى الأمر غرابة إذا عرفت بوب ».

فقال الفرجينى ببطء : « إن الأمر فى غاية الغرابة ، ومعرفتى بوب لن تغير من غرابته شيئاً . »

قالت مولى بفتور : « لا أظن أنى أفهم ما تعنى . »

قال : « لا شك أن الأمر يبعث الحيرة . جورج تيلر أفضل تلاميذك وبوب المسكين أردؤهم . وهنالك عدد كبير فى الوسط بين هذا وذاك . ومع ذلك تزعمين أننا نولد سواء . »

لم يسع مولى إلا أن تجلس ضاحكة وسط هذا الشرك الذى نصبه لها بمهارة .

ومضى راعى البقر فى كلامه بصوت يزداد قوة : « أقول لك الحق ، إن تلك المساواة المزعومة ما هى إلا مغالطة ضخمة ، ومن السهل إثبات ذلك . »

قالت : « ليس ما أعنيه ـ »

فأشار إليها إشارة آمر وقال : « انتظرى حتى أخبرك بما أعنيه أنا . أعرف رجلا يكاد يربح دائماً فى الورق ، وأعرف رجلا يكاد يخسر دائماً وهو يرد هذا إلى الحظ . فليكن ، ولنقل إن حظه هو السبب . وأعرف رجلا يعمل بجد ونشاط وينال الغنى والثروة . وأعرف آخر يعمل بجد وهو يسير إلى الفاقة . ويقول إن هذا حظه ، فليكن السبب هو حظه أيضاً . فإذا تأملت حولى رأيت أناساً فى صعود وآخرين فى هبوط ، أرى الرابحين والخاسرين فى كل مكان . ومرد ذلك كله بالطبع إلى الحظ ولكن إذا كان الناس يولدون مختلفى الحظ إلى هذا الحد فأين تلك المساواة ؟ .كلا يا مولاى ! مهما زعمت أن إخفاقك يرجع إلى الحظ أو إلى الكسل . ومهما درت حول الألفاظ ، وتذرعت بكل حجة ، فإنك مضطر لأن تعترف بالمبدأ القديم وهو التفاوت وعدم المساواة . » وسكت قليلا وهو ينظر إليها ثم مضى يقول : « لقد نرى بين اللاعبين من بيده أربع من ورق الآس ، والبعض ليس فى يدهم شىء . وقد نجد مسكيناً بيده ورق الآس ولا يعرف كيف يلعب بها . . . وعلى الرجل أن يثبت أنه يساوينى قبل أن أصدقه . »

وقد جلست مولى تنظر إليه وهى صامتة .

فقال لها : « إننى أعرف ما عنيته بقولك ، إنك لست الزوج التى تصلح لى . ولكنى من الطراز الذى يتقدم ويتحسن ، وسأكون أحسن تلاميذك جميعاً . » والتفت إليها فأحست بذلك الحصن المنيع يترنح فى قلبها .

فقالت فى همس : « أرجوك ألا تفعل ! »

— « لا أفعل ماذا ؟ »

— « لا تفسد علىّ هذا » .

— « أفسد ماذا ؟ »

— « هذا الركوب معك — إننى لا أبادلك الحب — ليس هذا فى وسعى — ولكن هذا الركوب معك . . . »

— « ما خطبه ؟ »

— « هو أكبر متعة أنعم بها . وأرجوك أن يظل الأمر كما هو الآن . »

— « يظل كما هو الآن ! أكبر ظنى أنك لا تعرفين ما تقولين . أولى بك أن تطلبى من الثمر أن يظل أخضر فجاً . ولئن كان يرضيك أن تظل أمورنا تجرى على هذا المنوال فإن ذلك لا يرضينى . تقولين إن فى هذا متعة لك . أما أنا فإنه بالنسبة إلى . . . لست أدرى كيف أسميه . أزورك كارهاً ، وأعود إلى زيارتك كارهاً ، وأنصرف عنك يغشانى الأسى والألم، لا . لابد لك أن تفكرى فى وسيلة أخرى ، غير ما تأمرين به اليوم وهو أن أظل أخضر فجاً . »

فقالت الفتاة : « إذا كنت سأظل ألقاك . . . »

— « ليس عليك أن تلقينى ، إذا كان اللقاء على هذا النحو . وأهون على أن أظل بعيداً من أن تدوم الحال على هذا المنوال . »

فقالت : « هل لك أن تقبل رجائى ، إذا طلبت منك أمراً عظيماً ؟ »

قال : « وليكن ما تطلبينه مستحيلاأعظم استحالة » . وقد ظن أنها ستطلب منه أن يقوم بعمل من الأعمال .

قالت : « أدم زيارتك لى . ولكن لا تحدثنى عن — لا تتحدث إلى على هذه الصورة — ما استطعت إلى ذلك سبيلا » .

فضحك ملء فيه ، وهو يرد نفسه عن النطق بيمين أو قسم .

ومضت فى كلامها وقالت : « ولكن إذا لم تجد مندوحة عن الكلام — أحياناً — على هذه الصورة ، فإنى أعدك أنى سأصغى ، وهذا كل ما أستطيع أن أعدك به» .

قال : « اتفقنا » ثم أعانها على ركوب فرسها ، وهو يضبط نفسه كأنه من أهل أسبارطة ، وركب معها الى دارها .

وقال لها وهو يودعها : « لقد كدت أن تجعلى الأمر بيننا مستحيلا . ولكنك اليوم كنت أكثر إنصافاً ، وسأريك بعد عودتى أنى أيضاً سأكون

منصفاً . ولن أفعل شيئاً أكثر من أن أسألك إذا كان رأيك لم يتغير . والآن سأغيب عنك فترة من الزمن ، لأنى ذاهب فى سفر بعيد . وسأكون منهمكاً فى عملى ، وأحسب أن هذا الانهماك سيخفف من شدة وجدى بك . »

ما أعجب المرأة ! إنها كانت تفضل أن تسمع منه كلاماً آخر فى ساعة الوداع هذه .

قالت : « وأنا أيضاً لن أفتقدك . »

قال وهو يبتسم : « إنى أشك كثيراً فى أنك لن تفتقدينى . » ثم انطلق يعدو به جواده مونتى .

فيا عجباً أيهما أحرز النصر فى هذا اليوم ؟ !

١٣

## الفصل الأول

## مهمة خطيرة

هنالك أمر لا شك فيه وهو : أن أمريكا كلها تتألف من طبقتين من الناس : الخاصة والعامة ، أى الطبقة الممتازة والطبقة المتساوية ، والآخرون يعرفون الأولين دائماً إذا ما لقوهم . وكلا الطبقتين باقٍ لدينا حتّى اليوم الذى تلد فيه نساؤنا ملوكاً ، ولا تلد شيئاً آخر غير الملوك .

وعندما أصدرنا — نحن الأمريكيين — إعلان الاستقلال ، اعترفنا فى هذه الوثيقة الخطيرة بالتفاوت الأبدى بين الناس ، وبوساطتها قضينا على الأرستقراطية الموروثة ، بعد أن رأينا رجالا صغاراً يرقون إلى أعلى المناصب بوسائل مفتعلة ، ورجالا عظاماً يرغمون على البقاء فى مرتبة منحطة بنفس الوسائل . فكرهت نفوسنا التى تحب العدل هذا الامتهان للطبيعة البشرية . لهذا قررنا أن يكون للناس جميعاً منذ ذلك اليوم الحرية التامة فى أن يجد كل منهم مكانه الذى يليق به . وبهذا القرار اعترفنا بالأرستقراطية الصحيحة وحررناها من كل قيد . وقلنا : « ليكن الفوز للأحسن ، كائنا ما كان . . . » الفوز للأحسن ، هذه هى كلمة أمريكا . وهذه هى الديمقراطية الصحيحة . ولا فرق بين الديمقراطية الحقة والأرستقراطية . وإذا كان فى الناس من لا يستطيع أن يرى ذلك ، فلا يلومن إلا عينيه !

خطرت هذه الأمور بخاطرى قبل وصولى إلى بلدة بلنجس Billings بولاية منتانا ، وذلك بعد أن التقيت بالفرجينى فى بلدة أوماها فى ولاية نبراسكا بنحو ثلاثة أسابيع . ولم أكن أعلم حين لقيته أنه أصبح موضع ثقة القاضى حتى

اختاره للمهمة التى دفعت به إلى الولايات الشرقية . وقد كنت أتطلع للركوب معه وسط تلال سنك كريك وكنت أحسبه لا يزال هناك ، حتى رأيته فى صباح أحد الأيام فى مطعم الكولونيل سيرس جونز .

هل عرفت هذا المكان ؟ كان موقعه فى بلدة أوماها قريباً من القطارات . قدمضى على إنشائه عشر سنين عندما رأيته للمرة الأولى وهو يعد متوسط العمر بالنسبة لأوماها ، وكان عبارة عن بناء خشبى رسمت عليه بالذهب شعارات مختلفة مثل الباخرة ، والنسر والدب . وكان على الباب دب حى يتناول ما يجود به الناس من الأطعمة . وإذا كان الجو صحواً فتحت واجهة المطعم كما يفتح المسرح على النظارة . فيجلس المرء على مرأى من البلدة . يتناول غداءه ، ويتطاير تراب أوماها حتى يستقر على الأطعمة . . . وقد ذهب هذا المطعم ، كما ذهب الهنود والجاموس الوحشى ، لأن الغرب أخذ يتقدم فى السن ، وقد كان المكان جديراً بأن تراه وتجلس فيه ، حيث ترى ألواناً من الناس تمر بك — منهم الصينيون وزعماء الهنود ، والإفريقيون والجنرال ميلز ، وأنجال صغار ، وأشراف من النمسا ، ونساء عراض فى ثياب حمراء . فقد جاء على بلدة أوماها وقت كانت جميع عناصر القارة تمر بها .

وهكذا كنت أنا أيضاً ماراً من هناك ، أستنشق الهواء ما بين عربة النوم والحمام ، وإذا بصوت الكولونيل جونز يطرق سمعى . ولم أكن رأيت الرجل من قبل ، فألفيته واقفاً فى مؤخرة قصره ، بشواربه الضخمة الرمادية اللون ، وبدلة جيش الجنوب[1] ، وهو يبلغ الطباخ رغبات الزبائن من(طاقة)مفتوحة . وكان عليك أن تشترى الغداء بمجرد دخولك ، وإلا طردت ، وقد كان بعض الزبائن يتردد أحياناً ، فلا يلبثون أن يلقى بهم إلى الخارج . لهذا بادرت بشراء تذكرة .

ولم أكن سمعت منذ بضعة أشهر كلاماً فى مثل لهجة الكولونيل وألفاظه ،

---

(١) إشارة إلى الحرب الأهلية الأمريكية ، حين انقسمت الولايات إلى شمالية وجنوبية .

لأن لهجة المسورى لم تكن قد تسربت بعد إلى لغة نيويورك . فكانت عبارته بمثابة نسيم يهب من السهول . فدخلت لكى أتروح به فألفيت الفرجينى جالساً وحده إلى إحدى الموائد .

كانت تحيته لى من الطراز الفاتر السائد فى السهول . ولكنه لم يلبث أن صاح : « إنى عظيم السرور بأن ألقى أحداً من الناس . » وهى عبارة تعد إسرافاً فى الحفاوة . . ثم قال : « إن الذين يقصدون هذا المكان لا يجيئونه ليأكلوا ، بل ليملأوا بطونهم ! ! » وأدار بصره فى الحاضرين فاحصاً هادئاً وقال : « أتراهم يفرحون بحشو البطون ، ثم الانصراف بسرعة على هذا النحو ؟ »

قلت : « فماذا تصنع أنت هنا ؟ »

قال : « رباه ؛ إذا لم تجد الشىء الذى تختاره ، فاختر ما تجد . » ثم تناول قائمة الطعام ، فبدا لى أنه مشغول الخاطر ، فلم أرد أن أزعجه . »

وبعد أن ظل برهة يدرس قائمة الطعام ، قال وهو يناولنى الورقة الملوثة : « هل سمعت بهذه الأصناف ؟ »

فرأيت القائمة تشتمل على ألوان عجيبة : أصناف من الأطعمة النادرة وكلها مكتوبة كتابة صحيحة واضحة . وهى حيلة قديمة يلجأ إليها أصحاب المطاعم فينقلون هذه الأسماء من قائمة فندق كبير فى العاصمة ، لكى يخدعوا بها أشخاصاً فى المرتبة الثالثة من السذاجة ، وحيث يلجأون إلى هذه الحيلة يكون الطعام أيضاً فى المرتبة الثالثة من الرداءة ، ولا شك أن راعى البقر كان يعرف ذلك كما يعرفه الجميع .

فقلت : « إذن لا يزالون يمارسون هذه الحيلة هنا . »

قال : « ولكن ما قولك فى هذا ؟ » ووضع إصبعه على صنف عنوانه : أرجل الضفادع على طريقة ( دلمونكو ) وقال : هل يوجد حقاً مثل هذا اللون من الطعام ؟ فأجبته : بلا شك . وذكرت له نبذة عن مطعم دلمونكو فى نيويورك ومطعم أوغستان فى فيلادلفيا .

قال وهو يبتسم : « ليس هنالك أقل فائدة فى أن يخدعنى أحد اليوم . ولن أطلب أرجل أى شىء . »

قلت : « أما أنا فسأجرب لأرى كيف يتخلص من هذه الورطة . » وخطر لى عند ذلك قصة قديمة من تكساس خلاصتها أن المسافر قرأ قائمة الطعام ، ثم طلب فول أوفان . فنظر صاحب المطعم إلى المسافر ووضع المسدس فى أذنه وقال له : « إنك ستأكل لحماً مفروماً ! » ذكرت ذلك وعجبت مما عساه أن يحدث لى . ثم جازفت وطلبت الصنف .

فصاح الكولونيل سيرس جونس : وهو يحدق فىَّ بعينين نصف مغمضتين : « أراك تريد أرجل الضفادع ، وقد حضر من قبلك أيها الأستاذ كثير من رجال العلم لتناول الفطور ، وآخر رجل ضفدعة عندى قد أكلها أحد المبشرين. » ثم نظر فى (الطاقة) وصاح بالطاهى : « حمر القمح . » وكان أحد الزبائن قد طلب كعكة ساخنة . وكانت عادة الكولونيل أن يسمى الأطعمة بأسماء خاصة .

قال الفرجينى : « أريد بيضاً مقلياً ، مطهياً من الجانبين . »

فصاح الكولونيل فى الطاقة : « أجنحة بيضاء ، دعها تطر إلى أعلى وأسفل » .

قال الفرجينى : « قهوة من غير لبن »

فصاح الكولونيل : « املأ إبريقاً فى الظلام »

قال : « وأريد « بفتيك » أحمر . »

قال الكولونيل : « مذبحة فى الطاسة ، ودع الدم يَسِيلْ » .

فقلت : « أريد قدحاً من الماء من فضلك . »

فنظر إلى نظرة إشفاق وقال : « واحد مسورى بالثلج للأستاذ . »

قال الفرجينى : إن هذا الرجل ممتلىء حيوية . وأخذ يمعن فى التفكير لحظة ثم سألنى : « أتقول إنه رجل أجنبى ، وقد علم أهل نيويورك الأطعمة النادرة ؟ »

وكان من دأب الفرجينى ألا يترك موضوعاً جديداً حتى يستخلص منك كل ما تعرفه عنه . فأخذت أقص عليه تاريخ لورنزود لمونكو وما قام به من أعمال ، بقدر ما وصل إليه علمى . وهو يصغى إلىّ بكل انتباه .

قال : « إنها لقصة شائقة ، جد شائقة ، إن هذا الطاهى كان يتناول أرجل الضفادع العادية ، ثم يطهوها طهواً يرضى به الأذواق الرفيعة . قصة جد شائقة ولكنى أخشى أن طهوه هذا سيؤذى معدة رجل من سكان السهول . »

فقلت له فجأة – على سبيل التجربة – : « إذا أردت أن تتابع هذا الموضوع فإن من الجائز أن يكون لدى مس مولى ود كتاب عن المطبخ الفرنسى . »

غير أن الفرجينى لم يبد عليه أدنى تأثر ، بل قال : « لا أظن أن لديها مثل هذا الكتاب ، فقد نشأت فى ولاية فرمنت ، وليس سكان الولاية شديدى العناية بما يأكلون . » ثم أخرج من جيبه قصة كنلورث وقال : « هذا ما أوصتنى مس ود بقراءته عندما رأيتها آخر مرة ، قصة بديعة . ولا شك أن الملكة اليزابيث كانت امرأة قديرة . »

قلت : « أجل إنها كذلك . » وهنا انقطع الحديث إذ دخل المطعم جماعة يعلوها الغبار ، ومن الواضح أنها من أهل السهول ، وجلسوا حول مائدة ، وقد هز كل منهم رأسه هزة خفيفة تحية للفرجينى ، فرد عليهم التحية بكل هدوء ووقار . ولكنه بادر بإعادة كنلورث إلى جيبه ، وأخذ يتناول طعامه صامتاً . وقد لمحت وجهاً أعرفه بين هذه الجماعة التى حيته . فقلت : « عجباً إن هذا هو الرجل الذى لعبت معه الورق فى مدسن بو ! »

فلم يزد الفرجينى على أن قال : « أجل ، هو ترمپاس . وقد صار الآن موظفاً بالمزرعة . » ثم مضى فى تناول طعامه .

لقد بدا على الفرجينى تغير واضح . ولا أستطيع أن أقول إنه كبر ، لأن هذا معناه أنه لم يعد يبدو شاباً . غير أن مظهر الصبى قد اختفى من محياه

ــ ذلك الصبي الذى أحدث ذلك الشغب الهائل فى ملسن بو ومعه ستيف ، والذى أهاج سكان بير كريك بعبثه بالأطفال ، والذى كان يحلو له أن يصلصل بمهمازيه . ولكن الرجولة قد هذبت شبابه ولم تذهب به . بل أبقته كاملا لم ينقص منه شىء ، ولكنه شباب راضته التجارب .

ولم نلبث أن ذهبنا معاً إلى محطة السكة الحديدية .

قال : «إن القاضى يعقد صفقة عظيمة هذه السنة». وكان يتكلم من غير اكتراث ، فعرفت أن الأمر خطير ، وقد أخذ يتصاعد من حولنا دخان الفحم وصليل النواقيس ، وأصوات الماشية وراثحتها . فقال الفرجينى : « هذا هو المحصول الأول من العجول فى المزرعة وسيشحن كله إلى تشيكاغو بطريق خط برلنجتن ، لأن القاضى يحارب طريق إلكهورن . » فجعلنا نمشى على مهل ، وطول القطارين عشرون مركبة محملة بالعجول المتراصة ، تحدق فينا بعيونها المستديرة . وأخذ يفحصها لكى يعرف ما إذا كان بعضها مجهداً . وقال : « إنها لم تأكل ولم تشرب شيئاً يستحق الذكر . » وأظنها لم تشرب إطلاقاً منذ بدء الرحلة بالسكة الحديدية . وكأنها تعرف لماذا ترسل إلى تشيكاغو . وبعد ذلك أخبرنى فى غير اكتراث ، ببقية القصة . ومجملها أن القاضى هنرى لم يستطع أن يستغنى عن رئيس الرعاة فى جنى المحصول الثانى من العجول ، فعهد إلى الفرجينى بأن يتولى أمر هذين القطارين ، وكل منهما يتألف من عشر مركبات ، ومعهما الجماعة اللازمة من الرعاة . وكان عليه بعد تشيكاغو أن يعود بطريق سانت بول بوساطة الخط الشمالى ، لأن القاضى أراد منه أن يقابل بعض مديرى هذا الخط لكى يفهمهم بلطف أن من مصلحتهم أن يمنحوا مزرعة سنك كريك تخفيضاً خاصاً فى أجور النقل[1] . كان هذا كل

---

(١) خطوط السكك الحديدية بالولايات المتحدة كثيرة وتتبع شركات مستقلة ومتنافسة ، وهذا التعدد كان أكثر ظهوراً فى الوقت الذى تشير إليه هذه القصة .

ما علمته من الفرجينى . ولا شك أن فيه الكفاية .

فقلت له : « أنت الآن إذن نائب رئيس الرعاة ! »

— « أظن أنه لابد أن يكون هنالك شخص له الكلمة . »

— « وأنت بالطبع كرهت هذه الترقية كرهاً شديداً . »

— « ليس لى فى الترقية مأرب . وقد تعوّد الفتيان أن ينظروا إلىّ كأنى واحد منهم . هل لك أن تصحبنا إلى بلاتسموث ؟ » وهكذا أبعد الحديث عن نفسه ، ولفت نظرى إلى القاطرة وهى تتراجع لكى تتصل بالقطار ، ثم ذكرنى بأننى أستطيع من بلاتسموث أن أختار واحداً من قطارين؛ غير أنه لم يستطع أن يخفى ما فى هذه المهمة من دليل على ثقة رئيسه به . فإنه كان مكلفاً بأن يعنى بهذه الآلاف العديدة من الدولارات القابلة للتلف . وبهذه الجماعة من الشباب؛ فكان هذا بمثابة تحية عظيمة له . لقد أصبح مسئولا عن الفحول وعددها أكبر من عدد الأشخاص الذين معه . ولكن مشكلة الأشخاص أدق ، لأن الفحول ، لم ينتخب واحد من بينها ويوضع فجأة على رأس زملائه . وفوق ذلك فإن مشكلة الفحول ستنتهى فى تشيكاغو ، ولا بد لهذا الرجل الذى تولى حديثاً منصب نائب الرئيس أن يقود ستة من إخوانه الذين أصبحوا بلا عمل يشغلهم ، وأن يجنبهم المدن ومغرياتها ، ويعود بهم فى أمن وسلام إلى المزرعة . وإلا أغضب القاضى لأنه فى حاجة إلى خدماتهم . وهذه كلها أمور كثيراً ما تتعقد وتكتنفها الصعوبة فى بلد يقال فيه إننا جميعاً ولدنا متساوين . وكان ظاهراً من تحيتهم لى فى مطعم الكولونيل سيرس جونس أنهم لم يعترفوا إلا بالمساواة التامة . غير أن الفرجينى لم يكن يلحظ هذه الأشياء لانشغاله بما هو أهم .

لم نلبث أن أخذ القطار يتدحرج بنا على طول نهر الميسورى وموجه يتدافع حتى بلغنا بلاتسموث ، وهناك انتظر القطاران فى خط جانبى حتى يجىء القطار السريع . وجلست أنا والفرجينى على سطح إحدى المركبات نتأمل

مجرى نهر بلات[١] الضحل ، بينما طبقة المتساوين منهمكة فى لعب البوكر بجانب الخط الحديدى .

فقلت للفرجينى : « كنت أظن أنك ستشترك فى اللعب . »

قال : « أألعب القمار مع هؤلاء الأطفال ؟ إننى إذا لعبت فلابد أن يكون اللعب مما يشوقنى » ولمعت عيناه لحظة بما ينبئ عن دخيلة نفسه . ثم عاوده هدوءه ، وأخرج كتاب كنلورث مرة أخرى . وجعل يقلبه ببطء فى يده دون أن يفتحه . وما يدرينى أن روحه لم تكن الآن فى بير كريك مع الفتاة التى يحمل كتابها . فإن الروح أحياناً قد تذهب فى طريق ، والفكر فى طريق آخر ، والجسد يمضى فى طريقه الخاص . وكانت العبارة التالية التى فاه بها : « إن الملكة اليزابيث كانت قادرة على أن تلعب بقوة عظيمة . »

قلت : « أتعنى البوكر ؟ »

قال : « أجل يا سيدى . أتظن أن فى أوربا اليوم ملكة تضارعها ؟ »

قلت : « أشك فى ذلك . »

قال : « لو أن فكتوريا لعبت مع اليزابيث لفتكت هذه بها فتكاً ذريعاً . ولو أن فكتوريا ستصر بالطبع على أن لا تلعب بأكثر من نصف سنت . وأظنك قرأت هذا الكتاب « كنلورث . » ما عليك إلا أن تعطى اليزابيث بعض ورق الآس ، فتراها تهزم روبرت ددلى شر هزيمة . »

قلت له : « إنى واثق أنها ستفعل ذلك . »

قال الفرجينى : « وإذا استطاع لورد اسكس أن يقترب من الفوز فى اللعب معها ، فأكبر ظنى أنها ستخدعه ببعض الحيل . . . قل لى هل تذكر الرجل السمين الذى كتب عنه شكسبير ؟ »

« أتعنى فالستاف ؟ إنى أذكره جيداً . »

---

(١) أحد روافد الميسورى ، يصب فيه عند بلاتسيموث غير بعيد من أوماها .

« أليس من إبداع شكسبير أنه يجعل الناس يتكلمون كما يفعلون فى الحياة ؟ ومن دواعى الأسف أن شكسبير لم يكن يعرف البوكر . وإلا لجعل فالستاف يلعب طول النهار فى قصر ترشيت وسيفوز الأمير عليه . »

« إن الأمير يمتاز بالذكاء »

« الذكاء ؟ »

« ألا تسلم بذلك ؟ »

« لعلى لم أفكر فى هذا ، ومن المحتمل أن يمتاز بالذكاء . »

« أما فالستاف ، فلم يكن يمتاز بالذكاء . »

« بلى ؛ لقد كان من الممكن لفالستاف أن يلعب بالورق لعبة « هويست»

وأخذ الفرجينى يتكلم بلهجته الغامضة فقلت له : « أظنك تدرك معنى ما تقول ، أما أنا فلم أفهم من كلامك شيئاً . »

فنظر إلى راعى البقر لحظة بعين ملؤها المودة . وقال فى لهجة المفكر : « إنك تستطيع أن تلعب هويست بما رزقت من الذكاء . والحقيقة أن لعبة البوكر لها مظاهر متعددة فى هذا العالم . وليس الورق سوى ناحية منها . وهى الناحية التى نلتمس فيها العبث والتسلية بعد أن نفرغ من عملنا اليومى . وإذا كان الرجل من طراز ذلك الأمير ، فإنه سيلعب البوكر ويكسب متى جد الجد أيا كانت الأوراق التى فى يده . وقد لا يكون فى متناوله سوى جيش ضئيل ، أو مسدس خال من الرصاص ، أو حصان أعرج . وقد لا يكون لديه شيء سوى وجهه ونظراته . إن هذا الأمير الشاب يستطيع أن يلعب البوكر ويكسب بأى شيء . »

فقلت : « حبذا لو تفضلت بتعريف معنى البوكر عندك . »

فنظر إلىّ مرة أخرى نظرة ملؤها المودة ، وقال : « أنت نفسك تجيد لعبة هويست ، ألست تحس بالرضا والارتياح بسبب ذلك ؟ » وقبل أن أجيبه على سؤاله أقبل القطار السريع من فوق الجسر ، وكانت كل عربة مزينة بالأعلام

الصغيرة ذات الألوان البراقة . وفى كل نافذة راكب يصيح ويهز منديلا بيده ؛ ثم أعطيت الإشارة إلى قطار الماشية ، فوثبت إلى الرصيف .

وقال الفرجينى : « بلغ القاضى أن العجول وصلت فى حالة جيدة إلى هذا المكان . »

وكان هذا آخر عهدى ، بنائب رئيس الرعاة ، إلى حين . . .

## ١٤

# ما بين الفصول

لم يكن طريقى إلى سنك كريك طريقاً مستقيماً . سرت بالقطار متجها نحو الشمال الغربى حتى بلغت قلعة ميد ، وبعد أن أقمت برهة مع العسكريين الكرماء ، تابعت السير على ظهر جواد . واجتزت به الجبال السوداء يتساقط علينا المطر مدراراً . فلم يرق فى عينى أو فى عين جوادى منظر البلاد ، وحينما استبدلت بالجواد مركبة النقل ، لمحت على وجه الجواد شعوراً بالحمد والشكر ، وبادلته مثل شعوره .

ولم أكد أدخل المركبة حتى سمعت صوت راكب فيها يقول : « إن بالمركبة ست أرجل هذا المساء . غير أنا نحمد الله على أنها ليست ثمانيا» . ثم ضرب بيده على كتف جاره وقال : « أذكر هذا دائماً يا قصير ! » . وكان من الطبيعى أن أتوهم أن بينهما صداقة قديمة . ولكن الحقيقة أننا كنا جميعاً غرباء نلتقى للمرة الأولى . وقد حدثانى عن الكشف الجديد عن الذهب فى روهيد وما أثاره من الحماسة وما يجره ذلك من الربح الوافر لشركة الخطوط الحديدية الشمالية . فأوضحت لهما أن هذه الخطوط مدينة بالملايين لحملة سنداتها الألمان . فقالا إن الألمان يستطيعون أن ينالوا ثراء عاجلا فى روهيد . وتحدثنا بعد ذلك فى شتى الموضوعات . وفى فترات السكوت كنت أتخيل سرور الأيام التى سأقضيها هذا الخريف فى ضيافة القاضى هنرى . وقد ذكر فى آخر خطاب له أن إحدى الجماعات ستقوم من بلدة بلنجس إلى مزرعته فى اليوم السابع من الشهر ، وسيعد جواداً من أجلى . واليوم هو الخامس من الشهر . وهكذا أخذنا نقطع

الطريق – نحن أصحاب الأرجل الست – فى تلك المركبة المتداعية . وهى تجرى مترنحة فى طريق حدّده سقوط المطر . دون أن يعرف كل منا عن الآخر أكثر مما يدل عليه مظهره .

ومع ذلك لم يخف أحد منا شيئاً عن الآخر . فإن الرجل الذى ضرب قصيراً على كتفه كان أول من عرفنا بنفسه ، فقال : « أنا سبيو لووين من بلدة جاليبوليس بولاية أهيو ، فرنسى الأصل ، ولكننا أصبحنا من سكان أمريكا البيض منذ مائة من السنين ». وكان نحيل الجسم خفيف العضل ، ولذلك استطاع بمهارة أن يتجنب الصدمات ، الناشئة من ترنح المركبة وصعودها وهبوطها ، وكان له أنف غريب طويل ، ينم عن الدعابة . وعين تنم عن الحذر ، لونها أزرق شاحب . وكان شغله الأصلى الماشية ، ولكنه فى المدة الأخيرة كان « يطوف » فى الآفاق ، والظاهر أنه كان يفكر كثيراً فى روهيد ، وقد خيل إلىّ أن قصيراً كان أيضاً « يطوف » بالآفاق . وقد كان فى الواقع قصير القامة جداً ، وكانت حركات المركبة تؤذيه كل مرة ، وكان شعره أشقر شاحباً ، وطبعه هادئاً دمثاً ، كأنه كلب أصفر تائه ، يتوهم أن كل غريب يراه هو سيده جاء لنجدته .

أما الأمر الذى قرب بيننا فمرجعه إلى شركة الخطوط الشمالية . وكنا قد اقتربنا من بلدة ميلورا . وكنا قد رتبنا أرجلنا داخل المركبة للمرة الأخيرة ، وقد استلقيت فى صمت واطمئنان لعلمى أن هذه الرحلة المضنية توشك أن تنتهى ، فأغفت عينى لحظة . حتى أيقظتنى حركة فجائية ورأيت سيبو يثب فى الهواء . وعندما تلاه قصير فى الوثوب من المركبة ، أبصرت الدخان والقاطرة . ذلك أن الخطوط الشمالية قد غيرت مواعيدها . وليس من السهل أن يعدو المرء خلف القطار وفى يده حقيبة . وقد سلكنا سكة قصيرة ، ولكنها كانت وعرة ، فيها رمال غائرة وأكداس من الخشب . وقد أمسكت بعقبى قطعة من السلك ، لا أدرى من أى جحر خرجت . وعلب الصفيح كانت تتطاير من وقع خطاى .

ومع ذلك فقد جرينا شوطاً لا بأس به . وقد لوح اثنان منا بقبعتيهما . ولم ينقطع صياحنا لحظة . فإن فوت هذا القطار يؤخرنا أربعا وعشرين ساعة .

ومع ذلك لم ننجح فى اجتذاب انتباه القطار إلينا . ولو أن هذا افتراض لا يقبله العقل . وعندما تحرك أمام أعيننا فى سهولة ونعومة واحتقار لنا ، لم يلبث سيبو أن تحول إلى المشى البطىء . ولذلك سبقناه نحن الاثنين ووصلنا يائسين إلى الطريق الحديدى الخالى . والقطار يسير أمامنا ، وحتّى فى تلك اللحظة كان ينفث الدخان متقطعاً ، كما يفعل دائماً فى أول سيره فتصبب العرق على وجوهنا ، وظهرت أخلاقنا على طبيعتها .

فأما أنا فدفعت أو ركلت حقيبتى برجلى ، ثم جلست عليها .

وأما قصير فإنه أخذ يصيح بمكنون أسراره المتواضعة . فجعل يمشى على غير هدى ، يصيح ويعول . فقد فقد عمله ، وذكر اسم المزرعة ، وخسر فى اللعب ، وذكر اسم الرجل . واضطر إلى أن يبيع حصانه وسرجه لكى يقابل صديقاً فى هذا القطار بالذات . وذكر لنا ما كان هذا الصديق سيفعله من أجله . . . وذكر سلسلة من الأحزان والأسماء ، وهو يخاطب الهواء ، كأن الهواء يعرف كل شىء .

وبعد لحظة وصل سيبو يمشى الهوينى ، حتّى وقف بين القضبان . فجعل يديه فى جيبه واتجه برأسه نحو القطار الضئيل . وقد أغمض عينيه الزرقاوين قليلا . وجعل ينظر إلى مؤخرة القطار ، وهو ينساب وسط الدخان ، ما بين المرتفعات التى تحف به من الجانبين . فقلت لنفسى : « من حسن حظ القطار أنه أبعد من أن يناله سيبو . » ولكنه لم يلبث أن أخذ يخاطب القطار . فقال له ملاطفاً : « يبدو لى أنك تظن أنك قد خلفتنا وراءك . ولكن هيهات لمن كان طفلا مثلك أن تخطر له هذه الأفكار . انتظر حتّى تكبر سنك قليلا . » ثم تكلم فى لهجة أقل تلطفاً وقال : « لن يكون لقائى وإياك مما يبعث الكبرياء فى نفسى . ولو قدر لى أن أسافر معك لوجب على أن أعتذر

عن ذلك لأصدقائى ، أمثلك يتوهم أنه قد خلفنى وراءه ؟ أتزعم أنك تعرف طريقك فى هذه البلاد لمجرد أنك تسير على قضبان من الحديد ؟ ما أقدرنى على أن أذهب بك وسط الأدغال عشر ياردات ، فتضل السبيل فى عشر ثوان ، أيتها الآلة المصفحة ، أتتركيننى أنا وراءك ؟ أيها العجل الحولى المحدث ! ويلك أيها المرحاض المبطن بالقماش ! فيم ترسل صفيرك فى الهواء ؟ أتظن أنى لا أستطيع أن أذهب مشرقاً ، بدلا من أن أسير مغرباً ؟ أو أبقى هنا فى مكانى ، إذا حلا لى ذلك ، أيها الصندوق الحار الذى لا يركبه إلا كل تافه مترف . اخسأ أيها السمج الرقيع . . . » وهنا أخذ يتعالى ويرتفع بشتائمه المبتكرة إلى درجة أثارت دهشتى ونفورى . ولا ينبغى لى أن أكررها هنا .

ولكنه لم يلبث أن هبطت شتائمه إلى المستوى المألوف . وختمها بالرثاء لذلك القطار لأنه لا يعرف لنفسه أمّا . . .

وهنا صاح صوت من خلفنا متسائلا : « وهل تنتظر أن يكون له والد ؟ » فالتفت بسرعة فألفيت الفرجينى أمامى .

فقال سيبو بتهكم وازدراء : « والد ؟ ألم تسمع بهم بعد ؟ »

قال الفرجينى : « بهم ؟ وهل ثمة أكثر من والد ؟ »

قال سيبو : « إن هذا الملعون تشترك فى أبوته نقابة هولندية تعسة ! »

قال الفرجينى ملاطفاً : « يا له من تعس ! » ثم التفت إلىّ وقال : « لقد وصلت العجول سالمة . ويؤسفنى أن أراكم تلهثون بسبب عدوكم خلف القطار » .

فالتفت إلى سيبو وسألنى : « من هو ؟ »

وكان الفرجينى جالساً فى الشرفة الخلفية لعربة مطبخ ، وفى يده جريدة . وكانت عربة المطبخ هذه موصولة بقطار بضاعة طوله يقرب من الميل . وكان القطار متجهاً إلى الغرب . وهكذا ألفيت نائب رئيس الرعاة ، وقد سلم العجول فى تشيكاغو ، ورجاله (وكنت أسمع أصواتهم) فى داخل عربة المطبخ آمنون ، وجريدته فى حجره ، وقد تدلت رجلاه من شرفة المركبة فى سهولة

ويسر . وكان يبدو عليه مظهر الرجل الذى تسير أموره وفق مرامه . وأنا كذلك قد أصبح طريقى إلى بلنجس ممهداً سهلا .

وأعاد سپيو سؤاله : « من هو ؟ »

ولكن فى تلك اللحظة تصاعد الضحك العالى والضوضاء من داخل العربة ، وكان أحد الأشخاص ينشد : « هذه ليلتى التى أصبح فيها وأعوى . »

فقال آخر : « سوف نعوى كلنا حين نبلغ روهيد . » ثم تعالى صياحهم .

قال الفرجينى مخاطباً سپيو : « إن هذه القاطرات البخارية تجعل الألفاظ تخرج بسرعة تضاهى سرعة القطار . » ولم يعر قصيراً أى انتباه — كما لم يعبأ بالأصوات الصادرة من عربة المطبخ .

قال سيبو : « لقد سمعتنى إذن وأنا أخاطب القطار السريع . . . لاشك أنى قلت كلاماً كثيراً . ولكن عذرى أنى جريت كثيراً . ومع ذلك فإنى توقفت عن الجرى بمجرد . . . »

قال الفرجينى : « لقد رأيت ذلك ، وقد كان عقلك متحكماً فى جريك . »

وأحسست بسرور لأنى لم أفعل ما فعله قصير ، فيكون الحكم على مبنياً على هذا الموقف الشاذ . ومع ذلك فإنى أسفت لأنى رفست حقيبتى .

قال سپيو : « يبدو لى أنك كنت تتفرج علينا . وأنا أيضاً أرتاح لمشهد ورطة يقع فيها غيرى . ومن الجائز أنك فيلسوف . ولكن من الجائز أيضاً أن يكون بيننا اثنان من الفلاسفة . »

هنا ظهرت على وجه الفرجينى علائم الرضا . وقال : « شكل رجليك يدل على أنك تعودت الركوب . »

— « ليس الركوب غريباً عنى »

قال الفرجينى : « ولكن شكل يديك يدل على أنك لم تمارس ربط البقر فى المدة الأخيرة . هل كنت تحترف الطبخ أو شيئاً من هذا القبيل ؟ »

فأجاب سيبو : « عجباً لك . حدثنى الآن عن مستقبلى ، واحكم على بشكل فنى »

قال الفرجيني ملاطفاً : « يؤلمني أشد الألم أن ليس لدينا قطرة من الشراب . »

قال سپيو : « اشرب معي في البلدة . فإني شديد الإعجاب بك . »

فنظر الفرجيني إلى الحانات القائمة وراء المحطة وهز رأسه .

فقال الآخر مستعطفاً : « ليس الوسكي بعيداً عن هذا المكان . فانزل الآن ، إن اسمي سپيو لووين . ولعلك تبحث الآن عن قرط من النحاس في أذني . ولكن ليس هنالك قرط ، فإني قد أصبحت من البيض منذ مائة عام . فانزل الآن فإن بي ظمأ لا يطفئه إلا شراب بأربعين دولاراً . »

قال الفرجيني : « لا شك أنك من البيض . ولكن . . . »

وهنا استؤنفت الأصوات من داخل المطبخ وهي تنشد :

« أنا وحش قد احتشدت براغيثي على جسدي . .
أنا ذئب سريع العدو لا ألوي على أحد . .
ولا أنفك ليلي كله أعوي . . . . »

وعندما اشتد صياحهم وضربهم الأرض بأقدامهم ، أخذت عجلات العربة تهتز وتدور قليلا .

فوقف الفرجيني فجأة وقال لسيبو : « هل لك في أن توفر هذا الشراب ، وتقبل عملا بأربعين دولاراً ؟ »

قال سيبو : « أي عمل ؟ التخلف عن القطار ، أم التكلم بألفاظ نابية ، أم ماذا ؟ »

— « سأخبرك عندما يستقر رأيي ! »

هنا نظر سيبو إلى الفرجيني نظرة ملؤها الجد ، وقال : « إن هذا عرض جدي إذن . » ثم وثب إلى شرفة العربة ، وكنت قد سبقته إليها . وقال : « لقد كنت أفكر في روهيد . ولكني لم أعد أفكر فيها . »

قال قصير : « وهو واقف وسط الطريق الحديدي » : « أتمنى لكم السلامة . »

قال سپيو : « إنه كان مثلى يريد اللحاق بذلك القطار . »

فناداه الفرجينى : « اصعد إذن ولكنه ليس مثلك حتى أفكر فى استخدامه . » وهكذا أتى إلينا قصير ، كما يجىء الكلب التائه لمن يصفر له .

وتحولت عجلاتنا من الخط الجانبى إلى الخط الرئيسى ، وقد ساعد فى ذلك أحد موظفى القطار ثم وثب على عربتنا ، وعاد إلى مكانه فى مقدمة القطار مشياً على سقوف العربات . وكان النشيد فى داخل عربتنا قد وصل إلى المقطوعة الثالثة من عواء الذئب .

قال سيبو : « هل هؤلاء أصدقاؤك؟ » .

قال الفرجينى : « إنهم جماعتى » .

قال سيبو : « وهل تركب دائماً خارج العربة ؟ » .

قال : « إن المرء يحس بالوحدة فى الداخل . » وهنا خرج أحد أفراد الجماعة وأقفل الباب بعنف شديد . وقال وهو ينظر إلى البلدة التى أخذت تبتعد عنا : « لقد قلت لك إنى أردت أن أشرب زجاجة هنا . »

قال نائب رئيس الرعاة : « خذ زجاجتك إذن » ثم رفسه برجله إلى ولاية داكوتا ( وكانت فى ذلك الوقت لم تقسم بعد إلى داكوتا الشمالية والجنوبية ) وقد صوب الفرجينى مسدسه ورجله فى آن واحد . لذلك لم يسع الرجل إلا أن يجلس على أرض داكوتا يراقبنا ونحن ذاهبون إلى منتانا .

وقبل أن يتضاءل حجمه بحيث تتعذر رؤيته ، شهدناه ينهض ويسير عائداً فى طريقه إلى الحانات .

## ١٥

## المهمة الخطيرة ـ الفصل الثانى

قال الفرجينى : « إن هذه هى الخطوة الوحيدة من نوعها التى خطوتها أثناء هذه الرحلة . » ثم أعاد المسدس إلى قرابه وقال : « لقد كنت أخشى أن يضطرنى إلى اتخاذها . ولم يبق على نهاية الرحلة إلا قليل . » ونظر باشمئزاز إلى سهول داكوتا المتراجعة أمام أعيننا . . .

فهمس سپيو فى أذنى : « أتعرف صديقك منذ عهد بعيد ؟ » . قلت : « تقريباً . » « فلمعت عينا سيبو الزرقاوان إعجاباً بالفرجينى ، وجعل يتأمله ملياً ، ثم قال : « إذا أردت أن تعبث به ، فابدأ بهذا مبكراً ، وإلا أشعرك بأنك جئت متأخراً . »

قال الفرجينى وقد أدار رأسه نحو المركبة : « لقد ظلوا بصحبتى مسافة ثلاثة آلاف من الأميال ، وبذلت كل جهدى لكى أسلمهم كما تسلمتهم . بعددهم الكامل ، وقد أوشكت أن أنجح ، لولا أنه أفسد على أمنيتى . » وألقى نائب رئيس الرعاة نظرة أخرى على داكوتا وقال : « إنها لخيبة أمل . ولعلك تعرف ما أعنى . »

لقدم كنت أعرف القليل ، ولكنى لم أكن أدرك ما فى قرارة نفسه من الكبرياء والعزم على أن يؤدى الأمانة كاملة . وقال سيبو معزياً له ومسلياً : « حسبك أنك لا يزال معك العدد الأكبر منهم . »

قال نائب الرئيس وقد اضطره الأسف للتحدث عن نفسه : « لقد أمكننى أن أجعلهم راضين كل الرضا ، وعندما بلغنا سانت بول كنت قد وفقت

لإخضاعهم لسلطتى . ثم داهمتنا هذه الأنباء عن الذهب . »

قال سپيو : « وهذا جعلهم يحلمون بباريس . وما فيها من الحلوى والبوليفار . » فابتسم الفرجينى ابتسامة الامتنان وقال : « إن للحظ أشعة براقة وهاجة كادت أن تعمى أبصارهم الغضة الحساسة . »

وسكتنا لحظة نستمع إلى أصوات الطرب فى الداخل .

ثم قال الفرجينى : « إن حماستهم شديدة . ولكن ليس فيهم رجل يدفعه الطرب إلى سفك الدماء . وعلى الرغم مما يبذلون من جهد لكى يظهروا بمظهر التوحش ، فإنهم جميعاً سيعودون معى إلى سنك كريك طبقاً لأوامر القاضى . ولن يهجرنى واحد منهم فى روهيد على الرغم من كل ما يبدونه من عنف وهمجية . ولا أظن أن هذا سيكلفنى جهداً كبيراً . لم يبق بينهم سوى شخص واحد غير منسجم . وقد اضطر لأن أعمل له ترتيباً خاصاً . »

ثم نظر مرة أخرى إلى داكوتا وقال : « إن الرجل الذى فارقنا هو الطاهى . ولابد لى أن أطلب منك أن تخلفه أيها الكولونيل . »

فلم يسع سپيو إلا أن فتح عينيه وفمه مندهشاً وقال : « الكولونيل ؟ وهل التقينا فى المطعم بأوماها ؟ »

قال الفرجينى : « لست أسمى هذا لقاء ، ولكنى كنت هناك فى صباح أحد الأيام ، عندما طلب هذا السيد أن تقدم له أرجل الضفادع . »

فانفجر سپيو قائلا : « يا رباه ، لقد كانت وظيفة وضيعة ! إذ كان على أن أقول أى شىء لكل زبون . فكنت أقف وأرمى بالألفاظ من غير تفكير . وكان الأجر لا يتكافأ مع المجهود . ومهما بلغ الرجل من المقدرة فإنه لا يلبث أن يمرض إذا كان يجهد فكره بعبارات يبتكرها على التوالى دون توقف أو استجمام . إن أعصابه لا تلبث أن تبلى . لذلك قلت لهم أن يستأجروا رجلا غيرى . فقد صح عزمى على أن أعود إلى رعى البقر ، أو مقاتلة الهنود ، أو آوى إلى مكان أستريح فيه . فإنى لم أكن أريد أن يذبل عودى وأنا ابن خمسة وعشرين ،

وأظنك تعرف أن الكولونيل سيرس جونز قد قضى نحبه ، بعد أن اصطدم بعمود الكهرباء عام أربعة وسبعين ، ولكن مطعمه كان ناجحاً كل النجاح ، وكان وجوده من أسباب اجتذاب الناس . ولذلك تراهم محتفظين بدب حي في الخارج ، وبرجل مسكين يتزيا بزى الكولونيل فى الداخل . وهى وظيفة دنيئة جداً . وسأطبخ لكم بكل سرور . أرى لك مهارة عظيمة فى تذكر الوجوه ! »

قال الفرجينى : « لم أكن واثقاً كل الثقة ، إلى أن رفست ذلك الرجل من القطار ، فرأيتك تغمض عينيك كما كنت تفعل هناك . »

وانفتح باب العربة مرة أخرى، وخرج منها رجل له حاجبان سوداوان رقيقان ، وشارب أسود رقيق ، وقد لبس « كوفية » بيضاء على قميص أسود ، وأخذ ينظر إلى كل واحد منا بدوره . ثم قال من غير تحمس : « نهاركم سعيد » ثم التفت إلى الفرجينى وقال : « أين شفنار ؟ »

— « أظن أنه لابد قد حصل على زجاجته الآن يا ترمپاس »

فنظر ترمپاس مرة أخرى إلى كل واحد منا وقال : « ألم يقل إنه سيعود ؟ »

— « لقد ذكر لى أنه ذاهب ليشترى زجاجة . ثم لم يقف لكى يذكر شيئاً آخر . »

فنظر ترمپاس إلى الأرض وإلى سياج العربة وسلمها ، وقال : « لقد أخبرنى أنه سيعود . »

— « لا أظن أنه رجع ، اللهم إلا أن يكون قد تسلق بعض المركبات الأمامية . ولابد لى أن أقول إنه عندما نزل لم يكن يبدو عليه مظهر الرجل الذى ينوى العودة . »

عند ذلك سعل سعالا خفيفاً ، وأخذ ينظر إلى أظافره بانتباه شديد وقد تجنب كل منا أن ينظر إلى وجه صاحبه . بقطع النظر عن قصير ، الذى اتخذ منذ بدء الرحلة مقعداً متواضعاً على الدرجة السفلى من درجات السلم .

وظهر على ترمپاس أنه يفكر بصعوبة . : « كم من الوقت مضى منذ تحرك هذا القطار ؟ »

فقال الفرجينى وهو ينظر إلى ساعته ببطء دون أن يرفع صوته : « هذا القطار الذى نحن فيه ؟ لقد مضى وقت ليس بالقليل وهو يجد السير . »

قال ترمپاس وهو يلقى علينا نظرة أخيرة : « يبدو لى أنه قد أصبح قطار ركاب ! » ثم رجع مسرعاً إلى داخل العربة .

فسأل سپيو : « أهذا هو الرجل الذى لا ينسجم ؟ »

فأجاب الفرجينى : « هذا هو النوع . »

قال سپيو : « إن وجهه أبعد الأشياء عن الانسجام . »

قال الفرجينى : « لست أنت بالرجل الذى تضايقه الوجوه الدميمة ، بعد كل ما شاهدت ! » وهدأت الضوضاء فى الداخل بسرعة حتى كان من الصعب أن نسمع صوت متكلم . وكانت عربتنا تجرى بنا مجدة نحو الغرب ، وهى تقطع الأميال باطراد وانتظام ، وقد أخذ الليل يرتفع من الأرض إلى سماء غشيتها السحب .

قال الفرجينى : « أتراهم أرسلوا بعثة للبحث عن شفنار ؟ لعل الأفضل أن أذهب إليهم » ثم فتح الباب وقال : « إن المكان مظلم . » ثم أوقد المصباح وأغلق الباب دوننا . »

فقال لى سپيو : « ما رأيك ؟ أتظن أنه سيعود بهم إلى سنك كريك ؟ »

قلت : « من الواضح أنه هو يظن ذلك . وقد قال إنه سيعود بهم ، وهو رجل إذا قال فعل . وشجاعته وليدة إيمانه واقتناعه » .

قال سپيو : « إن هذا القدر من الشجاعة لا يكفى . ولقد تمر بالمرء فى الحياة أوقات لابد له فيها من الشجاعة من غير اقتناع أو إيمان ، وإلا باء بالفشل . إن صديقك هذا شديد الانطواء على نفسه ، فلا يدرى أحد — لا أنت ولا أنا — ما الذى عقد عليه رأيه فى هذا الأمر . »

قال قصير : « إذا كان هنالك إطلاق نار فإنى سأقف إلى جانبه . »

قال سپيو وقد سره تحمس قصير : « ويحك ، وماذا يجديه إطلاق النار ؟ أتظن أن القاضى قد كلفه أن يحمل إليه مركبة محملة برعاة موتى ، لكى يساعدوه على جمع العجول والعناية بهم ؟ كلا . إن مثل هذا العمل لا يستحق أن يتعرض المرء بسببه للخطر . »

قال قصير : « صدقت . »

أخذ ظلام الليل من حولنا يشتد ، والعربة تجري بنا وعجلاتها تصطك فوق القضبان ، وقال سپيو وهو يفكر : « أكبر ظنى أنه لا يريد أن يكون البادئ باتخاذ أى إجراء . بل ينتظر ويتربص . لعل واحداً من الآخرين أن يعمل شيئاً . وإنى أراهن أنه يجهل الآن ما انطوت عليه جوانحهم . ولكنه لا يريد أن يعرف واحد منهم أنه لا يعرف من أمرهم شيئاً . »

وبعد أن ألقى سپيو خطابه هذا أشعل سيجارة ، ولم تخرج من فمه كلمة أخرى . ولم يلبث الليل أن أرخى سدوله ، واختفى فى طيه منظر الأراضى التى تحيط بنا . وجاء أحد عمال القطار من فوق سطح العربة وثبت المصباح الأحمر فى مؤخرتها ثم عاد أدراجه دون أن يقول كلمة أو يهمه من أمرنا شيء؛ فإن عمال القطار لا يهمهم سوى مجلسهم الخاص فى عربتهم الخاصة . وهبت علينا ريح باردة رطبة من جهات لا نراها ، ولكنها أشعرتنا بالجبال البعيدة التى تحيط بنا .

قال سپيو : « هذه ولاية منتانا ، وهذا هواؤها ، ويسرنى أن أملأ به رئتى مرة أخرى . » وسمعنا صوت الفرجينى يقول لنا : « ألا تحسون البرد عندكم فى الخارج ، إن عندنا مكاناً رحباً فى الداخل . »

ولعله كان يريد منا أن نلحق به عندما دخل إلى أصحابه . أو لعله أراد أن نتخلف قليلا حتى لا نبدو كأننا ذاهبون لنجدته . ومهما يكن من أمر فإنه قال فى بساطة لرجاله عندما دخلنا المركبة : « إن هؤلاء السادة فاتهم القطار فى مدورا . »

ولست أدرى شيئاً عن رأيهم فينا عندما دخلنا المركبة . وقد كان جو المكان مشبعاً بتيارات صامتة غامضة . ولما رأيت أن أمامى ثلثمائة من الأميال لابد لى أن أقطعها معهم فى هذه المركبة، رأيت من باب التلطف والتودد أن أذكرهم بنفسى ، يوم أن التقينا فى أوماها . وانتظرت معهم حتى لحقوا بالقطار السريع . ثم ختمت كلامى قائلا : « ولقد كنت سعيد الحظ جداً بلقائكم اليوم . بعد أن خيل إلى أن آخر فرصة لزيارة القاضى قد فاتتنى . »

وهكذا ألقيت عليهم عدة عبارات بقصد التحبب إليهم . ولكنهم لم يقابلوا مجاملتى هذه إلا بردود قصيرة فاترة أو بالصمت ، أو إشعال عود من الثقاب أو الإطراق والتحديق فى الأرض . وبعد أن قطعنا زهاء عشرين ميلا لا نسمع صوتاً سوى العربة ، التفت أحد الرجال إلى جاره وسأله هل سبق له أن رأى مدينة نيويورك ؟

فأجابه الآخر : « إنها ملأى بالمتأنقين فى ملابسهم . »

قال الأول : « إنها مكتظة بهم . »

قال ثالثهم : « إنها تنضح بهم . »

قال الرابع : « يا للعجب ! » ثم أخذ يقرع ركبتيه مغتبطاً .

ومع أن واحداً منهم لم يلتفت إلىّ ، فإنى أحسست بضيق شديد .

قال ثالثهم : « فى نيويورك ملابس جميلة »

قال الأول : « وطعام دسم »

قال الآخر : « والبيض طازج »

قال الرابع : « يا للعجب ! » ثم أخذ يقرع ركبتيه .

فقال الفرجينى على غير انتظار : « هذا صحيح . فقد أنبأونى أن البيض هناك لا يعتريه الفساد بسرعة كما هى حال البيض فى هذه البلاد . »

ولم يكن عند أحد منهم رد على هذه العبارة . ولذلك تركوا موضوع نيويورك . فشعرت عند ذلك بارتياح كثير .

ثم أخذوا يعالجون موضوعاً آخر قادهم إليه ترمپاس . وذلك بأن وجه إلى قصير السؤال التالى :

« أذاهب أنت إلى المكان المدهش ؟ »

فنظر إليه قصير متسائلا : « أى مكان مدهش ؟ »

قال ترمپاس : « هل أنت ذاهب إلى روهيد ؟ » وأخذ الجميع يراقبون قصيراً .

قال : « لقد بت فى حيرة من أمرى منذ فاتنى ذلك القطار السريع . »

قال الفرجينى : « ربما استطعت أن أجد لك عملا . فإنى الآن بسبيل إعداد مشروع جديد . »

قال ترمپاس : وهو يحاول أن يجتذبه إلى صفه : « إن معظم الناس الآن ذاهبون إلى روهيد ! فإذا أردت ألا تكون فى عزلة ، فعليك أن تسلك الطريق نفسه . »

قال سپيو ، وهو يغير الموضوع ببراعة دون أن يخرج عنه تماماً : « حدثونا عن روهيد! هل صحيح أن فيها مقداراً كبيراً من المعدن ؟ وهل رأيتم قطعة من الصخر ؟ »

قال ذلك المتحمس الذى كان يضرب ركبتيه : « هاك قطعة من الصخر ». وأخرج قطعة من جيبه وناولها لسپيو .

قال ترمپاس غاضباً : « إنك لا تفتأ ترى صخرتك للناس . » وقد اتجهت الأنظار الآن إلى سيبو ، أما قصير فقد عاد فى أمان الله إلى نعاسه .

أخذ سپيو يتأمل الحجر ، ويديره بيده ، ويدفعه للأمام وللوراء . ويرفعه فى الهواء ثم يلتقطه . ثم قال : « هذه قطعة من حجر الفرفريوس . » ثم أعادها إلى صاحبها وكان هذا كل ما قاله عنها . فلم يترك مجالا للجدل والأخذ والرد . ثم نظر إلى المتحمس صاحب الحجر وهو يعيد صخره ببطء إلى جيبه ، وقال له : « هل سبق لك أن ذهبت إلى سانتاريتا ؟ إنها بلدة فى ولاية نيومكسيكو ،

وهل رأيت جلوب في ولاية أريزونا ؟ » ثم أخذ سپيو يتحدث ويفيض في الكلام عن مناجم الذهب التي يعرفها . فأصبح من المستحيل ، أن يستولى أحد على قصير هذا المساء . وبذلك أفلت من مخالب ترمپاس . وفي الصباح أمكن تفهيم قصير كيف يغير رأيه مرة في كل ساعة ، وهذه هي أفضل وسيلة لرد المحرضين وتعجيزهم . وقد نجوت أنا أيضاً هذا المساء مما قد أتعرض له من السخرية . وعندما بلغنا محطة جلنديف تناولت عشاء ضئيلا واشتريت بعض البطاطين ، وبعد ذلك أخذ كل منا يفكر في النوم .

وقد رقد كل منا على الرفاف الممتدة على جدران العربة . ولم ألبث أن استغرقت في النوم . وكنت في حالة من التعب والإجهاد بحيث لم توقظني الضوضاء ولا وقوف القطار في المحطات . فلم أفتح جفني إلا مرة واحدة ، وذلك لأني شعرت أن الهواء الذي أتنفسه نقي جداً ، فاستيقظت ورأيت الفرجيني جالساً في باب العربة بمفرده متكئاً، يتأمل مسرى البدر في السماء ، وجريان نهر يلوستون السريع ، أما سائر الركب فكانوا رقوداً على رفاف العربة في سكون تام . وقد خيل إلى أنهم جميعاً أشخاص يمكن الاعتماد عليهم ، ما عدا ترمپاس . أما الآخرون فلا يختلفون كثيراً عن نظرائهم من الشباب الذين يعيشون عيش الخشونة ولكنهم سليمو النية ، يقبلون الإرشاد والنصح في الوقت الملائم .

ومع أنني لم أتحرك من مكاني ، فإن الفرجيني لمحني ، وأشار إلى بأن أستسلم للنوم . ففعلت وأغمضت جفني عليه ، وهو متكىء على الباب يلاحظ القمر من آن لآن ، ويصغي إلى تدفق نهر يلوستون .

## ١٦

# المهمة الخطيرة ــ الفصل الأخير

كثيراً ما يحدث للمرء أن يستيقظ فى الصباح ، فتمر به لحظات لا يكاد يعرف أين هو . وهذا ما حدث لى حين استيقظت فى العربة فى الصباح الباكر . فكنت أسمع أصواتاً ، ولكنى لا أكاد أعى كلمة من الكلمات التى أسمعها .

وبالتدريج أخذت الكلمات تزداد وضوحاً . فسمعت صوتاً يقرأ اسم المحطة « هاتاوى ! » وآخر يقول : « بورتلند ١٢٩١ ! » .

سمعت هذه الألفاظ ولكنى لم أدرك لها معنى . وعاد النوم فاستولى علىّ . ولكن صدمة الوقوف فجأة فى المحطة التالية أيقظتنى . وسمعت الأصوات نفسها تتصايح من حولى . وعندما أخذ القطار يسير سمعت شخصاً يذكر اسم المحطة ( روزبد ) ثم يصيح : « بورتلند ١٢٧٩ ! » وهذا الرقم أطار النوم من جفنى ، وأخذت أتساءل : لقد كان الرقم من قبل ١٢٩١ فما باله يتناقص . ثم جلست فى وسط البطاطين وجعلت أتأمل ما حولى . فأبصرت رفاق الأمس جالسين فى العربة فى جمود . وحييتهم فردوا التحية ببرود . ولم نكد نصل إلى المحطة التالية حتى صاح واحد منهم : « فورسايت : بورتلند ١٢٦٦ . »

هنالك أدركت معنى هذه الألفاظ والأرقام . فلقد كانوا يقرأون اسم كل محطة نمر بها وقد نقش تحتها المسافة بين تلك المحطة وبين مدينة بورتلند ، وهى مسافة تتناقص بالطبع كلما مررنا بمحطة جديدة . وكان فى قراءتهم للمسافة نوع من التهديد . لأن كل محطة يمرون بها تدنيهم من روهيد ، أو على الأقل من النقطة التى ينتقلون عندها إلى الخط الموصل إلى روهيد ومناجم الذهب ،

وكانت هذه النقطة تزداد اقتراباً .

وقد أدركت هذا كله عندما نزلت فى محطة فورسايت واستحضرت بعض الماء لأغتسل به . وقد وضح لى الموقف على حقيقته ، فإن النقطة التى يتفرع عندها الطريق الذاهب إلى روهيد ، تقع قبل محطة بلنجس التى توصل إلى مزرعة القاضى فى سنك كريك . وهكذا ينفتح أمامهم طريق الفرار إلى أرض الذهب ، قبل أن يقتربوا من الطريق المؤدى إلى سنك كريك ، بنحو خمسين ميلا ، والطريق الأول كله إغراء وفتنة ، والثانى طريق الواجب المعروف الخالى من التجديد .

ولا شك أن الموقف على هذه الصورة كان فى مصلحة ترمپاس . فما عليه إلا أن ينتظر ولا يحرك ساكناً ، حتى تجىء الفرصة ، وتتهيأ وسائل الإغراء فيجتذبهم . ويتم له النصر على نائب رئيس الرعاة . ومع ذلك فإن الفرجينى لم يكن يبدو عليه سوى السرور والاغتباط بهذا الصباح المشمس من شهر سبتمبر وأخذ يتناول فطوره فى هدوء وارتياح .

وبعد الانتهاء من تناول هذه الوجبة ، أخذنا نبتعد عن تلك المحطة ، والقطار يتهادى بنا على ضفاف نهر يلوستون . وقد جلس العصاة فى العربة يهضمون فى صمت ما التهموا من طعام . وبعد لأى ، نظر واحد منهم إلى قفا زميله وقال له : « أرى فى عنقك أثر جرح ، فما سببه ؟ »

— « البلادة »

— « بلادتك ؟ »

— « نعم »

— « وكيف كان ذلك ؟ »

قال الآخر : « كان ذلك فى يوم من أيام الصيف الماضى . وكنت شديد الإعجاب بنفسى ، فررنا بثعبان ضخم بالقرب من حظيرة تورى كريك . وأخذ رفاقى يراهن بعضهم بعضاً أننى سيبدو عجزى إذا حاولت القبض على

الثعبان . فجريت بفرسى حتى دنوت منه ، وانحنيت إلى الأرض والتقطته من ذنبه ، وأخذت أهزه هزاً عنيفاً حتى انفصل رأسه عن جسده . وأظنكم قد رأيتم مثل هذا يحدث من قبل ؟ »

فأجابه المستمعون على سؤاله بهزة من رءوسهم بغير اكتراث .

قال : « ولكن الرأس المتطاير اندفع نحوى وأمسك بعنقى . فمرضت بسبب ذلك زمناً طويلا . »

قال الرجل الأول : « من الخطر أن يكون المرء طائشاً إلى هذا الحد ! »

وقال الآخر : « لو أنك ضربت الثعبان بعيداً عنك ولم تهزه نحوك لطاحت رأسه إلى الثرى كما هى الحال معى دائماً . »

فقلت : « ولكن الجرح الذى فى عنقك شبيه جداً بجرح سكين ! »

قال صارع الثعابين : «أجل إن كثيراً من الناس ينخدعون بمظهر هذا الجرح. »

والتفت إلى أحد الرعاة وقال : « إن الوعل يعرف أن الثعبان ألد أعدائه ؛ هل رأيت فى حياتك أحد الوعول يدور حول ثعبان ؟ »

قلت : « كلا ولكن وددت منذ زمن لو رأيت هذا المنظر . » وكنت أتكلم بحماسة لأنى أعرف أن هذه القصة لها نصيب من الصحة .

قال : « لا شك أنه منظر يستحق الرؤية ، فإن الوعل يدور حتى يصبح على مقربة من الثعبان ثم يثب وثبة هائلة فى الهواء ، وينقض بحوافره الأربعة فوق جسد الثعبان ، فيقطعه إرباً . فبالله عليك قل لى كيف يعرف الوعل ذلك ؟ »

وبالطبع لم أكن أستطيع أن أقول له شيئاً عن هذا الأمر . وعاد الصمت فخيم على مجلسنا ، ولكنه كان صمتاً أحب إلى نفسى .

ثم لم يلبث أحدهم أن قال : « إن السنجاب يستطيع أن يقتلك قتلة أشر من عضة الثعبان [1] . » فضحكت من عبارته ، ولكنه قال : « لست أقصد هذا

---

[1] المقصود بالسنجاب هنا نوع من الحيوانات ذات الفراء فى أمريكا الشمالية ، ومن خصائصه أنه يدافع عن نفسه بإفراز مادة ذات رائحة كريهة .

النوع من القتل . فنى ولاية أركنساس سنجاب أسمر اللون ، صغير الحجم بالقياس إلى النوع المنتشر عندنا . وهو مصاب بداء الكلب طول السنة ، كما هى الحال فى الكلاب . ولكن الفرق بين الاثنين أن الكلاب لا تلبث أن تموت بدائها ، أما سنجاب أركنساس فإنه مصاب بالكلب طول عمره ، ولا يلحقه بسببه أى أذى ، فإذا كنت مثلا راقداً بالعراء ليلا ، ولم تضرب لك خيمة ، إما لشدة الحر أو لأنك تريد أن ترقد بسرعة ، وقد تقدم شطر كبير من الليل ، ولذلك افترشت الغبراء والتحفت السماء ، بعد أن تغطيت ببعض البطاطين . فإن السنجاب يقبل عليك ويمشى فوق البطاطين ، فيحس بالدفء ويرتاح لذلك كما تفعل القطة ، ويمشى فوقك فى سهولة واطمئنان كما تفعل القطة أيضاً ، ولكن إذا تحركت عضك بنابه ، فلا تلبث أن تموت صريعاً بداء الكلب . اسأل من شئت عن هذه الحقيقة ! »

قلت : « إن هذا لشىء عجاب . هل رأيت فى حياتك شخصاً يموت من هذا ؟ »

— « كلا يا سيدى ، لم أصادف مثل هذا الأمر فى حياتى . ولكن ابن عمى فى بالد كنوب . . . »

— « هل قتل ؟ »

— « كلا ولكنه رأى رجلا يموت »

— « ولكن كيف عرفت أن هذه الحيوانات لم تكن مريضة ؟ »

— « كلا يا سيدى ، إنها حيوانات سليمة صحيحة . ولن تصادف فى أى ولاية من الولايات المتحدة سنجاباً أصح بدناً مما تصادفه فى أركنساس ، وأقوى بنية » .

قال أحد الرعاة : « إن هذا صحيح ، وكثيراً ما أتلفت من ملابسى فى أركنساس بما قيمته مئات الدولارات . »

قال سپيو : « ولماذا لم تسافر داخل كيس من القماش ؟ » وساد الصمت بعد ذلك فترة من الوقت ، ثم تكلم شخص آخر من الجماعة فقال : « بمناسبة الكلام على عضات الأفاعي والثعابين ما قولكم فى هذا ؟ » ثم رفع إبهامه حتى يراها الجميع .

فقال سپيو وهو يتكلف الدهشة : « رباه ! إن هذه عضة أسد بلا شك ! »

فبدا على الرجل مظهر التأثر ، وقال لى : « لقد كنت أبحث عن بيض البوم لأجل عالم نباتى من بسطن . »

قال سپيو متهكماً : « أتقول إنه عالم نباتى ،أم حيوانى ، أم حشرى ؟ »

قال الرجل وهو ينظر إلى إبهامه : « أؤكد لك صدق ما أقول . » وقد رثيت لحال الرجل وسألته أن يمضى فى حديثه ، وقلت له : « إننى سأنصت لما تقول . » ولست أدرى لماذا كان ما أبديته من التلطف نحوه سبباً فى إثارة الضحك والسخرية ، عند بعض الحاضرين . أما سپبو ، فقد ألقى على نظرة ملؤها الغيظ والاشمئزاز ، ثم بادر بالخروج إلى شرفة العربة حيث كان الفرجينى جالساً .

ومضى الراعى يتم قصته فقال : « كان هذا العالم شاباً يلبس سراويل قصيرة ، وعلى عينيه منظار غليظ ، وكان يحمل صندوقاً من الصفيح مربوطاً بسير من الجلد ، ظننت أول الأمر أنه يحمل فيه غداءه ، إلى أن ارتفع غطاؤه مرة وبدا من تحته وزغ ذو قرنين . فتأكدت عندئذ أنه من علماء النباتات أو ما أشبه ذلك . وقد كان يبحث عن بيض البوم ، ذلك البوم الذى يعيش فى هذه البرية ، والذى يقال عنه إنه يستطيع أن يدور برأسه دورة كاملة دون أن يتحول نظره عنك ، ولو أن هذا زعم سخيف وكلام هراء . وقد كنت أنا نفسى أريد أن أعرف كل شىء عن هذا البوم وعما يقال من أنه يعيش فى جحر واحد مع كلاب الفلاة والأفاعى ذات الأضراس . لذلك وعدت هذا

النباتى أن أبحث له عن مثل هذا الجحر إذا استطاع أن يقيم ويعسكر فى المكان ليلة أو ليلتين . »

فقلت – وأنا أتلهف على المزيد : « ثم ماذا ؟ »

قال : « وانطلق النباتى يفحص أرض الفلاة بمنظاره الغليظ لعله أن يصادف جحراً تأوى إليه البوم والكلاب معاً ، وفى أثناء ذلك أخذت أنا أفحص بيدى جحراً رأيت بومة قد دخلت فيه . فكان جزائى ما تراه » ثم رفع إبهامه مرة أخرى .

فصحت به : « عضتك الأفعى؟ »

قال : « أجل يا سيدى ، كانت ذات الأجراس هى التى تتولى الحراسة فى ذلك اليوم فأصابتنى كما ترى . وقد أخرجتها من الجحر وقد تعلقت بإبهامى بأجراس ثمانٍ .

قلت « ثمانٍ ؟ لا بد أنها كانت أفعى هائلة ؟ »

قال : « أجل يا سيدى ، وما شككت فى أنى ميت لا محالة ، ولكن المرأة . . . »

قلت : « أى امرأة ؟ »

قال : « ألم أقل لك إن هذا النباتى كانت تصحبه زوجته ؟ وقد كان مسلكها أفضل من مسلك زوجها ، الذى طار صوابه وأخذ يصيح بأنه ليس لديه وسكى ، وأن سكينه ليست من الحدة بحيث يستطيع أن يقطع بها إبهامى ، وأن بيننا وبين الطبيب عشرين ميلا ، وأنه قد نسى أن يحضر معه أملاح النوشادر ، وهكذا أخذ يهرف بما يعرف وبما لا يعرف من غير نظام أو ترتيب . أما هى فقد أدخلت يدها بسرعة فى جيبه ، ثم صاحت ، أعطه الحجر يا أغسطين ! أعطه الحجر . ثم استخرجت الحجر الشافى – وهى أول مرة أراه فى حياتى – ثم وضعته فوق إبهامى ، فبدأ يعمل بسرعة . »

قلت : « يعمل ماذا ؟ »

قال : « يمتص السم كأنه ورقة النشاف ! وكان عبارة عن حجر ناعم رمادى اللون . وهو يستخرج من معدة الوعل . وبعد أن امتص السم عن آخره سقط من تلقاء نفسه . وقد شكرت المرأة على إنقاذها حياتى وعلى هدوئها ورباطة جأشها وقت الخطر . ولم أعرف أنها كانت فى الحقيقة مضطربة اضطراباً شديداً إلا فيما بعد؟. »

قلت — وقد ساد الصمت من حولى : « أظن أنها بدأت تتكلم بعد أن انتهى الخطر . »

قال : « كلا إنها لم تقل شيئاً فى ذلك اليوم ، ولكن الطفل الذى ولدته بعد ذلك كان له ثمانية أجراس كالأفعوان سواء بسواء . »

لم يكد ينطق بهذه العبارة ،حتى انفجر الضحك وامتلأت العربة بالضوضاء ، واستلقى الجميع من شدة الضحك ، وأخذ المتحمس يضرب ركبتيه بيديه . وقد ضحكوا لأن صاحبهم استطاع أن يعبث بى ويحملنى على تصديق قصته وما اشتملت عليه من مزيج من الصدق والكذب . ومع أننى كنت أنا الفريسة ، فإنى شاركتهم فى مرحهم . لأن القصة قد صيغت بمهارة نادرة . من بدايتها الهادئة إلى نهايتها الغريبة . ولكنى لم ألبث أن اعترانى الوجوم ، لأن ضحكهم كان عالياً جداً ، ولم يكن مبعثه الفكاهة بل السخرية . وفوق ذلك لمحت ترمپاس ينظر إلى الفرجينى نظرة الشامت . لهذا نهضت من مكانى وذهبت إلى شرفة المركبة . بعيداً عن الضوضاء . فقال لى الفرجينى : « لا تحزن ! إنك لن تكون فريسة سهلة لهم فى الموسم المقبل . »

ولم يضف إلى هذا كلمة أخرى ، بل عاد إلى مطالعة جريدته .

فالتفت إلىّ سپيو وقلت : « هل فى الأمر شىء ؟ » قال : « ألست تدرك ما حدث ؟ لقد حاولت جهد طاقتى أن أحول بينك وبين عبثهم . ولكنك ألقيت بنفسك فى شراكهم ، فلما يئست منك ومن أسئلتك الساذجة اضطررت لأن أتركك تفعل ما تريد . إن العبث بشخص ساذج غمر قليل التجربة أمر

مألوف ، وليس فيه بأس كثير . ولكن هذا العبث الذى عبثوه بك لم يكن من النوع المألوف ، لأنك لست شخصاً عادياً يجهل أمور هذه البلاد . بل أنت صديق الرئيس . فأرادوا أن يصيبوه فى شخصك . هذا هو الموقف على حقيقته ، وقد زادهم هذا الانتصار جرأة وإقداماً . أفهمت الآن ؟ »

لا شك أن سيبو قد شرح الأمر بوضوح تام ، ولذلك لم نكد نبلغ المحطة التالية حتى نادوا بصوت هائل : « محطة هوارد ! ١٢٥٦ ميلا من بورتلاند . »

كان القطار أثناء ذلك يمر بجماعات من العمال تشتغل بإصلاح الخط . فنهض الفرجينى من مكانه وقال : « أظن أنه لابد لى أن أعود إلى الجماعة ، فإن كل هذا الردم والترميم يدل على أن التدمير الذى سمعنا به صحيح . »

قال سيبو : « أى تدمير ؟ »

« تدمير الجسر الممتد على نهر هورن الكبير منذ أربعة أيام ».

ـ « ليت هذا التدمير يحول دون الوصول إلى محطة روهيد ؟ »

فابتسم الفرجينى لسيبو ودلف إلى العربة وجلسنا فى الخارج نصغى إلى ما يدور فيها :

قال الفرجينى بلهجة كلها مودة وصداقة : « أرى الترميم والإصلاح يجرى على قدم وساق ! »

قال ترمپاس : « ونحن نرى ذلك أيضاً » .

ـ « الظاهر أنهم يريدون أن يجعلوا المنحدرات أسهل . »

ـ « هذا بديهى . »

فقال الفرجينى متلطفاً جداً : « لقد يتوهم المرء أن الأرخص أن تبنى الطرق بالانحدار الذى يريدونه منذ البداية . . . هاكم جماعة أخرى من العمال الإيطاليين . »

قال ترمپاس : « إنهم صينيون . »

فوافق الفرجينى ضاحكاً : وقال صدقت « إنهم صينيون . لولا هذه الأيدى

العاملة الأجنبية الرخيصة لما أمكن تعبيد الطرق على هذه الصورة . »

قال ترمپاس : « أى تعبيد تعنى ؟ إنهم هنا يصلحون جسوراً طغى عليها الفيضان .ألا تستطيع أن ترى ذلك ؟ »

قال الفرجينى بلهجة عذبة : « أصبت فيما قلت ، ولكن ألم تسمع بالاصلاحات القائمة الآن غربى الغابات الكبيرة لغاية بلدة مسولا . هذه هى التى كنت أتكلم بها . »

– نعم سمعنا بها .

قال الفرجينى : « لقد رسموا لذلك خطة سليمة فيها توفير كبير للجهد والمال . وطريقتهم فى ذلك أن يتركوا القطار ينحدر من المرتفع إلى المنخفض ، ثم يصعد المرتفع المقابل إلى أعلا نقطة يصل إليها بدون بخار ، ثم يقطعون رأس الجبل عند هذه النقطة . هذه خطة هندسية عملية أفضل من القيام بمساحات بوساطة آلات دقيقة ، وعمل حسابات لا نهاية لها من أجل توفير الواحد فى المائة من النفقات . »

قال ترمپاس مصدقاً : « هذا ما يقضى به العقل . وهل سمعت عن الفكرة الجديدة فى إنشاء صهاريج الماء لخدمة القاطرات ؟ »

قال الفرجينى : « لا أظن أنى متأكد من معرفتها . »

هنا نهض سپيو وقال : « لابد لى أن أراقب ما يجرى بالداخل وإلا انفجرت من شدة القلق » . ثم دخل ودخلت على أثره . فرأيناهم جميعاً جالسين ينصتون لهذا الحديث عن السكة الحديدية الشمالية ،وما تقوم به من الإصلاحات ، كأنهم مجلس إدارة الشركة . وقد ساد الصمت ، حتى ليسمع المرء صوت إبرة . لولا أن الحاضرين لا يهمهم الإنصات إلى أصوات الإبر .

قال ترمپاس : « كانت عادتهم فيما مضى أن يقيموا صهاريج الماء فى قاع المنحدر . »

قال الفرجينى : « أسهل لهم أن يستنبطوا الماء عند القاع . »

قال ترمپاس متعالياً : « ومن الممكن أن يدفع الماء إلى أعلى المنحدر بوساطة الطلمبات ، وهذا أرخص » .

قال الفرجينى وقد بدا عليه الاهتمام : « هذا ما لم يخطر ببالى . »

— « فإذا أخذ القطار ماءه وهو فى أعلا المنحدر أمكنه أن ينزل بسهولة منتفعاً بقوة الجاذبية . وفى هذا اقتصاد عظيم فى النفقات ».

قال الفرجينى : « هذا كلام معقول . وليتهم فكروا فى ذلك منذ البداية . »

— « التجربة علمتهم . وقد أمكنهم بعد ذلك أن يزيدوا سرعة القطار إلى درجة عظيمة ، بنصف مقدار الفحم الذى كانوا يستهلكونه من قبل ، وظلوا يزيدون سرعتهم إلى أن حدثت الحادثة . »

قال الفرجينى بسرعة : « أى حادثة؟ »

— « حادثة سكك حديد بلوستون . فقد أطلق رجل النار على سائق القطار ، وكان القطار يطير بسرعة هائلة ، بحيث حطمت القذيفة كل نافذة وقتلت أحد المسافرين فى الرصيف المقابل . . . وأنت معذور إذا لم تسمع بذلك لأنك مشغول بصحبة الأرستقراطيين . » وانتهى ترمپاس من كلامه واتجه إلى الناحية الأخرى .

عند ذلك بدأ المتحمس يضحك ، ولكن جيرانه أمسكوا به وأسكتوه . فإن هذا الانتصار لم يكن من النوع الذى تثار حوله الضوضاء . لذلك لم يتحرك من المتمردين أحد . وأحسست ببرود يغشانى .

قال الفرجينى : « ويلك يا ترمپاس كنت أظنك تخاف أن تحاول معى مثل هذا العبث . »

فالتفت إليه ترمپاس وقال فى سخرية : « أخاف ! » وامتدت يده إلى حزامه .

وصاح سپيو : « « ويحك يا قصير! » ثم انقض على هذا الشاب وانتزع منه المسدس الذى جرده . فنظر الفرجينى إلى سپيو وقال : « شكراً لك ! » .

ورفع ترمپاس يده عن حزامه . وبعد أن ألقى نظرة ذات مغزى على رجاله ، سار نحو الشرفة . مولياً ظهره الفرجينى . ثم جلس فى خارج العربة على الكرسى الذى كان الفرجينى يستخدمه كثيراً .

وقال الفرجينى لقصير ملاطفاً : « ألا تعلم يا صديقى أن هذه الأمور كثيراً ما نوقشت فى هدوء وسلام بوساطة أناس متمدنين ؟ اجلس الآن وأحسن سلوكك ، وسيرد إليك مستر لوموين مسدسك بعد أن نجتاز الجسر ، إذا أمكن إصلاحه بسرعة بحيث تمر عليه القطارات الثقيلة . »

قال ترمباس وهو على كرسيه فى الخارج : « « إن هذا القطار سيكون أخف وزناً عندما يصل إلى الجسر » .

قال الفرجينى : « هذا صحيح أيضاً . ومن الجائز أنه لن يعبر الجسر الممتد على نهر هورن منا أحد غيرى . وكيف تكون الحال لو انتهى بكم الأمر إلى أن تحرضونى أنا أيضاً على أن أصاحبكم إلى روهيد ؟ لكن أكبر الظن أنى لن أذهب إلى هناك ، بل سأعود إلى سنك كريك ، وإن طال السفر . »

قال سيبو : « لا تنس أنى طباخك ! »

قال ابن الجنوب : « شكراً جزيلا »

قال قصير : « وأظنك وعدت أن تجد لى عملا عندك ! »

— « أشكركما جداً . ويسعدنى أن أراكما معى . ولكن لابد لى أن أنبهكما إلى أن وعودى لابد أن تجد قبولا لدى القاضى هنرى ، فما أنا إلا واحد من أتباعه . »

فى هذه اللحظة شعرنا بالقطار يبطىء ، وتتدافع عرباته من الأمام إلى الخلف . فقد أخذنا نقترب من محطة روهيد ، فأخذ الجميع يتحركون ويتحدثون : « هل نذهب إلى المناجم اليوم ؟ دعنا نتناول بعض الطعام أولا . »

— « إن الساعة متأخرة على كل حال . ولابد أن نتخلف هنا بعض الوقت . »

وغير ذلك من العبارات . وفى أثناء ذلك كانوا يطوون الأمتعة ويحزمونها ، ثم

يلبسون معاطفهم بحركات متكلفة تلفت الأنظار ، ولكن الفرجينى لم يكن ينظر إليهم . بل كان يطل من النافذة ويحدق أمامه ، وعين سپيو ترقبه عن كثب . ولم يلبث القطار أن توقف عند صهريج الماء . فقال الفرجينى مغتبطاً : « إنها لم تتحرك بعد ! »

وهو يعنى بذلك القطارات التى تعطلت بسبب ما لحق بالجسر من العطب ، فقد كان أمامنا أربعة قطارات سريعة . وعدد من قطارات البضائع ، كلها معطل ، ولم يزل أمامنا ساعتان على الأقل قبل أن يتم إصلاح الجسر ، وقد انتشر المسافرون وهم فى حيرة من أمرهم بين قائم وقاعد إلى جانب العربات أو على الأعشاب أو فى أى مكان . ووقف أناس من سكان الإقليم يتفرجون ، وبينهم بعض رؤساء الهنود يحاولون أن يبيعوا للركاب قِسياً وسهاماً منقوشة وغير ذلك من التحف .

ورأى الفرجينى أحد الأهالى يقترب من عربتنا فقال له : « أظن أن المسافرين يفضلون أن يشتروا بعض الضأن بدلا من هذه التحف . »

قال الرجل : « وهل تشك فى ذلك ؟ إن أول دفعة من المسافرين قد حضرت إلى هنا منذ أربعة أيام . »

قال الفرجينى : « إذن لقد أصبحوا يتضورون جوعاً . »

— « تستطيع أن تراهن على ذلك بحياتك . لقد أكلوا كل ما اشتملت عليه عربات الأكل وكل ما اشتملت عليه هذه البلدة . »

فنظر الفرجينى إلى البلدة وقال : « وأكبر ظنى أن عربات الأكل كان فيها من الطعام أكثر مما فى البلدة » قال الرجل : « صدقت فى كلامك هذا . » ثم أخذ يمشى بجانبنا ، وقد أخذ القطار ينتقل ببطء من صهريج الماء إلى الرصيف الجانبى المعد لقطارنا . واستمر الرجل فى حديثه فقال : « لو أننا كنا نعرف سلفاً لأمكننا أن نجنى ربحاً عظيماً . فقد أمكن للبعض أن يبيع للمسافرين قليلا من لحم البقر ، والصيد والسمك ، بأثمان باهظة . إن هؤلاء الركاب المقبلين من الشرق

قد نهبوا نهباً . ليتنى كان لدىّ ما أبيعه . »

قال ترمپاس وهو يطل من الباب بالعربة : « هل هناك قطار يذهب اليوم إلى روهيد ؟ »

قال الرجل : « لا قطار إلى هناك قبل صباح غد . » ثم قال يوجه الحديث إلى الفرجينى : « أذاهب أنت إلى المناجم ؟ »

قال الفرجينى ببطء ومن غير اهتمام ، وهو يوجه الكلام إلى الرجل وحده : « إن هذا التأخير الذى تعرضنا له قد يبدل من خططنا قليلا . ونحن بين أمرين : إما أن نذهب كلنا إلى روهيد أو نذهب كلنا إلى بلنجس . فنحن كلنا جماعة واحدة . »

وقد سمعت ترمپاس يضحك بصوت مسموع بعد أن انضم إلى رفاقه : « دعوه يحافظ على المظاهر . إن ما يقوله للغرباء لن يضيرنا . »

قال الفرجينى ، متابعاً حديثه « ولكن أيا كانت وجهتنا ، فلا بد لى أن آكل كفايتى أولا . ولن أسمح لأحد أن ينهبنى . لقد وعدت نفسى بأكلة شهية إذا توقف بنا القطار هنا . »

قال الرجل : « إن البلدة مقفرة من الزاد . »

— « قلت لى هذا من قبل . ولكن قد نسيتم يا معشر الناس ، أن هناك مصدراً للثروة فى متناول يدنا . فإذا كانت لديك ( زكيبة ) كبيرة فإنى سأدلك على وسيلة لكسب المال الحلال . »

قال الرجل : « أنا طوع أمرك . »

قال الفرجينى : « يا مستر لوموين ، إن أدوات الطهى الخاصة بجماعتنا فى داخل العربة ، وإذا استطعت أن توقد لنا ناراً ، فلقد يتاح لنا أن نذوق طعم أرجل الضفادع بعد أن تقلى فى الدهن . » ثم انطلق مسرعاً ، والرجل يتبعه كأنه كلب . وارتفعت أصوات الضحك فى داخل العربة .

فالتفت إلىّ سپيو فى وجوم ودهشة ، وقال : « ضفادع ؟ ! »

قلت : « إن الكولونيل سيرس جونز كان يضعها فى قائمة طعامه ويسميها « أرجل الضفادع على طريقة ، دلمونيكو » .

قال : « ولكن لم يكن هذا من عملى بل كان موجوداً من قبلى . ولم أر تلك الضفادع فى حياتى ، ولا مرة » . وأخذ ينزل الدرج ببطء شديد ، وهو متجهم الوجه . وعندما بلغ الأرض قال وهو يهز رأسه : « ما أصعب التكهن عن الخطة التى يبغى سلوكها ! ومع ذلك فلابد لى أن أبادر بإيقاد النار لأن منظرها قد يبعث الشجاعة فى نفسى . » ثم أخذ يعمل بهمة ونشاط يساعده قصير ، وساعدت أنا أيضاً بإحضار الخشب . أما ترمپاس وسائر الرفاق فقد انطلقوا مجتمعين مؤتلفين إلى محطة السكة الحديدية .

أوقدنا النار على مقربة من العربة حتى يكون من السهل تناول الأوانى وإعادتها . وبديهى أنه لم يكن فى عملنا هذا ما يثير حب الاستطلاع حتى عند الجائعين ، إذ لم يكن لدينا شىء نطبخه بعد ، وكان كل ما هنالك عبارة عن حطب يلتهب على الأرض ، وطاسة للتحمير ، وعلبة من الدهن وبعض الماء ، وعدد من الصحون الفارغة والشوك والسكاكين ، ومع ذلك فقد أقبل بعض المسافرين ليتفرجوا . فكانوا يقتربون منا كأنهم أيتام ليس لهم من يعولهم ، وكان عددهم أول الأمر أربعة ، ثم انصرف اثنان منهم ، ولم يلبث أن عاد أحدهما إلينا ، فقد وجد منظرنا أكثر تسلية له من سائر المناظر . قال : « أتعدون العشاء ؟ » قال سپيو متذمراً : « بل الإفطار » .

كان يبدو على هؤلاء المسافرين مظهر الوجاهة ، وكان حديثهم تتردد فيه عبارات وال ستريت وسراتوجا وفيلادلفيا . ولكن هذه الأسماء بدت كالأوهام أمام الحقيقة الماثلة أمام أعيننا فى ولاية منتانا ، وما نحن فيه اليوم من أزمة غذائية حادة .

قال سپيو : « أرى هناك مستنقعاً آخر تكتنفه الحشائش والأعشاب ، وأكبر ظنى أنه أيضاً قد امتلأ بالضفادع . انظر إلى الفرجينى وصاحبه ، وكيف

يعملان بجد وهمة لا تعرف الكلال ، ماذا عساه يبغى من وراء هذا ؟ يخيل إلى أن آن الآوان لكى يفضى بمكنون سره ، وأن يظهر الخطة التى رسمها من قبل ، فى هذه الساعة ، قبل أن نعبر الجسر . »

وبعد أن أدلى سپيو بهذه الحكم . ضرب بيده على كتف قصير ، وقال : « أبشر يا قصير فقد دنا وقت الطعام وستجد فيه غذاءً للخيال . »

قال أحد المسافرين : « ألا نجد فيه شيئاً للمعدة أيضاً ؟ »

قال سپيو : « إننا سننظر فى هذا الأمر أيضاً . »

فى تلك اللحظة رأينا ترمپاس مقبلا من المحطة يتبعه رهطه متفرقين لا مجتمعين . لم يجدوا فى المحطة إلا الجدب ، ولا أمل فى الحصول على شىء قبل أن يصل القطار التالى من الشرق . ومع أن الذنب فى هذا لم يكن ذنب ترمپاس . فإنهم مع ذلك كانوا يتبعونه متفرقين ، كأنه هو الذى أخلف ظنهم . وعندما اقتربوا منا رأيناهم يحملون معهم قطعة من الجبن فى حجم قبضة اليد ، وفى صلابة القرميد ، وفى لون الرمة البالية . فلما رآها المسافرون صاحوا : « ها هى ذى الجبنة التى وعد بها المتقون ! ». ثم رفعوا لها قبعاتهم إكراماً وتعظيماً.

فقال سيبو بخبث : « هل سبق لكم أيها السادة أن التقيتم وهذا القرص من الجبن ؟ »

قال أحدهم : « لقد قدموه إلىّ ثلاث مرات كل يوم من هذه الأيام الأربعة ، هل دفعتم فيه دولاراً أم دولاراً ونصف دولار ؟ ! »

قال الراعى المتحمس : « دفعنا دولارين ! » فاندفعنا كلنا نقهقه ضاحكين ، ما عدا ترمپاس .

قال سپيو : « ها هو ذا طعامنا مقبلا علينا من المستنقعات ! »

قال ترمپاس : « إن القطار لن يلبث أن يصل ، وأظن أننا سنأكل عشاء طيباً ، دون حاجة إلى الضفادع . »

اتجهت جميع الأنظار الآن إلى الفرجينى . وهو يقبل علينا يحمل « الزكيبة »

مثقلة بما امتلأت به من الخيرات ، ومن خلفه الفتى الذى كان يساعده .
ولم يبد أقل اهتمام بالجمع المحتشد ، بل بادر بالجلوس ، ثم استخرج من « الزكيبة » نصف ما اشتملت عليه . ثم قال لمساعده : « حسبنا هذا ، فليست بنا حاجة لأكثر من هذا القدر ، ولن تجد مشقة فى أن تبيع الباقى . »

قال المتحمس : « ما هذا ؟ أى مجنون يرضى أن يأكل الضفادع ؟ » قال أحد المسافرين : « أحسبنى إذن من المجانين ، فإنى لا أجد بأساً فى تعاطى ما هو أحقر من الضفادع . »

وأخذ كل من المسافرين يستخرج محفظته من جيبه . فقال لهم الفرجينى ، مرحبّاً بهم : « أظن الأوفق أيها السادة أن تسمحوا بأن تقلى لكم الضفادع هنا . فإنى لا أطيق أن أرى فى عربات القطار ناراً . »

قال المتحمس : « بكم تبيع الزوج من الضفادع ؟ »

فنظر إليه الفرجينى مبدياً له المودة والدهشة وقال : « كأنك لا تعلم أنك واحد منا ، إننا معاً على الأقل ساعة أخرى . فتفضل وخذ ما تشاء ! تفضلوا جميعاً ، فهذا كله لكم إذا رغبتم فيه . »

تردد الرعاة ، ولكن ترددهم لم يطل . فلم يلبثوا أن وضعوا قطعة الجبن فى ناحية ، واقتربوا من النار يلتمسون بعض الطعام .

قال الفرجينى للمسافرين : « إن ضفادعنا لن تكون فى جودة ما يقدمه دلمونيكو أو سانت أغسطين » . وهو يشير بهذا إلى طاهى فيلادلفيا المشهور الذى سردتُ له قصته من قبل فى مطعم الكولونيل سريل جونس .

وأخذ سپيو يعمل بجد ونشاط ، وأخذ القتار يتصاعد من المقلاة .

قال الفرجينى : « إنك تحسن الطهى أيها الكولونيل . ولو أنك قدمت هذا الصنف لزبائنك فعلا ، بدلا من الاكتفاء بكتابته على الورق ، لأصبحت لك شهرة عظيمة . »

فى ذلك الوقت كنا كلنا منهمكين فى الأكل ، ما عدا سپيو ، الذى

كان منهمكاً فى الطهى من جهة وفى مراقبة الفرجينى من جهة أخرى ، وقد أغمض عينيه ، حتى صار منظرهما كأنهما فتحتان ضيقتان ينظر منهما إلى الجمع وهو منكب على المضغ والبلع .

ونظر الفرجينى إلى أحد المسافرين وقال : « لا أظن أنها تعادل ما يقدمه دلونيكو ؟ »

قال المسافر : « لا تأخذ بحكم رجل بلغ به الجوع مثل ما بلغ منى . » ثم التفت إلى رفقائه وقال : « هل سبق لكم أن تمتعتم بعشاء عند دلونيكو يعادل هذا العشاء ؟ »

قالوا : « كلا ! » . قال : « ولكن ألا ترون أن سكان هذه البلدة على جانب عظم من الحماقة . فها نحن أولاء قضينا هذه الأيام نبحث عبثاً عن الطعام ، فلا يفكرون فيما فكرت أنت فيه بمجرد وصولك إلى هذا المكان . »

قال الفرجينى : « من السهل تفسير ذلك . فلقد عشت فى جهات تعد الضفادع فيها ثروة عظيمة . أما هم فلم يعرفوا تلك الجهات ، وليس لديهم هنا غير الماشية ، ليس لهم حديث ولا يخطر لهم خاطر إلا عن الماشية . لذلك كان سكان هذه البلدة فقراء مفلسين ، أليس كذلك يا صديقى ؟ »

قال مساعده : « نعم صدقت . »

قال الفرجينى : « من الصعب جداً أن تعمل شيئاً خلاف ما يفعله جارك . فولاية منتانا كلها ماشية . فلابد لسكان هذه البلدة أيضاً أن يربوا الماشية . ولا يستطيعون أن يلاحظوا أن الأرض أصغر من أن تتسع للرعى . وتكتنفها المستنقعات وقد خلقت لتكون مزرعة للضفادع . »

عندما سمع الجمع هذه العبارة وجموا ، ونظروا إليه بتحفظ .

فنظر الفرجينى إلى الرجل الذى كان يساعده فى جمع الضفادع ، وقال فى تواضع : « لست أزعم أننى أوسع إدراكاً وفهماً منكم يا أهل هذه البلد . ولكن كثرة السياحة والأسفار تعلم الإنسان أشياء وعادات كثيرة جداً . فأنتم

هنا لا تستطيعون أن تعملوا ما عمله الناس فى بلدة تولار بولاية كاليفورنيا فى النواحى الشمالية للبحيرة[١] فلا شك أنهم استغلوا تلك المستنقعات الميئوس منها أحسن استغلال ، وخصصوا للمشروع الأموال الطائلة ، وساروا فيه بالوسائل العلمية الحديثة ، مستعينين بنصائح اللجنة الحكومية للأسماك ، وأمثالها من الهيئات . وكان مما ساعدهم أن هنالك سوقين كبيرتين لتصريف الضفادع ، وهما سوق سان فرانسسكو ولوس أنجيليس ، ثم لم يلبثوا أن استطاعوا إرسالها إلى نيويورك أيضاً بعد إنشاء السكة الحديدية الجنوبية . وأنتم هنا تستطيعون أيضاً أن تبيعوا للركاب كل يوم ، فيشتهر اسمكم على طول الخط . وليس هنالك مستنقعات أخرى تنافسكم . وستشترى عربات الطعام الضفادع منكم ، وجميع الفنادق فى يلوستون بارك ستقبل على الشراء طول موسم السياحة ، فإن هذه الفنادق يهمها أن ترضى زبائنها الوافدين من الولايات الشرقية ، وأن تقدم لهم ما تعودوه من الطيبات . وهكذا تصبح لديكم سلعة تبيعونها بدلا من أن تظلوا كما أنتم .

قال المسافر : « لا شك أن هذه فكرة عملية ، وقليلة الكلف » .

قال الفرجينى : « أجل وقليلة النفقات . »

فسأل المساعد : « ولكن هل سكان الولايات الشرقية يأكلون الضفادع ؟ »

قال المسافر : « انظر إلينا ! »

فسأله ترمپاس : « ما الذى تدفعونه ثمناً للضفادع ؟ » وفى تلك اللحظة لمحت سپيو ينحنى فوق طهيه ، حتى كاد أنفه يلمس المقلاة .

قال المسافر : « لست أذكر بالضبط ، ولكن لا شك أننا دفعنا ثمناً عالياً . »

---

(١) البحيرة المشار إليها هى بحيرة تولار المجاورة للبلدة ، وهى عبارة عن بحيرة ضحلة ، واقعة فى السهل الأوسط فى كاليفورنيا . وموقعها وسط بين سان فرانسسكو فى الشمال ولوس انجليس فى الجنوب . ولا شك أن الفرجينى قد أحسن اختيار المكان الذى يتفق مع قصته الملفقة التى أخذ يرويها لمستمعيه .

قال الفرجينى : « لقد فاتك القطار إلى تولار يا ترمپاس ! »

قال ترمپاس : « إننى لم أكن أفكر فى تولار . »

فنظر الفرجينى إلى الجمع الواقف حوله ، وقال لهم وهو يبتسم مستذكراً قصته : « لقد كانت الأمور فى تولار مما يثير الضحك ، حين تصغى إلى الناس وهم يتكلمون عن الضفادع كما يتحدث غيرهم عن الخيل أو الفحول ، أو أى نوع آخر من الماشية . وكلنا سنفعل مثلهم إذا احترفنا حرفتهم فإن المرء يوجه كل اهتمامه إلى الشيء الذى يكسب منه رزقه ، حتى ولو كان ضفدعاً . »

قال ابن الإقليم : « صدقت ؛ وفوق ذلك فقد كانت تدر رزقاً حسناً » .

قال الفرجينى : « لم يكن فى البلد مال سوى هذا المال . كان بلداً ميتاً ، والشيء الوحيد الذى كان فيه حياةٌ هو الضفدع . ولكن لم تلبث هذه التجارة الرابحة أن ازدهرت . ولقد كان الحديث عنها أول الأمر غاية فى الغرابة . لأن معظم السكان كانوا من رعاة الماشية ، ثم أخذوا يتحدثون عن الضفادع ، ويستخدمون فى حديثهم مصطلحات الماشية . وكان مما يبعث الدهشة أن تسمعهم يتحدثون عن رعى الفحول فى مرعى على حدة . كانت هذه خطتهم : أن يفصلوا الفحول — أى ذكور الضفادع — على حدة ، اللهم إلا فى بعض أوقات السنة ، وقد عملوا ذلك طبقاً لتوصيات لجنة الأسماك ، ولا شك أن هذا كان له أثره . فقد احتشدت ملايين الضفادع فى مستنقعات تولار كأنها تجمعت من مختلف أنحاء العالم . وأخذ المال يتدفق ، كأن الناس أصابوا منجماً من الذهب . واستطاع المساهمون أن يحصلوا على ربح قدره أربعون فى المائة . ومع ذلك فإن أجور العمال كانت عالية جداً ، فقد كان من الممكن أن يبيعوا فى عدة أسواق ، واشتهرت ضفادع تولار فى مطاعم سان فرانسسكو ولوس انجيليس ونيواورليان ونيويورك . والمكان الوحيد الذى لم تلق فيه رواجاً هو بلدة سكرامنتو ( عاصمة كاليفورنيا ) . وأكبر ظنى أن الشيوخ والنواب هناك لم يبلغوا ذلك الرقى

فى التذوق ، بحيث يستسيغون طعاماً شهياً كهذا ، وقد سمعت أن أحد الشيوخ — بعد أن ربح مليوناً من الدولارات من بيع بعض الأراضى فى لوس انجيليس — أراد أن يمتع نفسه بأكلة شهية ، فجلس فى بعض المطاعم الشهيرة ، وأخذ يطالع قائمة الطعام صنفاً صنفاً فلم يفهم منها شيئاً . فالتفت إلى الخادم وقال : « أعطنى كفتة وبيضاً بما يساوى مائة دولار ! . . لا شك أنه كان شيخاً مضحكاً . »

وتوقف الفرجينى قليلاً ، ريثما ينتهى من تناول رجل ضفدعة . ثم أوحت إليه مهارته أن يحاول الانتقال إلى موضوع آخر ، ليتبين مبلغ تصديق المستمعين لقصته . فقال : « وبمناسبة الحديث عن الشيوخ والنواب ، أذكر لكم شيئاً عن أحد الشيوخ المسمى وايز . . . »

فقاطعه أحد أفراد عصابة ترمپاس وقال : « كم كانت الأجور فى تولار إذن ؟ »

— « كم كانت ؟ لست أذكر ما كان يأخذه رئيس العمال ، أما العامل العادى فكان يتناول مائة دولار . »

— « مائة دولار فى الشهر ؟ »

— « نعم ، وذلك لأن العمل كان يضطر الناس لأن يخوضوا فى الماء والوحل . وكان من الجائز أن يصاب الإنسان بالروماتزم . فكان لا بد من زيادة الأجر بسبب ما قد يتعرض له . . . لقد كنت بدأت الكلام عن الشيخ وايز ، ورحلته إلى ألسكا . . . »

فقاطعه ترمپاس وقال : « أتزعم أن الفائدة بلغت أربعين فى المائة ؟ »

قال الفرجينى : « كانت ترتفع فى بعض السنوات إلى خمسين فى المائة ، حين اشتد التنافس بين نيويورك وفيلادلفيا . ولكن برغم ارتفاع السعر كانت الأرباح تنخفض إلى عشرين فى المائة حين يتعرض المحصول للنقص بسبب غارات بعض الطيور . »

قال ترمپاس : « إن عشرين فى المائة تكفينى ، إذا لم تعجبنى روهيد . »

قال المتحمس : « أجل ومائة دولار فى الشهر . »

ثم بدأ فريق ترمپاس يحصى ويحسب ويوازن بين روهيد وتولار ، وقد التف حول الجميع الآن عدد من الركاب ، بل والزعماء الهنود أيضاً بزيهم العجيب .

وبعد مداولات وأخذ ورد ، أعلن ترمپاس أن ثمن التذكرة إلى تولار أعلى بكثير . ولذلك لا بد لهم أن يذهبوا إلى روهيد أولا . عند ذلك أسعف الفرجينى خياله بحيلة جديدة فقال : « إن هنالك سبباً آخر يدعوك إلى تفضيل روهيد ، غير ثمن التذاكر ، فقد قلت لك من قبل إنك قد فاتك القطار إلى تولار »

قال ترمپاس : « سمعتك تقول ذلك ، والآراء كثيراً ما تختلف ، وكثيراً ما اختلفنا فى الرأى أنت وأنا . »

قال الفرجينى : « نعم يا ترمپاس . ولكن أتظن أنى أرضى بالبقاء هنا أكدح وأشقى من أجل أربعين دولاراً ، إذا كانت تولار لا تزال على عهدها القديم ؟ إن تولار أفلست : »

— « ولماذا أفلست ؟ لتركك إياها. »

— « السبب فى إفلاسها شهوة الانتقام والمرض . فقد ذهب رجل يدعى سانت أوغسطين إلى فيلادلفيا وكان على شفا الإفلاس . ولكنه كان شخصاً ممتلئاً حيوية . وقد لاحظ أن سكان فيلادلفيا معظمهم ينتمون إلى مذهب « الكويكر » الذين يلبسون أبسط الثياب ، ويأكلون أبسط الطعام . فأخذ يطهى لهم الطعام على طريقة دلمونيكو ، فأقبلوا عليها إقبالاً عظيما . ولم يلبث أن أثرى . واكتسبت فيلادلفيا شهرة فى عالم الطعام والطهى . فاغتاظ دلمونيكو وأخذ الحسد يأكل قلبه وهو الذى يجلس على عرش الطهى فى مدينة نيويورك . »

فقال أحد المتمردين فى حماسة : « أكان دلمونيكو هذا إيطالياً ؟ »

— لا أعرف على وجه التحقيق ، ولكن مسلكه يشبه مسلك الإيطاليين . وكان اسمه الأول لورنزو. وقد صمم على أن يضع فيلادلفيا فى المكان الذى يرى هو أنه يليق بها . كانت الضفادع فى ذلك الوقت الطعام الأرستقراطى المحبب .

فإن هؤلاء الطهاة الأجانب هم الذين يسنون السنة فى الطعام ، كما يسنّ الخياطون الأجانب السنة فى ملابس النساء . كلتا المدينتين كانت تلتهم جميع الضفادع التى تستطيع بلدة تولار تقديمها . فاشتدت المنافسة بين الفريقين ، وعند المزايدة رفع دلمونيكو الثمن دولاراً ، فعرض سانت أوغسطين نصف دولار أعلى منه ، فعرض لورنزو دولاراً آخر . فما كان من طباخ فيلادلفيا إلا أن رفع الثمن ثلاثة دولارات مرة واحدة . وهذا ما لم يكن لورنزو يتوقعه ، لذلك اشتد غضبه ، وغلا الدم فى عروقه ، وأخذ يدور وهو متهيج فى مطبخه بنيويورك ، وهو يصيح بأنه سيمزق لحم سانت أوغسطين ويحطم عظامه . ولم يلبث أن شد رحاله إلى تولار لكى يفسد الأمور على غريمه . وقطع تذكرته عن طريق سكة حديد سانتافى . وفى نفس اليوم سافر غريمه أيضاً إلى تولار عن طريق واشنطن وسكة حديد الجنوب . كلاهما يريد أن يستحوذ على جميع ضفادع تولار ويحتكرها لمطعمه . ولم يفكر أحدهما فى أن يرسل برقية لينبئ سكان تولار بحضوره وبغرضه ، ولو فعل أحدهما ذلك لأمكن تجنب الكارثة . ولكن كلا منهما كان منهمكاً فى مراقبة الآخر ، بحيث لم يفكر فى إرسال برقية . وقد التقى القطاران فى محطة موجيف . كما لا يخفى عليكم ، وركب الطاهيان عربة واحدة مسافة مائتين وعشرة أميال . فلما وصلا إلى تولار انطلقا يجريان بأقصى سرعة حتى وصلا إلى السوق يلهثان من شدة الإعياء ، وأخذ كل منهما يعرض على الأهالى رغبته فى احتكار الضفادع بأى ثمن . ويتكلم بصوت متهدج من التعب ، فلم يفهم الأهالى منهما شيئاً ، وكان منظرهما مضحكاً ، فأخذ الناس يعبثون بهما ، حتى اضطروا لورنزو إلى أن يرقص وسانت أوغسطين يلعب له الكمان . ولما اشتد الهرج والمرج انسحب الطاهيان دون أن يعلم الناس من أمرهما شيئاً . وخلصا إلى مكان منعزل بعيد عن الجماهير . وبعد مداولة قصيرة أقسما على أن يكونا أصدقاء إلى الأبد ، ثم عادا معاً بطريق السكة الحديدية الوسطى يقتسمان مخدعاً فاخراً فيها . وهكذا كان انتقامهما قضاء على الضفادع . أما المرض . . . »

فقاطعه ترمپاس قائلاً : « كيف قضى على الضفادع ؟ »

قال : « قتلها الانتقام وقضى عليها . فإن سنت أوغسطين زداونيكو انتقما من سكان تولار الذين قابلوهما بالعبث والسخرية ، فقررا حذف الضفادع من قائمة الطعام للطبقات الراقية . ولن ترى اليوم رجلاً من ذوى المال فى الشارع الخامس [١] يمس واحدة منها إذا كان هناك أحد يراه . بقى أمر خطير لا بد أن أذكره لكم وهو أنكم إذا رأيتم رجلاً يخفى قدميه ، ولا يريد أن ينزع جوربه أمام الناس فتأكدوا أنه قد سبق له العمل فى مستنقعات تولار ، فأصابه المرض . . ولو رأيتموه يخوض فى ماء ، لوجدتم أصابع رجليه متشابكة كأرجل الضفادع ! لقد قضى على الضفدع يا ترمپاس . وأنت كذلك مقضىٌ عليك ! »

هنا صاح سپيو : « قفوا أيها الكذابون ، وحيوا أميركم ! » ثم أخذ يعانق الفرجينى ويقول له : « إنى متيم بك ! فقد غلبتهم فى صنعتهم . »

وجاء المسافر الأول وقال له : « دعنى أصافحك ، ولكم كنت أود أن أحظى بصحبتك مدة أطول . »

قال الفرجينى : « شكراً لك يا سيدى ! »

ثم أقبل عدد آخر من المسافرين يحيونه . وكذلك حياه الزعماء الهنود ، الذين كانوا يفهمون كلامه بشعورهم لقلة علمهم بلغتنا .

وبدا على الرعاة شىء من الانكسار ، فقال لهم الفرجينى : « لا بأس عليكم أيها الشبان الأعزاء . وأنا أعرف أن هؤلاء السادة القادمين من الشرق كانوا يجدون تسلية فى عبثى بكم ، ولكن اعذروهم فقد طال انتظارهم فى هذا المكان . وأنتم الذين اضطررتمونى لأن ألعب معكم هذه اللعبة ، فقد سبق لكم أن لعبتموها معى . فلم أجد مفراً من أن أقابل صنيعكم بمثله . ومع ذلك فإنى سأقول لكم أمراً فيه تعزية لكم . وهو أنى لم أكد أبلغ منتصف قصة الضفادع حتى كدت أنا نفسى أن أصدقها . . . » ثم ضحك ضحكة عالية ، وكانت أول مرة سمعته يضحك .

---

(١) Fifth Avenuc من شوارع نيويورك المشهورة بالأناقة والمتاجر الغالية .

وتقدم الراعى المتحمس فصافحه . فلم يلبث الآخرون أن حذوا حذوه ، وكان آخرهم ترمپاس ولم يكن من السهل عليه أن يعترف بالهزيمة على هذه الصورة ، ولكن الفرجينى يسر عليه الأمر بأن أبدى نحوه من التلطف ما أبداه للآخرين . ثم جاءت اللحظة الحاسمة . حين سمعنا بأن الجسر قد أصلح وأن قطارات « البلمان » أخذت تتقدم فى طريقها نحو الغرب ، فلم تمض عشرون دقيقة حتى تحركت جميع القطارات التى أمامنا ، وجاء دورنا .

فصاح الفرجينى : « آخر فرصة إلى روهيد » .

فصاح راعٍ منهم : « آخر فرصة إلى سنك كريك » . ثم أخذوا يثبون إلى المركبة ولم يعد هنالك شك فيمن الذى تم له النصر اليوم . وأخذت عربتنا سبيلها إلى بلنجس إلى جانب مجرى نهر يلوستون ، يحف به الحصا والغابات . ثم أخذت معالم المكان تظهر واضحة حتى أدركت أنا أيضاً أننا قد اقتربنا من غايتنا وأخذنا كلنا نعد حقائبنا . وفى تلك اللحظة أبصرت الفرجينى يلف قصة كنلورت بعناية ، حتى يستطيع أن يردها إلى صاحبتها فى حالة جيدة .

فقلت له : « ألا تظن أنك كنت تستطيع أن تلعب البوكر مع الملكة اليصابات ؟ »

قال : « كلا ، ولو أنى لاعبتها لغلبتنى من غير شك ، لأنها سيدة . »

# ١٧

# سبيو ينطق بالحكمة

كيف تغيرت حال الفرجينى بعد هذه الحادثة ؟ أتُراه عاوده الحنين إلى فتاته فى بير كريك بعد أن مرت الأزمة وانجلت الغمة ؟ لست أدرى . . . وكل ما أعلمه أنه بعد أن أطال الكلام إلى هذا الحد ، التزم الصمت تسعة أيام ، كأنما أداة النطق لديه قد تعطلت .

وليس معنى هذا أنه لم يكن ينطق بكلمة ، بل كانت تصدر منه العبارات التى يقتضيها العمل ، بعد أن غادرنا القطار ، وركبنا نحو الجنوب نلتقط ماشية القاضى ، التى ضلت ، فإن هذه الدواب قد أخذت تتفرق ، ويدفعها السير إلى الأطراف البعيدة ، وكان همنا الآن أن نجمعها ونلمها .

ولم يقصر الفرجينى فى إصدار الأوامر والإرشادات التى لا بد منها لإتمام العمل ؛ غير أن هذه الأوامر « المصلحية » لا تعد حديثاً بأى حال من الأحوال ، ولا يعتبر أنه قد خرج عن صمته لمجرد قوله : « سنجمع الماشية من ولو كريك غداً » — أو « أريد أن تكون المركبة لدى البركة الراكدة يوم الخميس » — ومع أنه كان مرافقاً للجماعة فى سهولة ويسر ، فإنه مع ذلك كان خالياً بنفسه ، وكأنه بمعزل عن الناس ؛ لأنه لم يكن يحادث أحداً ، حديثاً تتبادل فيه العقول والأرواح خواطرها وأحاسيسها ، كأن ملكة الكلام قد اختبأت فى ركن أو كهف من كيانه وطبعه . ولعلها كانت تستريح أو تستجم ؛ فلقد كان الفرجينى من أولئك الأشخاص القلائل الذين يستطيعون أن يستريحوا ، جزءاً جزءاً ، فقد يريح جسمه وعقله منشغل منتبه ، حتى يحين الوقت الذى

يستطيع أن يريح فيه عقله أيضاً ، ولقد شاهدته فى غضون هذه الرحلة والمركبة التى كنا فيها تتأرجح وتهتز إلى ما لا نهاية ، ينام ملء عينيه كأنه طفل صغير فى اللحظات التى تتطلب منه أن يسهر ويتنبه ، كذلك رأيته يسهر الليل كله ، يراقب التبعة الملقاة عليه ، متأهباً فى كل لحظة لأن يتخذ كل إجراء للنهوض بعبئه . والآن وقد تم له الانتصار على خصومه ، واستطاع أن يهزمهم بسلاح السخرية الذى جردوه عليه ، فإنه الآن أصبح فى حالة تراخ وركود . فإن المعركة الأخيرة قد أكسبته إعجاب رجاله واستسلامهم ، فيما عدا ترمپاس . ولم يكن يبدو على الفرجينى أنه يعبأ به كثيراً .

غير أن سبيو لوموين قال لى غير مرة : « لو أنى فى مكان ترمپاس لشددت رحالى ، فى هدوء ، وفى غير ضوضاء ، دون أن يلفت نظر أحد إلى ذلك . »

قال قصير : « أكبر ظنى أنه يعد العدة للانتقام لنفسه . »

قال سبيو : « انه يعلم تمام العلم ما هو مقبل عليه ، ويدرك تمام الادراك أن ساعته لم تحن بعد . »

وهكذا أخذ كل منهما يشغل خاطره بهذا الأمر ، وكان من الطبيعى أن يشغل فكرى أنا أيضاً ، وبالطبع كان ترمپاس هو المصدر الأول لإحساس القلق الذى كان يسود المعسكر كله ؛ لأنه كان دائم الانقباض والتقطيب ، وكان لا بد لنا أن نجلس بجانبه على الطعام تسعة أيام متتالية ، ولا شك أن مظهر العبوس ما هو إلا انعكاس لما يحسه من الغم والغيظ ، بعد أن رأى رفقاءه يهجرونه وينضمون إلى خصمه . ولا شك أنه كان خليقاً أن يشد رحاله ويذهب خفية إلى مكان آخر . والسبب الذى منعه من أن يتخذ هذه الخطوة هو فى نظرى الأمر الآتى : أنه لم يتناول أجره الذى استحقه فى أثناء هذه الرحلة بعد ، ولن يحصل على هذا الأجر ، إلا بعد أن يعود إلى مزرعة القاضى فى سنك كريك ولا يزال دون المزرعة أيام سيستحق عنها مزيداً من الأجر . فهنالك مبلغ حسن من

المال ينتظره . . . وعند ما يصل إلى المزرعة لن يكون خاضعاً لسلطان الفرجينى . بل سيكون تحت إمرة الرئيس الأصلى للعمال ، ويغدو هو والفرجينى على قدم المساواة ، وكلاهما يتلقى الأوامر من الرئيس الرسمى المعترف به ، ولا شك أن هذه الأمور هى التى حالت دون رحيله ولكنها لم تحل دون تفكيره فى الانتقام ، وقد قلت لسبيو إننى لو كنت مكانه لفكرت فى وسيلة أثأر بها لنفسى .

قال سبيو : لا أظن أنه يفكر الآن فى الثأر ، لا بد له أولا أن يزداد قوة وبأساً وأنصاراً ، بالأمس كان موضع سخرية الجميع ، وقد ضحك منه رفقاؤه والركاب جميعاً ، فلا بد له أن يستجمّ أولاً . . أما صاحبنا الفرجينى ، فإنه أيضاً لا بد له أن يدبر أمره . ولكن إحساسه ليس إحساس من يطلب الثأر ، وحسبه إدراكاً للثأر أنه هزم ترمپاس بسلاحه أشنع الهزائم ، ولكن الأمر بينهما لم ينته بل لا يزال بينهما حساب ليس بالسهل الهين ، ولن ينسى الفرجينى ما أثاره هذا الرجل من الفتنة ، ولا بد له أن ينازله يوماً ما ، نزال الرجل للرجل ، ولا أستطيع أن أتصوره هو وترمپاس يعيشان ويعملان معاً كما كانا يفعلان من قبل ، كلا يا صديقى ، لقد رأيت عينه مرتين ، ولمحت بريقها ، وأحسبه سيمضى إلى النهاية . »

فى اليوم التالى قابلت سپيو ، وأظن أنى أثبت له أننى رجل بطىء الفهم ؛ إذ دعوته لأن يشرح لى ما قصده بقوله إن الفرجينى سيمضى إلى النهاية ، وأى نهاية أفضل مما حاق بترمپاس على يد الفرجينى حينما جعله أضحوكة الناس . فهذا الحادث جدير بأن يكون فيه فصل الخطاب ، وأن يكون فيه الرضا التام للفرجينى على الأقل .

وكان سپيو فى تلك اللحظة قد أتم غسل الطاسة ، فأقبل علىّ وهى فى يده واقترب منى وقال :

« إنك من السذاجة بحيث لا ينبغى أن يتركك أهلك تسافر وحدك من مكان إلى مكان كما يفعلون الآن . » ثم أدنى وجهه من وجهى ، فبدا لى

أنفه الطويل وقد امتلأ حكمة وروية ، ولمعت عينه الزرقاء دعابة وقال : « إن ما جرى بين هذين الاثنين لم يحل إلا مسألة واحدة ، وحقق الفرجيني مأرباً واحداً كان يسعى إليه . فقد اختاروه زعيما لهذه الجماعة فى غياب الرئيس الأصلى ، فكان كل همه أن يعيد الجماعة كما تسلمها ، دون أن يفقد رجلا فى أثناء الرحلة ،لأى سبب من الأسباب . وقد اضطر – على شدة حرصه – لأن يطرد الطباخ ويلقى به من القطار ، وقد آلمه هذا الأمر كثيراً ، ولكنه وجدنى مصادفة ، فأمكنه أن يسد الثغرة بسرعة ، وأحسبه كان بهذا راضياً ، وقد استطاع – وهو زعيم الجماعة – أن ينتصر على ترمپاس الذى كان يحاول أن ينتزع الزعامة منه ، وقد اغتبطت الجماعة لهذه النتيجة كل الاغتباط ، فرحين بأنهم بقوا إلى جانبه ، وسيتمكن من أن يردهم جميعاً إلى المزرعة فى حالة جيدة ، فيما عدا ذلك الطاهى المفقود ، وهكذا يكون الآن قد حقق غرضه الأول ، ولكن انظر بعيداً إلى الأمام ، وقد لا تكون بك حاجة لأن تنظر بعيداً جداً . . بعد قليل نعود إلى الضيعة وهناك تزول عنه صفة الزعامة ، بزوال المهمة التى انتدب لها ، فيغدو واحداً منا يتلقى أوامره من الزعيم المشترك ، وقد سمعت أن هذا الزعيم قد سبق له غير مرة أن أبدى تحيزاً ظاهراً إلى ترمپاس . وعلى هذا التحيز يعتمد ترمپاس فى أن يكون هو على حق دائماً وعدوه على باطل دائماً . ولولا شعوره بهذا منذ الآن لما رأيته فى حالته التى هو عليها من النفور والتقطيب والتجهم ، ولكن هل تظن أن هذا الأمر مما يخيف الخصم ؟ هل تظن أن انضواء ترمپاس تحت جناح شخص من الأشخاص سيكون له تأثير شديد فى الفرجينى ؟ إنه سيذكر ترمپاس دائماً والفتنة التى أثارها وسينتزعه من تحت الجناح الذى يحتمى به ولو اضطر لتحطيم الجناح أيضاً . . وبهذه المناسبة أريد أن أؤكد لك أنى سأوصى قومك ألا يدعوك تقوم برحلات كثيرة وحدك ، حتى تتعلم من شئون الحياة أكثر مما تعلم . »

لا شك أن سپيو قد جعلنى أحس بأنى شخص قليل التجربة ، وجعلت

بعد ذلك أتحاشى الحديث معه فى هذا الموضوع ، واكتفيت بترديد أفكارى فى خاطرى . ماذا عسى أن يصنعه الفرجينى بغريمه ؟ أتراه يعرضه للسخرية مرة أخرى كما فعل فى حديث الضفادع ؟ أم أنه سيلجأ هذه المرة إلى أمر جدى ، تستخدم فيه العضلات أو البارود ؟ ومع ذلك فمن الجائز أن سبيو لم يكن على حق فى كل ما زعم ، وإن كنت لا أدعى أنى أفهم الفرجينى تمام الفهم على الرغم من السنوات التى عرفته فيها . أما سبيو فلم تمض على معرفته به أكثر من ثلاثة أسابيع ، ومع ذلك جعلت أتحاشى الحديث معه عن الفرجينى ، وإن ظللت أجادله فى جميع شئون العالم الحسن منها والقبيح ، وكثيراً ما كان يظهر لى جهلى بمختلف الأمور . فإن البضعة والعشرين عاماً التى عاشها ، كانت بمثابة مكتبة للحياة ، ولا أظن أنى رأيت فى حياتى أطيب منه قلباً وأشد ذكاء ، وأكثر دعابة ومجوناً ، ومع هذا كله كان ينطوى على شعور بالواجب وبالاخلاص قلما وجدت له مثيلاً .

فى أثناء هذا كله ظل الفرجينى على انقباضه وصمته ، وقد كنت أقضى فى صحبته وقتاً طويلاً آكل بجانبه وأرقد بجواره ، وأركب معه ساعات ، وحاولت مراراً أن أعالج الحديث معه ، فلم أوفق ، وظهر إخفاقى بوجه خاص يوم هبت علينا عاصفة ذات مطر وبرد ، كست الأرض بغطاء أبيض فى نحو خمس عشرة دقيقة ، فجلسنا معاً نجفف ثيابنا على نار أوقدناها ونلتمس الدفء منها فأخذت أحدثه فى موضوع المساواة وأنا أعرف أنه من الموضوعات التى تثيره ، فلم يزد فى رده علىّ أن قال : « نعم ، بلا شك » . ثم سألته بعد ذلك أى الصفات تجعل الرجل صالحاً لمنصب القيادة ؟ فلم يزد على أن هزرأسه ونفخ فى غليونه ، وبعد ذلك رأيت كيف استطاعت الشمس أن ترد العالم من الشتاء إلى الصيف فى نصف ساعة ، فانتقلت إلى الحديث عن الجو فى أمريكا ، وقلت له إن هواء أمريكا هو العلاج الشافى الذى تستنشقه الملايين كل يوم . فقال : « نعم » . ثم أخذ يزيل ماء المطر عن بندقيته .

فقلت له إن هواء أمريكا قد أحدث تغييرات عظيمة .

قال : « نعم » ولكنه لم يسأل عن تلك التغييرات ، فلم يكن بد من أن أذكرها له، فقلت إنه يرجع إليه الفضل فى أن جعل من الإيرلنديين رجالاً ناجحين فى ميدان السياسة . هذا هو الأمر الأول ، والثانى أنه علمنا جميعاً عادة البوكر .

فى هذه اللحظة انطلقت الرصاصة من بندقيته ، ومرت ملاصقة لى عن شمالى ، فنظرت إليه غاضباً وقلت : « هذه أول حماقة رأيتك ترتكبها » .

قال فى بطء : « نعم كان يجب أن أرتكبها قبل ذلك؛ لقد دبت فيه الحياة فأصبح خطراً ، ثم التقط من الأرض أفعى ملقاة ورائى ، وكانت ساكنة بسبب البرد ثم أنعشتها حرارة الشمس ، وقد أطاح رأسها عن جسدها . »

# ١٨

## هل تريد أن تكون قسيساً ؟

لم أحاول بعد ذلك أن أحادثه فى أى شىء ، إلى أن اقتربنا من الضيعة ، وأصبحت مزرعة سنلك كريك على مرأى منا ، ولم يبق إلا ساعات قلائل ، حتى يصبح الفرجينى وترمپاس سواء فى المركز والرتبة ، فجعلت تدور فى ذهنى الأفكار بسرعة عظيمة . . وكأنما ملكة الكلام عند الفرجينى ، التى ظلت راقدة تسعة أيام كاملة ، قد أخذت تتثاءب ، وتستيقظ شيئاً فشيئاً . وإذا هو يوجه إلى — من غير مقدمات — السؤال التالى : « هل تود أن تكون قسيساً ؟ » .

كانت أفكارى فى تلك اللحظة أبعد ما تكون عن مثل هذا الموضوع . وقبل أن أنتبه إلى سؤاله الأول وجه إلىّ السؤال فى صورة أخرى : « ماذا تطلب لكى تكون قسيساً من رجال الدين ؟ » . فقلت له ، وأنا لا أزال فى شبه ذهول من سؤاله الغريب بعد كل هذا الصمت الطويل : « ماذا تعنى بما أطلب . ؟ »

عند ذلك رأى أن يعالج الموضوع فى صورة أخرى ، فقال : « أظن أن البابا هو الشخص الذى يحمل أسمى المناصب القسيسية ؟ »

فقلت له : وقد زالت دهشتى وأخذت أجاريه فى كلامه : « نعم إنه أعظمهم جميعاً » .

قال — « وهو أسمى مكاناً من زعيم انجلترا الدينى ، الذى يدعونه رئيس أساقفة كانتربورى ، فالبابا أعلى منه منزلة . »

قلت : « لا شك أن قداسة البابا سيوافق على هذا الرأى ، وإن أنكره نيافة رئيس الأساقفة . »

فالتفت إلى الفرجينى عند ما سمع هذا الجواب ، فرأيت شفتيه مفترتين ، وبدت بينهما أسنانه اللامعة . وكان من النادر أن أستدرجه حتى إلى مثل هذه الابتسامة اليسيرة ، ثم أخذت عيناه تلمعان ببريق ينم عن الخواطر التى تدور بخلده .

قال : « قداسته ونيافته . . . يا لها من ألقاب . لو أنهم خاطبونى بمثل هذه الألقاب كل صباح لما استطعت أن أنهض بعملى اليومى . »

— « إنك ستتعودها ، وما تسبغه عليك من الفخار . »

— « ليست المسألة مسألة الفخار ، بل الضحك ، فإنها ستثير الضحك فى نفسى كلما سمعتها ، فلن أستطيع الالتفات إلى عملى . وعلى ذكر رئيس الأساقفة ، لقد كان عادة يحتل مكاناً رفيعاً فى مسرحيات شكسبير . وكان يخاطب الملوك بلغة لا يقبلونها من شخص آخر . وكثيراً ما يكون كلامه فصيحاً بليغاً ، كحديثه مثلاً عن النحل وهو يخاطب الملك هنرى قبل سفره لفرنسا لغزوها ، فيقول له إن خلية النحل شبيهة بمملكة ، وقد حفظت هذه القصة عن ظهر قلب » . ولم يكد يفوه بهذه العبارة حتى تصاعد الدم إلى وجهه ، فقد أدرك أننى سأفهم أنه حفظ هذه القصة من كتاب استعاره ، وأنه لا يزال فى جعبته كتاب آخر من كتبها ، هو قصة كنلورث . وكأنه أراد أن يستر هذا الخجل الفجائى فأخذ ينشدنى العبارة التى ألقاها رئيس الأساقفة فى وصف النحل ومملكة النحل :

« حيث ترى البعض ، جالساً فى المنزل كأنه من كبار الحكام
والبعض كالجند ، يحمل كل منهم سلاحه فى جعبته فيسطون
على زهر الربيع الفضى الجميل ثم يحملون الغنيمة فرحين إلى ديارهم
حيث يجلس عاهلهم فى خيمته الملكية ، يحف به الجلال
والعظمة وهو يراقب هؤلاء البنائين يشيدون قصراً من الذهب
وهم يغنون وينشدون »

وبعد أن أتم الإلقاء قال : « ألا ترى أن هذا وصف بديع للنحل بحيث يخيل إليك أنك تراها رأى العين . هذا هو الشعر البرىء من كل سخف . . . . أما القداسة والنيافة ، فهيهات أن أرضى أن ألقب بأحد هذين اللقبين ، أو أتولى أحد هذين المنصبين . قل لى ما عدد الديانات . ؟ »

– تريد فى العالم كله ؟

– يكفى أن نبدأ أولاً بأنفسنا . وأنا أعلم أن عندنا هنا كاثوليك ، وإنجيليين

– قلت : « نوعان من الإنجيليين ، عندنا منهم اثنان على الأقل . »

– قال : « هؤلاء إذن ثلاثة أنواع ، ثم هنالك الميثوديون ، والمعمدانيون [١] . »

– قلت : « عندنا من الميثوديين ثلاثة أنواع » .

– قال : « إذن لتقم أنت بالعدّ والإحصاء . »

فجعلت أحصى ما أعرفه عن الديانات ، فكان بعضها يفلت من ذهنى أحياناً ، وقلت : « على كل حال إن عندنا على الأقل خمسة عشر ديناً . »

« خمسة عشر . أتراهم يعبدون مجموعة مختلفة من الآلهة كما كان يفعل القدماء ؟ »

– كلا . . . كلا . . . »

– إذن يعبدون كلهم إلهاً واحداً .

– « نعم إلهاً واحداً »

فجعل الفرجينى يديه على مقدمة سرجه ، وهو يتأمل المنظر الجميل الفسيح الذى يحيط بنا ، ثم قال : « إلهاً واحداً وخمسة عشر ديناً ، لا شك أن هذه ديانات كثيرة جداً لإله واحد . »

وكان عرضه للموضوع على هذه الصورة أمراً بديهياً بالنسبة إليه ، غريبا جداً بالنسبة إلىّ ، ولذلك لم أتمالك نفسى من الضحك بصوت عال ، لعله لم يكن يتوقعه . فالتفت إلىّ كأنى بضحكى هذا قد حولت ألفاظه عن معانيها

---

(١) مذهبان للبروتستانت .

وقال : « إننى لست متديناً ، وأنا أعرف ذلك ، ولكنى لست قليل الدين ، وأنا أيضاً أعرف ذلك . »

قلت : « وأنا أعرف هذا منك يا صديقى » قال : وقد أخذ صوته يحتد وإن لم يرتفع : « هل ترى أنه يجب أن يكون هنالك خمسة عشر نوعاً من الناس الصالحين ؟ ليس هنالك خمسة عشر نوعاً منهم ، ولا نوعان ، بل نوع واحد فقط ، إذا رأيته عرفته واحترمته ، إن الصلوات والمواعظ لم تؤثر فىّ يوماً ، وتجعلنى فى خجل من نفسى ، وإنما أثر فىّ شخص أو اثنان من الصالحين ، لم يقل أحدهما لى مرة كلمة على سبيل الموعظة والنصيحة ، ولكنهما كانا يحسنان الظن بى أكثر مما أستحق . وهذا جعلنى أسمو بنفسى عن سبيل الضلال التى يدفعنى إليها طبعى ، وجعلنى أبتعد عن الفتاة قبل أن يدنس اسمها الطاهر ، وهى جريمة لم أرتكبها فى حياتى ، ولو أنى رزقت يوماً ولداً أو أتى شخص عزيز على نفسى ، فإنى لن أرجو له إلا أمراً واحداً ، وهو أن يعرف واحداً أو اثنين من الرجال أو النساء الصالحين معرفة جيدة ، والافضل أن يكونا من النساء . »

وعاد مرة أخرى إلى التأمل فى مناظر التلال التى وراء مزرعة سنلك كريك — وقد أصبحنا على مقربة منها — ثم قال : « أما القسيسون فإن من حقهم أو من حق بعضهم على الأقل أن يطلب منك أن تكون صالحاً تقياً ، والأسقف الذى يشرف على هذا الإقليم له هذا الحق ، ولكن دعنى أقل لك ، إن فضول الطبيب شىء قد يحتمل ، وفضول رجال القانون يجوز احتماله أيضاً ، أما فضول رجال الدين ، فالعياذ بالله . . »

وقد عرض فكره مرة أخرى بطريقة سلسة لبقة ، ولكنى لم أضحك هذه المرة ، لأن من رأيى أن تفرض غرامة شديدة أو عقوبة صارمة على الذين يعبثون بالأرواح البشرية . ولم يلبث بعد ذلك أن عاد إليه انبساطه ومرحه . وقال : « ما قولك فى هذا المشروع الذى تراه هناك ؟ » ، ولم نلبث بعد لحظات

أن أصبحنا على مقربة مما سماه « المشروع » . وكلمة المشروع فى هذه الجهات الغربية تفيد أى معنى ، فقد يقصد بها ، شراء منجم ، أو عاصفة ثلجية ، أو زجاجة من الوسكى ، أو زورق بخارى ، وكان معناها فى هذه المرة شخصاً غريباً يرتدى ثياباً سوداء ، قوامه السمين يجعله شبيهاً برجال الدين ، ولا شك أن من الممكن رؤيته فى هذا الجو الرائق على بعد ميل أو ميلين لمن كان شديد الانتباه مثل صاحبى .

أما أنا فلم أره ، ولذلك صحت صيحة المندهش ، فقال الفرجينى : « خيل إلىّ أنك لم تره قبل هذه اللحظة ، ولقد كان منظره هو الذى أثار أفكارى من قبل عن رجال الدين . فهو فيما يبدو أحد أولئك المبشرين الذين كثيراً ما يفدون علينا لكى يعظونا نحن معشر الرعاة . »

وقد خيل إلىّ أنى أحس—وأنا على بعد مائة ياردة—قوة الشخصية التى يمتاز بها هذا الغريب . ولعل هذا كان يبدو فى مشيته ، أو بعبارة أصح فى تهاديه وهو يخطو ذهاباً وإياباً ، ويداه من خلفه ، وهو فى حالة انتظار لا يخلو من الضجر .

قال الفرجينى : « أجل إنه من المبشرين . » وكأنه واثق من كلامه هذا ، ثم أخذ يغنى ويتكلف نغمة الحزن فى إنشاده وهو ينظر إلى السماء ورأسه مائل ، وكانت أنشودته من ذلك الطراز الماجن الذى اعتاد أن يتغنى به مع الفتيان ، وبعد أن انتهى من إنشاد المقطوعة الأولى وصلنا إلى منعطف فى الطريق ، الذى يوصلنا إلى منازل المزرعة وبدأ ينشد المقطوعة الثانية حتى فرغ منها ، ولم يكد يبدأ المقطوعة الثالثة حتى توقف فجأة إذ سمع صوت حصان يصهل من خلفنا ، غير بعيد منا .

فقال الفرجينى دون أن يلتفت وراءه : « هذا ترمپاس ، وقد أوشكنا أن نعود إلى دارنا » . قلت : « أظنك على حق ، وليس بيننا وبينه أكثر من عشر ياردات ، وها هو ذا يدنو منا » . قال الفرجينى مخاطباً ترمپاس :

« أرجو أن تسمح برد حبلى ، الذى أخذته اليوم بدلا من حبلك . »

قال ترمپاس : « لا أظن أن ما معى هو حبلك . » ولكنه قال هذه العبارة بأسلوب يفيد عكس مدلولها ، فإذا كان غرضه أن يثير حواراً أو جدلاً فلا شك أنه أخفق فى ذلك ، لأن الفرجينى لم يرد عليه بكلمة ، بل مد يده وراء ظهره ومرت لحظة ، تبادر فيها إلى ذهنى نفس الخاطر الذى تبادر إلى ذهن ترمپاس — غير أن الفرجينى لم يفعل أكثر من أن انتزع الحبل الذى كان مربوطاً فى سرجه ، وناوله لترمپاس وقال : « لا تحاول يا ترمپاس أن تجرد مسدسك ، لو أنى أردت قتلك ، لكنت الآن ملقى على الطريق جثة هامدة منذ تسعة أيام . هذا حبلك ، أحسبت أنى لن أعرفه ، إنه الحبل الوحيد فى معسكرنا الذى لا يزال فيه بعض الصلابة ، أم حسبت أننى سأعرف ، ولكنى سأغض النظر عن استيلائك على حبلى . »

قال ترمپاس : « إننى لا أضيع وقتى فى أن أحسب أى شيء عنك . . » فأدار الفرجينى جواده حتى عارض به الطريق . وقال : « إنك تتكلم الآن بجرأة بعد أن بلغنا مأمننا ، لم أطلب منك فى الصباح أن ترد إلىّ حبلى ، لأنى كنت فى شغل شاغل ، والآن لم أعد رئيساً ، وأطلب منك أن ترده إلىّ . . »

فتحول ترمپاس بسرعة عجيبة إلى الابتسام وقال : « لا بد أن يكون ما معى هو حبلك ، ما دام الذى بيدك هو حبلى » . ثم تقدم وتسلم الحبل من يد الفرجينى وأخذ يفك الحبل المتنازع عليه من سرجه ، ولئن كان غرض ترمپاس أن يدبر إهانة تافهة حقيرة ، فلا شك أن من أقبح الإهانات الصغيرة فى بلاد البقر أن تأخذ حبل شخص آخر ، والإهانات الصغيرة هى التى تثير القذائف الكبيرة ، وأراد ترمپاس أن يستر القصة كلها بستار من التمويه فقال : « بعد أن اختلطت حبالنا هذا الصباح بعضها ببعض ، فلا شك أننى فى وسط الجلبة والزحام قد . . »

فى تلك اللحظة سمعنا من خلفنا صوتاً عالياً يهيب بنا : « اسمحوا لى لحظة ،

هل رأى أحد منكم القاضى هنرى ؟ » وكان المتكلم هو ذلك الرجل المهيب المظهر وقد دنا من سياج الحقل ، فالتفتنا لننظر إليه ، فقال — وفى مظهره ما يوحى بشىء من السلطة : « إن الرد الذى أرسله القاضى هنرى على كتابى ، يفيد بلا شك أنه سيكون فى انتظارى اليوم ، وقد حضرت طبقاً للخطة التى أرسلتها إليه ، فعلمت أنه غائب منذ بدء النهار . . »

وقد اعتدل الفرجينى فى جلسته على ظهر جواده وتكلف النهوض قليلاً ، ورجله فى الركاب ، وأبدى نحو الغريب كل احترام ، وقال : « إن القاضى كثيراً ما يتغيب عن الدار يا سيدى . . »

— « ما أظنه يغيب فى يوم كهذا ، ولقد حسبت أنكم تعرفون من أمره شيئاً »

— « إننى أنا نفسى كنت غائباً يا سيدى » .

— « لعلك كنت مسافراً فى إجازة ؟ » . كان القسيس مورد الوجه وكانت نظراته قوية صريحة جريئة ، غير أن ابتسامته ذكرتنى بالأيام الخالية عند ما كنا نعود إلى مدارسنا بعد عطلة عيد الميلاد إذ كان المدرسون يصافحوننا ويرحبون بنا بمثل هذه العبارة : « يسرنى أن أراك يا روبرت ، ادوارد ، جون ، تبدو عليكم علائم الصحة ، وقد استرحتم بلا شك وعلى تمام الاستعداد للجد والاجتهاد» .

مثل هذه الابتسامة لم تكن تخدع الصبية على الرغم من طيبتهم وسذاجتهم ، فكيف تخدع الفرجينى وقد قارب الثلاثين ؟

لقد اعتدل الفرجينى فى جلسته على ظهر جواده وقال : « لم تكن رحلتى إجازة هذه المرة يا سيدى . وهذا القاضى قد عاد فى مركبته ، عاد فى الوقت المناسب لكى يجيب عن أى سؤال توجهه إليه » . وتحرك بجواده خطوة ، ثم توقف لأن حبله كان ملقى على الأرض ، ولقد شعرت قبل ذلك بانصراف ترمپاس عنا ، وأحسست به عند منصرفه يلقى بالحبل على طرف سرج صاحبه . فهل كان يرمى بذلك إلى إسقاط الحبل على الأرض ، فيضطر صاحبه لالتقاطه ؟ لقد كان عمله

هذا نوعاً آخر من المضايقات الصغيرة ، وقد وفق فيه تماماً إذا كان هدفه أن يغيظ صاحب الحبل . وقد أصبح ترمپاس الآن على بعد بضع مئات من الياردات منا ، وقد جعل يصيح صيحات رعاة البقر ، ولا أدرى أكان يرمى بصيحاته إلى الإعلان عن مقدمه أو السخرية بشخص من الأشخاص ، ومهما يكن من شيء فإن الفرجينى مال نحو الأرض — دون أن يغادر مقعده — والتقط الحبل وعلقه على سرجه فى شيء من العناية وقد اكتسى وجهه بحمرة الغضب .

فنظر إليه القسيس من وراء السياج ، مبدياً إعجابه ، وإن كانت ابتسامته فاترة وقال : « إنك تلتقط هذا الحبل كمن تدرب على مثل هذا العمل كثيراً . »

وقال الفرجينى : « إن هذا بعض شئوننا ، وقد تعودنا أن نلزمها ولا نتدخل فى شئون غيرنا . » ولكن لهجته الناعمة لم تجعل القسيس يحس بما اشتملت عليه هذه العبارة من التعريض ، وفوق ذلك فإن شدة اعتداده بنفسه تحيطه بغطاء سميك .

وانطلقنا راكبين ، وقد راعنى منظر القسيس ، وهو يسعى أمامى بقوامه الضخم الدكتاتورى متجهاً نحو القصر ، ولا يوحى إليك منظره إلا بأنه رجل شديد البأس ، مخلص فى عمله ، محب للسيطرة ، ينشد أسمى الغايات ، ولكن أيا كان دينه أو مذهبه ، فإنى كنت أشك كثيراً فى أنه هو الذى يستطيع أن يغرس شجرة ثم يراها تنمو فى هذه الحقول الجديدة الوحشية ! فقد كان أشبه بذلك البستانى الذى يمارس الأعمال المألوفة ، ويعنى بالكروم التى نمت وترعرعت منذ زمن بعيد ، وأعجبنى منه أنه جشم نفسه مشقة السفر إلى هذا المكان ، مع محافظته على أناقة مظهره ، وبدلته السوداء النظيفة وشاربيه اللذين وخطهما الشيب ، وقد جعلنى منظره هذا أفكر فى قاطرة من قاطرات السكة الحديدية تصعد منحدراً وعراً ، وتنفث بدخانها فى الهواء ولا تكاد تتحرك . . .

كان الفرجينى يسير بجانبى ، وقد أخفى غضبه المضطرم تحت غطاء من الصمت التام ، حتى لم أنتبه إليه ، فقد كان فى لقاء القسيس بعد ترمپاس

أكثر مما يطيق احتماله ، ولكنى كنت أتجاهل هذا كله ، ولذلك جعلت أتكلم فى انشراح وتبسط .

فقلت متسائلاً : « أترى أن هذا القسيس سينقذنا من الدمار ؟ » فكان رده علىّ فى صوت غاية فى العنف ، إذ قال منفجراً : « لا تتكلم كثيراً . . »

فأجبته فى مثل حدته : « من الذى كان يتكلم ؟ لم أكن أنا الذى حاولت إنقاذك ، ولا أنا الذى أخذت حبلك » . وبعد أن أفضت بما فى قلبى ، دفعت بمهرى مسرعاً إلى الأمام ، ولكنه انطلق بمهره أيضاً ملاصقاً لى ، فنظرت إليه ، فألفيته قد عاد إليه مرحه ودعابته ، فهدأت من خطاى ، وبدت على وجهه ملامح الجد . وقال لى — وهو يمس معرفة جوادى بيد يكسوها قفاز من الجلد : « إنى أقدم لك أصدق الشكر على أن أخرجتنى من وسط سخافتى ، وسأكون الآن هادئاً كالطير مهما فعلوا . » ثم قال — وقد أطرق مفكراً : « إن كل رجل جدير بهذا الاسم ، يجب أن يكون واسع الصدر إلى أقصى حد ، وأن يستبقى سعة صدره فى جميع الظروف والأحوال . » وكانت عبارته هذه بمثابة اعتذار كامل صريح ثم قال : « أما مسألة الإنقاذ من الدمار ، فإنى قد بلغت منها إلى هذا المدى ، ألا وهو أن هذا كله — مشيراً إلى الجبال والسماء والهواء — هو من خلق خالق مبدع ، هذا أعرفه تماماً ، وهنالك شىء آخر أيضاً وأريد أن أقوله له بصراحة ، وهو أننى إذا لم أستطع أن أكتسب السعادة بالعمل الصالح ، فإنى لن أكتسب الشقاء بالعمل الردىء ، وأكبر ظنى أنه حكم عادل ، إذا شاء أن يحكم علينا ، هذا ما أعتقده ولا يهمنى أن أعتقد شيئاً آخر . »

لم نلبث أن اقتربنا من حظائر الخيل ، وهنالك عاد إليه هدوءه وصفاؤه ، بل أخذ يترنم بأنشودة من أناشيده يقول فيها :

الشمس مصنوعة من طين قاع النهر ...
والقمر مصنوع من ضوء الحباحب ...
والنجوم تشبه عيون الغوانى ...

تدور من حول العالم دورتها ...

لترسل بعض النور حين يغيب القمر ...

ولئن كانت الألفاظ تخفى خواطرنا ، فإن النغم يجعل من حولها قناعاً أشد كثافة ، وإذا كان الفرجينى قد زايله حلمه من قبل ، فلا شك أنه قد استرده الآن . وهذا يجعله أقدر على أن يحاسب ترمپاس ، متى جاء وقت الحساب ، ولقد خطر لى أن أذكر الأمر للقاضى ، لولا أن مثل هذا التدخل ليس من شأن الضيف ، وفى تلك اللحظة كان القسيس أو المبشر قد وصل إلى باب المنزل ، وأخذ يتحدث إلى القاضى .

قال الفرجينى ، وهو يخلع السرج عن جواده ، وقد أخذت أنا أفك حزام سرجى : « أكبر الظن أنه يشرح للقاضى أنه قد طال به الانتظار ، وليس يبدو على القاضى أن هذا الأمر قد أهمه كثيراً . »

فجعلت أراقب تلك المحاورة من بعيد ، فرآنى القاضى ولوح لى بيده فلوحت له بالرد . وكان معه ملء مركبته من الضيوف الذين اصطحبهم فى نزهته ذلك اليوم .

وتأملت وجوه الضيوف وقلت : « إن الآنسة مولى وود فى جملة الركب . »

فقال الفرجينى رداً على ملاحظتى هذه بإيجاز : « نعم ، دعنى أُعْنَ بسرجك واذهب أنت لكى تتعرف إلى الجماعة . »

وقد قبلت منه صنيعه هذا وأظنه أراد به أن يثبت أن الأمور قد عادت بيننا إلى ما كانت عليه بعد ذلك الانفجار القصير ، فتركته لخيله وحظائره وترمپاس زعيم الرعاة وللأمر الذى يوشك أن يتم له .

## ١٩

## الدكتور ماكبريد يقول : « اسمح لى . . . »

كانت الجماعة التى أتمت رحلتها بالمركبة الكبيرة ذات المقاعد الثلاثة ، تتألف من القاضى وزوجته ومن مولى وود ، ومن شخصين غريبين سيد وسيدة ، وكانت تبدو عليهم مظاهر المرح ، ولكنى عند ما اقتربت منهم كان أول ما طرق سمعى صوت القسيس وهو يقول : « . . وهذا يتيح لهم فرصاً أخرى لكى ينتفعوا بالإنصات إلى الخطب والمواعظ . . »

قال القاضى : « أجل بلا شك يا سيدى . » ولقد لقيت من القاضى ترحيباً مضاعفاً ، فيما خيل إلى ! لأنى قطعت حبل هذا الحديث ، وبعد الترحيب الحار قال لى : « دعنى أعرفك بالدكتور الكسندر ماكبريد » ثم التفت إلى القسيس وقال : « وهذا يا دكتور ضيف آخر كنا نؤمل أن نراه فى هذا الوقت . » وهكذا عرفه بشخصى ، وبقى بعد ذلك السيد وزوجته القادمان من نيويورك ، وقد انحنيت أمامهما محيياً ، ولكن تقدمى لم يقطع حبل الحديث .

ونظر إلىّ الدكتور ماكبريد بعينيه الفاحصتين وقال : « من الجائز أن أقول إننا سبق لنا أن تلاقينا . » وقد خطر لى عندئذ أنه لو كان فى السماء شرطة ، لكان هذا القسيس بلا شك من كبار ضباطها ، ومع أنه لم يكن يتعمد أن يكون جافاً خشناً ، فإن عقله — بسبب انصرافه للتفكير فى الشئون الروحية — لم يكن فيه بقية للفكاهة والائتناس .

واستمر فى حديثه فقال : « لقد لاحظت أن صديقك فارس ماهر ، ولذلك كنت أقول للقاضى ليت أمثال هؤلاء الفرسان الماهرين يركبون إلى الكنيسة فى

يوم الأحد المقدس ، بشرط أن تكون الكنيسة من كنائس المذهب الصحيح ، فتتاح لهم الفرصة للإصغاء إلى الكثير من المواعظ . »

قال القاضى هنرى : « نعم ، نعم ، إن هذا لمن الخير . »

وهنا تركتنا مسز هنرى ، ودخلت المنزل ، وهى تتمتم بعبارة فيها إشارة إلى أنها لا بد لها أن تذهب إلى المطبخ .

فالتفت دكتور ماكبريد إلينا وقال : « لقد كنت أخبرت قبل قيامى بالرحلة أنى سأصادف بلاداً مقفرة من مظاهر التدين ، ولكن لم يخبرنى أحد أنى سأقطع ثلاثمائة ميل من مدسن بو إلى هنا ، دون أن أصادف كنيسة لأى مذهب من المذاهب » .

قال القاضى : « إن هنالك بعض الكنائس ، على مسافة بعيدة من الطريق يميناً وشمالاً . ومع ذلك فإنك على حق فيما قلت ، ولكن لا تنس أن هذا أحدث إقليم فى أحدث قطر فى العالم . »

فى هذه اللحظة خرجت مسز هنرى وقالت : « ما بالك أيها القاضى تتركهم وقوفاً فى التراب لكى ينصتوا إلى كلامك ؟ »

فكانت هذه العبارة خير وسيلة لوقف المناقشة ، وعلى أثرها أخذت جماعتنا الصغيرة تدخل الدار وهى تتبادل الابتسام ، ويفسح بعضها الطريق لبعض كما هى العادة عند حديثى التعارف . وفى أثناء ذلك أمسكنى القاضى حتى تخلفنا عنهم قليلاً بقدر ما يسمح له بأن يهمس فى أذنى وبنغمة الحزن : « إنه سيقضى معنا أسبوعاً » .

وبينما أنا أؤمل ألا يطول به المقام أسبوعاً كاملاً ، إذا بأصحاب المنزل يعتذرون لنا أكرم اعتذار وهم يشرحون لنا كيف اضطروا لأن يرتبوا لكل منا مبيته فى شىء من التضييق . إنهم كانوا سعداء لنزولنا ضيوفاً عليهم ، ولكنهم لم يكونوا يتوقعون أن نحضر كلنا فى آن واحد . ولذلك اضطروا لأن يعدوا مسكن رئيس الرعاة لنزول اثنين منا . وهذان الاثنان هما أنا والدكتور ماكبريد

. . فهل لدينا مانع ؟ كنت أتوقع أن يكون لدى الدكتور ماكبريد مانع ، وأن يحتج على نزول هذا المنزل المتواضع ، ولكننى ظلمته بظنى هذا ، فقد أكد لزوجة القاضى ، أن هذا المسكن أفضل كثيراً من فراش من الهشيم فى اصطبل، طالما كان نصيبه فى رحلاته ولا يزال مستعداً له فى كل وقت . وهكذا عرفت أنه على شدة عنايته بنظافته لجسمه القوى ، فإنه مستعد لأن يهمله تماماً من أجل تأدية الرسالة التى يحملها إلى الناس . ولست أدرى ما شعور رئيس الرعاة وزوجته نحونا لاحتلالنا غرفتهم أسبوعاً كاملاً ، ولكن هذا الأمر لم يكن يعنينى ، ومع ذلك فقد خطر لى وأنا أتأهب للعشاء هناك ، أن فى هذا الأمر قسوة عليهما ،ولقد كانت الغرفة بسريريها وأثاثها فى أحسن صورة ممكنة، وقد أغلقنا الباب الذى يفصل بيننا وبين الغرفة المجاورة ، وكانت أيضاً خالية من السكان .

وقدمت لنا مسز هنرى وجبة بلغ من جودتها أنها لم تبرح ذاكرتى . وقد بذل زوجها القاضى غاية جهده لكى نستطيع أن نتناولها فى سرور وانشراح — فجعل يصب علينا قصصه ونوادره كما يصب النبيذ ، وكنا جديرين أن نستجيب لدعابته ، لولا جلوس الدكتور ماكبريد بيننا وهو لا يفتأ يخرج من حنجرته صيحات بصوت أجش ثقيل ، فكان لهذه الأصوات — كما قالت مس مولى وود — تأثير مرعب مزعج ، وأخذنا نتساءل عما إذا كانت صيحاته هذه ترجع إلى تفكيره فى خطب الوعظ التى يعدها . فأكدت لمس وود أنى رأيته يستخرج من أمتعته رزمة ضخمة من هذه الخطب، فقالت : « رباه . . أظن أنه سيسمعنا واحدة منها كل ليلة ؟ » قلت : « إنى أشك فى ذلك ، بل الأرجح أنه كان يختار منها واحدة تلائم هذا المكان » ، قالت : « أى، إنه يريد أن يقدم أحسن ما عنده ، فهو مثل كل الناس عنده الجيد والردىء . » ثم تكلمت باهتمام لا يخلو من الحدة فقالت : « أتعلم أنى عند ما سمعته أول مرة حسبته ينطق بإخلاص ، ولكن لم ألبث أن تكشف لى أن ما لديه ليس بالإخلاص بل الكفاح

فهو لا يدنو منا ويقترب ، بل يقف بعيداً عنا على قمة كثيب يشاهد سير المعركة . »

قلت : « إنه سيجد لدينا هنا وثنياً عنيداً » .

قالت : « من ؟ القاضي هنرى ؟ »

قلت : « لا ، بل الرجل الفرجيني ، الذى تريدين أن تجعليه مستأنساً ؛ إنه عاد ومعه كتابك « كنلورث » الذى حافظ عليه » .

قالت بهدوء : « لا أدرى هل يمكن أن يستأنس ، ولكن ألم تجده رجلاً ذكياً ؟ »

وتبين لى فجأة أنها لم تكن تريد أن تجعله مستأنساً ، ولكن ماذا عساها تريد أن تصنع ؟ إن ذكرها أمامه فى ذلك اليوم قد جعل الدم يتصاعد إلى وجنتيه ، أما ذكره أمامها هذا المساء فلم يبعث الدم فى وجهها .

وسمعت ضحكات عالية من الجماعة فأدركت أن القاضى قد فرغ من سرد قصته عن « الشخص الوحيد الذى نجا » وقال فى نهاية قصته : « وهكذا انطلق الجميع وهم فى شبه جنون من الفرح ، لأن الحادث لم يكن مذبحة . »

وقد هتف كل من المستر أجدن وزوجته — وهما القادمان من نيويورك — لهذه القصة كثيراً ، ولكن الدكتور ماكبريد لم يلبث بعد نصف دقيقة أن أرسل صيحته فكانت بمثابة حجر ثقيل طمس معالم السرور .

فهمست مس وود : « إنى لن أطيق استماع سبع خطب وعظية منه » .

ولما رأيت المائدة قد سادها الوجوم ، بادرت بالمساهمة فى سرد القصص وقلت : « بمناسبة الحديث عن المذابح ، إننى قد نجوت أخيراً من إحداها » .

فقال القاضى يستحثنى ، بعد أن فرغت جعبته : « أخبرنا بحقك . »

قلت : « ولكن حديثى جد خطير ، فقد كنا من المأساة قاب قوسين أو أدنى ، لولا أن تابعك الهائل قد استطاع أن يحول المأساة إلى ملهاة ، وأن يخرجنا من الورطة سالمين . »

لم أكد أفوه بهذه العبارة حتى وجهوا إلىّ انتباههم ، فجعلت أقص عليهم التجارب التى مرت بى منذ ركبت عربة المطبخ فى داكوتا ، وكيف شعرت بسرعة أن الأمور لم تكن على ما يرام عند ما رأيت الفرجينى يرفس الطباخ فيلقى به خارج القطار ، وكيف اتقدت نار الفتنة السوداء من شرارة صغيرة إلى أن أصبحت شعلة ضخمة تنذر بانفجار لا يعرف أحد مداه ، وكيف استطاع الفرجينى أن يطفئها مرة واحدة بالدعابة فلم يترتب على انفجارها إلا ضحك لا يؤذى أحداً .

وقد تبعتنى عيونهم وأنا أوالى سرد القصة . والضيفان من نيويورك ينصتان ؛ لأن مثل هذه الأحداث لا تجرى على ضفاف الهدسن ، ومسز هنرى تنصت لأنها ربة الدار ، ومس وود للأسباب التى جعلتها تصغى بانتباه شديد ، ولم أكن أرى عينيها ، بل كنت أحس أنها تصغى إلى الأعمال والأخطار التى اجتازها الرجل الذى لا تريد منه أن يستأنس ، وكانت عيون القاضى والقسيس هى التى كنت أراها محدقة فىّ إلى أن انتهيت من سرد القصة ، ولم يلبثا كلاهما أن أبديا رأييهما المختلفين كل الاختلاف .

فأما القاضى فضرب بقبضته المائدة ضرباً خفيفاً . « هذا ما كنت أنتظر » واستند إلى ظهر الكرسى وعلى وجهه علائم الرضا لأن الرجل الذى وثق به قد كانت عند حسن ظنه به . أما الدكتور ماكبريد فقال : « اسمح لى . . » وقد كان له طريقة خاصة فى قوله « اسمح لى » تجعل من العسير على المرء أن يسمح له بأى شىء ! !

ونظر إليه القاضى ينتظر ما عساه أن يقول :

فقال : « هل أفهم من ذلك كله أن هؤلاء الـ . . فتيان البقر ، أو رعاته ، حاولوا ارتكاب العصيان ثم ردهم عن عزمهم هذا أنهم وجدوا أنفسهم أقل براعة فى الكذب من الرجل الذى تآمروا على عزله ؟ »

فشرعت أرد عليه فقلت : « إن المهم فى الموضوع هو الصفات التى يمتاز

بها هذا الرجل والتى أظهرها وأكدها هذا الذى تسميه أنت بالكذب . »

— « وماذا أسميه ، إذا لم أسمه بالكذب ، لقد كان الأمر مسابقة فى الخداع واعترف بأنه كان هو المبرز فيها . »

— « إن هذه طريقتهم . »

— « اسمح لى . . هل طريقتهم هى الكذب ؟ وهم ينحنون إجلالاً لمن يبزهم فى ذلك » .

هنا همست مس وود فى أذنى : « عبثاً تحاول إفهامه » .

وأراد القاضى أن يشارك فى إقناعه فقال : « أجل . . أيها الدكتور . . . » ثم أرتج عليه فلم يزد حرفاً .

فتطوع مستر أجدن لمساعدته وقال : « إنك أنت أيها الدكتور قد أشرت إلى الظاهرة الصحيحة فى هذا الأمر . ألا وهى المنافسة ، فكل منهم يريد أن يفوز على الآخر بأى وسيلة » .

وتكلمت مس وود — على غير ما كنت أنتظر — وقالت : « نعم ، وليست المسألة أن جورج واشنطن كان عاجزاً عن أن يقول الكذب ، بل إنه لم يكن يريد ذلك ، وأنا واثقة أنه لو أراد أن يقول كذبة ، لأمكنه أن يبز كرنواليس[1] فى ذلك » .

فصاح ماكبريد : « إنك تستخرجين من الكتب مقارنات دقيقة يا سيدتى » .

فاستأنف أجدن حديثه وقال : « إن الأمر واضح لى تماماً . لقد كان الرجال متذمرين ، وكان رئيسهم قلة بالنسبة إليهم ، فسايرهم حتى أخذوا يقصون النوادر ليخدع بعضهم بعضاً . فلم يلبث أن قص عليهم قصته فصدقوها جميعاً . فلما تبين لهم ذلك ، أصبحوا عاجزين عن الاستمرار فى الفتنة والعصيان . . . وهذا ما كنت أفعله لو كنت فى مكانهم » .

---

(١) كرنواليس هو القائد الإنجليزى الذى هزمه واشنطن فى حروب التحرير بأمريكا .

لم يسع دكتور ماكبريد بعد ذلك إلا أن يتكلم بمنتهى الجد فقال : « اسمح لى . . . أنا لا أستطيع أن أقبل رأيا كهذا يا سيدى . لقد انتشر فى بلادنا نوع من الاستهتار أرثى له ، وأيا كان القالب الذى تريد أن تصوغ فيه القصة ، فانها لا تخرج فى النهاية عن كونها معركة بين رجال ، يقرر مصيرها البراعة فى الكذب ، وأفضل من هذا كثيراً أن تكون عدتهم القذائف النارية الطاهرة بدلا من الأكاذيب ، فإن هنالك شروراً أسوأ من الحرب والقتال » .

ونظر إلينا الدكتور بعينين يلمع منهما بريق التحمس للفضيلة ، ولكنا لم نرتعد ولم نرتجف ، وإذا كان أحدنا ارتجف فلم يكن ذلك بسبب الخوف ، بل لشىء آخر ، وبادرت مسز هنرى فأنقذت الموقف بأن حولت الحديث إلى صيد السمك النهرى . وقد أحضر الدكتور ماكبريد عدة الصيد ، فأخذ يفيض فى الحديث بتحمس عن هذه الرياضة ، فأكدنا له أن الجداول التى تجرى من المنحدرات الغربية لجبال بولج ستتيح له فرصاً عديدة ، وهكذا أتممنا عشاءنا فى صفاء تعبنا فى المحافظة عليه .

## ٢٠

# القاضى يتغاضى عن التفاصيل

كان مضيفنا الكريم القاضى هنرى يقدم إلينا الويسكى فى مكتبه ، عندما اعتزلنا السيدات برهة للتدخين ، وقد تركنا الدكتور ماكبريد لكى يعتكف لحظة فى غرفته بمنزل رئيس الرعاة ، قبل أن يلقى بخطبة الوعظ التى حان موعدها . قال مستر اجدن مستفهماً من القاضى هنري : « هل يحل بكم مثل هذا الزائر كثيراً ؟ » فضحك القاضى وقال : « إنهم يلمون بنا من آن لآن أثناء العام . وأنا شديد الرغبة فى زيارة الأسقف لنا ، والفتيان يحبونه أيضاً ، أما صديقنا هذا فإنى أخشى أنهم لن يميلوا إليه كثيراً » .

« أتعنى أنهم سوف . . . »

«كلا . . . إنهم سيلزمون الهدوء . وهم فى الحقيقة يعرفون آداب اللياقة خيراً منه ، وياليته يدرك ذلك ، وهم على كل حال سيحتملونه كما احتملوا أمثاله من قبل ، ولكنه لن يفيدهم بشىء » .

قلت : « إنى أشك كثيراً فى أن له أقل إلمام بالعلم » .

« العلم . . . إنه لا يعرف معنى المسيحية بعد ، لقد طالما استقبلت الزائرين هنا ، فلم أر واحداً منهم . . .» ثم لم يتم القاضى جملته وانتقل إلى غيرها فقال : « إن السر كله هو فى الطريقة التى تعامل بها الناس ، وهذا هو الأساس للدين المسيحى ، وهذا هو الأمر الذى يستحيل على مبشر مثل هذا أن يدركه » .

طرق الباب فى هذه اللحظة طرقاً أقرب إلى الشدة ، وخشينا أن يكون

الدكتور ماكبريد قد عاد ، ولكن لم يكد القاضى يفتح الباب ، حتى رأينا الفرجينى واقفاً فى الظلام .

ففتح القاضى الباب على مصراعيه ، وتحدث بترحيب واضح إلى الرجل الذى وثق به وقال : « أهلا ، لقد عدت إلينا أخيراً » .

قال الفرجينى : « أتيت لأرفع تقريرى » .

وبينما كان يصافح القاضى ، غمزنى اجدن وقال : « أهذا هو الرجل ؟ » فأشرت إليه أن نعم ، فقال : « أهو الذى رفس الطباخ من القطار؟ » فأشرت أن نعم مرة أخرى . فأخذ يحدق فى الفرجينى وينظر إلى قوامه وعينيه .

وبادر القاضى هنرى ، كعادته الديمقراطية ، بتقديمه إلى أجدن .

وأراد النيويوركى أن يكون هو أيضاً ديمقراطياً وقال : « إنك الرجل الذى سمعت عنه كثيراً » .

فأجاب الفرجينى بتحفظ وأدب : « إن هذه يا سيدى ميزة امتزت بها علىّ » ثم التفت إلى القاضى وقال : « هل أرفع تقريرى غداً ؟ » وكان متجهاً بنظراته إلى القاضى دون أن يعيرنى أقل انتباه ، فإنه قد حضر كموظف لكى يقابل السيد الذى يشتغل عنده .

قال القاضى : « أجل ، إنى غدا أسمع منك ما تريد أن تقوله عن الماشية ، ولكن ادخل لحظة فهناك أمر آخر . » فدخل الفرجينى وخلع قبعته فقال القاضى : « اجلس ، إنك لقيت بعض المشقة ، وقد سمعت شيئاً عن ذلك » .

جلس الفرجينى فى رشاقة وهدوء ، ممسكاً بقبعته طول الوقت ونظر إلىّ مرة وإلى أجدن ثم تحول ببصره إلى القاضى ، فأعاد عليه السؤال مرة أخرى وقال : « لقد لقيت بعض المشقة » .

قال — وهو يبتسم ابتسامة خفيفة : « لقد مرّت لحظات ظننت الفتيان قد أخذت بعض الخواطر تجول برءوسهم ، ولكنهم من خيرة الفتيان . »

فظهرت علائم الرضا على محيا القاضى وقال : « هل كان ترمپاس أيضاً من الطيبين ؟ » . . . لم يبتسم الفرجينى هذه المرة ، بل جلس يحدق فى سيده ولم يلبث القاضى أن انتقل للموضوع التالى : « ومع ذلك فقد فهمت أنك عدت بهم جميعاً فى سلام وأمان لم يمسسهم سوء ؟ »

فنظر الفرجينى أولا إلى قبعته ، ثم نظر إلى وجه القاضى وقال : « لقد اضطررت أن أفترق عن طباخى » . وعند هذا الرد الهادئ لم أتمالك أنا وأجدن من أن نقهقه بالضحك . وحتى الفرجينى نفسه قد ابتسم على الرغم منه ابتسامة عريضة ، ثم قال — وهو ينظر إلىّ نظرة عتاب : « أظنك تعرف شيئاً عن هذا الموضوع ؟ » وقد كان بالطبع مدركاً أننى أنا الذى أفشيت القصة .

قال أجدن : « إن كل ما أريد أن أقوله هو أننى لن أستطيع أن أقود رجالا كهؤلاء» .

قال الفرجينى متبسطاً : « إنك لم تحاول يا سيدى » .

ظل القاضى أثناء هذا كله محتفظاً بمظهر الجد ولكن كان من الواضح أنه ازداد رضا عن تابعه فقال : « إذن لقد اضطررت لأن تفارق الطاهى ولا بأس فى هذا ، إننى حين أولى رجلا مهمة ، فمعنى ذلك أنى أوليه أمرها ، وأتغاضى عن التفاصيل ، فإنها من صميم اختصاصه ،هل تفهم ما أعنى؟ »·

قال : « أشكرك» . وقد فهم الفرجينى أن صاحب المزرعة يمدحه لحسن قيامه بالمهمة التى عهد بها إليه ، ولكن لا أظن أنه أدرك — ما أدركته أنا — من أن القاضى قد أعجب به أشد الإعجاب لأنه لم يقل شيئاً عن ترمپاس ، بعد أن هيأ له الفرصة لكى يطرى نفسه ويشكو أحد زملائه .

وهمّ بالقيام فقال القاضى : « لم أنته بعد ، وهاك الأمر الذى أردت ذكره وإن كان من جملة التفاصيل ، أظن أن ترمپاس قد علم بنبأ لم يكن يتوقعه؟ »

فلم يفهم الفرجينى ، كما لم أفهم أنا أيضاً ما يرمى إليه القاضى ، ولكنه لم يقل شيئاً وظل يعبث بقبعته ويديرها بيده .

قال القاضى : « قصدت مسألة روبرتس » .

فلمع فى وجه الفرجينى بريق النصر ، بحيث ظهرت فيه علائم الوحشية لحظة قصيرة ، فقد أدرك الآن مقصد القاضى ، فلم يستطع إخفاء ابتهاجه ، ولكنه لم يفه بكلمة .

فوجه القاضى الخطاب إلىّ لكى يوضح الموقف وقال : « لقد اضطررت أن أسمح لروبرتس رئيس رعاتى بأن يعتزل خدمتى منذ أسبوع ، لأن زوجته لم تكن تستطيع أن تقضى شتاء آخر فى هذه الجهات ، وقد عرضت عليه وظيفة حسنة فى لوس انجيليس » .

ففهمت أيضاً ، كما فهمت أموراً أخرى ، فأدركت السبب الذى من أجله كان بيت رئيس الرعاة خالياً ، فأمكن إعداده لى وللدكتور ماكبريد . وتبين لى أن القاضى رجل حاد الذكاء . فعلى الرغم من أنى تعمدت ألا أقول كلمة عما جرى بين ترمپاس والفرجينى ، قد أمكنه بفكره الثاقب أن يدرك كل شىء ، وعلى الرغم من زعمه أنه يغضى عن التفاصيل ، فإنه كان منتبهاً لكل أمر خفى يجرى فى مزرعته ، وقد علم أن ترمپاس قد فقد باعتزال روبرتس صديقاً قوياً ، وهذه هى الحقيقة التى أصبحت واضحة أمامى ، وهى أن ترمپاس لم يعد له درع يحتمى وراءه. وأصبح هو والفرجينى وجهاً لوجه .

وظل القاضى موجهاً الخطاب إلىّ فقال : « وهكذا ترانى فى أقل الأوقات ملاءمة ، ليس لى رئيس رعاة » ثم التفت نحو الفرجينى وقال : « اللهم إلا إذا أردت أنت أن تتقلد المنصب ، فهل لك فيه مأرب ؟ »

فرأيت الفرجينى يقبض على قبعته بشدة ، وبعد أن كان يديرها بيده ، أطبق عليها بكلتا يديه وضغطها ضغطاً أخفى معالمها ، إن هذا الأمر كان بالنسبة إليه شيئاً عظيما ، إذ يتمثل فيه الاعتراف بفضله ، وترقيته إلى منصب أعلى ، ومرتب أعظم ، ومنزل خاص به ، وعسى أن يكون فى ذلك ما يدنيه خطوة أخرى من المرأة التى يشتهيها ، ولا أدرى ماذا يكون جوابه للقاضى لو أنه

خاطبه على انفراد ، ولكن القاضى فضل أن يخاطبه أمامنا وأن يذكر الأمر كله من أوله إلى آخره ، وقد جلس الفرجينى والعرق يتصبب من جبينه ، وقد أطرق بعينيه ، فلم يرفعهما نحو ولىّ نعمته ، وما كان جوابه إلا أن قال بعد لأى : « أشكرك » .

فوقف القاضى ، وتكلم بسرعة وببساطة وقال : « هذا عظيم ، الآن قد سُرّى عنى ، وقد كنت فى ضيق من أمرى ، والآن تخلصت من أحد الأمور التى كانت تشغل بالى . وهذا يوفر علىّ الاهتمام بكثير من التفاصيل . » ثم التفت إلى الفرجينى ، وقد نهض هو أيضاً من مجلسه وقال : « وعليك أن تبدأ منذ الآن ، فانتقل منذ الساعة من بيت الرعاة ، ولا أظن أن السيدين سيمانعان فى مبيتك فى منزلك » .

وهكذا أمر رئيس الرعاة الجديد بالانصراف ، ولكن الرئيس الجديد لم يكد يغادر الحجرة حتى التفت وقال — فى لهجة خشنة : « سأحاول أن أرضيك يا سيدى » . ثم انطلق مستتراً بالظلام ، ومع ذلك لم يكن الظلام حالكاً بحيث يمنعنى من أن أراه يثب من فوق باب الحديقة كأنه نسمة تهبّ ، وبعد ذلك بلحظات سمعنا أصوات الهتاف تتصاعد من منامة الرعاة . ولا شك أنه قد ابتدأ فوراً كما أوصاه القاضى ، وقد بادر بإبلاغ النبأ إلى إخوانه فكان هذا الهتاف هو ردهم عليه .

قال اجدن : « تُرى أيكون ترمپاس بين الهاتفين ؟ »

قال القاضى : « هذا أحد التفاصيل التى لا يهمنى أمرها . »

وكان القاضى صادقاً فى قوله هذا ، فإنه بعد أن ولى الفرجينى هذا المنصب ، وألقى عليه تبعاته ، لا بد له أن يعتمد عليه كما يثق القائد العام بمن يأتمر بأمره من الضباط .

قال اجدن : « ولكن ألا ترى أنك بهذا قد ألقيت ترمپاس تحت رحمته ؟ » .

قال القاضى : « أجل ، لقد ألقيت به هناك ، وهذا الدكتور ماكبريد قد أقبل . »

## ٢١

# غارق فى الخطيئة

ظهر المبشر وكأن الصاعقة توشك أن تنقض من جبينه ، وبعد قليل يقع الكثير تحت رحمته ، ولكن بقيت لحظات كان لا يزال يتلطف فيها معنا فقال : « إنى آسف أشد الأسف لإزعاجكم ، ولكن هذه الحجرة هى أصلح مكان للصلاة » . وكان يشير بذلك إلى ما طلبه من رفع الموائد وصف الكراسى حتى يصبح المكان صالحاً لأن ينزل فيه صواعقه على الحاضرين . ثم سأل : هل بلغت الساعة النصف بعد الثامنة ؟ — وكان هذا هو الموعد الذى ضربه ولم يبق عليه إلا عشرون دقيقة ، فرمينا بالأجزاء الباقية من سيجارنا ، وتقدمنا نعرض خدماتنا على السيدات ، من أجل إعداد الحجرة فابتسمن ضاحكات ، فقد كنَّ فى غنى عن خدماتنا ، وقد أتممن إعداد الحجرة .

وقالت مسز اجدن : « لقد رأينا أن نستعين بالطباخ حتى لا نزعجكم وأنتم تدخنون سيجاركم . . . وعلى الرغم من وجود الرعاة ، فإنى أرى هذا المكان لا يختلف عن سائر القطر . »

فسألت : « أى إن الطباخ واحد فى كل مكان ؟ »

قالت : «كلا بل لأن طول السيجار واحد فى أي ولاية من الولايات المتحدة » .

قلت : « لو أن لك خبرة بالتدخين لعرفت أنها كانت قصيرة جداً هذا المساء» .

قالت : « على كل حال ، لقد تركتمونا نتمتع بالدكتور ماكبريد وحدنا » .
قلت : « سنقاسمكن إياه الآن » .

قالت مولى وود وقد انضمت إلينا : « هل أعلن الآية التى ستكون موضوع خطبته . . . إن عندى له نصاً . » ثم همست بالقطعة التى اقترحتها فى أذن كل منا وهى : « لقد قلت مستعجلا إن الرجال كذابون جميعاً » . وقد كان فى قولها هذا تسلية لنا ونحن وقوف وسط الكراسى التى ازدحمت بها القاعة . . .

وتركتُ السيدات واتخذت سبيلى نحو منزل الرعاة ، فقد سمعت الهتافات فدفعنى الفضول لأن أرى الفتيان ، وكيف تقبلوا الحالة الجديدة ، فلم أجد فى منظر القاعة جديداً ، ولكن كان هنالك كثير من الضوضاء . وقد أخذوا يستعدون للكنيسة ، فيحلقون أو يرجلون شعورهم ، أو يتوضأون ، ويتحدثون أثناء ذلك بعبارات بعضها لا يخلو من المجون ، وإن كانت تبعث دائماً على التسلية .

قال أحدهم : « على كل حال أنا رجل مسيحى » .
قال آخر : « أما أنا فإنى على الأرجح من المرمون » .
قال ثالثهم : « أنا من فرسان بتياس » .
قال الرابع : « أنا محمدى ، أرجو ألا يكون فيما أسمعه هذه الليلة ما يثير عواطفى . »

وهكذا ظلوا فى دعاباتهم ، أما ترمپاس فكان بمعزل عن الدعابة ، فقد كان مستلقياً على سريره يطالع جريدة ، ولا يبذل أقل مجهود ليتكلف الظرف وكانت عيناى تنظران إليه ، حينما أقبل علىّ سپيو وقال : « لا تكن شديد الحياء منا ، فليس هنا أحد غيرنا معشر الفتيان . » وقد كان يساعد الفرجينى على نقل أمتعته من المنامة إلى غرفة المقدم . وكان من نصيبه أن يحتل مكان الفرجينى فقال : « أرجو أن يكون رقادى فى فراشه جالباً لى بعض حظه ،

ليتك حضرت لترانا عند ما أبلغنا الخبر بطريقته الهادئة ، لا شك أن من المطرب حقاً أن ترى أصدقاء يفرحون لخير نلته . »

قلت : « أجل وعلى الأخص ترمپاس ، إن القاضى يعرف هذا الأمر . »

قال : « إنه يعرف ؟ فما رأيه فى ذلك ؟ » وسحبنى إلى خارج الدار .

قلت : « زعم أن هذا ليس من شأنه »

قال : « ألم يقل أكثر من ذلك ؟ ألم يقترح شيئاً أو يبد رأياً ؟ » وقد ظهر على سپيو حب الاستطلاع بدرجة غريبة .

قلت : « لا شىء ، لقد اكتفى بأن قال إنى لا أريد أن أعرف شيئاً ، ولا يهمنى أن أعرف شيئاً » .

قال : « ولكن كيف عرف الخبر ؟ إنك أنت الذى أخبرته ، لأن صاحبنا لن يقول شيئاً . » وأشار بإبهامه إلى الفرجينى ، وقد ظهر فى تلك اللحظة فى النافذة المضاءة ، فى غرفته الجديدة ، حيث يقوم بترتيبها . . . واستمر سپيو يقول : « إنه لن يقول كلمة للقاضى ، ولذلك لم يكن للقاضى أن يبدى رأيا فى الموضوع . . . إذن الفكرة فكرته ، ولا شك أنها جديرة به . لم أكن أتوقع مثل هذه النتيجة . . . ولكن لا عجب فى ذلك فانه خليق أن يخلف ظنى أيِ يوم يشاء . »

قلت : « إنك تدهشنى ، ماذا تعنى بكلامك هذا ، ومن تعنى ؟ »

قال : « أعنيه هو وترمپاس » .

قلت — وقد تملكنى حب المعرفة : « هل جرى بينهما شىء ؟ »

— « لم يحدث شىء بعد ، ولكن سيحدث »

— « ويحك ، ومتى يحدث ؟ »

قال سپيو : « بمجرد قيام ترمپاس بأقل حركة . »

فنظرت إليه نظرة المستفسر ، فقد كان من الواضح أن سپيو سمع أشياء من الفرجينى .

فقال : « نعم ، إنى واجهته بسؤال مباشر ، وكنت أحمل بعض حقائبه إلى باب داره ، فلم أطق صبراً ، وسألته فى صراحة تامة : « الآن وقد أصبح ترمپاس فى قبضة يدك ، فماذا عساك صانع به ؟ فأجابنى ، فعرفت جلية الأمر . » وبعد ذلك سكت سبيو لأنه لم يرد أن يطلعنى على بقية القصة .

قلت له : « لم أكن أعرف أن من صفاتك أن تكون شحيحاً لهذا الحد . »

فقال وهو يضحك : « ليس هذا شحاً . »

« إذن فماذا تسميه ؟ »

قال : « إنى أسميه الكتمان . وسترى بعينيك ما سيحدث ، وما عليك إلا أن تظل بالقرب منا ، فابق قريباً ، إنى الآن أتمنى لو لم أكن أعرف حتى أتمتع بالمفاجأة » .

عدت إلى المنزل ، ولم يكن تأثرى من تكتم سبيو مع حبى للاستطلاع مما يجعلنى فى حالة نفسية تساعد على الاستفادة من المواعظ الدينية . فلا عجب – والحال هذه – إذا كان الدكتور ماكبريد قد تلا بعض الصلوات وطالع بعض الآيات دون أن أحس كلمة واحدة مما فاه به . ولم أنتبه إليه ، إلا عند ما رأيته يفتح قرطاس الخطبة فتذكرت فجأة أننى جالس فيما يشبه الكنيسة وعاد إلى تفكيري فى الإمام الخطيب وجمع المصلين ، وكانت مقاعدنا بالطبع إلى الأمام ، ولكن نظراً لأن مكانى كان إلى جانب الجدار ، فقد كان بوسعى أن أرى الرعاة خلفى . وقد كان مظهرهم آية فى الكمال ، فإذا كانت مسز أجدن توقعت أن ترى المسدسات ومواقف التبجح والتطاول فلاشك أنهم قد أخلفوا ظنها ، ولولا أثر التعرض للجو فى خدودهم وعيونهم ، لكانوا مجرد فتيان أمريكيين حليقين ، أو مرسلين شواربهم ، لا فرق بينهم وبين رواد كنيسة فى ولاية كنكتكت ، وحتى ترمپاس نفسه قد اندمج فى المجموع الهادىء الرزين ، ولعل الفرجينى لم يكن مظهره مظهر رواد الكنائس فى كنكتكت ، فإن مظهره كان يميزه على الآخرين ، ولكنه هو أيضاً كان

ينظر فى أدب تام إلى الدكتور ماكبريد .

لم يختر حضرة القسيس القطعة التى اقترحتها مس وود بل وقع اختياره على قطعة أخرى من أحد المزامير ، وعندما نطق بها ، لم أستطع أن أنظر إلى أحد من الحاضرين ، فقد كنت أدنى إلى أن أسىء أدبى من أى واحد من الرعاة ، وقد تلا علينا النص الذى اختاره بنغمة عجيبة فقال :

« لقد أصبحوا قذرين إلى أقصى حد ، وليس فيهم أحد يفعل الخير ، أو يصلح لعمل الخير . » كانت نظراته تدل دلالة واضحة على أنه يعنينا جميعاً بهذا القول ، ولا يستثنى منا أحداً ، وبعد أن أعاد النص على مسامعنا مرة أخرى ، أخذ يلقى علينا خطبته ، فلم يكن فيها شعاع من الأمل لواحد منا . . .

وقد سمعت مثل هذه الخطب من قبل ، ولكن إلقاءها على الفتيان الرعاة كان أبعد ما يكون عن اللباقة والكياسة ، وكان مثله كمثل رجل قال : « دعونى أحرضكم على الإعجاب بالمرأة » . ثم عرض علينا عظام امرأة ماتت منذ زمن بعيد ! ! وأخذ يقول للرعاة إنهم لن يعملوا عملا صالحاً ، وإنهم لو عملوه فإنه لن يجديهم نفعاً ، وفوق ذلك فإنهم مهما قدموا من خير ، فإنه لن ينفعهم بشىء ، وإذا آمنوا بالعقيدة التى أوضحها لهم أنها الوسيلة اللازمة لنجاتهم ، فإنها مع ذلك قد لا تنقذهم ، فإن خطيئتهم هى سبب اللعنة التى حاقت بهم ، وإذا ابتعدوا عن الخطيئة ، فإنهم برغم ذلك قد تحل بهم اللعنة ، لأن مصيرهم هذا تقرر قبل أن يولدوا ، بل قبل أن يخلق آدم نفسه . . . وبعد أن ذكر لهم هذا كله ، دعاهم لأن يمجدوا هذا الذى خلق هذا النظام . . . وعلى الرغم من اللعنة التى نزلت بهم يجب عليهم أن يمدحوا الكائن الذى خلقهم خصيصاً لكى يلعنوا ! !

ذلك هو المنطق الذى سمعته يتحدث به إلى هؤلاء الفتيان الرعاة ، وقد جعل يبنى السرداب المظلم لديانته حجراً فوق حجر ، دون أن يكشف

للعيون ما اشتملت عليه تلك الديانة من الحدائق والضياء . لم يذكر لهم شيئاً عن ماضيها المجيد ، وكيف كانت معقلا حصيناً للخير والبركة ، ونبراساً اهتدت به الأجيال العديدة من الآباء والأجداد . تكلم عن الويلات ولم يقل كلمة عن المحبة والرحمة . وشتان بين هذا وبين الأسلوب الذى كان يتبعه الأسقف إذ يتحدث بطريقة سهلة مع الرعاة فيما يتعرضون له من الأخطاء والإغراءات ، حتى إذا رأى التأثر بادياً عليهم أخذ يحدثهم عن المغفرة ، ويقوى من عزائمهم . أما الدكتور ماكبريد فلم يحاول أن يفكر فى حياة هؤلاء التائهين ، وحاجتهم إلى الهداية . لقد كانوا مثله ومثل جميع بنى الإنسان ، مجرد نقط ضئيلة فى الكون ولا بد لهم أن يحسوا بأنهم لا شىء ، وأن وجودهم كالعدم . لذلك لم يكشف لهم عما فى الدين من عذوبة وحلاوة ، بل كل ما اشتمل عليه من الصاب والعلقم . السفسطة شعاره الوحيد ، يسلط مدافعها على الإنسانية المسكينة .

وقد أحسست بألم شديد لإضاعته هذه الفرصة التى كان يستطيع انتهازها لكى يفيدهم وينفعهم . أما الرعاة فلم يحسوا كما أحسست ، لأنهم لم يكونوا يعيرونه انتباهاً ، وكان من الجائز أن تخيفهم هذه الأقوال منذ ثلاثمائة عام لا فى هذا العصر الكهربىّ . ولقد رأيت سبيو يخفى ابتسامته عند ما دار الكلام عن فكوة الخطيئة الأبدية ، وقال دكتور ماكبريد : « إننا نعلم حقيقة وجودها مما يتعرض له الأطفال الرضع من الويلات والآلام ، بل ومن الموت الذى قد ينزل بهم وهم بعد عاجزون عن ارتكاب الخطيئة . » ومن الغريب أن هذا الرجل كان أبعد الناس عن التقى ، ولكن القسيس الذى لا يعرف الكياسة يوشك أن يكون أقبح الأشرار . . .

لقد قلت إن الرعاة لم يكونوا منتبهين له ، ولكن هذا القول لا ينطبق على الفرجينى ، وربما كان مظهره أول الأمر مجرد التمسك بالاحترام الواجب فى مثل هذا المقام ، ومن الجائز أن ينظر الإنسان إلى الواعظ باحترام ، وفى

ضميره يرتكب جميع الآثام ، ولكنى رأيت الفرجينى يبدى انتباهاً جدياً ، حتى عند تلاوة النص ، ولم أشعر بمرور الوقت لشدة اهتمامى بمراقبة الفرجينى وكيف يزداد انتباهاً فى كل لحظة . فلم يكن يفوته شىء وكانت عيناه لا تتحولان عن الخطيب ، فهل كان معنى ذلك أنه اقتنع بصحة ما يقوله ؟ أو أنه ينتقده ؟ ولا يتصور العقل أن مثله يقتنع بهذه الأقوال ، وعلى كل حال لقد مرت ساعة كاملة دون أن أفكر فى مرور الوقت .

بعد أن انتهت الخطبة كانت لها آثار مختلفة فى نفوسنا ، وتلطف الواعظ معنا فقال : إنه الآن قد مهد الطريق للدروس التى يرجو أن يقوم بتلقينها فيما بعد ، ثم جعل يتحدث عن صيد الأسماك النهرية ، وعما أشيع من اضطراب الهنود فى الجهات الشمالية الشرقية ، التى يزمع الرحيل إليها ، وكان من الواضح أنه لا يهمه ما قد يتعرض له من الأخطار ، ثم لم يلبث أن حيانا ومضى إلى غرفته . وقد هز كل من أجدن وزوجته كتفيه فى ابتسام ، فأظهرا بذلك شعورهما نحو ما حدث . أما القاضى هنرى فلم يكن يستطيع أن يهز كتفيه ، وهو يحمل عليهما الدكتور ماكبريد بأكمله . فإن من واجبه — وهو من كبار رجال الإقليم — أن يفتح بابه على مصراعيه لكل قاصد، وقد اضطره أدبه وكرمه أن يرحب بأنواع شتى من الزوار ، فالفتى الراعى الذى لا عمل له يصيب عنده فراشاً وطعاماً لنفسه ولدابته ، وطالما لقى المبشرون من قبل كل ترحيب فى مزرعة سنك كريك . . .

فقال القاضى فى وجوم : «لا بد لى أن أصاحبه لصيد الأسماك» .

قالت زوجته : «أجل يا عزيزى ، لا بد لك من هذا وعلىّ أنا أن أعد له الشاى ستة أيام سوياً» .

قال اجدن : «وإلا لأمكن الإبلاغ عنكم بأنكم أعداء الدين» .

قال القاضى : «هذا هو الحق ، أنا أستطيع معاشرة أكثر الناس ، ولكن القيلة تسبب لى الغم والكدر» .

فدعونا الدكتور بعد ذلك باسم جمبو ! ! ثم انصرفت أنا أيضاً إلى مبيتى .

فى بيت الرعاة كانت التعليقات مشابهة لما تقدم ، ولكنها أكثر حدة . وكان الفتيان يستعدون للنوم ، وعلى الرغم من التزامهم منتهى الأدب أثناء الخطبة ، فإنهم كرهوا أن يقال لهم إنهم قد أصبحوا قذرين إلى أقصى حد ، لأن من السهل تبادل الشتائم وهم لا يقلون عنه مقدرة فى هذا الباب . وقد أخذوا يلقون علىّ ملاحظاتهم وأسئلتهم مرة واحدة ، كأنهم فى أوبرا تنطلق فيها النغمات دفعة واحدة : — « هل تعتقد حقاً أن الأطفال يذهبون إلى جهنم ؟ » « بالطبع ، أما هو فلن يذهب » . . « على كل حال ليس هناك عالم آخر » . . « عجباً » . . « من أنبأك بهذا » . . « نفس الشخص الذى أنبأ القسيس ، على كل حال إننا جميعاً عصبة من العصاة الشريرين . » . . « حسناً ، إذن سأظل كما كنت على مذهب المرمون » — « لن تروني هارباً من المغريات بعد اليوم » — « أصبت ، وما دام المصير هو المصير ، فليكن بعد التمتع ، لا بعد الزهد والتقى والتقشف » .

وهكذا توالت أقوالهم ، ولم يكن هنالك إسراف فى دعاباتهم ، ولكنى كنت أود لو استمع الدكتور ماكبريد إلى أقوالهم ، وقد عبر واحد منهم عن شعوره الطبيعى ، فقال : « لو أنى كنت أعلم ما هو مقدر فى الغيب أن أعمله لفعلت عكس ذلك حتى أريهم . . »

أما ترمپاس ، والفرجينى ، فلم يشتركا فى هذا الحوار . فقد ذهب الفرجينى مباشرة إلى مبيته الجديد ، أما ترمپاس فكان راقداً فى فراشه ، من غير نعاس ، يعلوه الغم والكدر .

لم ألبث أن غادرتهم وانطلقت إلى مرقدى .

كانت غرفة الفرجينى يسودها الظلام والهدوء ، وكان من السهل علىّ أن أسمع ، قبل أن أدخل غرفتى ، أن الدكتور ماكبريد قد نام . وجعلت أسائل وأنا أخلع ثيابى كيف يمكن لمثلى أن يصاحبه إلى الصيد ، فاستقر رأيى على

أن أدع القاضى ينال هذا الشرف وحده ، ولم ألبث — برغم الدكتور — أن استغرقت فى النوم . فلم أنتبه إلا عند ما أحسست بأن سريرى يهتز ، ولم يكن هذا من دواعى الاطمئنان فى مثل تلك الليلة . وقد انتبهت فزعاً ، فسمعت صوت الفرجينى الهادئ ، يأسف لأنه أزعجنى عن غير قصد ، ولكن حضوره إلى غرفتنا كان أكثر إزعاجاً لى . . وقد ظننت أنه نهض من نومه ليذهب إلى بيت الرعاة ، ولكن خطواته لم تتجه إلى تلك الناحية ، ولم يكن يلبس إلا القليل من الثياب ، وقد ظهرت قامته فى الظلام أطول من المألوف ، وقد تبينت وسط الظلام أنه أخذ ينحنى فوق الدكتور ماكبريد فنهض القسيس جالساً وقال : « لدىّ سلاحى ، فاحذر ، من أنت؟ » .

« دع مسدسك يا سيدى ، فلا حاجة بك إليه ، إنى أحس بأن روحى ستعلن شهادتها ، وأشعر أن النور يتسرب إلى قلبى » .

كان الفرجينى يستخدم لغة القسيس نفسه ، وقد أثار كلامه من دهشتى ما أنسانى ألغاز سپيو ، ولو جاز للأحياء أن يستحيلوا أحجاراً لتحولت إلى معدن جامد وسط فراشى ، وقد بادر الدكتور بالقيام من فراشه ، وأضاء مصباحاً ، وتناول أحد الكتب ، وانتحيا معاً إلى غرفة الفرجينى ، فكانت تتصاعد منها أصوات الابتهال ، فأسمعها فى دهشة وأنا فى مضجعى ، وعاد الدكتور بعد لأى إلىّ فأطفأ مصباحه ، وأوى إلى مضجعه ، ومع أنى كنت مستيقظاً جداً ، لم يلبث النوم أن عاد إلىّ ، وكدت أغرق فى سبات عميق لولا أنى سمعت صرير الباب ، وإذا الفرجيبى واقف لدى سرير الدكتور .

— « هل أنت مستيقظ يا سيدي ؟ »

— « من هذا ؟ ماذا تريد ؟ ماذا حدث ؟ »

— سامحنى يا سيدى ، إن الله ينتصر علىّ شيئاً فشيئاً ، وأحس مقاومتى للمعصية تتضاءل » .

وهكذا أضىء المصباح ، وسمعت ابتهالات أخرى ، وقد إستغرق هذا

ما لا يقل عن نصف ساعة ، ولما عاد الدكتور إلى سريره خيل إلىّ أنى سمعته يتنهد ، ولكن لم تمض لحظات حتى سمعته يغط فى نومه مرة أخرى ، وقد حسدته على مقدرته العجيبة على أن يعود إليه النوم بهذه السهولة ، ولكنى لا بد قد استولى علىّ النعاس بدورى ، لأنى استيقظت على ضوء المصباح حينما عاد الدكتور للمرة الثالثة من غرفة الفرجينى ، وقد نظر إلى ساعته هذه المرة قبل إطفاء المصباح ، فسألته عن الساعة ؟ قال : « الثالثة » .

عبثاً حاولت النوم بعد ذلك ، وبقيت راقداً أراقب الظلام .

ولم يمض وقت طويل حتى سمعت صوت الفرجينى فى الغرفة المجاورة يصيح : « إنى خائف من بقائى وحدي ، لقد استولى علىّ الخوف » وبعد فترة سكوت قصيرة صاح بأعلى صوته : « لقد فقدت رغبتى ، بعد أن تعاطيت اللبن الخالص الصادر من الكلمة» [١] .

فاستيقظ الدكتور منزعجاً وصاح : « ماذا ؟ ماذا ؟ ما هذا ؟ » ثم سمعت صرير فراشه عند ما جلس فيه مصغياً ، ولم أتمالك أن لففت وجهى بالوسادة .

وصاح الفرجينى : « إنى خائف ، إنى خائف ، إن المعصية لم تعد لها مرارة فى أحشائى » .

فصاح الدكتور : « تشجع أيها الرجل الصالح ، تشجع . » ثم نهض من فراشه مرة أخرى والمصباح فى يده ، وأغلق الباب وراءه ، وطال الأخذ والرد بينهما هذه المرة حتى رأيت علائم الفجر من النافذة واستطعت بعد قليل أن أرى أركان الأسرة والأثاث ، وسمعت أصوات الطير السوداء تهتف للفجر . . ولم يلبث أن أضيفت إلى هذه الأصوات ، صيحات الدجاج ووقع حوافر الخيل كما سمعت صوت بقرة تسعى باحثة عن عجلها ، ثم مرّ بالقرب منا شخص يصفر ثم أخذ يبتعد ، وعلى الرغم من أن الألوان القاتمة التى كنت أشاهدها من

---

( ١ ) لاشك أن الفرجينى يشير إلى « الكلمة » الواردة فى أول إنجيل متى : « فى البدء كانت الكلمة » الخ . . .

النافذة ، أخذت تزداد وضوحاً وإشراقاً ، فإن الدكتور ظل يشتغل بجد ونشاط ليعالج مريضه الروحى فى الغرفة المجاورة ، ولم أستبن من حديثهم سوى كلمة من آن لآن ، لكن كان من الواضح من قلة الألفاظ الصادرة من الفرجينى ، أن المعصية الكامنة فى أحشائه أخذت تخفّ وطأتها بالتدريج ، وقد كانت الجلسة طويلة جداً هذه المرة ، ولكنها كانت الأخيرة على كل حال ، وكان لا بد بعد هذا كله أن تحل بنا كارثة من الكوارث ، ولكن شاءت الأقدار أن أكون أنا السبب فى الحادث الذى وقع فعلاً .

كان النهار قد طلع تماماً . فنظرت إلى ساعتى فكانت السادسة ، فأكون قد قضيت سبع ساعات فى فراشى ، وقضى الدكتور سبع ساعات خارج فراشه وانفتح الباب ودخل الدكتور بكتابه ومصباحه. وخيل إلىّ أنه كان يرتجف قليلا من البرد . وقد رأيته ينظر بحسرة للفراش الذى لم يتمتع بالرقاد فيه . . ومع ذلك فإنه لم يكد يطفىء المصباح الذى لم تعد به حاجة إليه ، حتى دخل الفرجينى على أثره ، فلمحتهما هذه المرة معاً وكلاهما فى ملابسه الداخلية فظهر لى نحول جسم الفرجينى من خاصرته إلى كعبيه ، يقابله بطن الدكتور المستدير ورجلاه الغليظتان . .

فقال الفرجينى بصوت الآسف النادم : «إنك ستذهب بعد قليل يا سيدى ، لتناول الفطور مع رب الدار والسيدات ، أما أنا فسأقضى النهار محروماً منك ، على قدر جهدى ، فإذا جاء الليل تستطيع أن تسلط على ذئابك مرة أخرى . »

لم أستطع بعد ذلك أن أتمالك نفسى ، ومع أن وجهى كان داخل الوسادة ، فإن صوت الضحك الصادر منى كان أشبه بصوت الدجاجة التى باضت بيضة ، وقد كان وقع هذا الصوت الفجائى على الدكتور كأن بيضة تحطمت فوق رأسه .

وحاول أن يتكلم بهدوء : « هذا عار ، أى عار ، فى حياتى كلها لم . . » ثم خانته الألفاظ ، وازداد وجهه احمراراً : « كلا ، لم أصادف مثل هذا فى

حياتى . . » ثم توقف مرة أخرى ، لأننى حينما رأيته غاضباً فى سرواله الأحمر أحدثت أصواتاً تشبه صيحات اثنتى عشرة دجاجة ، ثم أصبح الأمر أكثر مما يطيق الفرجينى نفسه ، فانطلق إلى غرفته ، وهناك استلقى على الأرض ، وقد قبض على رأسه بيديه ، فأقفل الدكتور الباب بعنف وراءه ، وهذا كله جعلنى فى حال أستحق معها أن أودع مستشفى المجاذيب ، وقد بكيت فوق وسادتى لشدة الضحك ، وكنت أتوقع منه أن يهم بقتلى ، ولكنه لم يلتفت إلىّ على الإطلاق ، وكنت أسمع صوت قهقهة الفرجينى من وراء الباب ، وصوت الدكتور يغتسل بعنف على بعد ثلاث أقدام منى ، ولكنى بقيت مولياً وجهى إلى الناحية الأخرى لأنى كنت حقيقة أخشى أن أنظر إليه ، فلما سمعته يمشى إلى الباب بحذائه الثقيل تجرأت ونظرت خلسة فألفيته خارجاً وحقيبته فى يده ، فبقيت مضطجعاً فى حالة تشبه الاعياء ، وقد توقف عقلى عن التفكير ، وانفتح باب الفرجينى ودخل فرأيته نظيفاً فى أحسن هندام ، ولكن الشيطان لم يزل يلمع فى عينيه ، ولا أظن أنى رأيت مخلوقاً له هذا الجمال الأخاذ .

وعاد إلى عقلى إدراكه ، فقلت له : « ها أنت ذا قد فعلت فعلتك ، فاضطررته لأن يعد حقيبته ، ولن ينام هنا بعد هذه الليلة . » .

فنظر الفرجينى من خلال الباب وصاح : « ويحى ، إنه راحل عنا ، وقد ركب عربته الصغيرة وانطلق بها لساعته . » والتفت إلىّ فالتقت أعيننا فى تأمل هذه الحقيقة الضخمة . . وقد خيل إلىّ أنى لاحظت أثراً ضئيلاً يدل على الأسف ، فى وجه رئيس الرعاة الجديد ، الذى وثق به القاضى هنرى وحمله هذه التبعة الهائلة فكان هذا باكورة أعماله فى منصبه الجديد ، وأطل مرة أخرى على المبشر الراحل وقال بلهجة المتشفى : « إنى على كل حال لن أجرى وراءه . » ثم نظر إلىّ مرة أخرى فسألته : « أتظن القاضى يدرى ما حدث ؟ »

فهز رأسه نفياً : « إن الستائر لا تزال مسدلة على النوافذ . » وسكت لحظة

وقال : « ومع ذلك فقد كنت أبدى له منتهى الاحترام فى الليلة كلها . »

قلت : « أجل منتهى الاحترام ، خصوصاً عند ما دعوته لأن يسلط عليك ذئابه . »

فضحك الفرجينى ، وجاء فجلس على حافة سريرى وقال : « لقد كنت أخاطبه معظم الوقت بلغة إنجليزية جيدة جداً ، وأنت تعلم أنى أستطيع ذلك إذا بذلت مجهوداً شديداً ، وفى هذه الليلة تكلمت الإنجليزية الصحيحة بمقادير هائلة ، حتى إنى أنا نفسى لم أفهم بعض ما كنت أقوله . »

والآن بدا عليه أنه بلا شك مسرور بما صنع ، وقد كان نجاحه أكبر مما كان يتوقع ، ووقف مرة أخرى وأطل على عالم الضياء الشفاف ، وقال : « إن الدكتور الآن قد وصل إلى الجسر الذى يبعد ميلاً عنا ، وسيتناول فطوره فى المزرعة المجاورة فى هذا الاتجاه ، ثم عاد فجلس على حافة السرير وأخذ يفضى إلىّ بما فى نفسه : « إنى ما عددت نفسى يوماً أحسن أو أفضل من غيرى ، ولم يخطر لى يوماً مثل هذا الخاطر ، وليس من عادتى أن أقارن بينى وبين غيرى من الناس ، بل إنى لا يدهشنى أن أكون أكثر تذكراً للسيئات التى ارتكبتها منى للأمور أو الأعمال الأخرى ، ولكن يحز فى النفس أن تجلس كالحمل الأبكم ، بين يدي رجل غريب لا يعرفك ويقول لك مدة ساعة كاملة بأنك خنزير سافل وذلك بعد أن قمت بعمل يراه العارفون بالأمور من أشرف الأعمال وأنبلها . . »

فلم أتمالك أن قلت : « إنك تعنى ما عمله ترمپاس » فقد كانت لحظة إلهام كان الظن فيها بمثابة اليقين .

« هل تكلم سپيو ؟»

« كلا لم يقل كلمة ، لم يرد أن يبوح لى بشىء »

« الأمر وما فيه أننى عدت إلى المزرعة مساء اليوم تتنازعنى أفكار عديدة تسلطت على مشاعرى ، ولم يكن بين هذه الأفكار ما يستحق أن تدعوه شيئاً مسيحياً قوامه العفو والمغفرة . ولست خجلاً من هذه الأفكار فأنا إنسان من

البشر ، ولكن بعد الذى قاله القاضى ، وقد سمعته بنفسك ، انصرفت من عنده فرأيت الأمور فى ضوء جديد بعد هذا الحديث . »

وسمعنا وقع أقدام فتوقف عن الكلام ، وإذا بترمپاس نفسه ، واقفاً بالباب المفتوح .

وقال ترمپاس : « نهاركم سعيد » دون أن ينظر إلينا ، وكان فى لهجته نفس التجهم الذى لازمه أمس ، فرددنا عليه تحيته ، فقال يخاطب الفرجينى : « أظن أنى تأخرت فى تقديم تهنئتى لك على ترقيتك . »

فنظر الفرجينى إلى ساعته وقال : « إن الساعة لم تتجاوز النصف بعد السادسة » .

فازداد ترمپاس تجهماً وعبوساً وقال : « أظن أن كل إنسان يرقى درجة لا بد أن يهنأ على ذلك . » فأجابه الفرجينى هذه المرة بأسلوبه وقال : « بلا شك وإنى لم أنس إلى أى حد أنا مدين لك بترقيتى . »

قال ترمپاس ، وقد أراد أن يتمادى فى السخرية : « لم أحضر إلى هنا لكى ألتمس منك المغفرة . »

قال الفرجينى برباطة جأش : « ومتى شعرت بأنك بحاجة إلى المغفرة ؟ »

والظاهر أن ترمپاس أحس أن هذا الأسلوب لن يكسبه شيئاً ، فانتقل إلى الكلام الصريح وقال : « إنى ليس ورائى قاض يؤيدنى ، وأنا أعرف ذلك ، ولكنى سمعت أنك ستدفع أجور الفتيان اليوم فجئت أطالب بمؤخر أجرى . »

قال الرئيس الجديد : « وهل تفكر فى تركنا ؟ وما الأمر الذى أغضبك ؟ »

قال : « إنى لست بحاجة إلى أحد يشد أزرى ، وأستطيع أن أعتمد على نفسى . » . وبهذه العبارة أراد أن يقرر أنه يتوقع الفصل من عمله على يدى خصمه ، وأن يبدى عدم اكتراثه لذلك ، ومثل هذا الموقف كان خليقاً أن يمحو أى أثر للكرم أو العطف عليه من قلبى ، ولكنى أنا بخلاف الفرجينى ، فانه لم يزد على أن اعتدل فى جلسته وضحك وقال : « عد إلى عملك يا ترمپاس ، إذا

كان هذا كل ما تشكو منه ، لقد أصبت بأنى حسن الحظ ، ولكن ربما كان هناك اثنان منا حظهما حسن » .

أظن أن هذا هو المنظر الذى كان سبيو يريد منى أن أراه بعينى فإن الخصومة لم تعد بين رجل ورجل ، وبين الند والند ، وليست المسألة مسألة صفح ومغفرة ، غير أن الفرجينى لم يرد أن يستخدم وظيفته الجديدة لكى يسحق مرءوسه .

انصرف ترمباس يتمتم بعبارة لم أتبينها ، وختم الفرجينى الحديث بقوله : « إنك ستتأخر عن طعام الفطور » . ثم انصرف هو أيضاً . . .

أحست السيدات بشىء من الحرج بسبب ما حدث للقسيس ، ولكن القاضى كان يرى خلاف ذلك ، وبعد أن انتهيت من سرد القصة إلى نهايتها ضرب المائدة بقبضة يده بعنف وقال : « وددت أن أعينه فى منصب فريق ، لو أن المزرعة بها مثل هذا المنصب » .

ولم تقل مس مول وود شيئاً فى تلك اللحظة ، ولكنها رغبت أن تذهب لصيد السمك بعد الظهر ، وقد كلف الفرجينى أن يصحبها ، وقد ركبت معهما بعض الوقت لأنى لم أرد أن أكون الثالث فى مثل هــذه الرحلة . وقد كان الفرجينى فى أحسن زى وأكمله ، وكتاب « كنلورث » كان يبدو طرفه من جيبه فعزمت على أن أبتعـــد عنهما لأصطاد بنفسى فى الوقت الذى يرد فيه هذا الكتاب إلى صاحبته .

وجعلت مس وود تتكلم بطلاقة ونحن راكبون ، فقالت : « لقد سمعت كل ما دار بينك وبين الدكتور ماكبريد فكيف لك سولت نفسك أن تفعل هذا ، وأنت موضع ثقة القاضى العظيمة ؟ »

فبدا السرور على وجهه وقال : « أكبر الظن أننى لا يمكن أن أكون محسناً فى عملى إلى هذا الحد إذا لم أرتكب إساءة من آن لآن . » .

فى هذه اللحظة صحت : « ها كم سنجابا » . وقد أبصرت الحيوان الجميل

يجرى أمامنا على حافة الأدغال .

فصاحت مولى : « وأين هو ؟ لا تدعونى أره ! » وعلى إثر هذه الصيحة المفعمة بالأنوثة ، نظر إليها الفرجينى بابتسامة ، لو أنى امرأة لجعلتنى طوع بنانه فى تلك اللحظة ، ولكنها لم يكن لها فيما يبدو أى أثر فى السيدة . أو بعبارة أوضح ، أنها استطاعت أن تخفى أي إحساس فى نفسها وأمكنها أن تبدو وكأنها لم تر النظرة التى نظر ها الفرجينى ، ولا التعبير الذي ارتسم على محياه .

ولم ألبث أن انتحيت ناحية لأصيد السمك وحدى ، ولكن بلغت مسامعى بعض العبارات فقد سمعته يقول : « أليس لديك شيء جديد تقولينه لى بعد ؟ »

قالت : « نعم أريد أن أقول إنى لم أحب أحداً أكثر مما أحببتك ، ولكنى أتوقع أن أفعل يوماً ما » وكانت تتكلم بوضوح واتزان .

ولا أظن أن هذا الجواب قد أرضى الفرجينى ، ولكنى سمعته يضحك ويقول : « أنصحك ألا تراهنى على مثل هذا الأمل . » وبعد ذلك لم أتبين كلامهما ، وإن كنت أسمع حديثهما من آن لآخر وأنا أتمشى على حافة النهر .

## ٢٢

# ما الصعلوك ؟

كلنا يعرف ماذا تفعل الطيور إذا تشابهت أشكالها وألوانها . ومن السهل أن نفرض أن طائراً له شكل خاص ، مضى عليه زمن طويل لم ير فيه طيوراً من لونه وشكله ، لا يلبث إذا رأى بعضها بعد هذا العهد الطويل ، أن يزداد اندفاعاً نحوها وحرصاً على مصاحبتها .

وقد كان أجدن وزوجته طائرين من نوع مولى وشكلها ، فهم جميعاً من الشرق ، ولون ريشهم شرقى لا غربى ، وأغانيهم تختلف عن الأناشيد التى يغنيها الطير فى بير كريك ، ومع أن تغريد جورج تيلر الصغير لم يكن يخلو من الجمال ، وأن بلاد الماشية كثيراً ما ارتفعت فيها نغمات عذبة ، طربت لها أذن مولى ، ومع أن فى حديث الهنود والدببة والماوريك ، موضوعات كثيرة للغناء والترنم ، فإن فى العالم أغانى وأناشيد أخرى ، ولذلك كانت الأغانى الشرقية التى ترنم بها اجدن وزوجته لها طرب مضاعف فى أذن مولى وود ، فكانت تهتز طرباً لسماع ألفاظ مثل نيو بورت ، وبار هاربر ، وتيفانى ، وليس من المهم أنها لم تذهب إلى نيو بورت أو بار هاربر فى حياتها ، وكانت زيارتها لمخازن تفانى (١) للفرجة أكثر منها للشراء ، بل إن عدم معرفتها هذه الجهات يزيدها إعجاباً بأنغام اجدن وزوجته . وقد صمتت مولى زمناً طويلاً عن إنشاد أغنيتها الشرقية فى هذه البلاد الغربية ، فأخذت ترددها الآن أثناء زيارتها لمزرعة سنك كريك .

(١) تاجر حلى وجواهر معروف .

وهكذا لم تكن الظروف مساعدة للفرجينى فى تقدم قضية حبه ، كانت قواه موزعة ، وقوى مولى مركزة ، ولم تصل الفتاة إلى تلك المنزلة ، التى يكون فيها البعد مما يزيد الشوق ، وقد استردت كامل قوتها فى غضون الفترة التى قضاها الفرجينى فى أسفاره الطويلة ، يحمل التبعات الجسام ، وينقل الماشية إلى تشيكاجو ، وينقلب مع ترمپاس على نهر يلوستون .

لذلك أمكنها أن تقول له أثناء الساعات الأولى التى رآها فيها منفرداً بعد عودته : « إننى أتوقع أن أحب شخصاً آخر أكثر مما أحبك . »

كان الغياب بمثابة تجنيد لقواها ، واجدن وزوجته بمثابة إمداد يشد أزرها . فقد أعادا إلى خاطرها ذكرى الشرق بقوة ، فأخذ يسيطر على تفكيرها . . ولم يكن يدور بخلدهما أنهما يعاونانها على الانتصار فى معركة . بل كانا حليفين لا يشعران بما يقومان به . أما هى فكانت تستخدمهما عن علم وعن عَمْد فكانت تكثر من الاختلاف إليهما . ومن التحدث إليهما عن شئون الولايات الشرقية ، ولم تلبث أن استبانت أن لها معارف يعرفهم كل من أجدن وزوجته ، فأخذت تكثر من التحدث عنهم ، ومعنى هذا كله — فيما يبدو لى — أنها كانت تقاتل فى معركة ، بل فى ميدان حرب . ولعل هذا مما يقوى الأمل فى نفس الفرجينى ( لو أنه عرف ذلك ) لأن فتاته اضطرت لأن تلتمس المعونة والنصراء ، فأحاطت نفسها بذكريات الشرق ، وغمست إحساسها فى شئون الشرق لكى تقيم حاجزاً دون ذلك التأثير الساحر المنبعث من ذلك الفارس ذى الشعر الأسود .

أما هو فكانت قواه — كما قلت — مشتتة ، ولم تدع له ترقيته إلى منصبه الجديد فرصة للجرى وراء حبه ، لقد أصبح مقدّم الرعاة ، وقد وعد القاضى هنرى بأنه «سيجتهد أن يرضيه» ومع أنه قال هذه العبارة فى ساعة التأثر الشديد ، فإنه قد صح عزمه على أن ينجز ما وعد ، وأن يسعى لإرضاء القاضى هنرى .

ولم يكن يعرف أنه قد أرضاه فعلاً إلى درجة بعيدة ، لم يكن يعرف

أن القاضى كان فى حيرة لا يدرى أى الأمرين اللذين قام بهما الفرجينى عند تقلده منصبه الجديد أجلّ وأعظم : ما عمله مع المبشر ، أو ما أبداه نحو ترمپاس من الكرم ؟

قال القاضى : « إن الشعور الكريم شىء محمود فى كل إنسان ، ولكن سرنى أن رئيس رعاتى رجل واسع الحيلة إلى هذا الحد . »

قالت مسز هنرى : « أنا شخصياً أحس أنى مدينة له بالشىء الكثير . »

ولا شك أن هذا القول ينطبق على الجماعة كلها ، فإن احتمال الدكتور ماكبريد ليلة واحدة بدلاً من ست ليال ، يعد خلاصاً عظيما .

ولكن الفرجينى لم يقابل حبيبته على انفراد مرة أخرى ، وعلى الرغم من وجودها فى مزرعة سنك كريك ، فإن واجباته كانت تحمله إلى نواح بعيدة بحيث لم تتح له فرصة للقائها . وفوق ذلك فإن عادة الطيور أن تقع على أشكالها . . وتلازمها ، قد جرت وراءها فراقاً أطول وأكبر ، فقد رتبت مع الزوجين أن تذهب اجدن معهما إلى الشرق ، فإن السفر مع أصدقاء أمتع بكثير من قطع هذه الرحلة الطويلة وحدها .

وقد كان سرور السكان فى بير كريك بما قدمته مولى من خدمات للمدرسة ، عظيما إلى درجة أنهم رغبوا فى أن تنال حظها من الراحة والاستجمام ، حتى ولو أدى ذلك إلى تأخير فى بدء الدراسة ، لذلك قررت أن تسافر فى إجازة .

وقد أخفى الفرجينى ما امتلأ به قلبه من الألم عند ما قابلها فى لحظة ليودعها ، وقال : « لست أريد كتباً أخرى حتى تعودى » . ثم قال وهو يحاول إظهار الابتهاج : « إن الأمر هذه المرة على عكس المرة السابقة . »

قالت : « ماذا تعنى ؟»

قال : « فى المرة الأخيرة كنت أنا الذى ارتحلت ، وأنت تخلفت ، والأمر هذه المرة على العكس . »

قالت — فى شىء من الخبث : « هذا صحيح ، ولكنك ستكون أكثر عملا

وانشغالا ولن يكون لديك وقت للأسف على فراقى » .

ولعلها أرادت أن تحرجه بهذه العبارة ولكنه عرف كيف ينقذ الموقف وأجابها قائلا : « فى المرة الآتية ، لن يتخلف منا أحد ، لا أنت ولا أنا ، بل سنرحل معاً . »

لم يقل هذه الكلمات مازحاً ولا عابثاً ، بل نظر إليها ، وهو يقولها نظرة ذات معنى ، تركت فى نفسها أثراً ، بحيث كانت تعاودها — وهى فى القطار — كلماته ونظراته ، فكانت تجلس مطرقة تفكر ، والقطار يدنو بها من بننجتن فتسمع صوته يرن فى أذنيها ، وترى عينيه تنظران إليها .

فتحت بننجتن ذراعيها لاستقبال ابنتها المغامرة ، وتسابق الأهل والأصدقاء لإكرامها والترحيب بها ، فأعدت لها الولائم وقدمت لها « العجول السمينة » من مختلف الأحجام والأشكال وهذه « العجول السمينة » قد تتخذ صوراً شتى ، فقد تتألف من السمان ومعه الشمبانيا ، وقد يكون عبارة عن نبيذ الزبيب ومعه الكعك ، ولكن مظهر الكرم واحد أيا كان مظهر « العجل السمين » وأينما ذهبت الفتاة المقبلة من بير كريك ، كانت تلقى دائماً كل حفاوة وإكرام .

وقد أكرمتها أسرة بانت ، التى تنزل فى مساقط هوسى ، إكراماً خاصاً فأعدت لها عشاء ، بل مأدبة ، شهدها أربعة وعشرون شخصاً ، ولم يكن بد من أن يأخذها سام بانت فى نزهات عديدة فى مركبته .

وكانت تقول له : « أريد أن أرى جسر هوسى » حتى إذا بلغا هذا المكان المعهود قالت : « ما أجمله ! » فإذا تأملت الوادى ، أعلاه وأسفله ، أطرقت قليلاً وأخذت تفكر . . ثم لا تلبث أن تقول : « إن منظر الكنيسة متسق مع ما يحيط بها . » وبعد أن عبرت الجسور كلها ، قالت : « وهناك الباب العظيم المفضى إلى الحديقة . » وعند ما اندفعت بهما المركبة صاعدة فى وادى هوسى الصغير قالت : « لقد نسيت ما لهذا المنظر من الجمال والتفرّد . ولكن ليس للغابات روعة ما لم يكن هنالك احتمال بأنك ستلقى فيها دبًّا أو وعلا » وعند ما

صعدا إلى قمة جبل انتونى وأشرفت على المنظر الذى أمامها أخذتها الحماسة أولاً وصاحت : « هذا بديع ، بديع ، بديع ! » ولكن صوتها كان يضعف تدريجياً وحماستها تتضاءل ، ثم عاد إليها تفكيرها واهتمامها . . . وبديهى أن ذكريات الغرب كانت تعترض تأملها لهذه المناظر الشرقية ، فقالت مرة لصاحبها : « أترى تلك البقعة الواقعة هناك حيث ينمو الشجر ؟ كلا ، بل تلك البقعة العادية ، اترى تلك البقعة الواقعة هناك ؟ لو أن تلك البقعة اكتست بحشائش البرارى ، لكانت مشابهة لمكان أعرفه فى بير كريك ، لولا أنك لن تجد الهواء النقى الخالص فى هذا المكان . »

قال لها سام : « إننى لا أنساك لحظة ، فهل تذكريننى على البعد ؟ أم أن البعيد عن العين بعيد عن القلب ؟ » وبهذه العبارة عاد إلى استمالتها واستعطافها ، فقالت له إنها لا تنسى أحداً وإنها ستعود دائماً إلى بلدها حتى لا ينساها أحد .

فقال لها مندهشاً : « تذهبين وتعودين . . ؟ إنك تتكلمين كأن الاستقرار لا يخطر لك ببال . » ومهما يكن من شيء فإن جهود سام ذهبت هباء .

وعند ما زارت جدتها فى منزلها بلمبارتن ، أمسكت العجوز بيدها ونظرت إليها طويلاً ، ثم قالت : «لقد تغيرت كثيراً يا عزيزتى . »

قالت الفتاة : « إننى تقدمت فى السن عاماً كاملاً . »

قالت الجدة : «دعى العبث وقولى لى من هو ؟ »

فصاحت مولى بحدة : « لا أحد ! »

فقالت الجدة : « إذن لاداعى للإجابة بكل هذه الحدة . »

فانحنت الفتاة فجأة وأخفت وجهها فى حجر جدتها وقالت : « لا أظن أننى أستطيع أن أحب أحداً سوى نفسى . »

هنالك بادرت تلك السيدة العجوز ، التى سبق لها فى عهد الصبا أن عرفت لافاييت ، فأخذت تمسح بيدها على رأس الفتاة لأنها أدركت أو كادت

تدرك ما بها ، ولحسن إدراكها للأمر لم تحاول أن تسأل سؤالاً تستخرج به دفائن سرها ، بل أخذت تذكر أيام شبابها ، وتتحدث إلى مولى بعبارات تنم عن حبها وثقتها :

« إننى امرأة عجوز ، ولكنى لا زلت أذكر كل شيء ، لقد اعترض أهلى عليه لأنه لم يكن صاحب ثروة ، لكنه كان شجاعاً جميلاً ، وكنت أحبه أيتها العزيزة ، ولكن كان ينبغى أن أحبه حباً أكثر ، لقد وعدته أن أفكر فى الأمر . وبعد ذلك غرق وغرقت سفينته . » وهنا أصبح صوت الجدة هادئاً خافتاً وقالت بألفاظ متقطعة : « عند ذلك أدركت . . لو أنى قبلته . . فربما فقدته . . على كل حال . . ولكن بعد أن نعيش معاً ولو قليلاً . . على كل حال يا عزيزتى لا تتزوجى قط إذا استطعت إلى ذلك سبيلاً ، ولكن إذا رأيت أنك لا مفر لك منه ، فلا تنصتى لأى صوت آخر وأنا واثقة أن اختيارك سيكون جديراً بأسرة ستارك . والآن دعينى أنظر إلى صورته . . »

— « أي صورة يا جدتى ؟ ! »

قالت : « لا أريد أن أدعى علم الغيب ، ولكن خيل إلىّ أنك أخفيت عنى صورة واحدة حينما أطلعتينى على تلك الصور لمناظر الغرب . »

كان هذا القول هو الحق بعينه ! فإن مولى أحضرت معها من ويومنج عدداً من الصور الشمسية لكى تريها لأصدقائها فى وطنها ، غير أن هذه الصور كلها لم تكن صوراً لأشخاص ما عدا صورة واحدة ، بل كانت تمثل مناظر طبيعية وتجمعات البقر ، وما أشبه ذلك من مناظر الحياة فى المزرعة . أما صور الفتيان فكان لديها منها عدد كبير ، ولكنها تركتها جميعاً خلفها ، عدا صورة واحدة ، وكانت فراسة جدتها أمراً لا يمكن مقاومته ، فنهضت مطيعة وأحضرت صورة الفرجينى ، وكانت تمثل القوام كله ، وتظهر فيها بزة الرعاة كاملة . . . سراويل الجلد والحزام والمسدس ، والحبل مطوىّ فى جنبه ، ومع أن أحداً من أسرتها لم يطلع على هذه الصورة أو يتوهم وجودها ، فإنها أحضرت الصورة من

غرفتها وناولتها لجدتها .

صاحت الجدة : « رحماك ! »

فظلت مولى ساكنة ولكن فى عينها بريق الكفاح . . .

فبدأت الجدة جملة أخرى وقالت : « أهذه هى الطريقة . . رحماك ؟ ! »

فظلت مولى على صمتها .

فنظرت إليها الجدة فى تمهل وقالت : « هل تجرأ رجل بهذا الشكل . . »

قالت مولى : « إنه ليس بهذا الشكل ، بل هو بهذا الشكل تماماً . » وقد همت بأن تنتزع الصورة من يدها ، لولا أن الجدة أمسكتها بقوة .

قالت العجوز : « حسناً ، أظن أن هنالك أياماً لا يقتل فيها أحداً . »

قالت مولى وهى تضحك : « إنه لم يقتل أحداً فى حياته . »

قالت الجدة : « هل أنت جادة فى أمره ؟ »

قالت : « أوشك أن أكون كذلك أحياناً ، فإنه شخص عظيم . »

قالت : « إنك يا عزيزتى قد عشقته لملابسه . »

« كلا لا دخل للملابس فى الأمر وأنا لست عاشقة ، وكثيراً ما يرتدى ثياباً أخرى ويلبس ياقة بيضاء مثل جميع الناس . »

« إذن يكون الأنسب أن تؤخذ صورته وهو فى هذه الثياب ، ولن يستطيع أن يعيش هنا بهذه الثياب ، وأنا نفسى لن أستطيع مقابلته وهو بهذا الزى . »

« مثل هذا الأمر لن يخطر له ببال ، إنك تتكلمين عنه كأنه أحد المتوحشين . » فأخذت العجوز تتأمل الصورة فاحصة ولمدة دقيقة ، ثم قالت : « إن وجهه طيب ومليح ، ولكن هل هو حقيقة كما يبدو فى الصورة ؟ »

قالت مولى : « بل أجمل من ذلك . » وسألتها بعد ذلك من هو ؟ وما مستقبله فى الحياة ؟ فلما سمعت الإجابة على هذا هزت رأسها فى شك ، وكذلك هزت رأسها عند ما قالت لها مولى مؤكدة إن هذا الإنسان لم يستول على قلبها . . . ولكن عند ما حان وقت الفراق قالت العجوز : « الله يرعاك يا حبيبتى ويحفظك

إنى لن أحاول أن أتسلط عليك ، لقد تسلطوا علىَّ من قبل . . » وأتمت جملتها بتنفس الصعداء : « ولكنى على كل حال لست خائفة عليك . . ولن أزعج كثيرا من أجلك ، فإنك لم تعملى يوماً عملاً غير جدير بأسرة ستارك ، فإذا بدا لك أن تأخذيه ، فافعلى ذلك قبل وفاتى حتى أستطيع إكرامه من أجلك ، والله يرعاك يا عزيزتى . »

وبعد أن عادت الفتاة إلى بننجتن ، كان الخاطر المتردد فى ذهن الجدة هو هذا « إنها مثلنا كلنا ، إنها تنشد رجلاً لا شك فى رجولته ، ولم تتحدث الجدة بشىء مما عرفته لأحد من أفراد الأسرة لأن الإخلاص شعارها وسر الفتاة عندها مقدس . وقالت لنفسها : « لئن كنت أنا عاجزة عن التأثير فيها فإن الآخرين سيفسدون الأمر بسوء تصرفهم . . وسوف نسمع قريباً بهربها مع عشيقها . . »

وهكذا لم يطلع أهل مولى الأقربون على الصورة ولم يسمعوا كلمة واحدة فى الموضوع ، ولكن فى مساء اليوم الذى سافرت فيه عائدة إلى بير كريك ، جلست أمها وأختها مسز بل وزوجها اندرو يتحدثون عن زيارتها فقالت مسز بل : « يا ماما ، ما رأيك فى حالتها بوجه عام ؟ » فأجابت الأم : « لم أرها فى حالة أحسن مما هى اليوم ، ويبدو لى أن ذلك المكان الفظيع يناسب صحتها . » قالت سارة : « نعم يناسبها ، ولكن لقد خيلَ إلىَّ ... » ماذا ؟ « خيل إلىَّ أنها تفكر . . . » « . . تفكر ؟ » — « نعم أظن أن هناك شيئاً يشغل بالها . » قال زوجها اندرو : « إنك تعنين أن هناك رجلاً . » قالت الأم : « رجلاً ؟ » — قال : « نعم هذا ما تعنيه سارة دائماً يا مسز وود » .

ولا بد لنا أن نقرر أن تخمينات سارة لم تزد كثيراً فى سعادة أمها ، وللشائعات قوة عجيبة ، فلم يلبث أن تولدت من الهواء المشبع بالحقد كلمة غامضة مخيفة . . كلمة من ذلك النوع الذى لا يمكن أن تتبعه إلى منابعه ، فإن شخصاً من الأشخاص قال لأندرو بل إنه سمع أن مس مولى وود قد عقدت خطبتها على

صعلوك ، قالت زوجته : « ويحك يا أندرو ، وما الصعلوك ؟ »

إنها كلمة لا وجود لها فى المعاجم ، وقد ترجمت بعبارات مختلفة متباينة ، فزعم رجل يسكن فى مساقط هوزى أنه كان يمر ببلدة شيين مرة ، فسمع هذه الكلمة تقال على سبيل المدح بمعنى الرجل الجرىء الناجح فى الحياة ، وقال آخر إنه كان موقناً دائماً أنها تشير إلى نوع من الخيل ، ولكن أسوأ التأويلات ما زعمه أحدهم من أن معناها سارق الماشية .

والحقيقة العجيبة أن جميع هذه المعانى صحيحة ، فإن الكلمة أخذت ، تنتقل فى بلاد الماشية وتلتقط معانى متعددة أثناء انتقالها ولكنها فى بننجتن التقطت معانى أكثر ، فنى بضعة أيام أخذ الناس يتهامسون بأن مولى قد خطبها مقامر ، ثم صاحب منجم ذهب ، ولص جرىء يسطو على القوافل ، وقاطع طريق مكسيكى ، أما مسز فلنت ، فقد حسبت أنها قد تزوجت رجلاً من المرمون .

غير أن مولى لم تكد تصل إلى بير كريك ، حتى خرجت راكبة مع « صعلوكها » — لم يكن هناك لا خطبة ولا زواج ، بل كانت تحدثه عن ولاية فرمنت .

قال : « إنى لم أذهب هناك يوماً ، ولم يحدث أن ساقنى الترحال فى ذلك الاتجاه . »

— « ما الذى يوجه رحلاتك ؟ »

— « البحث عن فرص جديدة ، ويخيل إلىّ أنى كنت أكثر طموحاً من إخوتى أو أكثر قلقاً ، فأقاموا بالقرية ، واغتربت ، وبعد أن طوفت ستة أعوام عدت إليهم وقد بلغت العشرين ، فكانوا يتحدثون فى نفس الموضوعات . — رجال فى الخامسة والعشرين ، والثلاثين ، ولا حديث لهم إلا الكلام فى الموضوعات القديمة . . . فحدثت أمى عما شاهدته فى مختلف الجهات ، فأعجبها ذلك ، حتى وقت وفاتها ، أما الآخرون فإنى لما رأيت أنه لا يعنيهم فى هذا العالم كله سوى

رعى الخنازير وتربية الدجاج الرومى ، يتخلل ذلك قليل من الصيد للحيوانات الضئيلة ، لبست قبعتى صباح يوم وقلت لهم ، ربما عدت لزيارتهم بعد أن أبلغ الخمسين لأرى هل لديهم موضوعات جديدة ، وهيهات أن يجدوا جديداً ، فإن إخوتى لا يهمهم أن يلتمسوا فرصاً جديدة .

قالت مولى : « إنك أنت نفسك قد ضيعت غير قليل منها » .

— « هذا صحيح » .

— قالت : « ومع ذلك يخيل إلىّ أحياناً أنك تعرف أكثر مما يمكن أن يتاح لى أن أعرف يوماً من الأيام » .

قال : « هذا طبيعى ، فلقد بدأت أكتسب رزقى وأنا ابن أربعة عشر عاماً وسعيت وراء الرزق من بلاد المكسيك إلى كولومبيا البريطانية ، ومع ذلك فإنى لم أسرق فى حياتى ولم أشحذ شيئاً ، ولا أريد لك أن تعرفى كل ما أعرف » .

كانت تنظر إليه ، وعقلها موزع بين الإصغاء لكلامه وبين التفكير فى جدتها .

قال : « إننى لن أضيع الفرص بعد اليوم ،وأنت أعظم فرصة أتيحت لى » .

ولم تأسف مولى على أن قد جرى نحوها فى هذه اللحظة جورج تيلر تلميذها الصغير ، وانضم إليهما ، ولكن الفرجينى تمتم بألفاظ مبهمة ، ولم يصب فى هذه النزهة تقدماً .

## ٢٣

# نقط كثيرة

ظل الغرام محبوساً بسبب سقوط الثلج ، وقبل احتباسه على هذه الصورة ، لم يكن طريقه معبداً ولا وعراً ، وكان مجراه إما ساكناً لا يتحرك ، أو كان يجرى فى الأعماق فلا تراه عين .

كان الحب صامتاً أثناء نزهاتهما وحديثهما ، أو على الأقل لم يكن يبدو فى الكلمات التى تبودلت . لأن الفرجينى قد وطد العزم على خطة شاقة قوامها الصمت والصبر ، فلما حال الشتاء دون زيارته لبير كريك ، ولم يكن بالمزرعة فى هذه الفترة من التبعات ما يشغل عقله وجسده ، اتجه إلى عمل أسهل وأيسر ، فبدلاً من مطالعة شكسبير والقصص الأدبية ، كانت ترى على المكتب فى غرفته ، كتب المدارس ، وكان يتسلى بإتقان الخط والتهجى ، وكثيراً ما قضى الساعات يملأ عدداً عظيما من الصحائف بالتمرينات ، وكثيراً ما ساعدته مسز هنرى فأرشدته وصححت أخطاءه .

وقالت لزوجها : « سأقع فى حبه أنا نفسى بعد قليل ، وقد آن الأوان لأن تهتم بالأمر . »

فأجابها : « لاخوف علىّ من هذا ، فإن لم يعد له فى الحياة إلا امرأة واحدة »

قالت مسز هنرى : « إنها ليست جديرة به ولكنه لا يرى ذلك ».

وهكذا تساقط الثلج ، وانتشر الجليد ، ونشطت كراسات الهجاء والتمرينات ، غير أن هذا لم يكن الدرس الوحيد الذى كان يلقى فى سنك كريك ، عند ما حبس الثلج الغرام .

فى صباح يوم من الأيام دخل سبيو لموين غرفة جلوس الفرجينى وهى نفس الغرفة التى كان الدكتور ماكبريد يصارع فيها المعصية بتلك الشجاعة النادرة طوال الليل .

كان الفرجينى جالساً لدى مكتبه ، ومن حوله كتب مفتوحة ، وتحت يده صحيفة أتم كتابة نصفها ، وقد غطى المداد أنامله ، وبعبارة أخرى كان التعليم يحيط به من كل ناحية ، ولكن عينه لم تكن منشغلة بالدرس ، بل كانت مثبتة على النافذة تنظر بعيداً إلى ما وراء السهل المكسو بالجليد .

لم يتحرك رئيس الرعاة عند ما دخل سبيو ، فابتسم هذا بروحه المرحة ، وهو يظن أن صاحبه ينظر من وراء الغيب إلى بير كريك ، غير أنه لم يلبث أن أدرك أنه مخطىء ، فإن الفرجينى كان ينظر إلى شىء حقيقى ، فاقترب سبيو من النافذة لكى يرى بنفسه ، وقال — بعد أن رأى بعينى رأسه : « متى تظن أن سيرحل عنا ؟ »

وظل مقدم الرعاة ينظر إلى فارسين يسيران جنباً إلى جنب ، ولبعد المسافة كان شبح كل منهما يبدو أسود اللون ، وسط بياض من الثلج المنتشر فى جميع الأنحاء .

فكرر سبيو سؤاله : « متى تظن أنه سيرحل عنا ؟ »

لم يجب الفرجينى على السؤال بأكثر من أن تمتم بلفظ « هو » وهو يراقب الفارسين ، ثم أعاد اللفظ مرة أخرى « هو »

فاستلقى سبيو على أحد الكراسى فى غير كلفة ، فقد أصبح هو والفرجينى يعرف كل منهما الآخر معرفة تامة منذ لقائهما الأول فى ميدورا وهما طائران لهما ريش كثير متشابه ، وكثيراً ما تحدث الفرجينى إلى سپيو من غير تحفظ . . من أجل ذلك فهم سبيو معنى اللفظين الذين نطق بهما الفرجينى كأن الجملة التى بينهما قد ذكرت بأكملها .

قال سپيو مشيراً إلى الفارسين الراحلين : « إن ارتحال أحدهما كسب

محقق ورحيل الآخر ليس بالخسارة . »

قال الفرجيني : « مسكين قصير ، يا له من أبله ! »

كان سبيو أقل شفقة عليه فقال : « كلا ، لست آسفاً عليه ، إن أى فتى كبرت سنه حتى نبت الشعر فى وجهه خليق أن يكشف عن خبيئة ترمپاس . »

نظر الفرجيني من النافذة مرة أخرى ليرقب كلا من قصير وترمپاس . وهما راكبان فى الفضاء البعيد ، وقال : « إن قصيراً شديد الرأفة بالحيوان ، لذلك استطاع أن يروض المهر بدرو الذى اشتراه بأول دراهم اكتسبها ، فأصبح المهر طيعاً ذلولاً إلى درجة مدهشة ، وإنى زعيم أن كل رجل شديد الرأفة بالحيوان الأعجم لا بد أن يكون طيب القلب . »

قال سبيو متردداً : « هذا صحيح ، ولكنى أكره الرجل الأبله » .

قال الفرجيني : « إن هذه بلاد شديدة القسوة ، وبالأخص على الحيوان ، تأمل ما نصنعه بمئات الآلاف من العجول الصغيرة — نطرحها أرضاً ، نسمها [١] بالنار ونقطع جزءاً منها ، وننقص طرف أذنها ، ثم نتركها ، وننكل بغيرها بالطريقة نفسها ، هذا كله أمر لا مفر منه بالطبع ، ولكنى أزعم أنه إذا كان هناك رجل دأبه أن يكوى العجول الرضّع بالحديد الملتهب ، ويقتطع أجزاء من جسدها بسكينة ، ثم يظل رغم هذا ممتلىء القلب رأفة بالحيوان ، فإن مثل هذا الرجل فيه خير غير قليل ؛ وقصير من هذا الطراز ، ولكنه سمح لترمپاس أن يغرر به ، وكلاهما سيتركنا . » ونظر الفرجيني مرة أخرى إلى الفضاء الواسع الناصع البياض ولكن الفارسين اختفيا وراء بعض الكثبان .

جلس سبيو صامتاً ؛ لم يسبق له أن خطرت بباله هذه الأفكار عن الناس والحيوان فلما ذكرت له أدرك أنها حقيقة لا شك فيها .

ثم قال : « أمر عجيب . . »

« أى أمر ؟ »

---

(١) وسم الماشية بحديدة ملتهبة بعلامة صاحبها عادة معروفة فى كل البلاد .

« كل شيء » .

قال الفرجيني : «ليس هنالك عجيب سوى أمرين : الزواج ، والبرق . هذان الأمران لا يفتآن يبعثان الدهشة فى نفسى » .

قال سبيو : « ومع ذلك فإن الأمر من أعجب العجب ، فإن ترمپاس قد أساء إليك أبلغ الإساءات ، فصرفت النظر عن ذلك ، وكان بوسعك أن تفصله فآثرت أن يحتفظ بوظيفته ، هذا عمل الخير ، وقد نتج منه الشر ، تولد الشر مباشرة من الخير . » .

قال الفرجيني : « إنك خرجت عن الطريق كثيراً . »

قال سبيو : « عن أى جانبى الطريق خرجت ؟ »

قال : « ابتعدت عنه من كل الجهات ، الشرق والغرب والشمال والجنوب ... النقطة الأولى — أننى لم أرد أن أسدى جميلاً إلى ترمپاس بامتناعى عن قتله مع أنى كدت أورده حتفه ثلاث مرات . كذلك لم أقصد أن أسدى إليه جميلاً حين جعلته يحتفظ بوظيفته ، ولكنى وأنا مقدم الرعاة فى هذه المزرعة أستطيع أن أجلس وأخاطب جميع الرجال وأقول لهم : إننى سموت بنفسى عن مثل هذه النذالة . . النقطة الثانية — أننى لم أفعل الخير ، لكن ترمپاس هو الذى ارتكب الشر ، لأن معدنه الشر ، ضعه فى أى مكان ، النتيجة واحدة ، لكن إذا جعلته تحت عينى ، أمكننى أن أتتبع حركاته قليلاً ، ولعلك لاحظت من قبل ، بعد أن رأينا أنا وأنت تلك البقرة الميتة وجثتها ما زالت دافئة ، أننا لم نعثر بعد ذلك على بقر يموت فجأة ! وأيا كان المجرم الأثيم فإننا كدنا أن نقبض عليه بعد أن قتل البقرة وضم عجلها إلى قطيعه ، إنه لم يسبقنا بأكثر من عشر دقائق ولكننا لن نستطيع أن نثبت عليه شيئاً ، وهو يعرف هذا كما نعرفه تماماً ، ولكن بقرنا لم يعد يلقى حتفه فجأة . والآن يستعد ترمپاس للرحيل إلى بلد آخر. وعند ما تشرع المزارع والضياع فى استئجار أيد جديدة فى الربيع ، سيتركنا ترمپاس لكى يشتغل فى واحدة منها ، وربما بدأت أبقارنا بعد ذلك تقتل فجأة

فنضطر لأن نتخذ خطوات أشد تأكيداً على الأرجح . »

قال سپيو وهو يمعن فى التفكير : « عجباً كيف يحس المرء حين يقتل أحداً من الناس ؟ . » قال الفرجينى : « لن تحس بشيء يحرج صدرك إذا كان شخصاً يستحق القتل .. .». النقطة الأخرى — أن ترمپاس سيأخذ قصيرا معه ، وهذا شر يصيب قصيرا ، لقد أمكننى أن أحمى قصيرا من الشر كل هذا الوقت ، ولو أنى طردت ترمپاس من هنا لأمكنه أن يفسد أمر قصير قبل اليوم .»

فعاد سبيو إلى تفكيره ثم قال : « لقد كنت أعرف أن ترمپاس يزمع الرحيل، ولكن لم يخطر ببالى أن يرحل قصير أيضاً، فكيف عرفت أن هذه نيته؟»

— « لقد طلب منى زيادة الأجر » .

— « إنه لا يستحق الأجر الذى يستولى عليه الآن » .

— « إن ترمپاس أفهمه خلاف ذلك . »

قال سبيو : « يجدر بالرجل الذى لا يستطيع التفكير بنفسه أن يكون شديد الحرص على اختيار المصادر التى يستعير أفكاره منها . »

قال الفرجينى : « هذا صحيح ، مسكين قصير ، لقد أخبرنى بقصته ، وكلها مآس ، ومع ذلك فإنه لن يتعظ ، فإن الحمق كان حليفه منذ ولدته أمه ، أتعرف السر فى مطالبته بزيادة الأجر ؟ إنه يرسل جل ما يكتسبه إلى الشرق . »

قال سبيو : « ولكنى لا أدرى كيف يستطيع ترمپاس أن ينتفع به . »

— « آلة طيعة فى يده يستخدمها يوماً ما . »

— « ليست بالآلة الكثيرة النفع . »

— « إن ترمپاس يزمع تدريبه ، لنفرض أنك تستعد لتحترف اللصوصية فلا شك أنك ستبحث عن رفيق مطيع لطيف لكى يكون عليه الغرم ، ولك أنت الغنم . »

فصاح سبيو غاضباً: «ليس هذا من خلقى ، فأنا لا ألقى التبعة على غيرى» . ولم يدرك أن الفرجينى كان يضرب مثلاً ، فلما رأي ملامح الفرجينى انفجر

ضاحكاً وقال : « لا شك أنك استطعت أن تستدرجني هذه المرة . » .

– « هذا صحيح ، ولكني عنيت ترمپاس بكلامى . »

– بعد ذلك نهض سبيو واقفاً ، ورأى التمرين الذى لم يتم الفرجينى أكثر من نصفه . فقال : « إن ترمپاس كالحجر المتدحرج لا يحصد زرعاً [١] ».

قال الفرجينى مصححاً : « إنه كالطين المتدحرج » .

« صدقت ، إنه قطعة من الطين ، أنا الذى أشبه الحجر المتدحرج ، ولقد تمر بى أوقات أود أن أغبّر من طبعى . »

قال الفرجينى : « أمر سهل ميسور . »

قال سبيو : « أجل متى رأيت الزرع الذى تريد أن تحصده ، ثم نظر إلى الكراسات مرة أخرى ، ولمعت عينه بزرقتها الشاحبة ، وقال : « إننى أقرأ قليلاً ولكن لى طريقتى الخاصة فى التهجى . »

فقال الفرجينى بحسن نية : « وأنا أيضاً لى آرائى الخاصة فى التهجى » . فلمعت عينا سبيو بخبث وقال : « أما جغرافيتى فإنها شريدة تائهة فى الغابات ، قل لى ، هل بننجتن هى عاصمة ولاية فرمنت ، وكيف تتهجى كلمة عروس ؟ »

فتناول الفرجينى أحد الكتب ورماه به ، وهو يصيح : « النقطة الأخيرة لا تشغل عقلك بالتميز بين الخير والشر ، فإنك لن تستطيع التفريق بينهما . »

غير أن سبيو استطاع بمهارة أن يفلت من ضربة الكتاب ، وأن يلوذ بالهرب ، وجعل يقول لنفسه بعد أن ابتعد : « مهما يكن من الأمر ، لا بد أن يكون الحب الصحيح غنما عظيما . » ولم يفت أقرانه فى بيت الرعاة أن يلاحظوا أنه بعد ظهر هذا اليوم كان صامتاً على غير عادته . .

عند ما خرج سبيو من غرفة رئيسه دخل إليها تيار شديد البرودة ، فنهض الفرجينى من مكانه لكى يقرأ مقياس الحرارة وقد أهدته إياه مسز هنرى فى عيد الميلاد – فإذا درجة الحرارة عشرون تحت الصفر . فجعل يزيد النار

(١) مثل إنجليزى يضرب لمن يكثر التنقل من عمل إلى عمل من غير جدوى .

إشعالاً ، طلباً لزيادة الدفء ، ثم جلس يفكر فى قصة قصير ، تارة يتناول ماضيها التافة العقيم ، وتارة مستقبلها التافه العقيم ، وعند ما خطر له أن يسائل عما إذا كان هناك وسيلة للخلاص أمام قصير ، لم يستطع أن يجيب عن هذا السؤال بأكثر من هزة رأسه ، وقال وهو يحدث نفسه : « من الجائز أن الذين سرهم أن يأتوا بك إلى هذا العالم ، من واجبهم أن يعولوك ، ولكن العالم ليس مسئولاً عنك ، لأن العالم لم يلدك ، إن الناس يساعدون الإنسان إذا ساعد نفسه أولاً ، أما الكون فإن نظامه الهائل الشامل لا محل فيه للتفاصيل والحالات الخاصة ، وهذا مما يؤسف له ، لأن قصيرا شديد العطف على الخيل . »

وفى المساء استدعى الفرجينى قصيراً إلى غرفته ، وهو فى العادة يعرف ما ينبغى أن يقوله فى كل مناسبة ، ويجد من السهولة فى العادة أن يرتب أفكاره ، وبعد أن يرتبها تواتيه العبارات الملائمة من تلقاء نفسها ، ولكن هذه لم تكن حاله حينما نظر إلى قصير ، لم يكن فى وجهه أثر للشر ، ولكن لم يكن فيه أثر للقوة . لاتنم عينه أو أنفه أو ذقنه عن خلق قوى ، وملامحه كلها لا أثر فيها لإرادة أو عزيمة ، وجه لا يختلف عن آلاف الوجوه ولا يميزه شيء . . . وقد امتلأ الفرجينى قنوطاً عندما نظر إلى هذا الكلب الضال وإلى نظراته الحائرة .

ولم يكن بد من أن يفتتح الكلام قال له : « إلى أى درجة هبط مقياس الحرارة يا ترى ؟ إنك تستطيع أن ترى ذلك إذا حركت المصباح إلى الناحية اليمنى للنافذة . »

فأمسك قصير المصباح ، وقال : « لم يسبق لى استخدامه من قبل .» ومع ذلك فإنه جعل ينظر إلى المقياس .

وقد نسى الفرجينى أن قصيراً أمىٌّ ، لا يقرأ ، فنظر هوبنفسه إلى جانب النافذة ورأى أن درجة الحرارة اثنتان وعشرون تحت الصفر ، وقال : « دونك هذا فإنه من نوع جيد . » فجعل قصير يملأ غليونه منه وقال : « لقد اضطررت أن أعرك أذنى بالثلج اليوم ، فأنقذتها فى الوقت المناسب . »

قال رئيسه : « لقد خيل إلىّ أن الصقيع شديد حيث ركبتم اليوم .»

فظهرت الدهشة فى عينى الكلب الضال وقال : « ولكنا لم نشاهدك هناك . »

قال الفرجينى : « وعلى كل حال فعما قريب لن يكون هناك صقيع وعند ذلك ستزداد دفئاً بالعمل والكد ، حين يأخذ كل منا فى القيام بوظيفته فى المزرعة ، وإنى أود أن أجد وظيفة فى أحد الاصطبلات وذلك من أجلك أنت . »

قال قصير : « لماذا ؟ »

ــ « لأن هذا هو العمل الذى تحسنه . »

قال قصير : « إنى أستطيع أن أكتسب أكثر . . » ثم سكت ولم يتم جملته .

قال الفرجينى : « لن يمضى وقت طويل ، حتى أكون فى حاجة إلى شخص يعرف كيف يستميل إليه الخيل وسأريد منه أن يعنى بجياد أمرها يهم القاضى ،وسيدفع القاضى هنرى نظير ذلك خمسين دولاراً فى الشهر . ! »

قال قصير : « أستطيع أن أكتسب أكثر . » وفى صوته عناد واضح .

قال الفرجينى : « أجل هذا صحيح ، من الجائز أن يكتسب الإنسان أكثر مما يستحق ، ولكن مثل هذا الأمر قلما يدوم . »

فسكت قصير .

وقال الفرجينى : « وأنا نفسى قد كنت أكتسب أكثر . »

قال قصير : « إنك الآن تكتسب أكثر من ذلك المبلغ بكثير . »

ــ « هذا صحيح ، ولكنى كنت أشير إلى الوقت الذى كنت أطوف فيه بالعالم ، أتنقل من عمل إلى عمل ، وفيما بين ذلك كنت أقضى الوقت فى المدن فى ارتكاب الموبقات ، لم أكن أكتسب خمسين دولاراً ، بل ولا خمسة وعشرين . ذلك وقد تمر بى ليال ، أكتسب فى القمار أضعاف أضعاف ذلك . . ثم تتبخر هذه الأموال فى لحظات ما بين رفاق الكأس وبنات الهوى . »

قال قصير : « لست دائماً . . » ثم سكت فأدرك الفرجينى أنه يفكر فى

النقود التى يرسلها إلى الشرق . وقال متمماً حديثه : « وبعد قليل لاحظت أمراً غريباً ، أن المال الذى اكتسبته بسهولة وبغير جدارة سرعان ما ذهب من حيث أتى ، لم أجهد نفسى فى كسبه أو إنفاقه ، أما المال الذى اكتسبته بمشقة وعن جدارة فإنى أخذت أحس بالحرص عليه ، وقد أصبح لدى مدخر منه ، ولو أتيح لك أن تعرف ما فى هذا من لذة . . »

قال قصير : « سأعرف ذلك ، إذا كان حظى مثل حظك . »

قال الفرجينى بلهجة الجد : « ما حظى هذا ؟ »

— « لو أنى استوليت على أرض على شواطىء جدول لا يجف ماؤه واستصلحتها كما فعلت ، ثم رأيت ثمن الأرض يزداد ويرتفع دون أن أحرك إصبعى » قال الفرجينى مقاطعاً : « ولماذا لم تحرك إصبعك ؟ من الذى منعك من أن تستولى على الأرض ، وقد كانت تمتد أمامك ووراءك ومن حولك أعظم وأسهل الفرص المؤاتية ؟ كان ذلك هو الوقت الذى حركت فيه إصبعى ، أما أنت فلم تفعل . » فأصر قصير على عناده .

فقال الفرجينى : « وبقطع النظر عن هذا كله ، فإنك إذا أخذت منى أرضى غداً فسيبقى لى مالى المدخر فى البنك ، لأنى قد اشتغلت بجد لكى أكتسبه وقد أمكننى أن أتبين العمل الذى أحسنه ، فانصرفت إليه ، وفى وسعك أنت أيضاً أن تفعل ذلك . والصعوبة الوحيدة هى أن تتبين ما استعدادك ، وما العمل الذى تحسنه ، وهذا واضح فى حالتك ، فإذا أردت أن تؤدى العمل الذى تصلح له فتروض تلك الحيل للقاضى فلن تلبث أن يكون لديك أنت أيضاً مال مدخر فى البنك . »

قال قصير مصراً على ضلاله : « أستطيع أن أكتسب أكثر . »

وهم الفرجينى أن يقول له : « إذن انصرف » ولكنه لم يفعل بل اصطنع الشفقة إلى النهاية وقال : « إن الهواء لا يزال عرضة للصقيع ، وسيظل كذلك وقتاً طويلا فتدبر الأمر على مهل ، فإن غيرت رأيك فأخبرنى . »

بعد ذلك انطلق قصير إلى منامة الرعاة ، وأدرك الفرجينى أنه قد تعلم درس السخط من ترمپا س بقوة لا يمكن معها رده إلى جادة الصواب ، وإذا كان فى هذا فوز ضيئل للشر ، فإنه أتفه من أن يعد انتصاراً على الفرجينى ، غير أن الغريق يستند إلى أتفه الأشياء ، فإن ترمپاس ظل يحاول بكل جهده — دون التعرض للخطر — أن يثأر من الفرجينى الذى أمكنه أن يخرسه بكلمة واحدة فى الحانة بمدسن بو ، عندما التقيا للمرة الأولى ، وفى كل مرة اصطدم فيها بالفرجينى بعد ذلك كان يؤوب بهزيمة أخرى يشهدها الجميع . من أجل هذا ، أخذ يبدو عليه ، فى سنك كريك ، فى هذا الشتاء القارس نوع من القحة فى مشيته ومظهره ، يدل بجلاء على أنه يرى أنه بإغوائه قصيراً قد استطاع أن يثأر لنفسه نوعاً ما .

ولاشك أنه قد سمم عقل هذا الكلب الضال ؛ فلما أقبل الربيع وافتقرت المزارع المجاورة إلى مزيد من الأيدى العاملة ، حدث ما توقعه الفرجينى ، فارتحل ترمپاس إلى ما زعم أنه وظيفة أحسن ، وقد أصر على أن يذكر هذا للجميع ، وسار معه الفتى المطيع قصير ، ممتطياً جواده بدرو .

ولم يعد الثلج عائقاً يحبس الغرام ، وأصبحت مسالك الجبال مفتوحة إلى درجة تسمح بأن يسير فيها بأقدامه الثابتة جواد الغرام المسمى مونتى ، ولكن الواجبات ظلت تسد طريق الغرام . وكان العمل كثيراً ، وعليه أن يحكم المراقبة وأن يتداول طويلا مع القاضى ؛ فقد زادت جرأة لصوص الماشية ، وقد كان الشتاء سبباً فى توزيع الماشية فى مختلف أنحاء المزرعة ، لهذا لم يذهب الفرجينى ليرى حبيبته ، بل أرسل إليها كتاباً ، وكان أول كتبه إليها .

## ٢٤

# كتاب ذو مغزى

كان الكتاب الذى كتبه الفرجينى إلى مولى وود ، كما ذكرنا ، أول كتاب أرسله إليها . وأكبر ظنى أنه كان يستحى من قصوره فى فن تحرير الرسائل ، وكان يخشى أن أى رسالة مطولة يخطها قلمه قد تشتمل على غلطات تكشف بجلاء عن نقص تعليمه ، كان من السهل عليه أن يحرر وثيقة عن الفحول وعن العربات التى تشحن فيها ، أو أى موضوع آخر يتصل بحرفته . وذلك فى دقة وإيجاز ووضوح ، بحيث كان القاضى يكل إليه ثلاثة أرباع هذه المراسلات . وكان يقول له مثلا : « اكتب إلى أصحاب الضيعة رقم ٧٦ ، وقل لهم إن مركبتى لن تستطيع السفر إلى الاجتماع الدورى إلا فى تاريخ . . . » إلخ . . أو أكتب إلى شيين ، وقل لهم إنى سألحق بهم إذا عقدوا اجتماعاً يوم الاثنين . . إلخ » ، فيذهب الفرجينى ويكتب هذه الرسائل بمنتهى السهولة .

أما رسالته إلى حبيبته ، فلم تكن كتابتها أمراً سهلا ، وهى فيما يخيل إلى من نوع الإنتاج الذى يطلق عليه اسم « المجهود الأدبى » كتبها أولا بالقلم الرصاص ثم نقلها بعد ذلك بالحبر ، وكانت مسودته بالرصاص لا تكاد تقرأ لكثرة ما بها من الكشط والتصحيح والتصويب ، أما حالته العصبية أثناء تأليفها فلا أجد فى وصفها أبلغ من ذكر حادثة قطعت عليه الكتابة لحظة :

فقد فتح الباب ، وأدخل سبيو رأسه منه وقال : « هل آت أنت إلى العشاء ؟ » فصاح فيه الفرجينى : « اذهب إلى جهنم » .

قال سبيو بهدوء : « أعوذ بالله » ثم أقفل الباب وانصرف دون أن يضيف

كلمة أخرى .

وأكبر ظنى أن هذا الكتاب ما كان ليكتب ويرسل لولا أن قلب العاشق كان يعانى ألم الخيبة ، فلقد قضى الشتاء كله وهو يتطلع إلى اليوم الذى يطرق فيه باب فتاته فيسمع صوتها تدعوه أن يدخل . . قضى الشتاء كله يختار الطريق الذى يركبان فيه وقد صور له أخياله عصراً مُشمساً وخميلة مستترة وصخرة مشرفة وينبوعاً جارياً ، وعبارات يلهمه الله أن ينطق بها تضمن له الفوز فينعم بأول قبلة من شفتيها .

وبهذه النار المكبوتة فى صدره أخذ يعد الأيام ويكشطها كل ليلة من صفحة التقويم بعنف حتى تحطم منه القلم مرة أو مرتين ، فلما انحسر الثلج عن الطرقات أخذ هذا الاجتماع المنشود يتباعد ويؤجل أياماً لا يعرف مداها ثم أسابيع بحيث أصبح لا يدرى متى يتاح له؛ فلم يجد بداً من أن يمسك قلمه الرصاص وأخذ يخط كلمات ثقيلة لعله بهذه الوسيلة أن يجد بعض التعزى عن فراقها .

وبعد أن وُضع الخاتم على الكتاب وكُتب عليه العنوان: « إلى بير كريك » بدأ يتخذ سبيله إلى غايته . فكانت رحلاته طويلة معقدة ، ولم يصل إلى نهاية المطاف إلا بعد أن قطع عشرين يوماً ! فقد حمل باليد أولا إلى نقطة حملته منها مركبة السفر ، وقد تخلف فى هذه المركبة فترة من الزمن ، ثم وصل إلى نقطة تقاطع الطرق ، وهناك بقى الكتاب منتظراً عامل البريد حتى يبدأ لعبة بوكر ، ثم يستمر فيها ثم ينتهى منها ، ثم يفيق من عواقبها ، مع ما يتخلل ذلك كله من الوسكى ، بعد ذلك بدأ الكتاب رحلة أخرى أوصلته إلى أقرب محطة من بير كريك ، ثم حمل باليد إلى غايته ، غير أن التجربة التى مر بها هذا الكتاب لا تختلف كثيراً عما كان يجرى لمعظم الرسائل فى ذلك الوقت فى ولاية ويومنج .

نظرت مولى وود إلى الظرف ، ومع أنها لم تر خط الفرجينى من قبل فإنها عرفته فوراً ، فأحكمت إغلاق الباب ، وجلست تقرأ الكتاب بقلب خافق :

مزرعة سنك كريك

٥ مايو سنة ١٨٨٠

عزيزتى مس وود . إنى آسف لهذا ، وكانت خطتى خلاف ذلك ، كنت أود أن أحضر لنركب معاً فى مثل هذا الوقت أو قبل ذلك، فقد جاء الربيع مبكراً هذا العام وانجلى الثلج عن المروج فى هذه الناحية من الجبال، واخضر العشب والشجر ، وزها وازدهر فى الجهات التى تتعرض كثيراً لأشعة الشمس . وأخذ الزهر يتموج ويختلط بعضه ببعض حين تهب عليه الريح ، والأغصان التى تواجه الجنوب اكتست ورقاً صغيراً ناضراً ، ولن تلبث أن تبرق كما أبرق الزهر . وكان عزمى قد صح على أن أرى هذا كله معك ، ولاشك أن هذا كان أفضل كثيراً مما أنا فيه الآن . إن الماء لا يزال عالياً ولكنى أستطيع عبوره ، أما الثلج الذى يتوج الجبل فقد أخبرنى رجل أنه لابد من مضى أسبوع قبل أن يستطيع الناس اجتيازه لأنه هو نفسه قد اجتازه منذ قليل ، أليس هذا رجلا فكهاً ؟ ما أبدع منظر الطير وهى تسبح فى السماء عندما أقبل الربيع ، وأحسبك قد رأيتها فى الجانب الآخر من الجبل . يعز على أنى لا أستطيع أن أحضر الآن . فإن لدى أعمالا كثيرة لابد من إنجازها . والقاضى هنرى شديد الحاجة الآن لأكثر من عينين اثنين ، ولئن تركته الآن سعياً وراء مآربى لاحتقرت نفسى .

ستكون الأيام أكثر دفئاً يوم نلتقى ، فلا نضطر لأن نجلس بالقرب من الموقد ، بل نستطيع أن نخرج ونجلس فى الهواء الطلق . أما الآن فإننا لا نستطيع الجلوس فى العراء إلا لحظات قلائل ، ولئن عرفت موعد حضورى فإنى سأجتهد لكى أخطرك به . ولكن أكبر ظنى أنى سأحضر فجأة من غير موعد ، لقضاء واجبات قصيرة الأمد ولكنها كثيرة العدد ، لا تصدقى ما يقال عن الهنود ، إنها إشاعات يثيرها محررو الجرائد حتى يظل الجنود معسكرين فى البلاد ، وحتى يحصل أصدقاء المحررين على عقود بتوريد الغذاء للجنود وللخيل — إن الهنود لا ينزلون جهات آهلة مثل بير كريك ، وكل هذه الشائعات من صنع

المحررين السياسيين .

ليس هناك جديد أبلغك إياه . لقد طالعت مأساة عطيل ، ما ينبغى لكاتب أن يؤلف شيئاً كهذا ، هل تعلمين ما إذا كانت القصة واقعية ؟ لقد شهدت فى أريزونا حادثاً أفظع . فقد فتك بطفله الصغير فوق فتكه بزوجه . . . ولكن هذه الأشياء لا ينبغى أن تدون فى لغة أدبية رشيقة ليطالعها جمهور القراء — لقد قرأت روميو وجولييت ، وأعجبت بجمال أسلوبها ، ولكن روميو ليس رجلا ، وأفضل منه عندى صديقه مركوتيو ، الذى قتل ، فهو رجل كامل الرجولة ولو أنه هو الذى أخذ جولييت لما كان هناك سخف أو اضطراب .

وودت يا مس وود لو أراك اليوم . . أتعلمين ماذا يصنع مونتى إذا ركبته اليوم وأرخيت له اللجام ؟ إنه ينطلق فوراً إلى بابك لأنه حصان راشيد ( لاحظت مولى أن هذه أول كلمة أخطأ هجاءها ) أحسبك الآن جالسة مع جورج تيلر والأطفال الآخرين فى هذه الساعة . ولن يمضى وقت طويل حتى يكبر جورج ويذهب لمساعدة أبيه ، ولكن فى هذا الوقت يكون التوأمان نجلا العم هيوى قد التحقا بالمدرسة، وسيظل المدد يأتى من جميع الجهات وبجميع الأحجام ، لكى تقومى بتعليمهم الحروف الكبيرة والحروف الصغيرة . ليست لدينا أنباء اللهم إلا العجول والبقر والدجاج الذى أخذ يضع بيضه ، وكل دجاجة تضع بيضة تظن أن هذا حادث جديد لم يسبق له مثيل . هل حدثتك يوماً عن دجاجة كانت هنا تدعى إميلى ؟ لقد كانت جريئة مغامرة إلى درجة لم أعرفها فى أى دجاجة أخرى ولكنها كانت ضعيفة العقل ، فلم تستطع أن تنشىء أسرة ، وكانت مع ذلك تكثر من التطفل على أسر غريبة عنها فتتولى رعاية بعض ( الكتاكيت الرومية ) أو المنزلية أو الجراء — كما حدث مرة — وكانت تظن أن أى شىء تراه بيضة يمكنها أن ترقد عليها . وسأحدثك عنها يوماً من الأيام . وقد ماتت بلا ذرية يوم كنت أبنى لها بيتاً لتقوم بالتدريس فيه . «هنا صاحت مولى : « يا له من شقى ! ! » واحمرت وجنتاها وهى تمسك بكتاب حبيبها».

سأحضر فى أول يوم أفرغ فيه من عملى ، سأكون معظم الوقت بعيداً عنك بمائة ميل . إن لم يكن أكثر من ذلك ، ولكنى خليق أن أركب مائة ميل لكى أراك ساعة ومونتى لا يعييه ذلك ولابد لى أن أكتفى بساعة بعد أن يطول غيابى عنك . هذه زهرة خرجت لساعتى واقتطفتها وقد قبلتها فى هذه اللحظة . وهذا خير ما أستطيع عمله . »

وضعت مولى الكتاب فى حجرها ، وجعلت تتأمل الزهرة ، ثم وثبت فجأة وألصقتها بشفتيها وبعد لحظات أمسكتها بعيداً عنها وقالت :

— « لا . . لا . . لا . . » وعادت إلى مجلسها . ومر بها وقت غير قليل قبل أن أتمت قراءة الكتاب ، ثم وقفت مرة أخرى ولبست قبعتها .

وعجبت مسز تيلر إذ رأتها ، أين تذهب مسرعة بهذه الصورة . ولكنها لم تكن ذاهبة إلى أي مكان ، ولم تلبث بعد نصف ساعة أن عادت ، وقد تورد وجهها بسبب هذه الرياضة النشيطة ، ولكن روحها لم تزل مضطربة كما كانت وقت خروجها .

وفى الساعة السادسة من صباح اليوم التالى ، نظرت من نافذتها فرأت مونتى مربوطاً إلى باب أسرة تيلر فأخذت تسائل : هل حضر مساء أمس ، وهل كان موجوداً بعد عودتها من مشيتها السريعة . . ؟

## ٢٥

# مصير الكلب الضال

لم يستطع الفرجينى أن يقضى ساعة فى زيارة حبيبته كما ذكر فى كتابه ولكنه أيضاً لم يقطع إليها مائة من الأميال ، فإن مقتضيات رحلاته وجولاته قد ساقته صدفه إلى مكان قريب بدرجة تمكنه من أن يلقى عليها نظرة أوشكت أن تكون نظرة خاطفة ! لأنه كان مضطراً لأن يعود إلى الجماعة فوراً .

قال : « هل وصلك كتابى ؟ »

قالت : « أمس »

— « أمس ؟ إنى أرسلته منذ ثلاثة أسابيع ، على كل حال قد تسلمته . إن هذه ليست الساعة التى جاء ذكرها فيه . هذه ستأتى ولعلها أن تأتى سريعاً . »

لم تحر مولى كلاماً ، وقد أحست بارتياح لرؤيته ولكنه مصحوب بشىء من الألم .

قال : « إن هذا اليوم لا يحسب ، ولو أن كل مرة أراك فيها لها حساب عندى ولكن ليست هذه هى الساعة التى ذكرتها . »

لم يجر بينهما فى هذا الصباح الباكر — خلاف ما تقدم — إلا حديث قليل سنعرض له فيما بعد ، لأن هذه الزيارة ، على قصرها ، سيكون لها أثرها العظم فى الوقت المناسب ؛ ولو أن كلا منهما قد نظر اليها نظرة يسيرة ، والدقائق تمر سراعاً . وقد أعاد إليها مجلدين أعارته إياهما منذ زمن طويل ، وقد ترك عند مستر تيلر حصاناً أحضره لركوبها ، ولما حانت ساعة الوداع وضع فى يدها

باقة من الزهر ، ثم انطلق وهى تراقبه إذ يسير بين الأدغال الكثيفة والنهر الجارى . وكان الورد الوحشى يكسو الأدغال بزهره اليانع ، وعنادل المروج الراقدة وسط الحشائش ، كأنها فرقة إنشادمستترة ، أخذت ترسل أناشيدها الباكرة فى جو السماء على مدى أميال عديدة ، لقد كانت الأرض والسماء كلاهما فى حال مواتية ، لو أنه استطاع البقاء . وكان جزء من قلبها مواتياً أيضاً ، وهكذا وقفت تراقبه وهو على ظهر جواده مونتى يتنازعها برود المنطق ، وحرارة العاطفة ، تتهم نفسها وتكبت ميولها ، ولا تستقر على رأى ، لهذا كانت أيامها بعد ذلك بعيدة عن السعادة كل البعد ، أما أيامه فكانت ممتلئة بأعمال يتقنها ، وشوق يلازمه أبداً .

ثم جاء يوم خيل إليه أن هناك فترة ركود ، وتوقف فى العمل ، تمكنه من أن ينال ساعة اللقاء التى كان يرجوها ، فترك المعسكر وحول وجههإلى بير كيريك . فساقه طريقه إلى بت كريك ، حيث توجد مزرعة بلعم الكبيرة على الجانب الآخر من النهر ، فلم يلبث أن رأى على الشاطىء الآخر بلعم نفسه فشد لجام مونتى قليلا ليرى ما يفعله بلعم .

وقال يحدث نفسه : « هذا ما كنت أسمعه » لأن بلعم أحضر بعض الخيل إلى النهر ، ثم أخذ يلهبها بالسياط لامتناعها عن الشرب ، وكان يراقب هذا المشهد باهتمام شديد لم يشعر معه باقتراب قصير منه .

قال قصير فى شىء من التكلف : « عم صباحاً » .

غير أن الفرجينى حياه أحسن تحية ، فقال قصير : « كنت أخشى ألا ألحق بك بهذه السرعة فقد أحضرت هذا لك ، وناول رئيسه السابق كتاباً مظهره يدل على كثرة تداول الأيدى إياه ، وهو من القاضى ، ولكنه لم يصل مباشرة بل انتقل ببطء فى جيوب ثلاثة من الرعاة على التوالى ، فلما طالع الفرجينى سطوره ورأى أنه يتضمن كتاباً لبلعم ، اغتم كثيراً فهذه أوامر جديدة ولن يستطيع المضى للقاء حبيبته .

وصاح بلعم من فوق مجرى الجدول : « مرحباً بقصير . » أما الفرجيني فلم يمنحه إلا هزة رأس يسيرة ، ولم يكن بينهما تعارف ، ولكنه كان يعرفه تمام المعرفة . قال الفرجيني : « هذا كتاب لك من القاضي هنرى . » وعبر الجدول إلى الشاطئ الآخر .

كان بلعم قد استعار من القاضي حصانين منذ بضعة أسابيع فى أوائل الربيع واعداً أن يردهما فوراً ، وقد كتب القاضي بأسلوب غاية فى الرقة والأدب راجياً الصفح عن هذا التذكير . فلم يكد بلعم يطالع الكتاب حتى تمنى لو أنه أرسل الجوادين من قبل ، وللقاضي فى هذا الإقليم مكانة أعظم من مكانته ولذلك لم يكن له مندوحة عن الصفح عن هذا « التذكير » ولكنه كان يحس رغبة فى الإساءة فوراً إلى أي شخص .

فقال وهو لا يستطيع كتمان غيظه : « إن القاضي يريدهما فى اليوم الثلاثين ، ونحن الآن فى الرابع والعشرين ، فلدينا من الوقت متسع . »

فقال الفرجيني بإيجاز : « اليوم هو السابع والعشرون »

هذا اختلاف جوهري ، إذ ليس من السهل أن يصل الجوادان إلى سنك كريك فى اليوم الثلاثين . لقد أفلتت ثلاثة أيام كاملة من ذاكرة بلعم . ولا غرابة فى ذلك لأن الأيام تبدو كلها متشابهة ، وكثيراً ما تنسى أسماؤها فى أعماق بلاد الماشية ، التى يشملها السكون والهدوء ، ولم يكن الجوادان فى المزرعة فى ذلك الوقت ، ولذلك كان بلعم ، متحفزاً لأن يصب سخطه على أحد — وفى هذه اللحظة وقعت عينه على تاريخ كتاب القاضي ، فرفعه بيده أمام الفرجيني وضرب الصفحة وقال : « ما الذى دعاك لأن تخفى هذا الكتاب إلى مابعد موعده بأسبوعين ؟ »

عندما ضرب الصفحة بيده نظر قصير إلى الفرجيني ، ليرى ماذا سيفعل ولكنه لم يفعل شيئاً ، وإن كان بريق عينيه قد تبدل قليلا ؛ وعندما تكلم كانت لهجته رقيقة كعادته وعبارته مؤدبة ، فشرح لبلعم أنه قد تسلم الكتاب فى هذه

اللحظة من قصير .

فنظر بلعم إلى قصير وعجب كيف تحول إلى ساع يحمل الرسائل . ثم سأله : « هل عدت إلى العمل فى مزرعة سنك كريك ؟ »

قال قصير : « لا »

فالتفت بلعم إلى الفرجينى مرة أخرى وقال : « كيف تنتظر منى أن أحضر هذين الحصانين إلى سنك كريك فى هذا الزمن الوجيز ؟ »

فألقى الفرجينى على بلعم نظرة هادئة ورد عليه بلهجته الجنوبية فى أبلغ صورها وقال : « ليس من شأنى أن أنتظر شيئاً ، للقاضى أصدقاء سيحضرون من نيويورك ، ليقوموا برحلة فى الإقلم ومن أجلهم طلب الجوادين . »

فتمتم بلعم بصوت المستاء . ونظر إلى قصير جالساً فى الظل ، وبالرغم من أفكاره المضطربة لم يفته أن يلاحظ أنه يركب مهراً طيباً — وهو نفس الحصان الذى سبق أن لمحه مرة أو مرتين وأعجب به ، والآن لابد له أن يعمل شيئاً لاستحضار الجوادين وكانا يرعيان فى ركن بعيد من الضيعة الواسعة ولابد من البحث عنهما واستحضارهما ، وهذا بلاشك سيستغرق ما تبقى من اليوم ، وربما احتاج إلى جزء من اليوم التالى .

فنادى بلعم أحد رجاله وألقى إليه بعض الأوامر فى حدة وطلب منه أن يسرع ما أمكنه الإسراع ، وكان الفرجينى فى أثناء ذلك متكئاً على حصانه وقد جعل ذراعه فوق السرج ، يسمع ويعى ، ولكنه لم يبتسم وانطلق الرجل لكى يعد جواده للبحث فى جميع أنحاء الضيعة ثم عاد بلعم إلى فك حزام خيله لكى تستق .

ثم سأل قصيراً — متجاهلا الفرجينى : « إذن لم تعد تشتغل فى مزرعة سنك كريك ؟ فهل أنت تعمل الآن فى ضيعة جوس أج ؟ »

قال قصير : « كلا »

— « إذن فى مزرعة ساند هل ؟ »

— قال قصير : « كلا »

فابتسم بلعم ابتسامة عريضة ، وقد لاحظ أن شعر قصير الأشقر قد برز من ثقب فى قبعته ، وأن رداءه رث قديم . وقد فرح قصير بهذا الكسب العارض الذى أصابه نظير تسليم هذه الرسالة للفرجينى . ولكن هذا المبلغ أيضاً لم يصبح فى حوزته ، فقد مر ببلدة دريبون فى طريقه ، وكانت تدور فيها لعبة بوكر فلم تلبث نقود قصير أن انتقلت إلى جيب ترمپاس ، وبقى له — مع ذلك — ذخر واحد ثمين وهو حصانه بدرو .

قال له بلعم : « حسن مهرك هذا . » ثم ضرب حصانه الخاص فى فكه لأنه امتنع عن النزول إلى الماء كما فعل الجواد الآخر .

فقال الفرجينى مشيراً بإصبعه : « لم يفك الحزام بعد . »

فبادر بلعم بفك الحزام — الذى نسيه — وضرب الحصان مرة أخرى ، ثباتاً على مبدئه فى الرذالة ، فتقدم الجواد نحو الماء — فى حيرة ، رافعاً رأسه فى الهواء فى خطى قصيرة عصبية .

نظر الفرجينى إلى هذا فى صمت ووجوم ، لم يكن يحق له أن يتدخل بين رجل وحصانه ، ولم يكن هو أو بلعم ممن يؤدون فريضة الصلاة ، ومع ذلك فإنهما مختلفان برغم هذا التشابه ... وقد أتيح مرة لشاعر متوسط المكانة أن يمر به يوم عظيم ، وفى هذا اليوم العظيم استطاع أن يؤلف قصيدة جرت أبياتها عند أكثر الناس مجرى الأمثال ، وقد سماها قصيدة البحار القديم[١] ، وهى غنية بسطورها التى تعلق بالذكرة ، وهذه بعض أبياتها الذهبية :

يحسن العبادة من يحسن الحب

للناس والطير والسباع

وتسمو عبادة من تسمو محبته

---

(١) هى قصيدة من تأليف الشاعر الإنجليزى صموئيل تيلر كولردج ( ١٧٧٢ - ١٨٣٤ )

بلجميع الكائنات صغيرها وكبيرها
لأن الإله العزيز الذى يحبنا
قد خلقها جميعاً وأحبها

هذه السطور هى الذهب الخالص . وهى خير ما يعلم للأطفال . . . لعلهم بعد أن يكبروا أن يؤمنوا بما تضمنته . ومع أن الفرجينى لم يكن يعرفها فإن وجدانه قد علمه أموراً كثيرة ، وإنى أشك فى أن بلعم كان يعرفها . ولو رآها لكانت كالدرر الملقاة أمام الخنازير .

عاد بلعم إلى سؤال قصير : « إذن لقد تركت العمل فى جمع الماشية . »

فطأطأ قصير رأسه ، ونظر بجانب عينه إلى الفرجينى . لأن الفرجينى كان يعلم أنه طرد بسبب نومه أثناء رعيه فى الليل .

وألقى بلعم نظرة أخرى على الحصان بدرو ونادى قصيراً ، وقد هم بالرحيل : « ياقصير ، ألا ترغب فى تناول الغداء ؟ لقد أوشك أن يتم إعداده . »

عاد قصير وعبر الجدول ورفع السرج عن ظهر جواده ، وأطلق سراحه لكى يرعى فى مراعى بلعم ، بناء على دعوته ، وكانت هذه المراعى خضراء معشبة ، وكل ما حولها أرض صفراء ، لأن الجدول بت كريك — وما يحف به من الخضرة ومن أشجار الحور ، كان يمتد ملتوياً وسط الصحراء كأنه ثعبان أخضر لا نهاية له . وقد أطلق الفرجينى جواده أيضاً ليرعى ! إذ لابد من أن يبقى فى الضيعة حتى يجدوا جوادى القاضى .

ومشى رب الدار أمامهما ليقودهما إلى حجرة الطعام ، وقال : « إن مسز بلعم لا تزال فى الشرق . »

كان بلعم يريد أن يتناول الغداء مع قصير ، ولكنه لم يكن يستطيع تجاهل الفرجينى على الرغم من حبه الانفراد بقصير .

سأل قصيراً : « هل رأيت هنوداً »

قال — وهو يبدى ازدراءه بالشائعات : « كلا »

قال الفرجينى : « إنهم الآن يذهبون فى الاتجاه الآخر، والروايات الصحيحة أنهم فى جبال بولج . »

قال صاحب المزرعة : « ما شأنهم ؟ وما الذى ينشدونه خارج إقليمهم الخاص بهم ؟ ولماذا يذهبون إلى بولج أو غيره من الجهات ؟ »

قال قصير : « إنهم يخرجون للصيد أحياناً أو لزيارة أقاربهم ، فى المناطق الجنوبية ، ويذهب معهم نساؤهم وعيالهم . »

قال بلعم بحدة وغضب : « إذا لم تقم السلطات فى واشنطن بوضع هؤلاء فى الأماكن المخصصة لهم فإن سكان إقليم ويومنج سيتخذون الإجراء اللازم فى هذا الصدد . »

قال قصير : « لقد أعدت شكوى وفيها توقيعات كثيرة لكى ترسل إلى الشرق ، ولكن هؤلاء الهنود لا ضرر منهم . »

صاح بلعم : « لا ضرر منهم ! من الذى سرق العجول الحولية إذن ؟ أكانوا لصوصاً من البيض ؟ »

كان بلعم شديد الإحساس لهذا الموضوع ، كثير التهيج حين يتوهم أن الشئون الهندية لا تلقى اهتماماً فى واشنطن ، بسبب تدخل رجال السياسة أو الاعتبارات الإنسانية — فكان يتمشى بضجر وهو يتكلم ، ثم يتوقف متأففاً لدى النافذة ، وكان اليوم صحواً مشرقا ، فأجال بلعم بصره فى الفضاء إلى ما وراء السهول الممتدة أمامه ، فاستقر بصره على خط أزرق شاحب على امتداد الأفق وراء الصحارى الصفراء الواسعة . . . وكان هذا الخط هو بداية جبال بولج وهناك كان الرجال الحمر يجولون فى شعابها وفى مسالك يحف بها الصخر والصنوبر وهى أرض محرمة عليهم .

وأعد الغداء فجلسوا إلى المائدة .

فقال بلعم — ولم يزل فى هياجه حول هذا الموضوع : « أظن أنك ستزعم أيضاً أن هؤلاء الهنود يأبون أن يقتلوا رجلا من البيض إذا عثروا عليه بعيداً

عن كل مساعدة ممكنة ؟ إن هؤلاء الهنود المسالمين هم أشدهم خطراً . »

قال قصير – وهو السريع التأثر برأى غيره : « هذا صحيح . » وكأن هذا كان رأيه دائماً ، ثم مضى يقول : « إن فتى ركب ووجهته سنك كريك منذ ثلاثة أسابيع وهو من محترفى الصيد ، متقدم فى السن وكان يلبس قميصاً أحمر وقد عاد أحد جياده فى أثناء جمع البقر يوم الثلاثاء ، أما الرجل فلم يسمع به أحد . » ثم أخذ يتناول طعامه فترة من الزمن فى صمت ، ولا شك أنه كان يفكر بطريقته الساذجة ، ثم قال فى حدة : « إنى أفضل أن أضع ثقتى بواحد من أولئك الهنود على أن أضعها فى ترمپاس .»

فضحك بلعم ، طويلا متهكماً على ضيفه ، وفتح علبة من العنب المحفوظ ، وناول ضيفه بعض العنب . فجعل قصير يأكل ويبتسم فى خجل ، لأنه أدرك أنه قد أطلعهم على سره .

قال بلعم : « قل لى يا قصير ، ما مقدار رصيدك فى البنك الآن ؟ »

فتمتم قصير : « إنى لا أستخدم البنوك . »

فوضع بلعم مقداراً آخر من العنب على صحن قصير ، ثم أخرج من جيب صديريه سيجاراً ودفعه نحوه ، وقال : « الثقاب وراءك . » ثم تذكر الفرجينى فدفع إليه أيضاً بسيجار ولكن رجل الجنوب أخلف ظنه ، بأن وضع السيجار فى جيبه وأخذ يشعل غليونه .

مشى بلعم مع ضيفه قصير ، عندما توجه إلى الحظيرة ليضع السرج على الجواد ويرحل . فسأله عندما فتح باب الحظيرة : « هل لديك حبل ؟ »

قال : « لا أحتاج إلى حبل لكى أمسك بدرو ، بل أستطيع أن أمشى حتى أقف بجانبه ، انتظروا خارج الحظيرة . »

ثم أخفى اللجام وراء ظهره ، ومشى إلى شاطىء النهر حيث كان المهر يحرك ذنبه الطويل ، فتقدم نحوه ، وهو يخاطبه ملاطفاً ، حتى وضع يده على معرفة بدرو الداكنة وهى أدكن كثيراً من لون جلده ، فالتفت إليه المهر كأنه

يلتمس شيئاً ، فلم يلبث قصير أن أجاب ملتمسه ، ومنحه قطعة من الخبز .

قال بلعم من وراء الحاجز : « هل يأكل هذا ؟ » .

قال قصير : « إنه يحب الملح الذى فى الخبز . » ثم أخذ يخاطب جواده وهو يحاول أن يضع اللجام فى فمه : « أظنك تتوهم أنك لن تلجم ؟ افتح أسنانك ، إنك تريد أن لا تكون ملكاً لأحد ، وتعيش عيشة حرة مستقلة ، أو لعلك تفضل أن تكون صاحب حانة . »

كان الواضح أن بدرو مسرور بهذا الكلام ، وبمحاولاته التهرب من اللجام ولكن لم يكد يستقر اللجام فى فمه ، حتى أظهر الطاعة التامة وتبع قصيراً إلى باب الحظيرة . فالتفت إليه قصير وقال : « هات يدك . » فبادر المهر ورفع يده ووضعها فى كف صاحبه ، بعد ذلك أخذ قصير يغمز أنف المهر ، فيتظاهر بأنه يريد أن يعضه، وكان وجه الحصان يدل على ارتياحه العظيم لهذا العبث . ثم قال قصير : « هات الحافر الآخر » وتصافحا ثانية ثم مال نحو مهره وقال له : « قل يا بدرو ، ألست أنت أحسن مهر فى القطر ؟ ويحك ما هذا ، لم يبق عندى خبز أعطيك إياه . » ثم غمز أنف المهر ، وكان هذا قد مده إلى جيبه . »

قال بلعم — وفى صوته رنين الحسد : « إنه مهر يصلح للسيدات ، مما يؤسف له أننا لسنا فى نيويورك ، حيث توجد سوق عظيمة للخيول الأليفة ، ويسميها الأطفال هناك « جى جى »

قال قصير محتجاً : « إنه ليس بجى جى ، ويستطيع أن يبز أى مهر للرعاة عندك ، إنك تستطيع أن تديره على نصف ريال ولست بحاجة لأن تلمس اللجام ويكفى أن تدور بجسمك حتى يدور معك »

كان بلعم يعرف أن هذا صحيح ، وأن المهر لم يتجاوز أربعة أعوام فقال : «إن درايبون لم يكن بها ملعب ( سيرك ) هذا العام ، ومن الجائز أى يشترى الناس تذاكر للتفرج على بدرو وهو يصلح لهذا على كل حال » .

استولى الغم على قصير وظل الفرجيني يدخن فى وجوم فقد كان يجرى حوله الآن أمر لا يقره ، ولكن ليس من شأنه أن يتدخل .

وعاد بلعم فقال : « عليك بملاعب السرك ، وغير خطتك ، فبدلا من أن تنفق نقودك فى المدن ، تستطيع أن تكسب النقود هنا . »

غير أن قصيراً الذى لم تكن لديه خطة يغيرها أو نقود ينفقها ظل واجماً مغتماً .

قال بلعم : « ماذا تقبل ثمناً لهذا المهر ؟ »

قال قصير : « إن مائة دولار لن تستطيع أن تشترى قطعة الطين الجاف اللاصقة بظهره . » ثم نظر بعظمة إلى السماء .

فنظر إليه بلعم وقال « تستطيع أن تحتفظ بالطين لنفسك وسأعطيك ثلاثين دولاراً ثمناً لهذا الحصان . »

فضحك قصير ضحك المحترف ومشى نحو سرجه .

فأخذ بلعم حصاة وألقى بها فى النهر وقال مكرراً قوله : « سأعطيك ثلاثين دولاراً . »

فانحنى قصير لكى يفحص سرجه وقال: « كم بيننا وبين دريبيون من الأميال ؟ »

قال بلعم : « لست بحاجة لأن تمشى إلى هناك ، ما عليك إلا أن تقضى الليل هنا ، سأرسلك فى الصباح إلى هناك مستريحاً عندما تذهب العربة لإحضار البريد . »

— « أمشى إلى هناك والمسافة خمسة وعشرون ميلا ؟ إن بدرو يحملنى إلى هناك فى ثلاث ساعات ولا يحس أنه قطع هذه المسافة . » ثم وضع السرج على ظهر جواده وقال : « تعال يا بدرو . »

قال بلعم ساخراً : « تعال يا بدرو . »

وأعقب هذا صمت قصير ، ثم قال قصير — وهو جالس تحت بطن

الجواد ليحزمه : « كلا يا سيدى ، مائة دولار هى أقل رقم أقبله . »

أخذ بلعم بدوره يضحك ضحكة المحترف ، فنهض قصير من جلسته تحت بطن الجواد والتفت إلى بلعم وقال : « إذن ما الذى تعطيه ثمناً له ؟ »

قال بلعم : « ثلاثين دولاراً . » وجعل ينظر إلى السماء نظرات بعيدة كما كان يفعل قصير .

قال قصير محتجاً : « هذا عبث ! »

وقد أصبح قصير الآن هو الذى يبحث عن الثمن وقد سر بلعم لرؤية هذا .

والتفت إليه وقال : « بل هذا جد ، ثلاثون دولاراً »وبدا عليه كأنه مندهش لاضطراره لأن يعيد ذكر هذا المبلغ مراراً . .

فقال الراعى : « حسبتك ستترك هذه الأرقام الافتتاحية لأنك تدرك تماماً أنى لن أقبلها . »

فتسلق بلعم سياج الحظيرة وجلس عليه وقال : « لست أبكى أسفاً على مهرك بدرو ولكن خيل إلى أنك أصبحت مفلساً ، وأنك تريد النقود لكى تقيم بها أودك حتى تستطيع أن تجد عملا وتكسب من النقود ما تسترد به مهرك » ثم جعل إبهامه اليمنى فى صديريه ، وقال : « ولكنى لا أبكى أسفاً عليه . . إنه سيظل ها هنا بالطبع ، ولن أتصرف فيه لأحد . . ولكن ما باله يقف بهذا الشكل . . عجباً ما هذا . . » واعتدل بلعم فى جلسته كأنما كشف عن أمر جديد .

قال قصير بلهجة المدافع : « ماذا تعنى ؟ »

فجعل بلعم يحدق فى بدرو مقطباً فاحصاً ، ثم أشار بإصبعه إلى الحصان ، مبقياً إبهامه فى جيبه ، وقد أحس قصير أن ليس من العدل أن يشار إلى بدرو بمثل هذه الإشارة — فقال بلعم : « أى شىء أصاب هذه الساق الأمامية »

قال قصير بغضب : « إن شيئاً لم يصب هذه الساق . إنها على أحسن ما يكون . » فنزل بلعم من مقعده على السياج وتقدم بتؤدة وتكلف ومر بيده على

الساق صاعداً ونازلا . . وبصق بخفة وهو يتظاهر بالتفكير ، وقال بلهجة تكلف فيها نغمة الأسف : « إن هذا ما ينتظر دائماً حينما ترهق المهور بالعمل وهى حديثة السن . »

فمر قصير بيده على الساق ، موضع المناقشة وقال : « ما هذا الذى ينتظر دائماً ؟ أنها تأكل بشهية ؟ إنه لكذلك . »

وعندما سمع الفرجينى هذا الرد ، سمح لنفسه أن يضحك عطفاً على قصير ، فقال بلعم — وهو يتنهد مبدياً أسفه : « إن ساقه ملتوية ، وهذا يجىء من إرغام المهر على أن يدور فى مساحة قصيرة وعظامه ما برحت لينة . »

فصرخ قصير غاضباً : « ملتوية . . تعال يا بدرو ، سنذهب أنت وأنا إلى البلد لا نلوى على شىء . »

وأمسك برأس سرجه ووثب على ظهر جواده ، فلم يكد يمسه حتى انطلق بدرو بسرعة هائلة وراكبه يتصايح بصيحات رعاة البقر ، وقد جعل بدرو يعدو عدواً استعراضياً فدار به دورة عظيمة ومر فى أثنائها بالقرب من بلعم ثم اختفى وراء الغبار على الشاطىء الأيسر للنهر .

نظر إليه بلعم لحظة ثم ضحك ضحكة قاسية فقد سبق له أن رأى سمك النهر يثب بهذه الصورة حينما يصبح الشص فى فمه ، وكان يعلم أن كل ما يريده قصير هو أن يعرض أمامه مزايا المهر ، كما يعلم أن حب قصير لبدرو لا يعادل حاجته الشديدة إلى النقود ، فنادى واحداً من رجاله ، وسأله عن السد المبنى فى أعلى النهر ، حيث تبدأ أهم قنوات الرى ، وبعد أن قال كلمة عن طول فترة الجفاف ، سار إلى باب حجرة الطعام فألفى قصيراً هناك ، حيث كان يتوقع أن يراه .

قال الفتى : « أترى أن هذا الكلام هو ما ينبغى أن يقال فى جواد ممتاز ؟ . »

قال بلعم : « إن أى ( غشيم ) من سكان المدن يستطيع أن يقول لك إن

الساق ملتوية . » ولكنه فى الوقت نفسه نظر إلى كتفى بدرو المرتفعتين وأبدى إعجابه بهما ، كما أطرى اتساع المسافة بين العينين .

قال قصير : « إنك تعلم تماماً أن ساقه ليس بها التواء ، كعلمك أن ساقك أنت ليست مصنوعة من الفلين . أما إن كنت تعنى أن ساقه ليست شديدة الاستقامة ، فإنى أؤكد لك أنه ولد هكذا ، وليس لهذا أى أثر ، لأن الساق ليس بها أقل ضعف . جربه مرة تجد أنه فى سلامة الصلب وصلابته . ولا يتعثر فى خطاه ولا يحاول أن يلقى براكبه ، إنه قوى وإنه أمين . » ثم أخذ يلاطف مهره فرفع هذا يده ليصافحه مرة أخرى .

وبديهى أن بلعم لم يخطر له ببال أن ساق المهر ملتوية حقيقة . وقد جعل ينظر إلى المهر متظاهراً بأنه يود أن يصدق ما قاله قصير ، ولو أمكنه ذلك . ثم قال : « لم يبق فى هذا الساق سوى عمل سنتين اثنتين . »

قال الفرجينى : « أولى بك يا قصير أن تقدم جوادك هدية . »

فسأله بلعم : « أهذه صفقتك يا صديقى ؟ » ثم مال برأسه نحو الفرجينى فقال الفرجينى : « قدمه بلا مقابل يا قصير . فإن ساقه محطمة وهذا ما يقوله مستر بلعم . »

فلمع الشر فى وجه بلعم من شدة غضبه ولكن الفرجينى ظل يتأمل بدرو وكان هو أيضاً غاضباً ولكنه لا يستطيع أن يتدخل . وحسبه أنه قد تجاوز العرف السائد بما قاله من قبل ، لقد كان يود بكل قلبه لو استطاع — لأسباب تجمع بين الخير والشر وبين الرحمة والنقمة — أن يفسد على بلعم صفقته ، وأن يعرض ثمناً معقولا أو فوق المعقول للمهر بدرو ثم يستولى عليه لنفسه . ولكن مثل هذا لا يجوز ، ففى المراهنات والقمار والمساومة على الخيل وكل ما أشبه ذلك من الأمور يترك كل امرئ لنفسه ، وإذا كان هنالك شهود لهم خبرة ودراية فعليهم أن يمسكوا عن إبداء رأيهم وأن يلزموا الحياد التام .

فى ذلك المساء تناول قصير سيجاراً آخر . وقد رضى أن يفارق مهره فى مقابل أربعين دولاراً وبطانية مخططة من صنع المكسيك ، وزوج من المهاميز . وقال للفرجينى فى ذلك المساء – وهو يخلع ثيابه قبل النوم فى منزل الرعاة :

– « أؤكد لك أنى سأشترى بدرو منه بمجرد حصولى على بعض المال . »

فرد الفرجينى بتمتمة مبهمة . فقد كان ما يشغله الآن هو أنه لابد له أن يجد فى السير لكى يصل بالخيل إلى القاضى قبل نهاية اليوم الثلاثين ، ومن وراء هذه الأفكار بلاشك ، إحساسه بالحسرة والشوق إلى بير كريك .

وفى سويعات الفجر نهض قصير من فراشه فى منامة الرعاة ورأى جميع من حوله لا يزالون غارقين فى نومهم ، وكان تنفسهم مطرداً لا يبدو فيه ذلك القلق الذى يأتى عند اقتراب النهار . فمشى إلى الباب باحتراس ورأى الطيور السوداء قد بدأت تتحرك وتهز أجنحتها فى وسط طين الحظائر المتكدس . وبين أغصان الحور ، وكانت تسمع سجعات اليمام يجاوب بعضها بعضاً دون أن يراها أحد ، ولاح القمر من فوق ضفة النهر العالية ولكنه لم يكن يضىء ، لأن نوراً جديداً أخذ يفيض من السماء وقد وقف بدرو فى المرعى من وراء السياج فأغلق قصير الباب وراءه بهدوء وجلس على المدرج ، وأخرج نقوده وجعل يلمسها بكسل دون أن يجد فى ملمسها ما يسليه فى تلك الساعة ثم أعادها إلى جيبه ، وبعد أن لبس حذاءه مشى إلى المرعى لكى يتحدث إلى مهره حديث الوداع . فجعل يمسح الطين الذى لصق بجسده أثناء تقلبه فى الليل ، ووضع يده بحنان على عنقه ومعرفته ؛ وأخذت أصوات الطير والحيوان فى الشجر والسهول تعلو وتتزايد ، فالتفت قصير وراءه ليتأكد أن أحد الرعاة لم يخرج من المنامة بعد ، ثم طوق عنق المهر بذراعيه وأسند رأسه إليه ؛ ولمدة لحظة قصيرة بدا وجهه التافه وقد امتلأ سمواً بهذه العاطفة التى كان حريصاً ألا يراها أحد . لقد كان عناقه عناقاً حاراً لهذا الجواد الذى كان أعز عليه من أى كائن فى العالم .

ثم لم يلبث أن قال : « وداعاً يا بدرو . . وداعاً . » والتمس بدرو الخبز

فقال له قصير فى حزن : « كلا ليس لدى منه شىء وأنت تعلم أنه لو كان عندى ما ضننت به عليك ، كلانا لم يفكر يوماً فى مثل هذا المصير ، أليس كذلك يا بدرو ، الوداع . »

ثم عانق مهره مرة أخرى ومشى حتى وصل إلى سياج المرعى ولكنه عاد أدراجه وقال : « وداعاً جوادى الصغير ، يا حصانى العزيز ، يا بدرو الصغير وداعاً . . » وتساقط دمعه على عنق المهر فمسحه بيده ثم عاد مسرعاً إلى المدامة ، وبعد تناول الفطور ارتحل بأمتعته إلى دريبون وراقب بدرو سفره بهدوء من مرعاه لأن الخيل لا تقل جهلا عن الإنسان بما يكمن لها فى الغيب . وقد توقف المهر عن تناول طعامه لحظة لكى ينظر إلى العربة وهى تمر به ، ولكن صاحبه الجالس فى المركبة لم يجرؤ على أن يتلفت إليه ..

## ٢٦

# بلعم وبدرو

لما رأى بلعم أن لا مندوحة له عن انتظار جوادى القاضى ، دخل إلى مكتبه فى هذا الصباح المشرق الجاف ، وقرأ تسعة أعداد من الجرائد المتراكمة ، فاته أن يطالعها من قبل . ثم ركب إلى القنوات وقابل رجله عائداً بالحيوانين بعد لأى . فعاد بسرعة إلى المنزل وأرسل فى طلب الفرجينى بعد أن استقر رأيه على خطة .

قال : « اسمع . . سيصل الحصانان بعد قليل ، فأى طريق تريد أن تسلكه بهما إلى مزرعة القاضى ؟ »

قال مقدم الرعاة بصوته الرقيق : « أقصر الطرق الذى يخترق جبال بولج »

ـ « لعلك مصيب فيما ترى وقد حان وقت الغداء ، فلنبدأ بعده مباشرة فنصل إلى المعبر الصغير عند الغروب ، وغداً نبلغ سنك كريك ، وفى اليوم التالى تتم رحلتنا . هل تستطيع عربة أن تمر من خانق سنك كريك ؟ »

فابتسم الفرجينى وقال : « لا أظنها تستطيع المرور منه يا سيدى ، وتبقى فى صورة العربةبعدذلك» . فأمربلعم بأنيسرج بدرو وأنتوضع الخيل فى حظيرة وكان لابد من احتبال جوادى القاضى لأنهما فى حالة وحشية شديدة وقد استقر رأيه على أن يقوم بهذه الرحلة بنفسه إذ تذكر أن مسائل سياسية خاصة ستثار قريباً فى شيين ولاشك أن القاضى هنرى رجل أجل خطراً من بلعم .

وفى رده الخيل بنفسه نوع من الاعتذار عن تأخره ، وفوق ذلك فإن من المستحسن رؤية بعض الزوار القادمين من نيويورك بعد سبعة أشهر لم يكن له

فيها أى اتصال بالعاصمة أكثر من مطالعة « الهرالد » التى تصدر الأحد ولا تصل إليه إلا بعد ثمانية أيام من صدورها .

بعد أن عبرا الجدول واخترقا الطريق الواضح الذاهب إلى دريبون ، اتجها نحو الأراضى الخالية من السكان التى تبدأ فوراً كما يبدأ المحيط من الشاطئ الرملى ؛ وأمامهم على بعد يقرب من الميل سياج رمادى اللون فى نهاية الأراضى التى يملكها بلعم كأنه سارية قائمة على حافة الأفق لا تحمل شراعاً ويزيد البحر الذى حوله وحشة ووحدة ، فلم يكن هنالك جدول واحد يحف به شجر الحور أو الصفصاف بحيث يعد خطا من الخضرة الناضرة وسط هذا العالم الأصفر الأغبر . ولم يكن هنالك قطعان من الماشية منتشرة فى أطراف السهل ، بل لم يكن هنالك شىء واحد يتحرك ، حتى ولا طير تسبح وسط هذا الصمت الشامل . وأغلق الفرجينى الباب الأخير وسط السياج ثم نظر وراءه لحظة إلى شجر المزرعة الباسق ثم أخذ يتابع السير فى هذه الأراضى القلوية التى لا يملكها أحد .

لم يكن فى السماء سحاب وقد لمع وهج الظهيرة فى هذه الصحراء على الوهاد والنجاد وكانت حشائشها المغبرة فى لون الزنك ، وتصاعدت الحرارة من التربة الملحية وجعلت الجبال البعيدة تبدو شاحبة .

كانت القافلة تتألف من خمسة من الخيل ، فى المقدمة بلعم يقود بدرو وقد استقر بجسمه الغليظ على السرج ، ثابتاً كالصخر ، مائلا إلى الأمام قليلا كعادته ، ومن خلفه أحد جوادى القاضى ، أحمر اللون ، لا ينفك يجذب الحبل الذى يقاد به .من ورائه فرس بلعم ، عاقلة رزينة ، تحمل المؤونة والفراش لمبيت ليلتين فى الطريق . وهى فرس قد هذبتها السنون وكانت تلتزم الطريق ولا تحيد عنه ، ولم تسبب أى عناء للفرجينى الذى سار خلفها ، وكان هو أيضاً كالصخر فى جلسته ، ولكنه كان ينحنى أحياناً مطاوعاً للجواد الذى يقوده ، كأنه صلب مرن ينبسط ثم ينقبض دون أن يختل توازنه .

وهكذا كان السير بطيئاً ، وبعد أن صعدوا آخر ربوة فى الصحراء وأطلوا منها على منحدر ينتهى إلى الجدول الصغير الكثير الطين، الذى لم يكن على شاطئيه سوى شجرة واحدة وقليل من العشب المتناثر ، كان النهار قد تولى أكثره وانقلبت زرقة السماء إلى لون البنفسج ، وزالت الحرارة من الجو بسرعة بسبب جفاف الهواء ، فأكبت الخيل على الجدول تشرب طويلا من مائه الأصفر البطىء الجريان ، وكذلك استطاب الرجلان مذاقه القلوى ودفئه . وبعد أن أوقدا ناراً صغيرة وتناولا عشاءهما أخذا فى التدخين فى صمت ، ثم التف كل منهما بأغطيته ورقد فى مكان ناعم إلى جانب النهر .

وقد احتبسا جوادى القاضى فى أفضل مكان معشب عثرا عليه ، أما سائر الخيل فأطلقت لتلتمس عشبها حيث تستطيع أن تجده ، ولم يكد يلوح أول شعاع من الفجر حتى نهض الفرجينى لإعداد الفطور وركب بلعم الجواد الأحمر لكى يبحث عن الجياد الطليقة وكانت قد اختفت عن الأنظار ، وعندما عاد بهما بعد ما بقرب من ساعتين كان يركب بلدرو وكان بلدرو يتصبب عرقاً وتخرج من شدقيه رغوة حمراء فرأى الفرجينى أنه لم يكن من السهل على بلعم أن يسوق الخيل وعلى الأخص لأنه جعل الجواد الأحمر الوحشى قائدها .

فقال الفرجينى : « لو أنك ظللت تركب الأحمر بدلا من التحول عنه الى الجواد بلدرو لعدت بهم وهم فى حالة أهدأ . »

قال بلعم ساخراً : « هذه نصيحة طيبة معقولة . وبوسعى أن أقولها لك الآن . »

قال الفرجينى : « كنت أريد أن أقولها لك قبل أن تبدأ . » ثم أخذ يسخن له القهوة . »

أخذ بلعم يسب الخيل على مسلكها الشنيع ؛ فإنه لما عثر عليها وجدها متجهة إلى الطريق المؤدى إلى بت كريك وقد تولت الفرس العجوز القيادة .

قال بلعم : « ولكنى لم ألبث أن أريتها الطريق التى يجب أن تسلكه . »

ثم أخذ يدفع الخيل إلى الماء . فلاحظ الفرجينى أن بالفرس عرجاً يسيراً ، وأن بكعبها جرحاً كأنما ضربت بحجر أو بطرف حذاء مدبب .

وجلس بلعم مقطباً وأفرغ لنفسه قدحاً من القهوة وقال : « إن الفرس لن تحاول السير بسرعة إلا إذا أكرهت على ذلك . ولو استطعنا أن نصل إلى أى جزء من سنك كريك هذا المساء لكان هذا من حسن حظنا . »

واستمر بلعم يتناول فطوره ويفكر بصوت مسموع حتى يسمعه رفيقه ، ولكن الرفيق لم يبد ملاحظة على كلامه وآثر الصمت على الاشتباك فى حديث كريه مع رجل تغلى مراجل حقده وبغيه ، ولعله لم يصغ كثيراً لعباراته بل أخذ يعد العدة للرحيل، فأتم غسل الأطباق ولف الأغطية ، وهو يتحرك كعادته فى هدوء وتؤدة .

قال بلعم — وهو يضع السرج على الخيل : « إن الساعة تزيد على السادسة وستمضى عشر دقائق قبل أن نشرع فى السير . » ثم اقترب من بدرو ودفع له اللجام فتراجع الجواد قليلا فقال له : « أراك لم تزل على غيك ، إذن خذ هذه الضربة فى فكك السقيم ، ودفع اللجام فى فمه . فتراجع الجواد ووثب بساقيه إلى أعلى .

قال الفرجينى : « لم أر بدرو يفعل هذا من قبل . »

قال بلعم : « هذا كلام هراء . إن هذه الخيل سواء كلها . وليس فيها إلا كل لئيم يتربص بك الدوائر ويتحين الفرص . بعضها يلقى بك عن ظهره ، والبعض يرتمى بك على الأرض ويتمرغ ، وبعضها يقاتلك بحوافره الأمامية . وقد يتظاهرون بالصلاح عاماً ، ولكن هذه الخيل الغربيه هى عدو الإنسان فإذا رأى فرصة بذل أقصى ما فى وسعه — فإذا خرجت من المعركة حياً فليس هذا من ذنبه . » وسكت بلعم قليلا وهو يتم حزم أمتعته ، ثم قال : « ولابد لك أن تجعلها تخشاك وترهبك ، فهذه هى الوسيلة الوحيدة لتجنب الشر ؛ فهذا الحصان بدرو قد غذوه وأطعموه باليد ودللوه كأنه حيوان أليف ؛ فماذا كانت

النتيجة ؟ النتيجة أنه يتمرد حين يرى أن الأوان قد آن ليسلك مسلك التمرد والعصيان ويأبى أن يقود الخيل إلى المعسكر ، والآن قد رددت إليه عقله »

قال الفرجينى : « أود يا مستر بلعم أن أشترى منك هذا الحصان الآن »

فهز بلعم رأسه وقال : « إنك لن تفعل ذلك الآن أو فى أى وقت آخر . فإنى لا زلت بحاجة إليه . »

لم يكن فى وسع الفرجينى أن يفعل شيئاً . وقد سبق له أن سمع الرعاة يخاطبون المهر الذى لا يخضع ، فيقولون له : « اهدأ ويحك وإلا بلعمتك » . والآن أدرك الفرجينى دقة معنى هذه العبارة .

وتقدم بلعم ليقود بدرو إلى الماء ليشرب شربة أخيرة قبل بدء الرحلة فى الطريق الحار الجاف . فتردد الجواد وشد اللجام قليلا . فالتفت إليه بلعم وقطع جبهته بالسوط . وطال بينهما الدفع والجذب والفرجينى على جواده ينتظر ، ومرت الدقائق ، وليس هنالك أقل دليل على قرب حل لهذا المشكل .

وأخيراً قال الفرجينى : « إنه لن يتبعك وأنت تضرب رأسه . »

فرد عليه بلعم : « أتظن أنك تستطيع أن تعلمنى عن الخيل شيئاً ؟ »

قال الفرجينى : « ليس يبدو أنى أستطيع . »

« إذن لا تحاول ، ما دام الجواد ليس جوادك يا صديقى . »

فرفع الفرجينى بصره إلى بلعم وقال : « حسناً . ولكن لا تدعنى صديقك ، فقد كررت هذه الغلطة مرتين . »

كان الطريق غير مظلل ، كما كان منذ البداية ، فلم يكن سير القافلة سريعاً . وفى السويعات الأولى انمحى برد الصباح تماماً ، وأظل العالم يوم آخر تسطع فيه أشعة الشمس بكل قوتها . ولاحت جبال بولج أقرب مما كانت ، ولكن منحدراتها الوعرة الحارة لم يكن يبدو فيها ما يلطف الهواء . وحتى شجر الصنوبر المنتشر أميالا واسعة بالقرب من القمة ، كان عديم الأثر فى تلطيف وهج الشمس ، بل كان يبدو كأنه مجرد بقع منتشرة ذات لون جاف فاتر .

أما المسافران فلم يكن يجرى بينهما حديث . فلم يكن لدى راعى البقر شيء يود أن يقوله ، وبلعم ما برح متجهماً ساخطاً . وكان أقصى ما فى وسعهما أن يتابعا سيرهما الصامت وأن يحتمل كل منهما صحبة رفيقه من جهة ، وعناء الرحلة من جهة أخرى . .

غير أن تعاقب الرُّبى والوهاد أخذ يتبدل شكله ويقصر مداه ، فأصبح سطح الأرض سلسلة من الأكوام والكثبان الصغيرة الوعرة ، تتخللها أودية ضيقة رملية تمتلىء فى الربيع بمياه الثلوج الذائبة . وبعد لأى وصلا إلى السفوح وأخذا يصعدان وسط النجاد ، بحيث كان السهل يختفى عن الأبصار تارة ، ثم يعود إلى الظهور تارة أخرى إذ يبدو منبسطاً وراءهما ، بعيداً عنهما كأنه حادث قد مضى وانتهى .

وطارت للقائهم طائفة من الغربان آتية من هذه الأراضى الجديدة التى بدأوا يجتازونها . وكان أول ما اجتازوه غابة صغيرة ذات شجر جاف ، لا أثر فيه للحياة . وبعد قليل اعترض الطريق منخفض صغير فيه ماء آسن ، وسط أجمة من شجر الصفصاف . فتريثا قليلا لتشرب الخيل . فألفيا بالقرب من البركة بقعة مستديرة من الرماد وبعض القضبان ملقاة على الأرض وبجانبها ما يشبه القفص المصنوع من أغصان الصفصاف المثبتة فى الأرض .

قال الفرجينى : « معسكر للهنود . »

ولم يلبث أن لاحظا آثار خمسة أو ستة من الخيل ، فى الطرف الآخر من البركة ، لم تلتزم الطريق المألوف ، بل سارت بين الصخور فى مسلك خاص بها .

قال بلعم : إن الآثار ترجع إلى نحو أسبوع ، وهى جزء من تلك الجماعة التى خرجت للصيد . »

قال راعى البقر : « ذهبوا لزيارة أصدقائهم . »

— « نعم ، فى المحجز الجنوبى . ما المسافة بيننا الآن وبين سنك كريك ؟ »

قال الفرجينى : إن بينه وبين المعبر الذى اخترقناه أمس أربعين ميلا : ويخيل إلى أنه الآن على مسافة ثمانية عشر ميلا . »

قال بلعم : « على وجه التقريب . ونحن الآن الظهر ، فلنسترح هنا نصف ساعة . »

ولما حان وقت الرحيل ، أخذ الفرجينى يتأمل الجبال التى أمامه ، وقال : « إذا أردنا أن نخترق الخانق اليوم ، فلابد لنا أن نجد فى السير . »

قال بلعم : « لدى فكرة ، وهى أن نربط جوادى القاضى أحدهما إلى الآخر ، ونسوقهما أمامنا ، فنستطيع المضى بسرعة . »

قال الفرجينى معترضاً : « أليس من المحتمل أن يفلتا منا ، فهما على شىء كثير من التوحش ؟ »

قال بلعم : « إنهما لن يفلتا منى على كل حال . » ومضى فى تنفيذ رأيه ، وقال : « يبدو لى أننا أول الراكبين هذا الموسم فى هذا الجزء من الطريق . » وقد سبق للفرجينى أن لاحظ ذلك . فإن آثار الشتاء الماضى لم تزل واضحة . ولم يلبث الطريق أن انحنى وأخذ يمتد فى واد صخرى ضيق ، شديد الحرارة ، كأن أشعة الشمس تصيبه فى خط عمودى . وقد اختار الجواد الأحمر هذا المكان بالذات ليبذل مجهوداً لنيل حريته . فخرج فجأة عن الطريق ، وهو يجر معه رفيقه ، الذى لم يكن يجاريه فى قوة الابتكار . فترك بلعم الفرجينى ومعه الفرس ، وانطلق هو وراءهما فأمكنه أن يسد طريقهما ، لأن بدرو كان سريعاً ، فانحدرا معاً إلى قاع الوادى ، ولكنهما وثبا إلى الجانب الآخر ، ووصلا إلى مكان مرتفع قبل أن يصل إليهما أحد . ولم يكن الطريق ملائماً لهذا النوع من المطاردة ، لأن جوانب الوادى كانت شديدة الوعورة ، تتخللها صخور ناتئة ومسيلات عميقة ، وأشجار قصيرة من الصنوبر تمتد جذوعها أفقية على منحدرات الجبل ، وساعد الفرجينى جهد طاقته . ولكنه كان يستخدم جواده باحتراس . ملتزماً الأرض السهلة بقدر الإمكان ، ومحاولا أن يعرف اتجاه الجوادين ويسبقهما

إليه . أما بلعم فكان يحاول دائماً أن يجرى وراءهما ، فيلدور وراءهما صعوداً وهبوطاً وهما يحاورانه ويداورانه . وكلما أحس أن بدرو قد أخذ منه التعب غرز مهمازيه فى الجواد ليحمله على متابعة السير . فقد قرر أن يطارد ويقبض فوق منحدرات الجبل الوعرة،على جوادين قضيا عدة أسابيع يمرحان فى حالة وحشية تامة ، وهما الآن لا يحملان غير جسديهما ، ومع ذلك فإنه لم يستطع فى عناده وغضبه أن يدرك أن هذه المحاولة ضرب من العبث ، وقد وطد عزمه على أن لا يتراجع . . لم يلبث الفرجينى أن قرر أن يسير ببطء مؤقتاً ، لكى يمنع الجوادين الشاردين من أن يعودا أدراجهما ويهربا ، أما فيما عدا ذلك فلا معنى لإنهاك قواه وقوى جواده واكتفى الفرجينى بتتبع المطاردة ، وهويسوق الفرس أمامه ، ويراقب حركات الجواد الأحمر الذى أصبح الآن هو قائدالحملة ، وقد وصل الآن إلى أعلى الوادى ، وهو يحاول عبثاً أن يجد مخرجاً من الوادى إلى الأرض المسطحة فى أعلاه ، ولكنه لم يلبث أن تبين أن هذا ليس هو الطريق الذى يوصله ، فغير خطته ، وهبط إلى قاع الوادى ، ثم صعد بسرعة الى الجانب الآخر، فزادت المسافة بينه وبين متعقبه ، لأن بدرو كبا مرتين أثناء هذا الهبوط . عند ذلك أظهر الجواد الأحمر أن لديه ذكاء الجواد الشرير .فقد رآه الفرجينى يقف ويرفس زميله بمنتهى الشدة بقدر ما سمح له الحبل الذى يربط بينهما . فلم يلبث الحبل أن انزلق عنهما ، وأخذا يركضان بملء حريتهما حتى غابا عن الأبصار . فترك الفرجينى الفرس التى تحمل الأمتعة ، لبلعم ، وركض خلف الجوادين حتى وصل إلى هضبة عالية ، تظهر من ورائها الجبال بصورة جدية . ولمح الجوادين الشاردين منطلقين نحوها بسرعة معتدلة. فتبعهما لحظة ثم نظر خلفه فلم ير أثراً لبلعم ، وبدا له أن ينتظره لأن الجوادين لن يذهبا بعيداً إذا أصابا مرعى طيباً أو ماء جارياً.

فنزل عن جواده وجلس على الأرض يرقب ما يجرى ، حتى رأى الفرس تظهر بالتدريج ومن خلفها بلعم . ولما اقترب منه ترجل بلعم وأخذ يضرب بدرو بعنف حتى تحطمت الهراوة ، ثم تناول شطرها المحطم لكى يتابع ضرب المهر .

فلما رأى الفرجيني حالة المهر تكلم وقال : « أولى بك أن تدع هذا الحصان وشأنه » فالتفت إليه بلعم ، وقد استحوذ عليه الغضب ، بحيث بدا كأنه لم يسمع ما قيل . ولاحظ الفرجيني أن وجهه شاحب كأنه وجه معتوه . ولم يلبث أن سقطت العصا من يده .

ونظر إلى الفرجيني بعينين متحجرتين . وقال : « إنه يتظاهر بأنه متعب . وقد فعل ذلك عن عمد ، وهو الآن موفور القوة . » وقد كان يبدو لشدة غضبه كأنه يعانى مرضاً مبرحاً . وكان صوته جافاً مختنقاً . وبعد لحظة التفت إلى الجواد ، الذى لم يزل ينتابه السعال ، ويبدو عليه الإعياء ، وكانت عيناه مقفلتين . ولم يكن فى يد بلعم عصا ، فأمسك برأس الجواد يهزه هزاً عنيفاً والجواد لايبدى مقاومة . فراقبه الفرجينى لحظة ثم نهض لكى يقفه عند حده . ولكن بلعم لم يلبث أن توقف من تلقاء نفسه ؛ كأنه أدرك أن عمله هذا لا يلحق بالجواد ضرراً يستحق الذكر . ثم نظر إلى أطراف الهضبة ، ورأى الجوادين الهاربين على بعد وقال للفرجيني : « لابد لى أن آخذ جوادك ، فإن حصانى قد خاننى . »

قال الفرجيني : « لن أسمح لك أن تمس جوادى . »

والظاهر أن بلعم لم يستطع أن يدرك معنى هذه الألفاظ تماماً ، لأن الغضب قد طمس على ذهنه وفهمه . ولكنه عاد فركب بدرو ، وأخذ المهر المنهوك القوى ، يتحرك فى صورة آلية . ووقف الفرجيني حائراً يتأمل ما يجرى أمامه . وبدا بلعم كأنه لا يعتزم المضى إلى مكان ما . ولم يلبث أن توقف . ثم أخذ فجأة يقوم بعمل شىء ما . وكان مظهر هذا الشىء غريباً ، وجديداً لم تسبق له رؤيته . . ومرت ثوان والفرجيني يراقب هذا دون أن يدرك له معنى . ثم أدرك فجأة بشاعة ما يجرى أمامه ولكنه لم يستطع منعه . فعلى الرغم من صيحة الرعب التى أطلقها ووثبة النمر التى وثبها لكى يمنع بلعم ، فإن الجريمة ارتكبت ، فسقط بدرو على الأرض ، وارتمى رأسه على الثرى ، وقد سقط بلعم تحت جثته ، ولكنه لم يلبث أن نهض واقفاً قبل أن يصل إليه الفرجيني ، ورفع

الحصان المسكين رأسه والبؤس مرتسم على وجهه .

ثم نزلت النقمة كالصاعقة على رأس بلعم . إذ أمسكه الفرجينى وألقاه على الأرض ثم رفعه وألقاه على الأرض مرة أخرى ، ثم رفعه وضربه على وجهه وفكيه . فلم تغن عنه قوته التى تحاكى قوة الثور ، وجعل يحمى عينيه قدر طاقته ، من هذه الضربات التى تحاكى ضربات المعول . وأخذ يبحث كالأعمى عن مسدسه ، وإذا بذراعه تلوى إلى الخلف ، وتثنى وتسحق فى غير شفقة ، وكاد أن يسمع صوت عظامه ، فأرسل صيحة دميمة ملؤها الألم والبغضاء . وبعد لأى أخرج المسدس ، فلم يلبث هو واليد التى تمسكه أن وقعا على الثرى وديسا بالقدم . ومرة أخرى رفع المخلوق عن الأرض وألقى به عليها بكل عنف ، حتى أمسى جسداً يكسوه التراب والعرق ، ملقى على سرج بدرو .

لقد جاءت النقمة ثم مرت ، وحل العقاب ثم ارتحل ، والرجل والجواد كلاهما ملقى لا حراك به ومن حولهما انتشر الصمت العميق كأنه شاهد على ما يجرى .

قال الفرجينى : « لئن كنت قد مت ، فحبذا موتك . » ثم وقف ينظر إلى كل من بدرو وبلعم ، راقدين وسط الهضبة الواسعة ، ثم رأى بلعم ينظر إليه . ويحدق فيه بنظرات خالية من كل إحساس أو إدراك . يكاد منظرها يبعث الرعب . ولكن لم يلبث الإدراك أن عاد إليهما . فقال الفرجينى : « إننى لم أقتلك إذن . غير أنى لا أريد أن أنكل بك مرة أخرى . . إذا كان فى هذا ما يطمئنك . »

ثم أخذ يعنى بعلاج بلعم ، فى حيدة الرجل الذى يؤجر لأداء هذا الواجب . وقال : « إنه لم يصب بأذى كثير . » كأنما يتكلم عن مريض مجهول . ثم قال لبلعم : « لولا قوة جسمك لعطلتك هذه الحادثة عن عملك زمناً غير قليل . وسأذهب لآتى ببعض الماء . » ولما عاد بالماء كان بلعم جالساً فى مكانه ينظر ما حوله ، ولكنه لم ينطق بكلمة ، وانعكست أشعة الشمس على المسدس

حيث كان ملقى على الأرض ، فالتقطه الفرجينى وأخذ يختبره وقال : « إنه أقل جمالا مما كان ، ولكن ستكون له فائدته . »

وأخذ بدرو أيضاً يسترد قوته ، فهو لم يزل فى عنفوان شبابه ، وما كان له أن يتأثر طويلا ، وبصورة جدية ، مما عاناه من الألم والإجهاد . فنهض من مكانه ، ومشى يترنح إلى حيث وقفت الفرس ، فوقف بجانبها ليأنس بجوارها . فسار الفرجينى نحوه ، وأدرك بدرو — بعد أن تراجع قليلا — أنه الآن فى أيد أمينة . وصار من الواضح أنه يستطيع السير رويداً ، إذا لم يحمل شيئاً ، وأنه سيسترد قوته ويعود كما كان . وسواء أتركا الجوادين الشاردين أو لم يتركاهما ، فإنهما لن يستطيعا على كل حال أن يبيتا فى هذا الموضع ، بلا ماء ولا طعام . وكانت الشمس لا تزال عالية فى السماء ، وبقيت من النهار بضع ساعات لم يدر الفرجينى ما خبأته لهما . فرأى أن يترك الساعات لنفسها ، وأن يتولى هو تصريف الدقائق . وكان لابد له أن يحافظ على الموقف الذى وقفه من كل من بلعم وبدرو . فنزع السرج عن ظهر بدرو ، وألقى المتاع عن ظهر الفرس ، ثم وضع سرج بلعم على ظهرها ، وثبت عليه المتاع ، ولم يكن فى هذا أقل صعوبة لخفته ، ثم ذهب إلى بلعم ، الذى كان جالساً فى مكانه لم يبرحه .

وقال الفرجينى : « أظن أنك تستطيع أن تستأنف السير ، وكذلك الجواد ؛ فإذا أردت أن تصحبنى ، فاركب فرسك وسأقفو أثر الجوادين الشاردين . وإذا لم ترد مرافقتى ، فإن المهر سيجىء معى ، وسأعطيك فيه خمسين دولاراً . »

لم يكترث بلعم بهذه الصفقة الطيبة . ولم ينظر إلى الآخر أو يخاطبه ، ولكنه نهض وأخذ يبحث حوله فى الأرض . كذلك لم يعبأ الفرجينى أسكت بلعم أم تكلم . ولما رآه يبحث فى الأرض قال له : « إن مسدسك معى ، وسآخذه فى الوقت الذى أراه مناسباً . والآن سأمضى فى طريقى . »

فى ذلك الوقت كان بلعم قد عاد إليه إدراكه تماماً . ورأى أنه لابد له أن يتابع السير ولو أن المرحلة منذ الآن ستكون كريهة إلى نفسه . فنظر إلى راعى

البقر ، وهو يعد العدة للرحيل فى هدوء ، وقد ربط حبلا حول عنق بدرو ليقوده به . ثم نظر إلى الجبال التى اختفى فيها الجوادان الشاردان ، وكان من الصعب عليه أن يصدق أنه بات فى مثل هذا المأزق . وساعده رفيقه على ركوب الفرس . واستأنفت الخيل السير مرة أخرى ، وكانت تمشى الواحد وراء الآخر ، وأخذت بالتدريج تتوغل فى الجبال . وقد انتهت الصحراء التى بدت كأنها لا آخر لها . وعبرت القافلة جدولا ، اختفى عنده الأثر — فنزل الفرجينى ليبحث عن الطريق الذي سلكه الشاردان . فتبين له أنهما قد تبعا التلاع المشرفة على الجدول .

قال الفرجينى : « لقد كان يعسكر هنا رجل منذ مدة لا تزيد عن الشهر . » ثم رفس برجله خرقة حمراء . وقال : « إنه رجل من البيض . معه حصانان . وقد اقتفى أثرهما الجوادان الشاردان . »

ولم يكن بعد من السهل على بلعم أن يتكلم ، ولذلك لزم الصمت . ولكنه تذكر ما قاله قصير من أن أحد الصيادين كان فى طريقه إلى سنك كريك .

وتبعا أثر الجوادين على الأرض الطرية ثلاث ساعات . والطريق يرتفع باطراد ، ولم يلبثا أن مرا بينبوع أو اثنين ، لا يزال أثر الحوافر عندهما واضحاً لم يطمسه الطين بعد . وبعد أن اخترقا ركناً من غابة صنوبر ، وهبطا من مرتفع جانبى ، ألفيا أمامهما أرضاً ذات شجر منتشر كأنها حديقة خضراء . وهنا كان الجوادان الشريدان يرعيان إلى جانب جدول فى هدوء واطمئنان ، ولكنهما رأيا القادمين ، فانطلقا مرة أخرى ، منحدرين مع الجدول . عند ذلك لم يكن هناك ما يدعو إلى أى عمل آخر سوى مراقبتهما من بعيد . فإن هذا الجدول لا يلبث أن تمده روافد عديدة فيكبر ويكون لنفسه وادياً . وعن جانبيه تمتد غابات الصنوبر منتشرة على منحدرات الجبال حتى تبلغ القمم العليا .

قال الفرجينى : « إن هذا الجدول هو الفرع الأوسط من سنك كريك ، وسنصل إلى طريقنا الأصلى حيث يلتقى الفرعان . »

ولم يلبثا أن ظهر لهما طريق واضح المعالم إلىجانب النهر . وإذا استمر هذا الطريق فإن الشريدين سيتبعانه حتما حتى يصلا إلى الخانق ، وهناك ليس أمامهما إلا أن يتابعا السير فى الخانق ، حتى يخرجا منه إلى أرضهما ، وسيسيران بعد ذلك من تلقاء نفسهما إلى مزرعة القاضى . والأمر المهم الآن هو الوصول إلى الخانق قبل انتشار الظلام . وكان سيرهما الآن فى الظل دائماً لأن الشمس قد غربت وراء النجاد المشرفة عليهم ، فى حين أن الشاطئ الآخر لم يزل يغمره ضوء النهار وبرد الهواء ، ولم تلبث أصوات الطير أن أخذت تخفف من شدة ذلك السكون ، الذى كان يزداد الإحساس به عند اقتراب المساء . ولم تكن هذه الطيور مغردة ، بل مجموعة غريبة من الطير الثرثار ، الذى يرسل صياحه وسط الصنوبر ، ويتبع القافلة لحظة ، ثم يعود مندفعاً إلى الغابات ، وبينما القافلة تسير إذ مرت بجانب مستنقع صغير ، وإذا عقاب تحلق من المستنقع صاعدة على أجنحتها السوداء إلى طباق الجو فوقهم ، وأخذت تدور ثم تدور دون أن تبتعد كثيراً عن الركب . ولم تلبث أن سقطت من مخالبها وهى تسبح ، فوق الطريق ، قطعة من ثوب أحمر ، وقد نظر كل من الرجلين إليها حين مرّ بها جواده .

قال الفرجينى : « أترى أن فى هذا المكان كثيراً من الوعول والغزلان ؟ »

فأجاب بلعم : « أظن ذلك . » وهكذا نطق أخيراً بكلمة . ومن العجيب أن الصلح قد أخذ يقرب بينهما .

قال الفرجينى : « إن الصيد كثير فى كل جزء من هذه الجبال تقريباً . لأن البلاد لم تصبح آهلة بالسكان إلا منذ وقت قريب .! » وهكذا أخذا مرة أخرى يتجاذبان أطراف الحديث . وللمرة الأولى شعر كل منهما بارتياح لوجود الآخر .

لم يلبث أن انبعث فى الفضاء صوت طير جديد ، من بين أغصان الصنوبر . وكان هذا صوت بومة . ولم يلبث أن جاوبته أصوات أخرى من نواحى الغابة .

ولم يعر الرجلان هذه الأصوات انتباهاً كثيراً أول الأمر ، ولكنهما لم يلبثا أن سمعا هذه النغمة بعينها آتية من مكان بعيد كأنها رجع الصدى . كان الطريق الذى يسلكانه لا يزال ملازماً للنهر ، وقد ازداد اتساعاً ، ولا يبدو عليه أنه وشيك الانتهاء فجأة كما يحدث فى هذه الطرق الجبلية غالباً . بل أصبح واضح المعالم يتبع مجرى النهر . وكان اتجاهه دائماً نحو الهدف المقصود . فأحس الرجلان بارتياح لذلك . لأن هذا يمكنهما من تتبع الجوادين الشريدين بسهولة ، ويساعدهما على المضى بسرعة فى هذا الوادى ؛ وأخذ اقتراب الليل يسطو بالتدريج على البقية الباقية من النهار ، ولو أن الشفق لم يظهر للعيون ؛ وقمم الجبال العالية فى الجهة المقابلة لم تزل تكسوها أشعة الشمس الغاربة ، وإن خفيت عن الأبصار . وصاحت البوم مرة أخرى ، وفى نغماتها ما جعل بلعم والفرجينى يرفعان رأسيهما إلى أغصان الصنوبر ، وكل منهما يتمنى لو بلغ نهاية هذا الوادى ، ولعل هذا الإحساس يرجع إلى أن الوقت لم يحن بعد لظهور طيور الليل ، أو لأن هذا الصوت لم يكن يتخلف وراءهما ، بل كان يصحبهما منبعثاً من رءوس الشجر ، على حين أنهما راكبان تحته من غير توقف . وكأن قوة أو نفوذاً خفياً قد أثر فيهما . وبدا هذا الأثر فى ملامح وجهيهما . ولعل الإحساس بالشؤم الذى بدا عندما ظهر العقاب محلقاً فى الجو ، قد أخذ يزداد بتقدم المساء . وفى الوقت نفسه أخذت صيحات البوم العجيبة تتجاوب من أطراف النهر ، وتنتشر فى ظلال الغابات المظلمة التى تحدق بهم .

واختفت الشمس من قمم الجبال ، وبدا فى الجانب الآخر من النهر مرج أخضر واسع مستطيل ، أما الطريق الذى اتبعاه فإنه كان يخترق أجمة من شجر الصفصاف ، ومن بعدها يمتد وسط غابة كثيفة من شجر الصنوبر ، الذي كان منتشراً أمامهم للمرة الأولى إلى حافة النهر . وبعد أن مضى الرجلان من بين الصفصاف ، رأيا الجوادين الشريدين يهجران قاع الوادى ، ويصعدان الكثيب ويتوغلان فى الغابة .

فألقى الفرجينى الحبل الذى كان يقود به بدرو وقال لرفيقه : « لابد أن أمنعهما من المضى فى هذا الطريق ، وهاك مسدسك ، والتزم الطريق ، واستعد للمبيت فى ذلك الموضع . » — مشيراً إلى المكان الذي يمتد فيه الشجر إلى حافة الماء — « وسألحق بك بعد أن أرجع الجوادين ، وقد لا أعود إليك فوراً . » ثم ركض بجواده مصعداً فى الجبل ، وتوغل وسط دوح الصنوبر فى نقطة أعلى من التى اختفى عندها الجوادان . »

ترجل بلعم والتقط المسدس وفك الحبل عن عنق المهر بدرو ، وجعل يدفعه على مهل أمامه إلى الموضع الذى تبدأ عنده الغابة . وكان داخلها مظلماً ، فرأى بلعم أن مبيتهم يجب أن يكون فى هذا المكان ، لأن أحداً لا يستطيع أن يعلم إلى أى مسافة تمتد الغابة ، قبل أن يصلوا إلى مكان آخر يصلح لمبيتهم . وكان بدرو قد استرد قوته ، ومع ذلك أخذ يبدى علامات الاضطراب فكان يحيد أحياناً مع أن طريقه لا يعترضه حجر ، وأخيراً دار مولياً وجهه إلى الجهة التى أقبل منها . فظن بلعم أن المهر يريد أن يجرى راجعاً أدراجه . ولكن الجواد ظل واقفاً لا يتحرك وأنفاسه تتصاعد فى قلق واضطراب . فأخذ بلعم يحرضه على المضى إلى الأمام ، فكان يطيع ثم يدور ويتوقف عن السير ، حتى إذا لم يبق بينهم وبين الغابة سوى خطوات ، وترجل بلعم استعداداً للمبيت ، انطلق الجواد فى انزعاج إلى النهر وبقى واقفاً هناك ، فتبعه بلعم مندهشاً لكى يرجعه . ولكن بدرو لم يعد قادراً على ضبط نفسه فيما يبدو ، فانطلق إلى وسط النهر ، يريد أن يعبر إلى الجانب الآخر ، فخشى بلعم أن يهرب الجواد إلى المرج الممتد إلى الجانب الآخر ، فيخلق مشكلة جديدة ، ورفع مسدسه وأطلق رصاصة أمام الجواد ، لكى يرده عن عبور النهر ، وأدرك فجأة عندما لمعت الطلقة أن السر الذى أزعج بدرو هو الهنود ، ولكن إدراكه هذا جاء متأخراً ، فإن يده التى لواها الفرجينى ، لم تحسن الرماية ، فرأى بدرو يسقط فى الماء ثم ينهض متثاقلا حتى بلغ الشاطئ الآخر بمشقة ظاهرة ، فجرى نحوه بلعم ورأى أن الرصاصة

قد حطمت ساق المهر .

ولم تعد به حاجة إلى مترجم يفسر له الأصوات التى تشبه نعيب البوم ، والتى لا زمتهم الساعة الأخيرة . وأدرك أن حدة غريزة الجواد مكنته من أن يحس بما تخبئه الغابة من الويل والهلاك . لقد كان من الجائز أن يكون مصيره كمصير ذلك الصياد الذى عاد جواده ولم يعد ، ولعله لم ينج بعد تماماً من مثل هذا المصير . وجعل يفكر فى الخرقة الحمراء التى سقطت من مخالب العقاب حينما أزعج وهو يتناول طعامه وسط المستنقع . لقد كان هنالك هنود « مسالمون » منتشرون فى هذه الجبال . وبعضهم كان يتبعه فى رحلته دون أن يراهم أحد . وهم الآن فى انتظاره وسط الغابة ، متوقعين أنه سيدخلها ، وكانوا من شدة الحذر بحيث لم يريدوا أن يستخدموا بنادقهم أو يظهروا أنفسهم ، خشية أن يكون هذان المسافران جزءاً من جماعة كبيرة تتبعهم ، فيسمعون صوت إطلاق النار ، فيقبضون عليهم، متلبسين بجريمة القتل . لهذا آثروا أن يختبئوا آمنين تحت ظلال الصنوبر وخطتهم أن يتصيدوه بحبلهم فى صمت ، ويلقوه عن جواده وهو يخترق الغابة .

نظر بلعم من الجانب الآخر للنهر إلى الغابة الخطرة ، ثم نظر إلى بدرو ، ذلك الجواد الذي نكل به أولا ، وأتلفه آخراً ، ولعله الآن أن يكون مديناً له بحياته . . كان الجواد راقداً على الثرى ، ينظر بهدوء إلى المرج الأخضر ، حيث أخذ الظلام ينتشر بالتدريج . وربما لم يكن يحس بعد آلام الجرح الذى أصابه . ولعل ذكاءه الحيوانى لم يتسرب إليه العلم بهذه الضربة الأخيرة التى توشك أن تقضى عليه . ومهما يكن من أمر فإن بدرو لم تخرج منه صيحة ألم . وظل مولياً وجهه العذب الودود نحو المرج الأخضر . . . وأطلق بلعم مسدسه مرة أخرى ، وكانت الرمية محكمة فى هذه المرة ، فارتمى الجواد صريعاً برصاصة اخترقت رأسه ، وهذا أفضل ما يمكن أن يكافأ به الآن .

عاد بلعم إلى فرسه العجوز ، وركبها مبتعداً عن الغابة وعن الفرع الأوسط

لنهر سنك كريك . . وأجد السير وسط حقل واسع مترامى الأطراف ، وبعد ذلك عبر جسراً وأمكنه فى الظلام أن يهتدى إلى الطريق القديم — وهو الطريق الذى لولا فعاله وعناده ، لما تركته القافلة . ولم يلبث أن وصل إلى سنك كريك حيث يبدأ الخانق . وهنا ترجل وأنزل السرج عن ظهر الفرس المتعبة . وتركها تجر حبلها وتبحث عن مرعاها ومائها ، أما هو فاضطجع إلى جانب شجرة ، دون أن يوقد ناراً تنم عن مكانه ، إلى أن يطلع الفجر . وقدفكر فى الفرجينى وتوغله وسط الغابة ، ولكن ماذا عسى أحدهما أن يفعل للآخر ، إذا ما تبعه ليبحث عنه وسط دوح الصنوبر ، ولو عاد الراعى إلى ركن النهر . فإنه يستطيع أن يقفو أثر بلعم ، ولعله أن يجده . وسيلتقيان على كل حال حيث تلتقى جداول النهر .

ولكنهما لم يلتقيا . . ورأى بلعم أن ذهابه الآن إلى مزرعة سنك كريك أصبح أمراً لا يستطيع احتماله . وكيف يطيق مقابلة القاضى هنرى وضيوفه . وليس معه الجوادان وهو فى هذه الحالة المزرية بعد العقاب الذى أنزله به الفرجينى ، ولابد له أن يقص على القاضى ما جرى لخادمه الأثير عنده ؛ كلا إنه لن يستطيع أن يضطلع بمثل هذا الأمر . لذلك لم يذهب بلعم إلى أبعد من منزل يعرفه ، قضى فيه ليلته وكتب هناك خطاباً إلى القاضى أوصله إليه رب الدار . وعاد بلعم إلى مزرعته ، بعد أن ضمن كتابه أنباء تدعو إلى سرعة البحث عن الفرجينى ، وصاغ بعض الجمل بأسلوب يشرح للقاضى بكل لباقة أنه لم يرد بعد أن أصابه المرض فى الطريق أن يكون عبئاً على أهل سنك كريك . وعندما وصل إلى مزرعته فى بت كريك كان منظره بوجه عام أقل لفتاً للأنظار مما كان . ولم يكد يصل حتى رأى قصيراً فى انتظاره ! وقد استطاع الكلب الضال بوجه من الوجوه أن يحصل على بعض المال . وكان يبدو عليه الانشراح بسبب هذا اليسار المؤقت .

وقال : « هاأنذا عدت إليك كما ترى . فلقد صح عزمى على أن أسترد

بدرو بأسرع ما يمكن بعد أن بعته لك . »

قال بلعم : « جئت بعد فوات الفرصة يا قصير . »

فاصفر وجه قصير وقال : « أرجو ألا تكون قد بعت بدرو ! »

قال بلعم : « إن أولئك الهنود تعقبونى فى مسالك جبال بولج ، تعقبونى أنا وذلك الرجل الفرجينى . ولكنهم لم يظفروا بى . . »

وهز بلعم رأسه الكروية ، لكى يوهم أن نجاته ترجع إلى تفوق ذكائه . أما الفرجينى البليد فقد ظفر به الهنود . وأتم كلامه قائلا : « إن الهنود قتلوا جوادك . ابق معنا لنتناول الغداء مع الفتيان . »

بعد أن تناول قصير طعامه انطلق حزيناً كئيباً . فلقد كان واثقاً أنه سيتاح له مرة أخرى أن يركب بدرو ويتحدث إليه ، ذلك الجواد الصديق الذى علمه كيف يمد يده مصافحا .

## ٢٧

# الجدة ستارك

كانت الدار قد عريت من كل شيء ما عدا السرير والكرسى ، وانتزع كل شيء عن الرفاف والجدران والبلاط ، فلم يبق إلا صورة الجدة معلقة فى مكانها رمزاً على المنزل الذى أوشك أن يقوض ، كانت هذه الصورة الصغيرة مثبتة على بعض الرفاف ، التى انتزع منها كل شيء ، وحفيدتها ممسكة فى غضب صندوقاً مفتوحاً ، وغطاؤه فى يدها . لم يكن بالحجرة سوي الحفيدة وجدتها إحداهما على الجدار تنظر فى عذوبة وهدوء . والأخرى لدى الصندوق قد غمرها الحسن والغضب .. كانت الصورة آخر ذخر تضعه فى الحقيبة قبل الرحيل . وما من غرفة أقامت بها منذ طفولتها إلا صاحبتها تلك الصورة فيها . تعيش معها وتنظر إليها ، لا بوجه باسم تماماً ، ولكنها كانت مشرقة المحيا كأنها زهرة رائعة . . . وكان للصورة إطار من الذهب القديم بديع الرونق ، وألوانها الزاهية ، يترددفيها الأزرق والوردى والأصفر ، خليقة أن تشيع البهجة فى كل ما حولها . . . وإلى الأمس القريب كانت صورة الجدة يجاورها من ناحية قلنسوة محارب من الهنود ، مجللة بالريش الفاخر ومن الناحية الأخرى قوس وسهام . ويقابل الصورة على الجدار فروة ثعلب فضى ، وفوق الباب قرنان لوعل أسود ، وقد فرش على الأرض جلد دب . ولكن على الرغم من أن هذه الحجرة قد زينت بأنواع التحف المختلفة فإن إعجاب الزائرين كان يتجه دائماً إلى الصورة الصغيرة .

وقد طويت جميع التحف ولم يبق فى هذا اليوم من أيام الصيف سوى هذه الصورة المدخرة تؤنس الحجرة الآن وتضيء ظلمتها إلى آخر لحظة ، وعندما

وقع بصر مولى وود على جدتها التى كانت تعيش فى بننجتن سنة ١٧٧٧ اتقدت عيناها ببريق فولاذى ، وهى جالسة وحدها فى هذه الحجرة التى قررت أن تهجرها إلى الأبد .. إنها لن تقوم بعد اليوم بالتدريس فى بير كريك بولاية ويومنج ، بل ستعود إلى أهلها فى بننجتن بولاية فرمنت . وعندما يحين موعد افتتاح المدرسة سيكون هناك معلمة أخرى .

هذه هى النتيجة الخطيرة التى ترتبت على زيارة الفرجينى لها فى المرة السابقة حين أبلغها أنه سيعود قريباً ليقضى معها ساعته . فصح عزمها على أن تهرب من هذه الساعة ، لابد لها أن تفر من قلبها ومن عاطفتها . لأنها لم تحس القدرة على مواجهة ذلك المحب القوى الجرئ مرة أخرى .. كان بها شوق إليه ، لذلك لم ترد أن تراه مرة أخرى . إنها لن تسمح لخالتها فى دنبارتن أو أى شخص آخر يعرفها ويعرف أسرتها ، أن يعيرها بأنها تزوجت من رجل يقل عنها مقاماً ، وأنها غير جديرة بأن تنتمى لأسرة ستارك . لذلك كتبت إليه تودعه وتتمنى له كل سعادة فى الحياة . ولم يكن من السهل عليها أن تكتب مثل هذا الكتاب لأنها كانت تعلم تمام العلم أنها ستحرمه كل شىء فى الحياة . فحاولت جهدها أن يكون كلامها مملوءا بالعطف والشفقة ، وقد كان كتابها فعلا كتاباً كريماً . . . وقد كان السبب فى هذا كله زيارته الأخيرة التى لم تدم غير لحظات ، عندما أعاد إليها قصتى « إما » و « الكبرياء وسوء الحظ » وقد سألته عند ذلك إذا كان الكتابان قد أعجباه ، فابتسم فى تؤدة ولم يقل شيئاً فقالت : « ألم تقرأهما ؟ »

— « كلا »

فأخذت مولى تؤنب راعى البقر ، فجعل ينصت إلى تأنيبها فى سرور ظاهر . كدأبه حين يصغى إلى كل كلمة تقولها .

وقد قال لها — بعد أن أتمت تقريعه — : « أظن أنى لو كنت واحداً من تلاميذك الصغار هنا فى مدرسة بير كريك ، لأمكنك أن تعلمينى أمثال هذه السفاسف ، ولكنى الآن رجل تجاوز سن الشباب ، وخيم عليه الجهل . »

— « هذا من سوء حظك »

« كلا إنى سعيد بأنى رجل، وإلا لما أمكننى أن أتعلم كل ماتعلمته منك » .

فأقفلت شفتيها وأدارت وجهها عنه وكان أمامها على المنضدة خطاب من فرمنت . قالت فيه كاتبته الماكرة : « إذا لم تخطرينى فوراً ، عندما تتخذين قرارك ، فلا أمل لك فى أن أكلمك بعد ذلك . لقد أخذت تساورنى الظنون . وإلا فما بالك لم تعودى تذكرينه فى هذه الأيام ؟ ما أعظم ابتهاجنا يوم تحضرين معك إلى بننجتن أحد رعاة البقر الحقيقيين . إننا سنتناول الغداء كلنا معه ، ولو انى سمعت أن كثيراً منهم شديد التمسك بآداب اللياقة . ولكن هل يظل متقلداً مسدسه على المائدة ؟ » وهكذا توالت عبارات الكتاب وفيها آخر النوادر والأحداث التى جرت فى الوطن . وقد تجاهلت مولى وود فى ردها ما بالكتاب من لهجة صبيانية .

وتكلم الفرجينى فأيقظها صوته من تفكيرها : « هاك بعض الزهر من شجر الصبار الذى طلبته . وقد أحضرت معى جواداً كريماً ، قمت برياضته حتى صار وديعاً وسيبقى لدى مستر تيلر حتى أحتاج إليه . »

— « أشكرك شكراً جزيلا — ولكن وددت لو أنك لم . . . »

— « أظن أنه لا يجوز أن تمنعينى من إعارة حصان لمستر تيلر . وإنك بلاشك ستسأمين التدريس إذا لم تخرجى إلى الهواء الطلق أحياناً ، والآن وداعاً إلى المرة القادمة . »

قالت : « نعم سيكون هناك دائماً مرة قادمة »

قال : « دائماً ! ألا تعرفين ذلك ؟ »

فلم تحر جواباً ، فتابع كلامه قائلا : « لقد أخبرتك من قبل أنك ستحبيننى ، وأنك ستتعلمين الشىء الذى علمتنى إياه . ولست أسألك الآن أمراً . ولا أريد منك أن تنطق بكلمة ولكنى لن أتركك حتى تزول « المرة القادمة » ونصبح أنت وأنا معاً فى كل وقت . »

ولم يكد يتم جملته حتى ركب مبتعداً دون أن يلمس يدها . وقد ظلت زمناً طويلا فى كرسيها بعد رحيله ، وعيناها تنظران إلى زهرات الصبار التى أحضرها وبعد لأى قامت من مكانها وأمسكت الأزهار ومشت نحو النافذة . وبعد ذلك وضعتها فى الماء على مضض .

أما اليوم فقد انقضت أيام بير كريك . وستعود إلى وطنها ، ولن تجىء نهاية الأسبوع حتى تبدأ رحلتها . وعندما يحمل إليه البريد خطاب التوديع الذى كتبته تكون قد غادرت هذه الديار .

أما سكان بير كريك — وهم جيرتها وأصدقاؤها الذين لا يعلمون من الأمر شيئاً — فلم يكونوا يتوقعون أن يحدث هذا ، وأسفوا لذلك أشد الأسف . ولكن لم يقل أحد منهم كلمة قاسية لها اللهم إلا جارتها وأكرم صديق لها ، مسز تيلر التى كانت مولى بمثابة ابنتها وكثيراً ما كانت تتردد على منزلها كل يوم . وقد فتحت مسز تيلر الموضوع على النحو الآتى :

قالت للفتاة وهى تضع مؤلفات روبرت بروننج وجين أوستن فى الصندوق : « عندما تزوجت تيلر كان زواجى للحب . »

— « هل تودين الآن لو أنك تزوجت للمال ؟ »

— « إنك تعلمين من أمرنا ما يردك عن مثل هذا التفكير . »

— « ومع ذلك فقد رأيت فى بلدنا أناساً لا يمكن أن يكونوا فكروا فى أى شىء آخر غير المال . ويبدو مع ذلك أنهم راضون . »

— « من الجائز أن يكون هؤلاء الكهول المساكين كما وصفت . »

— « لذلك لم أكن واثقة يوماً ما كيف أختار . »

— « بل إنك واثقة يا عزيزتى . هل تظنين أننى لا أعرفك . . . لقد تأتى أيام يحدثنى تيلر ويقول لى إنى أفضل شىء فى حياته ، فأقول له إنه ليس أفضل شىء فى حياتى فقط بل هو الشىء الوحيد فيها — هو والأطفال — وكلانا يؤكد أنه لو أتيحت لنا الفرصة مرة أخرى لأعدنا الكرة بنفس الطريقة ولنفس السبب » .

مضت مولى فى إعداد حقيبتها ولم تقل شيئاً .

فقالت مسز تيلر : « لهذا أود أن أرى كل فتاة أعزها ، أن تعرف حظها حين تراه مقبلا ! فلقد كنت على وشك أن أقول لتيلر ( لا ) . »

قالت مولى — وقد ولت ظهرها لصديقتها — : « إذا أقبل حظى يوماً فإنى سأقول ( نعم ) دون تردد . »

— « إذن ستقولينها فى بننجتن فى الأسبوع المقبل . »

فأدارت مولى وجهها نحوها فى دهشة .

فقالت : « أجل ستقولينها من غير شك . أتظنين أنه هو سيبقى هنا وأنت فى بننجتن ؟ »

— « هو ؟ ما هو ؟ ومن هو ؟ »

— « يا فتاتى العزيزة، إنك تتكلمين اليوم بغضب، لأن بينك وبين نفسك عراكاً . ولقد بدأ هذا العراك يوم قررت أن تتركينا والمدرسة وكل شىء لغير سبب ما . إنك لم تحسنى معاملته . ويا ليتنى كنت أعرف لذلك سبباً ! هل تبين لك من أمره فجأة شىء جديد ؟ إذا كنت تظنين أنه ليس كفؤاً لك فإنى . . . ولكنك على وشك أن تفقدى شخصاً من الطراز الأول يا مولى . إذا ظل مثل هذا الرجل وفياً مخلصاً لفتاة — على الرغم من الفرص الكثيرة المتاحة له — فإن حظها قد أقبل . »

— « حظى أنا ، إن للناس آراء مختلفة عن الحظ . »

— « آراء ، أى آراء ؟ »

— « لقد كان كريماً جداً »

عند ذلك غلت مراجل الغيظ فى صدر مسز تيلر ، حتى فاضت وانصبت على مولى وود فصاحت بها : « كريماً ، هذه كلمة لا ينبغى لك أن تقوليها يا عزيزتى . ولاشك عندى أنك تعرفين هجاءها . ولكنى أحسب أنك لا تعرفين عنها أكثر من تهجيها . وسيتعلم الأطفال معناها منا معشر العوام ،

الذين قد لا يحسنون هجاءها . »

— « مسز تيلر . مسز تيلر »

— « لا أستطيع البقاء يا عزيزتى . إذا كانت خشونة الماس تبدو لك أهم من الماس نفسه ، فأولى بك أن تعودى إلى ولاية فرمنت ولعلك أن تجدى هناك لغة أصح وأقل خطأ مما تجدينه هنا . »

وانطلقت السيدة الطيبة وعادت إلى دارها تاركة الفتاة بغيظها وسط صناديقها ، وعبثاً حاولت المضى فى إعداد حقائبها ، فكلما بدا لها أن تعيد ترتيب أحد الصناديق بقيت أشياء كثيرة لا يمكن وضعها فيه فكانت تضطر لأن تضع الأشياء فى شكل أحجار الدومنو ومع ذلك يتبقى بعد ذلك بعض المجلدات الفخمة لا تستطيع أن تجد لها مكاناً فألقت بها جميعاً على الأرض واعتدلت فى جلستها وقلبها لا يزال ثائراً وعيناها وخداها ملتهبة من وقع الكلمات الصادقة التى سمعتها ونفذت إلى قلبها. وهناك على الجدار الجدة ستارك فى صمت وهدوء ؛ فاستقرت نظرات الفتاة على هذا المحيا الهادئ ، كأنما تلتمس من جدتها أن تواسيها وتشد أزرها من وراء هذه السنين المائة التى تفرق بينهما. وهكذا وقفت الفتاتان وجهاً لوجه ، إحداهما فى شعرها الكتانى ومكانها على الجدار ، والأخرى وسط صناديقها ، وكأنما اتصلت روحاهما لحظة . وبعد ذلك عادت الحفيدة إلى عملها . ولكنها لم تلبث بعد محاولة يائسة أن أخذت نفساً عميقاً ومشت نحو الباب . ما الفائدة فى أن تتم حزم الأمتعة اليوم ولا يزال أمامها أسبوع ؟ وقد أصبحت الحجرة ، بعد مجهود يوم واحد ، عارية من كل ما كان يجملها وصار مظهرها جافاً بارداً . وفى الجانب الآخر من الطريق كان الجواد الذى راضه حبيبها يرعى . فمضت إليه وأمسكته وقادته إلى باب دارها . ورأتها مسز تيلر تعود إلى الحجرة وتخرج بعد قليل فى ثياب الركوب ، ثم رأت الفتاة تلقى السرج على الحصان فى سرعة وسهولة — تلك السهولة التى تعلمتها منه . كذلك رأتها مسز تيلر تضرب الجواد بحدة ، فضحكت وهى واقفة فى نافذتها ، ورأت

الجواد والفارسة يركضان إلى الفضاء البعيد تحت شعاع الشمس الجميل .

كان هذا الضرب فى نظر الجواد شيئاً جديداً لم يألفه ، فلما تكرر للمرة الثالثة أدار نحوها رأسه مستفهماً ولكنها لم تنتبه إليه أكثر من انتباهها إلى الكثبان أو الأزهار التى كان يجرى بها وسطها من تلقاء نفسه دون أى توجيه منها . وقد حملها فى طرقات كانت تعرفها عن ظهر قلب ؛ بعضها أرض مكشوفة والبعض غابات ، تارة يجرى بين دوح الصنوبر وتارة وسط الحشائش الطويلة . . . وكلها يخيم عليها الصمت والركود ، وهى تلمع فى ضياء الشمس ، وقد حياها فى طريقها بعض أصحاب المزارع ، وهو يتساءل لعلها أن تكون قد نسيته ، ومرت أيضاً على بعض رعاة البقر ومعهم قطيع من الفحول ، وهؤلاء حدقوا بها أيضاً . وأخذ وادى بير كريك يضيق وجوانبه الجبلية الوعرة تقترب . وجنادله الصغيرة تجرى بيضاء فى ظلال الظهيرة ، وأرهف الجواد أذنيه فجأة . لقد أرخى له العنان ، فانتهز هذه الفرصة ليذهب إلى مقره الأصلى فى مزرعة سنك كريك . ولكنه لم يكد يمضى فى هذا الاتجاه قليلا حتى سمع صهيل جواد من أصدقائه من سنك كريك ، فأجاب على صهيله بصهيل وحنين . وأسرع خطاه فاستيقظت مولى ونظرت إلى ما حولها : ماذا يصنع الجواد مونتى ها هنا ؟ وقد رأت الجواد الأسود الذى تعرفه تماماً ، مسرجاً يجر لجامه على الثرى بعد أن ألقاهما الفارس عند نزوله ، ورأت ينبوعاً بارداً يتفجر من وراء الصخرة التى أمامها ، فعرفت أن جواد حبيبها ينتظره حتى يشرب . فشدت لجام جوادها ولكنها لم تلبث أن أرخته إذ أحست أن من السخف أن تعود وتلوذ بالهرب . ولم تلبث أن رأته لدى الينبوع ، كانت إحدى ذراعيه ملقاة فى الماء إلى المرفق ، والأخرى ملتوية تحت رأسه . ولكن الوجه كان ملقى تحت الصخر البارز ، فلم تستطع أن ترى سوى شعره الأسود الأشعث وأخذ جوادها ينفخ بمنخريه ويهز رأسه ، فنظرت إلى مونتى كأنها تسأله ، فلما رأت العرق يغطى جسده ، وحول عينه إطار أبيض ، وثبت عن جوادها ، واندفعت نحو ذلك الجسم الذى

لا يتحرك ، فرأت بقعة من الدم خلف الكتف قد لوثت قميصه الصوفى الناعم ، وقد سال الدم إلى ما تحت الحزام . وقد كان جسم هذا الرجل القوى هامداً ، لا حراك به .

لمست اليد التى بجانب رأسه ، فلم تتبين إذا كانت دافئة أو باردة وأخذت تجس النبض بقدر ما استطاعت أن تتذكر كيف يفعل الأطباء ذلك . ولكنها لم تستطع أن تؤكد هل خيل إليها أنه ساكن أو متحرك . وضعت أصابعها مرتين بكل عناية ، وأخذت تبحث وتلتمس النبض ويبدو من ملامح وجهها كأنها تنصت . وانحنت بعد ذلك ورفعت ذراعه ويده الأخرى من الماء . فأحست ببرودتها الشديدة ولاحظت عند ذلك أن بقعة الدم وراء الكتف التى حركتها الآن ، قد أخذ يبللها دم جديد . فلما رأت هذا المنظر أخذت تستند على الصخور وقد أحست أنها هى توشك أن يغمى عليها . فأمسكت بصخرتين بشدة وهى جالسة بجانبه وأخذت تهمس بصوت مسموع : « لن يغمى على ، يجب أن لا يغمى على » والجوادان ينظران إليها وقد أرهف كل منهما أذنيه .

كان الينبوع فى هذا الموضع متسعاً فى صورة القدح ، وقد غمرته أشعة الشمس الدافئة ، وكذلك كانت الصخور الحمراء دافئة ، وأشجار الصنوبر بمثابة وقاء أخضر دافىء . والماء يجرى فى بير كريك متدفقاً على صخور تلمع فى ضياء الشمس . ومن وراء الوادى تسمو الجبال إلى قممها العالية ومن فوقها السماء زرقاء صافية . والجوادان واقفان على حافة الطريق الجبلى ينظران إلى الشجر وإلى الينبوع حيث جلست الفتاة الشقراء جامدة لا تريم ، إلى جانب الجسد الطريح يكسوه قميص من الصوف وسراويل من الجلد . . . وإنها لفى مكانها هذا ، إذا هى تصبح وقد أشرق محياها . « ولكن الدم قد جرى ! » . . . وكأنما كانت تخاطب الجوادين المرافقين لها . ثم اقتربت منه وأدخلت يدها من تحت قميصه ووضعتها على قلبه .

ولم تلبث أن وثبت من مكانها وأخذت تبحث فى سرجه ، ثم أسرعت إلى سرجها وعادت بزجاجتها الصغيرة وجلست بجانبه . وفى يدها ذلك الماء البارد الذى

كان يحاول اغترافه من الينبوع . فمسحت به على جبينه وسكبت منه على الكتف المجروحة . وحاولت ثلاث مرات أن تحركه حتى يرقد رقدة أقل إجهاداً لجسمه ، ولكن زنة جسمه كانت فوق طاقتها ، فكفت عن هذه المحاولة ، وجلست ملاصقة له ورفعت رأسه لكى تسنده على جسمها ، عند ذلك رأت أن الدم كان يسيل من الجزء الأمامى كما كان يسيل من الجزء الخلفى للكتف ، ولكنها لم تقل كلمة عن الإغماء . وأخذت تمزق قطعاً من ثوبها وتغمسها بالماء بحيث تكون مبلولة باردة دائماً ، وتضعها على كلا الجرحين ، ثم استخرجت مديتها وقطعت القميص فى مكان الجرحين . وجعلت تراقب أهداب عينيه الطويلة الناعمة الغزيرة ، وهى تغسل الحرق وتبلها ولكن الأهداب لم تتحرك ، وحاولت مرة أخرى أن تضع الزجاجة عند شفتيه ولكن ذهبت محاولتها عبثاً بسبب لطفها ورقتها ، ولاحت منها التفاتة فرأت بقايا رماد بجانب الماء لم تذهب به الرياح ، فتذكرت أنها قد أوقدت وإياه ناراً فى هذا الموضع ، لإعداد الطعام وطهوه ، وعمل القهوة فأخذت توقد ناراً جديدة ولما تم اشتعالها ملأت قدحها من الينبوع وجعلته على النار ليسخن وعادت إلى معالجة جروحه ، وقد أمكنها أن تقف النزيف بوساطة الماء البارد . فتناولت زجاجتها وصبت بعض الكونياك على الماء الساخن ، وكأنما أكسبها اليأس بعض الخشونة فدفعت الكأس بعنف بين شفتيه وأسنانه .

فأحست فوراً برعشة الحياة تعود إليه ، وأخذت عيناه تتفتحان أمامها وهى جالسة لا تتحرك ولا تنطق ولكن نظرته كانت براقة وهادئة دون وعى أو إدراك ، وقد أخذت تسأل نفسها : هل استطاع أن يعرفها ؟ وجعلت تراقب صفاء نظراته وهى لا تكاد تجرؤ أن تتنفس . ثم لم يلبث أن بدأ يتكلم بألفاظ بطيئة متقطعة .

— « ظننت أنهم وجدونى وتوقعت أن يقتلونى . » ثم سكت ، فأعطته مزيداً من الشراب الحار فتناوله وهو راقد ينظر إليها ، كأن الوقت الحاضر لم يبلغ إدراكه بعد . ثم مضى يقول : « لقد عرفت أن أيديا تلمسنى ، إذن لم أكن

ميتاً . وقد أحسست بهم عندما بدأوا . ولكنى لم أستطع التدخل . » وتوقف مرة أخرى ثم قال : « ما أغرب المكان الذى كنت فيه ؛ بل لعل الأمر ليس فيه غرابة . » ثم لم يلبث أن عاد إلى تخيلاته ، وجعل ينظر إليها وهى جالسة لا تتحرك .

أخذت تحس برهبة وهو حى بين يديها ، أشد مما كانت تحسه حين كان جسده هامداً ويده فى برودة الثلج . ثم نطقت باسمه فى هدوء وبصوت لا يكاد يتجاوز الهمس .

عند ذلك انتبه فى نظراته إدراك جديد ، فقال : « إنك أنت هى إذن ، أنت هى منذ البداية ، وأنت هى الآن ، ولكن يجب ألا تمكثى . » وغلبه الضعف فأغلق عينيه ، فأخذت تلاطفه وتعنى به ولم يكد يفيق من غشيته حتى قال لها باهتمام : « يجب ألا تمكثى لئلا يأخذوك أنت أيضاً . »

فنظرت إليه وفى نظراتها القوة والعزم وانتزعت مسدسه ، فلم تجد فيه سوى ظروف سوداء فارغة ، فألقت بها بعيداً وأخرجت من حزامه ست رصاصات جديدة وحشت المسدس وأقفلته .

فقال لها ، وقد ازداد وعيه وقلقه : « لا ، أرجوك أن تحتفظى به . . . إنى لم أعد أستحق أن تحافظى على . انظرى إلى حالى . . . »

فسألته : « أرضيت بالهزيمة ؟ » وحاولت أن ينم كلامها عن الازدراء .

قال : « ولكن لا معنى لأن يذهب كلانا . . »

وحاول أن يجلس ، فصاحت به أن يظل راقداً . فامتثل لأمرها وهو يبتسم ، فلما رأت هذا منه ابتسمت هى أيضاً . ثم أمسكت يده وقالت : « أنصت إلى يا صديقى . لن ينالك أحد بسوء ولن ينالنى أحد بسوء . والآن اشرب قدحاً آخر من الكنياك . » قال راعى البقر ، بعد أن سحبت يدها منه : « لا بد أن يكون الآن وقت الظهر . وإنى أذكر أن الوقت كان ظلاماً عندما . . . عندما أخذت أتذكر . وأكبر الظن أنهم خافوا أن يتبعونى إلى مكان قريب

من العمران . وإلا لكانوا هنا الآن . »

قالت : « لابد لك أن تستريح »

وأخذت تجمع الأطراف الغضة من الأغصان الخضراء وجعلتها وسادة تحت رأسه ، ثم ذهبت إلى الجوادين فأرخت حزام كل منهما وحلت لجامه . وقادتهما إلى الماء والمرعى . وفوق ذلك فإنها أرادت أن تتم كل عمل تستطيع النهوض به بمفردها . فأنزلت السرجين عن ظهرى الجوادين ، واستخرجت البطاطين على أن تعيدها إلى مكانها فى الوقت المناسب ثم أحضرتها إليه . ولكنه أقصاها عنه . وقد أمكنه أن يجلس مستنداً إلى صخرة وقد صار أقوى مما كان ، وطلب منها ماء بارداً . كان رأسه فى حرارة النار وقد استحال شحوبه إلى احمرار شديد .

قالت له — وهى تغسل رأسه بالماء البارد : « إنها خمسة أميال فقط »

قال : « نعم ولابد لى أن أتماسك . . . » وأشار بيده إلى الصخرة ، فطلبت منه أن يحاول التماسك حتى يعود إلى المنزل .

فقال : « نعم إنها خمسة أميال فقط ، ولكن مجرد الالتفات بمثابة معركة »

قالت : « إنا سنتعاون ، ولابد لك أن تركب جوادك . » وأخذت منديله من عنقه وربطته إلى منديلها ولكى تكون لديها الأربطة الكافية ، ذهبت إلى حزمة الثياب المربوطة وراء سرجه ، واستخرجت قميصاً نظيفاً ، فقدته شطرين ، فسقط منه منديل فتناولته أيضاً ، ولما فتحته وجدت فى طرفه الحروف الأولى لاسمها ، فتذكرت . وقد عاد إلى مخيلتها لقاؤهما الأول ، والنهر الجارى والمركبة المقلوبة والفارس المجهول الذى حملها إلى الشاطىء على سرجه ومضى دون أن ينال جزاء أو شكراً ، تلك المغامرة التى مرت بها فى اليوم الأول فى هذه البلاد الجديدة . والآن عرفت كيف فقدت منديلها فى ذلك اليوم ، وكانت قد نسيته تماماً . فأطبقته بعناية وردته إلى مكانه من الحزمة ، ولديها من الأربطة ما يغنيها عن استخدامه ولم توجه إليه كلمة . ولم يحسن فهم النظرة التى نظرتها

إليه عندما عادت لتضميد كتفه . وقال لها ، مطمئنا « إنها لا تؤلمنى كثيراً . فلا تبذرى ما بقلبك من الشفقة » مع أنه فى تلك اللحظة اشتد ألمه ، حتى تنبه ذهنه ، وأخذ يمسك بالصخرة .

قالت : « وأنت أيضاً لا تبذر قوتك . »

قال : « إنى الآن قادر على المكافحة بقوة لا بأس بها ؛ ولكن بدا عجزه حين أخذ يريها ما هو عليه من القوة . فقالت له : إنه على كل حال لم يزل طفلا .

قال لها — وهو يتبعها ببصره حين ذهبت لإحضار جواده : « نعم ، أنا نفس الطفل الذى كان يطمع فى أن يلمس القمر . » ثم قال لها وهو يهبط ببطء إلى السرج من فوق الصخرة التى ساعدته على ارتقائها ؛ » إنك ستكونين أنت الرجل ، حتى تنجلى هذه الغمة . »

وقد رأته يعض على أسنانه ، ويسلط كل ما فيه من عزم وإرادة للضغط على عضلاته وهو راكب جواده . وهى تمشى إلى جانبه ، تسنده بيمينها ،وتقود جوادها بيسراها . وجعلت تحسب له المسافات من آن لآن،فتذكر له الشوط الذى قطع والبقية الباقية ، وهى تتناقص بالتدريج ، وتشير إلى معالم الطريق يمران بها ثم يتركانها وراءهما . ها هنا الشجرة . التى لم يعد بها عش للزنابير ، وهذه غابة الحور قد لاحت ، وعندها يكون عبور النهر وقد ظل على صمته ممسكاً قرن سرجه بيديه وجعل انحناؤه فوقهما يزداد فى كل خطوة حتى إذا عبر النهر إلى الجانب الآخر ، خانته قواه فسقط فى صمت منزلقاً نحو العشب وقد أمسكته قليلا ولذلك كان سقوطه هيناً سهلا . ولكن الدم أخذ يسيل قليلا ولم تستطع أن تتركه لكى تلتمس من يساعدها ، فأعطته ما بقى فى زجاجتها من الكونياك وسقته من الماء بقدر حاجته .

قالت : « لم يبق إلا ميل واحد » ووجدت جذع شجرة ضخم فساعدته حتى اعتلاه وأمكنه أن يحبو منه إلى ظهر جواده وسارت إلى جانبه تحادثه ،

وتطلب منه أن يذكر الخطوات التى قطعت . » وهكذا قطعا النصف الأول للميل . الرجل الصامت ملصق بجواده والفتاة تمشى بجانبه تحاول أن تسليه وتشد من عزيمته . ثم أخذ يتكلم فجأة .

ـ « سأقرئك الوداع الآن ، يا سيدتى »

لم تستطع أول الأمر أن تفهم لهذا الكلام معنى .

قال الفرجينى : « إنه يحاول الهرب ، لابد لى أن ألتمس منك المعذرة يا سيدتى . »

لقد مضى زمن طويل منذ أن خاطبها حبيبها بيا سيدتى . فنظرت إليه وقد أخذت مخاوفها تتزايد ورأته يثنى عنان مونتى وهو يريد أن يبتعد عنها ، فأمسكت بلجام الجواد . وقالت وقد أتاها الإلهام : « لابد لك أن توصلنى إلى دارى فإنى أخاف الهنود . »

قال : « لا خوف عليك . إنهم ذهبوا كلهم . هاك الحصان يا سيدتى . . »

قالت ــ وهى تغذ السير متشبثة باللجام : « كلا إن الرجل ذا المروءة لا يدعو سيدة إلى الركوب معه ثم يتركها . »

عند ذلك بدا فى عينيه التردد وقال : « سأوصلك إلى دارك من غير شك . إن الحصان الأحمر قد ذهب لينغمس فى تلك البؤرة . وسيفهم القاضى هنرى هذا ويعذرنى » . وهكذا ظل وهو راكب يراقب أشياء يصورها له الوهم، وصارت الفتاة هى الملتزمة الصمت، اللهم إلا حين تحاول تحويل فكره عن الحصان الأحمر ، الذى ملك عليه خياله ، وأسرعت فى سيرها عندما ازدادت ثرثرته . وهى تصغى منتبهة لكى تمنعه من التفكير فى الرجوع وأخذت تخترع الأسئلة بمهارة لكى تشغل بها ذهنه . فلما وصلت به إلى باب دارها ، كان لها نوع من السيطرة عليه بحيث كان يجيب بإخلاص عن المبتكرات الغريبة ، التى كانت تخترعها ويستجيب لأى طلب أو فكرة تخطر ببالها ، وبعد لأى أمكنها أن تنزله عن الجواد وتقوده بتؤدة حتى أجلسته فى حجرتها . وهو مطيع لها ولكن

عقله كان شارداً تماماً ، ولم يكن هنا أيضاً من يساعدها ، حتى فى هذا المكان . فقد كانت موطنة عزمها على الاستعانة بجيرانها فأسرعت إليهم ؛ فألفت دار أسرة تيلر مغلقة صامتة ، ومعنى هذا أن الوالدين والأطفال قد ركبوا فى نزهة أو رحلة . ولن تكون أحسن حظاً إذا حاولت أن تستعين بجيرانها الآخرين وبينها وبينهم ميل لابد لها أن تقطعه ، فعادت إلى حجرتها وقد بدأ التردد والحيرة يعودان إلى عقلها ؛ فرأت فيه تغيراً ملحوظاً — ولقد اشتدت به العلة واستحال وجهه عما كان عليه . واستولى المرض على كل عضو وكل جارحة فى جسم ذلك الفارس العظيم بحيث بات من السخرية أن يحمل المسدس والمهماز والسراويل الجلدية . . . نظرت إليه ، فعاد إليها العزم والرأى الواضح السديد ؛ فساعدته حتى نقلته إلى السرير ، ثم أرقدته عليه . فارتمى رأسه على الوسادة وذراعاه حيث وضعتهما . ثم قامت وسط صناديقها وتحت تلك الصورة الصغيرة ، المطلة بمفردها من الحائط بألوانها الذهبية والزرقاء ، وأخذت تجرده من ثيابه الثقيلة . وأحست ببرودة جسمه ، فغطته حتى وجهه وأصلحت له الوسادة ، واستخرجت من أحد الصناديق « البطانية » الهندية ذات اللون الأسود والأحمر وألقتها عليه . ولم يبق لها بعد ذلك ما تستطيع أن تعمله ، فجلست إلى جانبه تنتظر . وكان من الأشياء الكثيرة التى أخذت تعود إلى ذا كرتها عبارة قالها منذ زمن طويل فى غير اكتراث فقد ذكر لها « أن رعاة البقر قلما يمتد بهم العمر حتى تدركهم الشيخوخة » . وها هى ذى الآن تنظر إلى رأسه على الوسادة وقد بدا فيه الجد والقوة ولكنه لا يزال رأساً يرمز إلى شباب مجيد لم يمسسه البلى .

لم تكد تسمع صلصلة المركبة ، حتى اندفعت إلى الخارج ، فقابلت جيرانها عند عودتهم فى منتصف الطريق فأنصتوا إلى كلامها فى دهشة وأقبلوا بسرعة نحو السرير ثم ارتحل تيلر لكى ينشر النبأ عن الهنود وليحضر الطبيب من مسافة خمسة وعشرين ميلا . وهكذا وقفت المرأتان الصديقتان كما وقفتا فى صباح ذلك اليوم ، وكان الغضب آخذاً من كل منهما .

قالت مسز تيلر : « قبليني يا عزيزتي ودعيني الآن أعني به . إنك أنت نفسك في حاجة إلى من يعني بأمرك . »

وذهبت مسز تيلر إلى بيتها ، وعادت بما لديها من أربطة وعقاقير فألفت الفتاة في مكانها مستبدة برأيها وأبت مولى أن تصغى إلى أية إشارة بأن تستريح ، كما أبت أن تبرح هذه الحجرة حتى يجيء الطبيب وعندئذ قد تفكر في أن تستريح قليلا . وهكذا تعاونت السيدة والفتاة على غسل الجرح ، ولفه بأربطة نظيفة . وعمل كل ما وسعهما ، ولاشك أن ما فعلتا كان هو الذى يجب أن يعمل . بعد ذلك جلستا تراقبانه وهو يتقلب في الفراش ويهذى ولم يكن هذيانه الآن عن الهنود أو الحصان الأحمر ، أو عن أى شيء حديث العهد فيما يبدو اللهم إلا شغله في المزرعة ، فإن هذا الموضوع كان يمتزج دائماً بكل قصة يبتكرها أو يستعيدها ، وأخذ يتيه إلى ما لا نهاية له ، في عالم الأحلام والأوهام المتناقضة . ومع أن الأحداث والكلمات كانت مختلطة متراكمة بعضها فوق بعض ، فإن العبارات كانت أحياناً تلقى بوضوح عجيب . وكان في إمكان السيدتين أن تفهما بعض إشاراته بفضل ما كانتا تعرفانه من قبل . فإنه مثلا كثيراً ما كان يخاطب مونتي وقد تردد اسم مولى . ولكنه كان دائماً في صورة « مس وود » ولم يسمح لنفسه حتى في هذيانه أن يخاطبها بصيغة أقل احتراماً . وكان من آن لآخر يخاطب شخصاً بيا سيدتي . وكانت مسز تيلر – كلما سمعت هذه الإفشاءات – تلتزم الصمت وتلقي على مولى نظرات التأنيب الشديد . ولما أخذ الليل يتناقص ، كانت فترات من الصمت تتخلل نوبات الهذيان ، فانخدعت بذلك السيدتان ظناً منهما أن الحمى قد خفت وطأتها . ولما جلس الفرجيني في فراشه في سكون وهدوء وهو يحاول أن يفك أربطته وهو ينظر محدقاً في مسز تيلر ، نهضت من مكانها بسرعة وذهبت إليه تسأله عن حاله .

فقال : « قف على رجليك أيها الوغد ، وقل لهم إنك كذاب . »

فهال السيدة الفاضلة أن ينطق بهذا السباب وأمرته أن يرقد فامتثل لأمرها

بذلك الإدراك الذى يحسه المريض وهو يهذى ، ولكنه حتى فى خضوعه وامتثاله كان يتمتم بألفاظ « كذاب » و « وغد » و « ترمپاس » .

لم تكد مسز تيلر تسمع هذا الاسم حتى تنورت والتفتت إلى مولى . فرأت الفتاة تقاوم نوبة من نوبات الضحك أثارها كلامه . ولكن الضحك لم يلبث أن تملكها ، وصار نوبة أليمة فجعلت مسز تيلر تمشى بالفتاة فى الحجرة ذهاباً وإياباً وأخذت تتحدث إليها حتى تستلفت انتباهها .

فقالت لها : « أظن قد آن لك أن تعرفى القصة ، ومع أنه سيلومنى لأنى أخبرتك بها ، فما الضرر من ذلك بعد كل هذا العهد الطويل ؟ وهيهات أن تسمعيها يوماً من فمه . والأمر وما فيه يا فتاتى أن الناس تزعم أن ترمپاس هذا لو استطاع أن يقتله لفعل ، وهذا كله من أجلك . »

قالت مولى وهى تحدق فى صاحبتها : « ولكنى لم أر ترمپاس فى حياتى . »

قالت : « كلا يا عزيزتى . ومع ذلك أخبرنى زوجى أن ترمپاس تحدث عنك بما لا يليق أمام جمع من الرجال . فأرغمه الفرجينى أن يعترف بأنه كذاب أمامهم جميعاً . هذا ما فعله يوم كنت أنت حديثة العهد بهذه البلاد ؛ غريبة عنا جميعاً ، ولم تكن صلات المودة قد بدأت بينكما بعد . أظن أنه ليس له عدو فى هذه الديار كلها غير ترمپاس هذا . ولكنه يأبى أن يخبرك بشىء من ذلك . »

قالت مولى هامسة : « كلا ، لم أكن أعرف . »

فى هذه اللحظة صاح المريض فى لهفة وألم : « يا ستيف ، يا ستيف » كان هذا الاسم مجهولا للمرأتين ، كذلك كان مجهولا لهما ذلك التيار من الشعور العميق ، الذى لم يعد قادراً على كتمانه ، لأن زمامه أفلت من يده ، فصاح : « ليس هذا بصحيح . » ثم أضاف بلهجة المكر وبصوت خافت : « لقد كذبت من أجلك يا ستيف . »

بعد قليل رأت مسز تيلر أن تقدم لصاحبتها بعض النصح : « أولى بك يافتاتى أن تأوى إلى مضجعك ، إن منظرك يدل على أنك أنت أيضاً فى حاجة إلى الطبيب . »

قالت مولى : « إذن سأنتظره ها هنا . »

وهكذا بقيت الممرضتان ، حتى أخذ السواد يتحول بياضاً لدى النافذة ، ولم تبق حاجة إلى المصباح . وعاد الهذيان إلى المريض ، ولكن أيا كانت الجهات التى يذهب إليها خياله ، فإن ألمه المبرح لم يكن يفارقه ، فكان يهز كتفه الضخمة ، لعله أن يخلصها من وطأة الألم . اكتفت المرأتان بالانتظار حتى يحضر الطبيب ، لا تجرؤان على أن تفعلا أكثر من أن تصلحا الوسادة . أو توفرا له ما فى وسعهما من وسائل الراحة . ولم يحضر الطبيب حتى الظهر ، وحضر بدلاً منه رسول ينبئ أنه قد ذهب لعيادة مريض على بعد ثلاثين ميلاً أخرى وأن تيلر قد سار فى أثره ليحضره فى أقرب وقت ممكن . عند ذلك رضيت مولى أن تأخذ قسطاً من الراحة ثم تعود للمراقبة بدورها . وبعد أن اضطجعت قليلاً فى بيت صديقتها ، حاولوا أن يستبقوها هناك . ولكن طبعها الثائر أبى أن يذعن لذلك ، ولما حاولت مسز تيلر أن تحتج بآداب اللياقة والتقاليد ، ضحكت الفتاة الآتية من فرمنت ضحكة عذبة فى وجه صاحبتها ، وعادت إلى مجلسها لدى المريض . ولما أقبلت الليلة الثانية ، كانت الحمى أشد وطأة وسيطرتها عليه أكبر ، فيما يظهر ، مما كانت من قبل . ثم لم تلبث أن صارت حركاته من العنف بحيث دعت الحاجة إلى الاستعانة بأذرع أقوى لإخضاعه . ومرت لحظات كان يتحدث فيها بلغة معسكرات الرعاة . فأخذت مسز تيلر تلح على صاحبتها أن تستريح فى مكان آخر . فقالت مولى : « لماذا ؟ ألم تعلمى أنى كنت أعرف أنهم ينطقون بهذه الألفاظ ؟ » فلم يكن للسيدة مندوحة من أن تكف عن غيرتها على آداب اللياقة ، وقد ازدادت حباً للفتاة برغم دهشتها . ومع ذلك فإن هذيانه لم يخرج مرة عن الحد ، وكان بعيداً كل البعد عن الفحش ، الذى كانت تخشاه ، فعلى الرغم من أن راعى البقر صاحب أقرانه وعاشرهم ، فإن طبعه وعقله الطاهر جعل تفكيره طاهراً نظيفاً فى كل وقت وحين . وعند ما طلع الصبح ، وقد جلست مسز تيلر ترعاه بدورها ، سألها فجأة عما إذا كان قد مضى عليه وقت طويل وهو

مريض ، ونظر إليها بعين تمثل فيها الهدوء . فقد غادره الهذيان مرة واحدة ، على ما يظهر ، وعاد إليه وعيه تماماً . وكان مع ذلك ضعيفاً جداً ، وسأل مرة أو مرتين عن حاله وكيف أتى إلى هذا المكان . إذ لم يبق فى ذاكرته شىء حتى عن الذهاب إلى الينبوع ، الذى وجد عنده .

وعند ما أقبل الطبيب أخيراً ، قال إن الأمر سيطول ، أو ينتهى بسرعة ، وأثنى على المعالجة بالماء النقى . ومن حسن الحظ أن الجرح كان فى مكان عال فى الكتف ، وإلى تلك اللحظة لم تظهر فيه علامات رديئة ، أجل لم تكن هناك علامات رديئة قط ، وقلما كان فى الرجال من له قوة جسم هذا المريض ودمه ، وكل ساعة منذ الآن ستجعل اليقين أقرب فأقرب ، وإلى أن يظهر اليقين ، سيبقى الطبيب ما وسعه البقاء . ولم يلبث أن أحاط به الكثير يسألون ويستفسرون. وكم من فارس أشعث أغبر ، أقبل على جواده ، وبعد أن يصغى لمقال الطبيب ، يهيب به وهو مرتحل : « لا تدعه يمت يا دكتور ! » وأرسل القاضى هنرى من سنك كريك بأنه مسئول عن كل ما ينفق لعلاج المريض وتطبيبه . ولا شك أن البلاد بأسرها أبدت تأثرها واهتمامها ، وترددت فى أذن مولى هذه العبارة التى تنم عن شعور صادق عميق : « لا تدعه يمت يا دكتور ! » وقد أصبح الهنود الذين ارتكبوا هذا الإثم فى السجن الحربى الآن . وهم عبارة عن جماعة جاءت من إحدى جهات الحجز فى الجنوب من غير إذن ، طلباً للصيد ، ثم للسرقة . . فلما استيقظت الشهوة فى نفس فتى أو اثنين منهم ، أغراهما الشباب والطموح بالمغامرة وسط هذه الجبال ، وشعابها الخفية ، وربما قتلا صياداً وجداه هناك . . ولم يلبث الصحفيون أن خلقوا من هذا قصة حرب شعواء . ولكن مجرد وجود خمسة من الهنود فى أحد السجون ليس فيه مادة لقصص الحرب ، حتى عند رجال الصحافة ، لأكثر من عددين اثنين . وإذا كانت هذه الأنباء لم تزل موضوع الأحاديث فى جهات أخرى ، فلم يكن لها أثر هنا فى حجرة المريض ، وقد قال الطبيب لمولى إن الفضل يرجع إليها ، فى أن هذا الرجل الجريح قد أتيحت له

فرصة الشفاء، وسواء أتحسنت حاله أم لم تتحسن فان الفضل يرجع إليها وحدها في انه قد أعطى هذه الفرصة ، وقال لها إنها لم تلعب دور امرأة ، بل دور رجل . ولم يبق الآن شيء سوى الانتظار حتى يشفى المريض ويستطيع أن يشكرها بطريقته الخاصة . وقال هذه الكلمات وهو يبتسم ، ويفترض أموراً لا تطابق الواقع ، ولعل مسز تيلر هي التي ضللته .

قالت مولى ببرود : « أخشى أن أكون قد سافرت من هنا عند ما يشفى . » فقال الطبيب متلطفاً إنها ستجد في بننجتن اختلافاً كبيراً عن بير كريك

غير أن مسز تيلر تكلمت بخلاف ذلك . فلم يسع مولى إلا أن قالت بقوة : « سأبقى هنا ما دام لوجودى نفع . وسأعنى بتطبيبه ، وأقدم له كل ما في وسعى من العون . »

فقالت مسز تيلر بخشونة : « ولن يكون هذا بالشيء الكثير يا عزيزتى . إن سنة تمريض لا تعادل يوماً واحداً من أيام الحب . »

فخرجت الفتاة لتتمشى قليلاً ، إذ لم تبق لها فائدة في الحجرة الآن ، ولكنها لم تلبث أن رجعت أدراجها ، دون أن تذهب بعيداً . وقد لمحتها مسز تيلر تتكىء على سور المرعى لتراقب الجوادين – وهما الحصان الذى راضه من أجلها ، وموني حصانه الخاص ، وفي هذه الفترة حضر شخص يطلب الدكتور ، وقد أراد الجيران أن ينتفعوا بوجوده في بير كريك . فرأت مسز تيلر في تلبيته الطلب ما يبعث على الأمل على الرغم من وعده بأن يعود بسرعة ، وقد بر بوعده وعاد بعد ست ساعات ، والاطمئنان مرتسم على محياه . ولم يكن به حاجة إلى أن يبذل للمريض مزيداً من العناية والفحص ، سوى ما لا بد منه لتطمين الجمهور المتعطش . وأعلن لهم رأيه بأن كل شيء على أحسن مما كان يرجوه ، وأن هذا التحسن تم بسرعة لم يكن يتوقعها ، وقد بدأ المريض يدخل في يومه الخامس ، والجرح منظره سليم ، ولم يعاود المريض الهذيان ، وقد نقصت حرارته درجة أثناء غيبته ، وهو يرى أن المريض قد اجتاز مرحلة الخطر ، وما لم يحدث ما ليس في

الحسبان ، فإن قوته العظيمة كفيلة بأن تقهر المرض . وقد فقد كثيراً من الدم ولا بد أن يعنى به أسابيع – ثلاثة أو أربعة أو خمسة – ومن العبث أن نحدد الزمن الآن . ولا بد أن يسود الهدوء كل شيء حوله فى الأيام القليلة القادمة . فلا ينبغى له أن يتكلم أو يسمع أى كلام يزعجه . وسيأتى الوقت للانبساط والمجالسة بالتدريج ، وعسى أن يكون هذا قريباً . بعد ذلك انصرف الطبيب ، وأرسل فى اليوم التالى بضع زجاجات ، وتوصيات بالعناية بالجرح وصيانته من الأقذار . وأعلن أنه سيعود بعد يومين .

فى زيارته الثانية وجد مريضين لا واحداً . إذ ألفى مولى وود طريحة الفراش فى منزل مسز تيلر تبدى أشد الأسف والاعتذار . فإنها حينما قل عملها ، وحرمت ذلك القلق والنشاط الذى كان لها بمثابة منبه قوى ، عند ذلك خارت قواها فجأة ، وباتت عاجزة عن الكلام إلا بهمس . ولكن صوتها لم يلبث أن عاد إليها ، بعد أن أرغمتها مسز تيلر بعنف أن تستريح ، وأن تلزم الفراش ساعات طويلة . ولم يبق لدى الدكتور علاج لها سوى بعض التأنيب واللوم ، سرّت له مسز تيلر كثيراً . ولم يفت الطبيب أن يشير إلى استبداد الأعصاب القوية بالأجسام النحيلة ، والحرص على النهوض بأعمال كثير من الناس ، مع أن هؤلاء الناس موجودون ليؤدوا أعمالهم بأنفسهم ، وهذه العبارات أعجبت مسز تيلر أيضاً . أما الرجل الجريح فإن مسلكه لا غبار عليه . ولعله أن يكون من الممكن نقله بعد أسبوع إلى حجرة أبعث للانشراح . أما الآن فلا بأس أن يبقى فى أى بيلر ( جرن ) ، مع وفرة الهواء النقى والنظافة .

بعد أن ارتحل الطبيب قالت مسز تيلر : « ما أحسن حظنا إذ كان لدينا مثل هذا الطبيب العاقل . »

قالت مولى : « بلا شك . فقد وصف حجرتى بأنها بيلر ( جرن ) . »

« أنت جعلتها هكذا يا حبيبتى ، غير أن المرضى قلما يلاحظون شيئاً . »

ومع ذلك فإن هذا ليس بصحيح ، فإن المرض بدلاً من أن يضعف قوة

الملاحظة ، كثيراً ما يقويها ، وعلى الأخص عند الأشخاص ذوى الذكاء الحاد بطبعهم . فقد حدث أن خرجت مولى بعد ذلك ببضعة أيام فى المركبة مع مسز تيلر لاستنشاق الهواء فأخبرتها هذه السيدة أن الرجل المريض قد لاحظ حالة الحجرة . وقالت : « لم أستطع أن أقول له أشياء قد تزعجه . فلم أقص عليه الحقيقة كلها . بل اكتفيت بأن قلت له إنك حزمت أمتعتك لكى تزورى أسرتك زيارة قصيرة ، بعد أن مضى زمن طويل لم تزوريهم فيه ، فنظر إلى الصناديق نظرة صامتة . »

قالت : « لا داعى لنقله من الحجرة . وأسهل علينا أن ننقل الصناديق ، ومن الممكن أن أستخرج بعض الأمتعة لتجميل الحجرة ، ما دام هوفيها ، وما دام هذا هو رأى الطبيب . »

« أجل يا عزيزتى . »

قالت مولى : « وفى المرة الآتية سأسأل الطبيب إذا كان يرى أننى كفءٌ لأن أفرش بساطاً على الأرض . » كانت إشارات مولى إلى الطبيب فى هذه الأيام لا تخلو من الحدة ، ولكنه لم يلاحظ فى هذا شيئاً ، ولذلك أكد لها عند ما حضر أن اقتراحها هذا هو عين الصواب . وأنها إذا استطاعت أن تلعب الورق أو تطالع بصوت عال ، أو تقدم للمريض أى نوع من أنواع التسلية بشرط ألا تضطره إلى الكلام ، فإن فى هذا أكبر الفائدة . وعلى ذلك قامت فأحضرت لوحة الورق ، وجلست فى شى ء من التردد وجهاً لوجه أمام الرجل الذى أنقذته وعنيت بأمره . وقد كان مظهره اليوم أحسن من ذى قبل فقد حلق لحيته وقصر شعره وشاربه ، وجلس مستنداً إلى الوسائد ينظر إليها .

فتكلمت هى أولاً فى صوت المتردد وقالت : « إنك اليوم أحسن »

قال وهو يبتسم : « نعم ، وأصدروا إلىّ الأوامر أن لا أتكلم . »

« نعم ، أرجوك ألا تتكلم — اليوم على الأقل ».

فنظر إليها وقال فى بساطة ظاهرة : « لا ، ولكنى أقول شيئاً واحداً : أشكرك

على حسن صنيعك . »

فتناولت برفق اليد التى مدها نحوها . ثم أخذت تلاعبه الورق على اللوحة الممدودة بينهما . فكسبت أولاً ، ثم كسبت ثانياً . وفى المرة الثالثة وضعت الورق على اللوحة ، وأخذت تلومه لأنه يلعب ليخسر .

قال : « كلا ، ولكن أفكارى تشرد منى . ولعلى فى المرة الآتية أستطيع أن أثبتها على الورق . »

وقد سبق لها أن سمعت لصوته نغمات عديدة ، ولكن هذه أول مرة تحس فيه نغمة الحزن .

وعادت إلى اللعب معه ثانياً ، ثم رفعت اللوحة وانتهى بذلك الدور الأول .

فسألها : « أأنت ذاهبة ؟ »

قالت : « لن أبرح حتى أجعل هذه الحجرة أقل بعثاً للسأم ، والظاهر أنهم لم يريدوا أن يعبثوا بأمتعتى فى غيبتى . » وانحنت مولى مرة أخرى فوق هذه الصناديق التى أعدت للسفر إلى فرمنت . وأخذت تستخرج الأمتعة منها ، فلم تلبث أن فرشت جلد الدب على البلاط . وعاد الكثير من التحف والزخارف إلى مكانها القديم فى الأركان والزوايا . وعادت الكتب تتبوأ مقعدها على الرفاف . وكان مسك الختام أن وضعت الزهر على المائدة .

قال الفرجينى : « أقرب إلى عهدها القديم . » ولكن كلامه كان فى نغمة حزينة .

قالت : « مما يؤسف له أن يؤتى بك إلى مكان هذا منظره »

قال : « وقومك ينتظرونك . »

قالت مولى وهى تصلح البساط : « سأزورهم فيما بعد . »

قال : « هل أسأل عن أمر واحد ؟ » كان فى صوته الرقيق معنى التوسل ، فتوردت وجنتاها لذلك . وحدقت فى وجهه فى شىء من الخوف . وقالت : « إذا استطعت الإجابة عنه . »

قال : « هل طلبت منك أن تتركيني ، ولكنك حشوت مسدسي ومكثت معي ؟ هل حدث هذا حقيقة ؟ فإن الأشياء قد اختلطت في رأسي . »

قالت : « هذا ما حدث . وماذا عساني أن أفعل خلاف ذلك ؟ »

قال : « لا شيء ، لمن كان مثلك . لقد كان رأسي في اضطراب شديد ، وهذه جدتك الصغيرة الجالسة هناك إنها — ولكن هذه الأشياء لا تعيها الذاكرة » — ومسح بيده على جبينه — « وهي كثيرة جداً ، أو هي شيء واحد يتردد في كل حين — إن هذا كله حماقة من غير شك . » وختم كلامه في نغمة تكاد تكون وحشية . وبعد انصرافها من الحجرة رقد في سكون تام ، وهو ينظر إلى الصورة الصغيرة على الجدار .

وفي المرة التالية كانت حالته النفسية مختلفة كل الاختلاف . ولم يكن به أية رغبة في لعب الورق وقال لها : « إن قومك سيعجبون من أمرك . »

قالت مولي : « لا أظن أنه يهمهم أي شهر أختاره لزيارتهم . وعلى الأخص إذا عرفوا السبب . »

قال : « لا تجعليني يا سيدتي سبباً في تأخيرك . » فنظرت إليه مولي في دهشة ولكنه استمر يتكلم بلهجته الحادة : « ولو أني لن أنسى ، وكيف أنسى شيئاً من كل ما صنعت ؟ وبقطع النظر عن هذا ، فإن لديّ من قبل الكثير أذكره . ولكني أرجوك يا سيدتي ألا تنتظري ، وعلى فرض أنه كان عليك واجب يوم وجدتني أقرب إلى الموت مني إلى الحياة ، فاني الآن في تحسن مطرد كما ترين ، بل وبسرعة عظيمة . »

قالت : « لست أفهم كلامك هذا ، حقيقة لا أستطيع فهمه ، لماذا تتكلم هكذا ؟ »

كانت تمر به لحظات يخاطبها فيها . بياسيدتي . وكانت تكره ذلك ولكنها لا تستطيع منعه .

قال : « إن الرجل المريض غريب الأطوار . وأنت تعلمين أني شاكر لك صنيعك . »

قالت : « أرجوك ألا تعيد القول فى هذا الأمر وإلا ذهبت بعد ظهر اليوم ولست أريد السفر ولا أعددت له العدة ، ولعل الأوفق أن أطالع شيئاً الآن . »

« أجل ، هذه بلا شك فكرة حسنة ، وهذا خير ما تفعلين لتهذيبى ، فهل لك أن تحاولى الآن قراءة هذا الكتاب( إمّا Emma ) فإن الإنصات إليك أمر مختلف عن مطالعتى إياه بنفسى . » وقد نطق بكلامه هذا فى رقة وخضوع .

لم تعرف مولى تماماً ماذا عناه بكلامه هذا ، كعادتها حين يخاطبها بلهجة جدية . ولكنها أخذت تقرأ له ( إما ) ببطء أولاً وبعد ذلك بصوت ممتلىء بالحماسة التى تبعثها فيها دائماً جين أوستن ، وكانت تمسك الكتاب وتمضى فى القراءة مع تعليق قليل من آن لآن . ثم لم تكد تفرغ من قراءة فصل من هذه القصة الخالدة ، حتى رأت تلميذها غارقاً فى سبات عميق ولم يكن هنالك أدنى شك فى ذلك .

قالت لها مسز تيلر : « هذا خير ما تفعلين لتحسين صحته . وإذا كان الكتاب من السهولة بحيث يبعث اليقظة فيه فجربى معه كتابا أصعب . » هذا رأى السيدة الفاضلة الخالى من كل تقدير أو عطف .

لكن ظهر فيما بعد أن قلة التقدير لمؤلفات مس أوستن لم يكن راجعاً إلى صعوبتها وغموض كتابتها .

فعند ما ظهرت مولى على عتبة باب الفرجينى بعد ذلك قال لها مستغفراً : « لا شك أننى شخص بليد . » وأخذ يلتمس منها الصفح . وقال : « عند ما أفقت من نعاسى ، كنت شديد الخجل من نفسى لمدة نصف ساعة كاملة . » فلم تشك لحظة فى أنه اليوم صادق فيما يقول . فقد عاد إليه الهدوء ، ورقة الطبع ، وجعلها تحس بأنه آسف نادم للكلمات والعبارات التى آلمتها من قبل ، وإن لم يشر إليها الآن . وقال : « إننى شديد السرور لمقدمك . » ولما رآها تتجه نحو رف الكتب قال فى شىء من التردد : «أما كتاب ( إما ) هذا . . فإنى . . . أجد ما يقوله أولئك الأشخاص أو يفعلونه فوق إدراكى . ولكنى أظن » — وهنا كان

يتكلم بصعوبة — « إذا طالعت لى شيئاً خاصاً بشىء . فإنى خليق أن أظل مستيقظاً . » ثم ابتسم فى شىء من الحياء .

فسألته مولى وهى فى حيرة : « ماذا تعنى بشىء خاص بشىء . »

« أعنى مثلاً شكسبير ، فى مسرحية هنرى الرابع ، الملك البريطانى يحارب . وهناك نجله الأمير . ولا بد أنه كان فتى مدللاً ( مائعاً ) ، إذا صح ما قيل فيه. ولكنه كان يطوف المدينة مع عصابة من الغواة ، وكانوا فى عبثهم يسطون على الأهالى . فكان والده ينكر منه سيره مع هؤلاء الغواة . وطبيعى أن يكون الفتى والشيخ كذلك ، ومع هذا فقد أثبت الفتى النزق أنه رجل ؛ إذ أمكنه أن يقتل فتى من الأعداء وكان مثله من المدللين العابثين . قتله على كره منه وقد أبدى أسفه على ذلك . » وازدادت حماسة الفرجينى وهو يسرد القصة . وقال : « أستطيع فهم هذا كله . وهنالك رجل سمين الجسم كان مصدراً للضحك والتسلية للجميع . وهذا أيضاً طبيعى . ولو أننا قلما نرى شخصاً سميناً إلى هذا الحد . هذه المسرحية كتاب عظيم يا سيدتى . فهل لديك شىء من هذا الطراز ؟ »

قالت : « نعم ، أظن أنى فهمت نوع الكتاب الذى يعجبك . » وتناولت ديوان الشاعر برونىنج ، الذى كانت تعبده ، وتراه أقرب الناس إليها . فقد تسربت إلى نفسها بعض النعومة التى حلت بانجلترة الجديدة[1] ،وأضعفت قليلاً روح الثورة فى قلبها ودمها . وجعلتها تميل إلى التفكير الهادئ الرزين — إلا إذا كان هنالك هنود يغار عليهم . وجعلت تقلب صفحات الكتاب وودت لو استطاعت أن تقرأ له قصيدة باراسلسوس ، وبعض القصائد الطويلة الأخرى . ومرت بكثير من القصائد بسرعة ، مع أنها من الطراز الذى يضطره إلى البقاء مستيقظاً ، وبعد لأى أمكنها أن تختار له إحدى القصائد .

---

( ١ ) انجلترة الجديدة عبارة عن الولايات الشمالية الشرقية من الولايات المتحدة . وهى التى لم تلبث أن تحولت إلى المدنية والنعومة ، ويريد المؤلف أن يصف الفتاة بأنها تأثرت قليلا بتلك النعومة ولذلك تلجأ إلى أشعار برونىنج لكى تتخلص من هذا التأثير .

فقال لها إنها بلا شك أفضل من ( إما ) ، وهى فوق ذلك قصيرة . والحصان من أفضل الخيل . ومن رأيه أن الرجل الذى يريد أن يحتفظ بجواده لا بد له أن يراقب الطريق الذى يجرى فوقه حتى يتجنب الأخاديد التى تصادفه . وعليه أيضاً أن يلاحظ محاجر الجواد ولون حافتها. ومعظم الناس لا يستطيعون أن يلاحظوا هذا وهم راكبون . . وكان إعجابه بالقطعة التى قرأتها بعد ذلك أكبر من إعجابه بالأولى . وقال : إنها أيضاً قصيرة . ولكن نهايتها أضعف من مطلعها . »

فسألته مولى عما يعنيه بذلك . قال لها : « ما كان ينبغى للجندى أن يقول لقائده إنه قتيل . »

قالت مولى : « وما الذى كان ينبغى له أن يقوله إذن ؟ »

« لا شىء . إذا كان الجندى قد خرج من المعركة راكباً جواده والرصاص فى جسده ، لكى ينبئ القائد بالإستيلاء على المدينة ، فهذا عمل جليل ، ولكن تجىء بعد ذلك تلك الخاتمة الضعيفة — هل لك أن تقرئيها مرة أخرى ؟ »

فقرأت مولى :

أأنت جريح ؟ قال الجندى : « كلا »
— وقد جرحت عزته جرحاً أليماً —
« بل أنا قتيل ، يا مولاى » .
ثم خر صريعاً بجوار قائده —

قال الفرجينى فى تؤدة : « كلا ، بل أنا قتيل يا مولاى » وفى صوته نغمة التهكم تشهد بتقدمه فى مرحلة النقاهة . ثم مضى يقول : « إن رجلاً بلغ من بطولته أن يقوم بما قام به هذا الفتى ، يخر صريعاً دون أن يذكر ذلك . »

لم يسبق لواحدة من صواحب مولى الرقيقات أن تحدثت اليها عن مستر برونتج بهذه

---

( ١ ) هذه القطعة من قصيدة عنوانها « حادثة فى المعسكر الفرنسى »
والإشارة فيما بعد إلى صعوبة فهم برونتج يرجع إلى أنه فى بعض قصائده يتوخى الغموض الشديد حتى اشتهر بذلك وإن كان الكثير من شعره سهل التناول .

الصورة . فقد كان من عادتهن أن يتجمعن وينصتن إلى أشعاره برهبة وخشوع . ويزداد خشوعهن كلما ازداد عجزهن عن فهمه . . سكتت مولى لحظة لكى تفكر فى نقد الفرجينى هذا ، ثم قالت — وكأنما أوحى إليها بهذه الفكرة — : « إنه جندى فرنسى كما تعلم . »

قال راعى البقر : « لم تسبق لى معرفة بأحد الفرنسيين ، ومن الجائز أن يكونوا ممن يرتكبون أمثال هذه الحماقات . »

قالت : « ولكن لماذا تعدّ هذا حماقة . ألا ترى أنها مجرد عزته كجندى . »

قال : « لا . »

عند ذلك انغمست مولى فى الجدل والمناقشة ، ومالت نحو راعى البقر ، وعينها تحدق فى عينه وقد جعلت مرفقها على ركبتها ، وأسندت ذقنها إلى كفها ، ومال حجرها فانحدر منه ( بروننج ) إلى الأرض فلم تلتقطه ، لأن راعى البقر أخذ يشرح لها ببطء معنى الرجولة التى تجمع بين الشجاعة والتواضع ( ولو أنه لم يستخدم هذه الألفاظ بالذات ) وقد نسيت مولى كل شىء لكى تصغى إليه ، وهو أيضاً نسى نفسه والخجل الذى كان يمنعه من الاسترسال فى الكلام . وكانت تقاطعه أحياناً بعبارات مثل « مثل هذا لم يكن يخطر ببالى » أو « لم تخطر لى هذه الفكرة من قبل . » وقد تفتح ذهنها وانشرح صدرها لهذه الآراء الجديدة ، التى كان ذهنه يفيض بها فى سهولة ويسر . وقد رجعا بعد ذلك إلى الشاعر بروننج ، غير أن الفرجينى برغم تقديره لشعره ، بدأ يكرهه ، وقال عنه غير مرة : « إنه شديد التكلف . »

قالت مولى : « هذه قطعة كانت تحيرنى دائماً . »

قال الرجل المريض وهو يبتسم : « يا للهول ؛ هل هى قصيرة ؟ »

قالت : « قصيرة جداً ، فأرجوك أن تنتبه . » ثم قرأت له اثنى عشر بيتاً عن عاشق قذف بزورقه نحو الشاطئ فى المساء ، ثم اجتاز حقلاً ، ثم قرع زجاج نافذة ، ففتح له الباب ودخل .

قال الفرجينى : « هذا أفضل شىء سمعته إلى الآن . ولا يمكن أن يكون هنالك سوى رأى واحد فى هذا الشعر . »

فقالت الفتاة بسرعة : « ولكن انتظر : واسمع كيف افترقا . »

« أقبل البحر مندفعاً من حول الرأس

وأطلت الشمس من فوق حافة الجبل

فكان لها من شعاعها طريق ذهبى تسير فيه

أما أنا فحاجتى شديدة إلى عالم الرجال . »

قال الفرجينى : « إن هذا هو الحق بعينه . » وطأطأ رأسه ليتجنب تحديقها فى عينه .

فسألته : « هل كان بينهما خصام ؟ »

— « كلا ثم كلا . »

— « إذن لماذا يهجرها إلى عالم الرجال ؟ »

— « أحسب أنه يحبها أشد الحب . »

— « إذن أنت واثق أنهما لم يتخاصما ؟ »

— « كل الثقة يا سيدتى . إنه سيعود إليها بعد أن يخوض الغمار ؟ »

— « الغمار ؟ »

— « أجل ، غمار الحياة يا سيدتى . حيث عالم الرجال الذى أشار إليه . هذه قصيدة عصماء يا سيدتى . »

« ولكنى لا أرى سبباً لتفضيلك إياها على بعض القصائد الأخرى . »

فأجابها : « لا أكاد أستطيع الإيضاح ، ولكن لا شك أن هذا الشاعر عليم بكثير من الأمور . »

قالت مولى وهى تفكر : « يسرنى أنه لم يجر بينهما نزاع أو خصام . » وقد بدأت ترتاح لمعارضته لآرائها .

وكانت أربطة كتفه قد بدأت تضايقه قليلاً ، فأخذت تصلحها . وكان

هذا سبباً فى تحول الحوار من الأدب إلى ويومنج . فسألته مولى عما إذا سبق له أن أصيب برصاص من قبل ؟ فقال : « مرة واحدة . ولقد كان من حسن حظى أنى لم أدخل فى نزاع أو عراك إلا نادراً . فإن هذا أبغض الأشياء إلى نفسى . وإذا كان مقدراً لرجل أن يقتل . . . »

فقاطعته مولى وقالت : « هل سبق لك يوماً أن — » ثم أحجمت عن إتمام جملتها وقالت : « على كل حال لا تخبرنى إذا كان فى ذلك — »

فأجاب بهدوء : « أكبر الظن أنى أصبت واحداً من أولئك الهنود ، ولكنى لم أنتظر لكى أتأكد . غير أنى كدت أن أقضى على رجل من البيض فى ذلك اليوم ، لأنه كان يؤذى حصاناً . »

قالت مولى : « يؤذيه . »

« أجل ، أشد الأذى ، ولا أريد أن أحدثك عن ذلك . لأن هذا يؤلمك كثيراً ، أليست الخيل تعتمد علينا ، ولا بد لنا أن نرعاها كما نرعى أطفالنا ؟ ومع ذلك فإنى لم ألحق بذلك الرجل ضرراً بليغاً . وقد استطاع أن يستأنف السفر بعد ذلك مباشرة . ولو رأيته أنت لوددت أن تقتليه . »

وهكذا ظل الفرجينى يتكلم دون أن يدرك أثر ذلك فى نفس الفتاة . وهى أيضاً لم تدرك كيف كانت تتأثر بهذه الأحاديث والاجتماعات ، التى كان يدور الكلام فيها كل يوم عن الأدب أو عن غيره من الموضوعات ، وفى أثناء ذلك كان الفرجينى يكشف عن دخيلة نفسه وهو لا يدرى . وازداد سرور مسز تيلر لهذا كله ، وكثيراً ما كانت تجتاز الشارع لترى أهنالك حاجة لوجودها ؟ ثم تتراجع خلسة بعد أن تنظر من وراء النافذة . وترى الاثنين فى داخل الحجرة جالسين : الفتاة ذات البشرة الوردية وقد بدا عليها الاهتمام وهى تطالع أو تتحدث إليه فى رقة وعذوبة ، وهو — ذلك الجبار ، الذى لا يزال يشكو بعض الضعف — مضطجع وسط وسائده يراقبها بجد وانتباه .

وقد كف عن الكلام عن زيارتها لأسرتها . فلم يعد يذكر ذلك لا لها ولا

لمسز تيلر ، وكذلك مولى كانت دائماً تحول مجرى الحديث إذا أحست أنه سيؤدى إلى ذكر هذا الموضوع . وفى الساعات التى لم يكن يزوره فيها أحد ، ويخلو بنفسه فى هدوء وسكون . كان كثيراً ما يضطجع يتأمل حجرة الفتاة ، وما اشتملت عليه من التحف الصغيرة ، والصور التذكارية لأوطانها وأهلها . وجميع المظاهر الدقيقة التى تدل عليها وعلى مكانتها والجهات التى أقبلت منها . وأخذت القوة تعود إليه يوماً بعد يوم . وأتاه رسول القاضى هنرى فى المرة الأخيرة ببعض الثياب والرسائل من سنك كريك ، كما حمل إليه تحيات القاضى ، وعاد الرسول بأنباء التحسن فى صحته ، والموعد الذى ينتظر عنده أن يخرج إلى الهواء الطلق . فلما جاءت مولى وجدته ينتظرها فى قميص من الصوف الناعم ذى لون جميل ، وقد عقد منديلاً من الحرير حول رقبته . فقال لها إن من الخير أن يحس المرء أن مظهره محترم نوعاً ما .

وقد جاءت لتقرأ له أثناء الفترة المقررة للمطالعة . فألقت على كتفيه البطانية الهندية ذات الخطوط الحمراء والسوداء ، والمنظر الوحشى البراق . وكان فى ذلك اليوم نصف جالس ونصف مضطجع . فى شىء من الفتور مع الإحساس بالراحة التامة . وفى حجره إحدى الرسائل التى جاء بها خادم القاضى . وقد همت بالقراءة ولكن صمته وشرود ذهنه جعلها تكف عن ذلك على الرغم من أنها كانت فى منتصف كتاب كان شديد الاهتمام به ، وهو داود كوپر فيلد ؛ فقالت له إنه غير منتبه اليوم .

قال : « كلا ، لست منتبهاً ، لأنى أفكر فى شىء آخر . »

فنظرت إليه تلك النظرة الثاقبة التى يعرفها جيداً .

قال : « هذا أمر لم يكن منه بد . وإنى أرى اليوم أفكارى فى وضوح واستقامة ، ليس لى بمثلها عهد ، منذ — منذ استبانت الأمور فى عينى . والآن لا بد لى أن أدلى بهذه الأفكار — إذا استطعت ، إذا أمكننى ؛ » ثم سكت ، وعيناه تحدقان فيها . ويده قابضة على ذراع كرسيه .

قالت مولى مرتعدة : « إنك وعدت — »

قال لها مقاطعاً : « إنى وعدت أنك ستحبيننى ، وعدت بهذا نفسى ، والآن قد أخلفتُ هذا الوعد . »

فأقفلت كتاب داود كوپرفيلد فى صورة آلية ، واستحال الورد فى وجهها بياضاً شاحباً . »

قال فى لهجة رقيقة : « إن كتابك قد وصل إلى هنا . »

قالت : « كتابى ؟ ! » — لقد كانت نسيته تماماً .

« كتابك الذى كتبتيه لتودعينى . لقد كتبته منذ زمن — لا يبلغ الشهر بعد، ولكنى أحس أنه زمن بعيد جداً . »

فبدأت مولى تقول : « إنى لم أرد أن تعرف — »

فقاطعها مرة أخرى ولكن بمنتهى الرقة وقال : « لعل الطبيب هو السبب ، فقد أمر بأن لا يزعجنى أحد . وأظنك حسبت أنك إن أخبرتنى — »

فصاحت الفتاة : « ألتمس الصفح ، كان علىّ أن أبلغك من قبل ؛ وليس لى أدنى عذر ! »

قال : « ولِمَ تخبريننى ، إذا رأيت غير ذلك ؟ » ثم أمسك الخطاب بيده وقال : « تذكرين هنا أنك لن تستطيعى أن تجزينى عن صنيعى : وها أنت ذى قد قلبت الوضع ، فأصبحت أنا العاجز عن الوفاء بحقك ، مهما فعلت ! لهذا خطر لى أن خير ما أفعله أن أسعى على مهل إلى سنك كريك ، وأتركك تسافرين إلى وطنك ، حتى لا تجشمى نفسك عناء توديعى . وقد رأيت الصناديق من قبل . ومسز تيلر أطيب قلباً من أن تحسن الكذب . فلم تستطع أن تخدعنى وقد أدركت أنك سترحلين عن هذه الديار يوم رأيت الصناديق . ولكن الآن وقد تسلمت كتابك لم تبق لى مندوحة عن الكلام . وقد فكرت طويلاً ، وأنا راقد فى هذه الحجرة . وأستطيع — اليوم — أن أقول ما دار بفكرى . إنى لن أستطيع أن أجعلك سعيدة . » وسكت برهة ، ولكنها لم تحر جواباً . لقد كان صوته أرق

من الهمس . ولكنه لم يكن همساً ، وقد أدارت وجهها إلى الناحية الأخرى . وقد ملأ الدمع أجفانها .

وعاد يقول : « لقد كنت يوماً أتوهم أن الحب وحده يكفى . وإذا استطعت آن أبعث الحب الى قلبك ، فإنك ستعلميننى كيف أكون كفؤاً لك . وأظن أن فى وسعى أن أهبك حباً جليل القدر . ولكن هذا لا يغنى كثيراً فى معالجة تلك السفاسف والمضايقات التى تجري كل يوم بين أثنين يعيشان متلازمين ، إن مسز تيلر لا تعرف فى الدنيا شيئاً أفضل مما يعلمه تيلر ، ولا تطلب شيئاً لا يستطيع تقديمه لها ، وهى ترحب بأصدقائه كما هى سعيدة بصديقاتها » وهنا أقفل عينيه قليلاً وتنفس نفساً طويلاً وقال : « لقد كنت أحلم بك — وبسعادتى المنزلية — ولكن هذه البلاد لا تليق بسيدة من كرائم النساء . فهل لك أن تنسى وتصفحى عن المضايقات التى صدرت منى ؟ »

فصاحت مولى : « أوه ! أوه ! » وقد جعلت كفيها على عينيها ، ووقفت ، وهى تخفى وجهها بيديها .

قال راعى البقر وهو فى كرسيه : « لم يكن لى بد من أن أذكر لك هذا كله بصراحة . »

فصاحت مرة أخرى : « أوه ! »

قال : « لقد أوضحت لك الموقف . وكان من الواجب علىّ أن أرى منذ البداية أننى لست بالرجل الذى يستطيع أن يجعلك سعيدة . »

قالت مولى : « ولكن — ولكن — الأجدر بك — أرجوك أن تحاول أن تجعلنى سعيدة . » ثم ركعت بجانب كرسيه وجعلت وجهها على ركبتيه .

فانحنى فى صمت وطوقها بذراعيه ، جاعلاً كفيه على ذلك الشعر ، الذى طالما فتنه ، ثم همس فى أذنها : « لقد هزمتنى شر هزيمة ، فكيف أستطيع الدفاع ؟ »

فلم تجبه بكلمة ، وقد لفتهما معاً البطانية الهندية ، ذات الخطوط السوداء

والحمراء . فى هذه الساعة الجديدة قطع كل منهما العهد للآخر دون حاجة إلى كلمة تقال أو نظرات تتبادل . وهكذا ظلا طويلاً ، ورأسها الجميل بين ذراعيه الكبيرتين ، ورأسه الأسود مسند إلى رأسها ، وفى أثناء ذلك كانت تشرف على الحجرة الجدة ستارك فى إطارها الأزرق والوردى والأبيض ، وهى نصف راضية ، وشبه باسمة .

## ٢٨

# لا إفاقة من هذا الحلم

ظل برهة بعد أن غادرته ، مضطجعاً فى كرسيه لايتحرك، وقد أثبت عينيه فى النافذة المفتوحة وفى ضوء الشمس المنتشر فى الخارج . وجعل يرقب حركة الورق على أغصان شجر الحور . ما الذى قالته له وهى منصرفة ؟ قالت : « الآن أعرف مبلغ ما كنت فيه من التعاسة . » أخذ يردد هذه الكلمات العذبة لنفسه مرة بعد مرة . كأنه كان يخشى أن تضيع منه بطريقة ما . وقد كادت أن تفلت من ذاكرته مرة . ولكنه استطاع بوثبة من فكره أن يمسكها ويقبض عليها. وبعد ذلك. أخذ يتمتم قائلاً : « لم أسترد كل قوتى بعد ، فلا شك أنى كنت مريضاً جداً . » ولم يلبث أن أغمض عينيه وهو لايدرى، بسبب الضعف الذى خلفته الجراح والحمى . ثم أفاق فرأى شجر الحور مرة أخرى يهتز ويتمايل ، وأحس بالهواء الناعم العليل يهب من النافذة ، وتياره الخفيف يحرك الرماد فى الموقد الحجرى الكبير . فقال : « لقد كنت نائماً . ولكنى واثق أنها كانت هنا بنفسها . أجل . أجل . وقد ذهبت لأن من دأبها أن تتركنى طبقاً لأوامر الطبيب — ومع ذلك لقد كانت تطالع كتاب داود كوبرفيلد . وها هو ذا الكتاب ملقى على الأرض . ولكن ما لى أحس بخوف من نفسى ؟ — ثم قال يخاطب نفسه : « يا لك من أحمق أتشك فى صحة ما حدث ؟ إن الحمى ، مهما كانت شديدة ، لن تجعلك تشعر بما تشعر به الآن . »

واستقر نظره برهة على موقد النار ، ثم تحول إلى قرنى الوعل ، ثم إلى الرف الذى رصت عليها كتبها ، ولكنه توقف قبل أن يستقر على تلك الكتب . وقال :

« لا بد لى أن أستذكر أسماءها قبل أن أنظر إليها . لقد سبق لى أن رأيت أحلاماً مضللة . فإذا كان ما حدث مجرد وهم صوره لى المرض . فما أجدرنى أن أموت . ولكن إذا كان هذا الكتاب الملقى على الأرض هو فعلاً داود كوبر فيلد . » ( ونظر خلسة ليتأكد أنه الكتاب بعينه ) « إذن لا شك أنها كانت تقرؤه لى حينما حدث ما حدث ، وفوق ذلك فإنه ينبغى أن يكون هنالك مكان خال فى رف الكتب من جهة الشمال . » وحول بصره ببطء نحو ذلك المكان ثم صاح : « هذا برهان آخر . يشهد بصحة ما حدث »

وفى تلك اللحظة شاهد صورة الجدة ستارك فقال فى همس : « إنك لتشبهينها شبهاً قوياً . أجل لا شك أنك تشبهينها . فهل تسمحين لى أن أقبلك أنت أيضاً ؟ »

فنهض من كرسى المرض وهو يترنح ، فسقطت البطانية الهندية عن كتفيه ، ولم يزل يجاهد حتى أمكنه أن يقف على قدميه ، ثم أخذ يمشى ببطء مسنداً جسمه بيديه على الجدار ، حتى وصل إلى الجدار المقابل ، بعد أن توقف مراراً ، وأمكنه بعد لأى أن يصل إلى الصورة ، ولمس جبينها بشفتيه بلطف ورقة . وقال فى همس : « علىّ عهد أن أجعل فتاتك سعيدة كل السعادة . »

وكاد أن يسقط وهو يقبل الصورة . ولكنه تماسك ، ووقف برهة يرتعد ويقول لنفسه : « ويحك أين ذهبت قواك ؟ أخشى أن يكون الفرح قد أضعف رجليك . »

وفتح الباب . فإذا هى قد عادت تحمل إليه غداءه . فصاحت منزعجة : « ما هذا ؟ » ووضعت الطعام على المنضدة ، واندفعت نحوه ، وجعلت تساعده حتى عاد إلى كرسيه ، ولفته فى غطائه مرة أخرى ، ولم يصب بسوء ، ولكنها ظلت ممسكة به فالتفت إليها وقبلها بحرارة أشد من قبل : « سأكون مثال الطاعة »

قالت : « يجب عليك أن تلزم الهدوء . إنك شديد الشحوب . »

قال : « إنك أيضاً تتحدثين مثلى بالصوت الخافت . ولكن هذا حلم لا ينبغى أن نفيق منه . »

فيا عجباً هل قضى الأمر وأسلمت أمرها وحبها لهذا الفتى الوحشى ، الذى يحترف رعى البقر ؟ هل أصبحت كلها له مدى الحياة ؟ وهل استطاع ذلك الفرجينى أن يذيب قلبها ، حتى لم يبق فيه تصدع أو تردد ؟ لعل هذا هو رأيها ، لو أنها كانت تفكر أو تقلب الرأى . ولكنها اليوم بين ذراعيه ، وقد تلاشى التفكير وسط ما هو أجمل وأعظم .

## ٢٩

# رسالة إلى بننجتن

حافظا على مكنون سرهما فترة من الزمن، أو، على الأقل ، أحسا بسرور عظم ،لاعتقادهماأن ليس فى العالم إنسان يدرى بهذا الذى جرى بينهما. ولكن ظنى أنه كان هنالك شخص آخر يعرف كيف يحفظ السر أحسن مما يحفظه هذان العاشقان ؛ إن مسز تيلر لم تبد ملاحظة لإنسان كائناً من كان ، وعلى ذلك لم يكن أحد فى بير كريك أكثر غبطة وسروراً منها . وقد زالت عنها تلك الصرامة العجيبة التى ظهرت عليها من قبل عند ما كانت مولى تحزم أمتعتها . وأصبحت فى هذه الأيام شديدة العطف كثيرة التسامح مع « عزيزتها » فعلى الرغم من كونها ربة بيت دقيقة وحرصها شديد على رعاية مواعيد الوجبات ، وكثيراً ما كانت تعامل من يتخلف عن تلك المواعيد من أبنائها بمنتهى الشدة ، فإن مولى كانت معفاة من هذا كله ، بحيث لا تتعرض لأقل مؤاخذة .

وشكا جورج زوجها من ذلك وقال : « وليس هذا التسامح راجعاً لأنك لست أمها . لأنها كانت من قبل تلقى جزاءها . أما الآن فنحن الوحيدون الذين نجازى على التخلف . . . وها هى ذى قد أقبلت ونحن على وشك الانتهاء من طعامنا . أما من كلمة واحدة تقولينها لها . »

قالت الأم : « اسمع يا جورج . إذا استطعت يوماً أن تنقذ حياة إنسان ، فهنالك يجوز لك أن تتكلم . »

وهكذا كانت مولى تحضر لتناول وجباتها ، من غير انتظام ، وكانت تعتذر بأن ساعتها ليست دقيقة ، فلا يرد الآخرون على هذا العذر الواهى بكلمة ! فقد

كانت مسز تيلر التى لم يكن يجاريها فى شدتها أحد ، خليقة أن تسيل رقة وعذوبة فى بعض الأحيان . وهناك أمر واحد كان يحدث من آن لآن فيثير حفيظتها . . فعند ما كانت ترى أن البريد قد حمل كتاباً عليه طابع بننجتن ، كانت تهز قبضتها نحوه متوعدة . وكانت تقول لنفسها : « ما معنى عزّة الأسرة والحسب والنسب ؟ لو شاء زوجى تيلر لاستطاع الزعم أنه ابن الثورة الصميم . أتراها نبأت أهلها بما حدث ؟ »

أما الخطابات التى كانت ترسل إلى بننجتن ، فكانت مسز تيلر تطيل التأمل فى كل منها ، كأن الظرف سيصبح شفافاً إذا ما أطالت النظر إليه ، فيكشف لها عما انطوى عليه من الأسرار ، إذا كانت به أسرار . والحقيقة أن هذه الرسائل لم تكن تحتوى أى سر خطير ، إلى أن أتى يوم من الأيام ؛ وكانت مسز تيلر جديرة أن تنفجر فى ذلك اليوم لو أن الانفجار من الأشياء التى تعترى الناس كثيراً ، وكان السبب فى هذا الهياج الذى أصاب مسز تيلر ثلاثة كتب : الأول مرسل إلى بننجتن ، والثانى إلى دنبارتن . أما الثالث — وهو سبب هذا الهياج العظيم — فكان مرسلاً إلى بننجتن . ولكنه لم يكن بخط معلمة المدرسة الرقيق ، بل كان مكتوباً بيد رجل .

فصاحت مسز تيلر عند ما رأت ذلك : « هذا ما كنت أنتظر ! إنه قد كتب بنفسه إلى أمها » وهذا هو ما جرى فعلاً ، وقد تم ذلك على الصورة الآتية :

أتم المريض دور النقاهة ، ولئن كانت الأسابيع التى مرت لم ترد إليه قوته الكاملة ، فما ذلك إلا لأن الوسيلة الوحيدة لاسترداد قوته هى أن يركب حصانه مونتى أميالاً عديدة فى الهواء الطلق . ولكنه قد أصبح لديه من القوة ما يمكنه من اكتساب القوة . وإذا بلغ المريض هذه المرحلة ، فقد أصبح بعيداً عن كل أثر للمرض .

وفى يوم من الأيام خرج متنزهاً مع ممرضته ، طبقاً لما أوصى به الطبيب من أن يقوما بهذه الرياضة ، لمدة خمس دقائق أول الأمر . وقد أصبحت فى ذلك

اليوم ثلاثة أميال ، فقال لها : « لم تكن المسافة التي قطعناها بعيدة ، وأخشى أنني أستطيع أن أمشي ضعفها . »

قالت : « تخشى ؟ ما الذي تخشاه ؟ »

قال : « أخشى أن يكون معنى ذلك أنى أصبحت قادراً على أن أعود إلى عملي . فينقضى بذلك هذا الذى كان بيننا . »

فكان ردها على عبارته أن مالت بجسمها نحوه .

قال : « انظرى مثلاً إلى ما فعلته معى . منذ وقت غير بعيد ، كنت تساعديني حتى أقف على قدمى . أما الآن . . . » وساد الصمت بينهما لحظة . ثم قال : « لم يسبق لى أن مرضت مرضاً جدياً من قبل ، على قدر ما أذكر . ولو أن شخصاً أخبرنى أن المرض سيكون مصدر سعادتى ونعيمى . . . » ولم يتم كلامه لأنها رفعت وجهها إليه ، فتعطلت لغة الكلام .

فسألها : « هل دامت علتى زمناً طويلاً ؟ »

فأخبرته .

فقال : « أيمكن أن تدوم هذه الحال إلى الأبد ؟ ولكن لا — لا أريد أن أبقى إلى الأبد والحال على ما هى عليه الآن ، فإن هذا خليق أن يعيد إلىّ المرض ولكن تمنيت لو بقينا معاً إلى الأبد وليس هنالك شخص آخر يضايقنا . ولكن ليس من العدل أن تظل والدتك جاهلة بالأمر . ولها الحق فى هذه الحالة أن تسىء الظن بى . »

قالت الفتاة : « لنحتفظ بسرنا . »

قال : « يجب أن تعرف الوالدة ، بعد أن أذهب من هنا . »

قالت : « لعل هذا هو الصواب . ومع ذلك ألا تستطيع — ما الذى يدعونا لأن ننبئ الآخرين . »

قال : « إن والدتك ليست من الآخرين . إنها أمك وأنا أحس نحوها بتبعة لما فعلت . »

« إننى أنا الذى فعلت . »

« أهذا ما تظنين؟ ولكن والدتك لن ترى هذا الرأى . وسأكتب إليها اليوم . »

« أنت ؟ أتريد أنت أن تكتب إلى أمى ؟ إذن سيصبح كل شىء مختلفاً كل الاختلاف. إنهم جميعاً . . . » وسكتت مولى وقد أخذت تتمثل لعينها صورة بننجتن ومايجرى فيها . ورأت قصة حياتها الناعمة مع حبيبها راعى البقر ، وقد أحاطت بها أصوات العالم من كل صوب . وكأنما تسمع هذه الأصوات من بعيد . وترى عيون بننجتن تراقبه وهو إلى جنبها ، وتتخيل آذان بننجتن وقد أرهفت لكى تكشف عن هفوات فى كلامه ، وجعلت تتصور الزيارات التى لا بد لها أن تقوم بها وهو معها ، وما تشتمل عليه من طرق الأبواب ، والانتظار فى الردهة حتى تنزل ربة الدار ، وتقدم عبارات التهنئة التى أعدتها من قبل ، وعينها الخفية تكاد تبتلع الفرجينى ، وهى تفحص شكله ومظهره وأسلوبه فى الوقوف وفى الجلوس . وكيف يستطيع هؤلاء القوم أن يكشفوا عن حقيقة الرجل ، من مجرد التأمل فى سترته السوداء ، وقفازه العادى ، الذى لم يصنع من جلد الوعل ؟ وأنى لهم أن يتبينوا تلك المزايا التى تعرفها فيه ، أثناء تلك المقابلات الرسمية القصيرة . أو يكشفوا عن تلك السجايا التى جعلتها فخورةً به ؟ ستكون كلماته قصيرة بسيطة وسيقولون له: « نعم» . و « لا شك أنك تجد هذا المكان مختلفاً عن ويومنج كل الاختلاف. » ثم لا يلبث الباب أن يغلق خلفه حتى يتقولوا عليه الأقاويل . . . إنهم سيسيئون تقديره ، سيسيئون فهمه . فلماذا يتعرض لهذا كله ؟ إنه فى غنى عن كل هذا .

غير أن الفتاة وسط هذه الأفكار السريعة والخواطر المبهمة التى أزعجتها ، والتى أخذت تتدفق من خيالها . قد نسيت حقيقة واحدة لا شك فيها ، فمع التسليم بأن أصوات العالم ستنطق بمثل ماتخيلته ، وان عيون قومها ستحدق فى هذا العاشق على أنه من طراز خاص ، يختلف عن نظرائه من العشاق . وسيناله من هذا الفحص والتحديق أكثر مما يناله غيره من العشاق فى مثل هذه الظروف . أليس من المألوف أن جميع العشاق المقبولين يتعرضون لمثل هذه المعاملة القاسية

بواسطة أعضاء أسرة الخطيبة ؟ ومع ذلك فإننا معشر الرجال نستطيع أن نحتملها ونصبر عليها . من الجائز أنها ليست أعذب وأحلى ذكريات الخطوبة ، ولكنها لم تقض علينا ، واستطعنا أن نخرج منها بوسيلة من الوسائل : تغدينا مع العمة العزيزة جين ، وشربنا مع العم يوسف ، ومن الجائز أن العم هوراشيو صافحنا بأطراف أصابعه ، وهو الذى يكبره الجميع لثروته الطائلة . ومن الجائز أن بلغت مسامعنا فيما بعد أقوال الأسرة عنا . ولكن إذا كان المحب المختار عاجزاً عن أن يحتمل هذه المعاملة من أسرة خطيبته . فلا شك أنه وعاء ضعيف جداً ، وغير جدير بحب أية فتاة طيبة .

وبديهى أن الفرجينى ليس بالشخص الذى يصفه ، حتى أعداؤه ، بأنه وعاء ضعيف . ومخاوف مولى بأنه لن يحدث أثراً طيباً فى بننجتن ، لا محل لها . وهى الجديرة بأن تعرف أنه سيبذل جهداً لكى يترك فى النفوس أثراً طيباً . وأن كل ما قد يحس من قلق سيكون من أجلها ، لكى تتمكن من أن تثبت لأصدقائها أنها قد أحسنت باختياره زوجاً لها . أما فيما عدا ذلك ، وفى كل ما يتعلق بشخصه فإنه لن يبالى بما قد تقوله أو تتوهمه العمة جين أو العم يوسف ، إن أخلاقه وسجاياه واضحة لمن أراد أن يفحصها . والقاضى هنرى خير شهيد بما يعرفه عنه .

بمثل هذه العبارات يستطيع الفرجينى أن يرد على حبيبته لو أنها كاشفته بما يقلق بالها . ولكنها لم تكاشفه بشىء . ولم يكن هو بطبعه قادراً على التكهن بما يدور بخلدها . ولست أدرى أن هنالك فائدة كبيرة فى مكاشفته بمثل هذه الأمور ، اللهم إلا أن يكون التفاهم التام بين المحبين من الأمور المستحبة ، وما أحسبه يستطيع أن يزيل مخاوفها ، ويقينى أنها لا تستطيع أن تحول بينه وبين الكتابة لأمها .

قالت وهى تتنهد : « حسناً . إذا كان هذا ما تراه فإنى سأخبرها . » وهذا التنهد لم يكن مرده إلى تلك الأصوات التى سترتفع عند سماع هذا النبأ فحسب ، بل كان تنهدها يرجع أيضاً إلى أنها ستودع قصة هذا الحب المكتوم عن جميع

الناس ، تلك الأسطورة البديعة ، التى كانت تنعم فيها بعيش حر طليق بعيد عن عيون الرقباء لا يشاركها فيه أحد غير حبيبها .

قال العاشق : « أجل يجب أن تخبريها ، وسأخبرها أنا أيضاً . »

فسألت الفتاة : « أنكتب إليها كلانا ؟ »

ماذا عساه أن يكتب إلى أمها ؟ وكيف يكون وقع مثل هذا الكتاب على الأم ؟ أليس من الجائز أن يخطئ التهجى ؟ أليس من الجائز أن عبارات تصدر منه الآن — عبارات مكتوبة — قد تكون سبباً آخر يحول دون الترحيب بمقدمه فى بننجتن ؟

فسألته : « لماذا لاتبعث برسالتك بوساطتى ؟ »

فهز رأسه نفياً وقال : « إنها لن ترضى عن هذا الأمر على كل حال . فلا أقل من أن أخاطبها مباشرة ، وإلا كان فى ذلك معنى التهرب . »

أدركت مولى أن غريزته قد اهتدت إلى الحق فى هذا الأمر ، فارتفع لهيب صغير من نار حبها إعجاباً به ، ليتهم جميعاً يعرفونه على حقيقته ويدركون كريم سجاياه ! لم تستطع أن تصارحه بما يخامرها من القلق بسبب كتابه إلى أمها . ولم تجرؤ أن تحدثه فى هذا الأمر بالصراحة الواجبة . . أجل إنها لم تجرؤ لأنها — ولا بد لى أن أعترف بذلك — كانت تعوزها الثقة . وقد عانت من جراء ذلك بعض الألم . فإن السعادة التى كانت تفيض من حبها قد رانت عليها سحب من المضض والضيق ، فى هذا اليوم ، وفى أيام أخرى بعده ، بسبب ما كان يعوزها من الثقة . أما هو الذى كانت ثقته كاملة ، فقد كانت سعادته لا حد لها ولا تشوبها شائبة .

قالت : « هل لك أن تخبرنى بالذى ستكتبه ؟ »

قال : « كلا . » قالت : « ألا تنوى أن تطلعنى عليه بعد أن تتم كتابته ؟ »

قال : « لا ، ثم لمع فى عينيه بريق شيطانى وقال : « سأطلعك على كل ما أكتبه للنساء الأخريات. ثم أكب عليها يقبلها إحدى قبلاته الطويلة جداً .

وعند ما عادا إلى حجرة التطبيب ، وهى الحجرة التى تنازلت عنها له ، قال لها : « هلمى ، ولنقم بهذا العمل معاً ! ما عليك إلا أن تجلسى على أحد جانبى المنضدة ، وأجلس أنا على الجانب الآخر ، ثم نمضى فى الكتابة ، فلا نلبث أن ننتهى منها . »

قالت : « أظن أن هذا هو أفضل الطرق ، إذا لم يكن من هذا الأمر بدّ . »

وهكذا أخذ كل منهما مكانه ، والدواة بينهما ، وقد وضعت بجانب كل منهما من الورق ما يكفى لكتابة رسالة إلى رئيس الجمهورية ، ومن الأقلام وأقلام الرصاص مقادير كبيرة ، ولا عجب فإن هذه الحجرة هى مقر القيادة العليا لمدرسة بير كريك النموذجية .

قالت : « ألا تريد أن تعالج الموضوع بالقلم الرصاص أولاً ؟ » وقد رفعت رأسها من صفحتها البيضاء ، فرأته يكتب ببطء ولكن باطراد وانتظام . . .

قال : « لا أحسب إنى بحاجة إلى ذلك . » وكان أنفه قريباً من الصفحة ، فصاح ، « يا للعنة ! سقطت بقعة على الورق. إنك قد ملأت الدواة إلى الحافة. » ثم مزق الورقة التالفة وألقى بها فى نار الموقد . ثم تناول الدواة ، وأراق بعض ما فيها من المداد من النافذة . أما هى فكانت لا تزال حائرة فى محاولاتها الأولى . ولئن كانت سمعته وهو يلعن ، فإنها لن تتأثر لذلك ، بل لعلها تحب أن تسمعه يلعن. لأن لهجته كانت بعيدة عن التبذل والإسفاف ، ومن الغريب حقاً أن تكون الكلمة بعينها مستساغة من فم إنسان ، كريهة بغيضة من فم شخص آخر ، ولكن الحقيقة أنها لم تسمعه ، لأن فكرها كان حائراً وسط أكوام من الجمل المحطمة . فإن كل خاطر بدا لها لم يلبث أن تبخر فى الهواء ، أو اصطدم بحائط من الصخر فلم يذهب بعيداً . وهكذا ظلت جالسة وبصرها إما مثبت على الورقة البيضاء التى بين يديها ، أو متنقل فى شبه يأس بين أمتعة الحجرة ، وفى أثناء جلوسها على هذه الصورة ، لا تعمل عملاً ، كان الرأس الأسود منحنياً أمامها ، والقلم المرهف يتحرك بثبات واطراد من جملة إلى جملة .

وأحست بعد لحظات أنه يحدق فيها ، بجد واهتمام ، وقد لمع فى عينه ذلك اللون العجيب الذى يحاكى زرقة البحر والذى لم تكن تعرف له اسماً . وقد أخذ يطوى الكتاب .

قالت : « هل انتهيت ؟ »

قال فى صوت هادئ : « نعم . وإنى أحس الآن أنى أكثر أمانة مما كنت قبلاً . » قالت – وهى تنظر إلى ورقتها : « لعلى أستطيع أن أكتب شيئاً هذا المساء وأنا فى منزل مسز تيلر . » لم يكن على ورقتها سوى بضع جمل مشطوبة . وهذا كل ما أمكنها أن تخطه . وهكذا استطاع راعى البقر أن يفوز فوزاً مبيناً على ناظرة المدرسة فى امتحان كتابة الخطابات .

غير أنها سهرت تلك الليلة فى حجرتها بدار مسز تيلر ، عند ما كان هو فى سبات عميق . فكان من نتيجة ذلك أن حمل البريد تلك الرسائل الثلاث . التى جعلت مسز تيلر تقول : « هذا ما كنت أنتظر . »

قبل عودة الفرجينى إلى عمله فى مزرعة القاضى هنرى بيوم واحد ، قرر هو وعروسه أن يعلنا النبأ للناس ، وليس مما يعنينا كثيراً أن نعرف ما دار بين مولى ومسز تيلر ، فى ذلك اليوم ، وإن كان بلا شك قد عنى كلا منهما جداً .

غير أن مستر ماكلين جاء بالصدفة فى ساعة مبكرة من صباح اليوم لكى يسأل عن صحة صديقه . فقال له الفرجينى : « اسمع يا لن ! لا أظن أن هناك بأساً فى أن تعرف الأمر قبل الآخرين بساعة أو ساعتين . إنى – »

فقاطعه مستر ماكلين وهو يحاوره فقال : « ويحك ! إن الناس جميعاً يعرفون هذا الخبر منذ اليوم الذى وجدتك فيه لدى الينبوع . »

قال الفرجينى مغضباً : « ولكنا لم نكن كذلك فى ذلك الوقت . »

« ولكن الناس عرفوا ذلك منذ اللحظة الأولى . »

قال الفرجينى : « لم أكن أعرف أن سكان هذه البلاد مولعون بالثرثرة إلى هذا الحد . »

فضحك مستر ماكلين من العاشق وقال : « على كل حال إن مسز ماكلين ستسر كثيراً لهذا ، وقد أخبرتني منذ زمن أن أبلغك تهانئها القلبية ، وكان عليّ أن أحتفظ بهذه التهاني حتى اللحظة التي تريد أنت أن أقدمها إليك . » وكان لن نفسه قد غمرته السعادة الزوجية منذ اثنى عشر شهراً . فأخذ الآن يحدث الفرجيني — على سبيل تبادل الأنباء — وقال له : « إننا في انتظار ماكلين صغير يأتينا بعد العيد بقليل . وأظن أن هذا ما سترزقه أنت أيضاً يوماً ما . »

قال الفرجيني : « أجل ، ذلك ما أرجوه أنا أيضاً . »

قال لن : « وأكبر الظن أننا — أنا وأنت — لن نخلط أطفال الناس ونمزجهم بعضهم ببعض مرة أخرى . »

ثم تصافح هو والفرجيني ، وكل منهما يقدر الآخر أحسن تقدير .

وفي اليوم الذي اعتزم فيه الفرجيني الرحيل عن حبيبته ، كانت أفكاره تنوء بعبء الوداع من جهة ، وبأنباء مقلقة من جهة أخرى ، فإن لصوص الماشية قد ازدادت جرأتهم ، وأخذت الخيل والماشية تختفي ، وقد كاد كل رجل أن يسيء الظن بجاره .

قال العاشق : « وأحسب أنه لا بد أن تتخذ خطوات بوساطة بعض الناس . »

قالت بلهفة : « تتخذ بوساطتك ؟ »

قال : « أكبر الظن أني سيكون لي بهذا الأمر شأن . »

قالت : « وما الذي يجب عليك عمله ؟ »

« لست ادرى الآن ، ولكني سأخبرك عند عودتي . »

وهكذا فارقها ، تاركاً وراءها من القبل أكثر مما ترك من الألفاظ لتذكره بها .

وما الذي حدث أثناء ذلك في بننجتن ودنبارتن ؟ إن الرسائل الثلاث التي كان مظهرها الخارجي سبباً في إثارة اهتمام مسز تيلر ، كان لما احتوته وقع أليم . إن مولى كتبت كتابين — كما رأينا — أحدهما لأمها والآخر لجدتها . وقد

كتبت خطاب أمها أولاً . وقطعت فى ذلك ثلاث ساعات ونصف الساعة ، ويقع الكتاب فى إحدى عشرة صفحة ، عدا الحاشية التى كتبتها على الصفحة الثانية عشرة . أما كتابها لجدتها فلم يستغرق أكثر من عشر دقائق . ولست أدعى أنى قادر على شرح السبب الذى من أجله كان هذا الكتاب القصير أرق وأسمى من الأول بمراحل . ولكن هذه هى الحقيقة العجيبة ، ومع ذلك فإن السيدة العجوز قد ارتاعت عند ما قرأت السطور الأولى منه ، لأنها كانت قد استبعدت راعى البقر من ذهنها ومن كل ما كانت تتوقعه لحفيدتها .

وقالت : « أف ! أف ! أتراها رمت بنفسها على هذا الفتى ؟ »

غير أن بعض الجمل فى آخر الكتاب ، جعلتها تتوقف ، وتظل جالسة وقتاً طويلاً . ولم تلبث الشدة التى كانت تعلو محياها أن تحولت إلى رقة بالتدريج . ثم قالت : « واهاً لنا ! ليت الزواج كان فى سهولة العشق . » ثم نزلت السلالم ببطء إلى الطابق الأسفل وخرجت إلى حديقتها ، وجعلت تتمشى بين الخمائل . ثم قالت لنفسها بعد لأى : « ما ذنبها وقد اهتدت إلى حب عظيم جارف . ؟» وعادت إلى مخدعها وفتحت مكتباً قديماً ، وطالعت بعض الرسائل .

وفى اليوم التالى جاءتها رسالة من بننجتن ، وقد خطتها مسز وود المسكينة وهى فى حالة تشبه الهلع . فإنها لم تكد تسترد وعيها وإدراكها بعد الصدمة التى أصابتها ، من كتاب ابنتها ذى الصفحات الاحدى عشرة والحاشية ، حتى بادرت بكتابة ثمانى صفحات إلى أكبر أعضاء الأسرة سناً . ولهذه السيدة المسكينة بعض العذر فيما أصابها من الجزع . فإن مولى قد تعمدت بحسن نية أن تكون الصفحة الأولى من كتابها بمثابة إعداد الأم لقراءة ما يلى . ولذلك كانت عباراتها فيها لا تشتمل على معنى واضح ، وكان تأثيرها كتأثير الكلمات التى تقال قبل أن يفاجأ إنسان بنبأ عن كارثة . فأصاب رأس مسز وود دوار ، وأخذ منها الرعب مأخذه . ونادت ابنتها : « تعالى يا ساره ! ما معنى هذه العبارة ؟ » فأخذت ابنتها الكبرى تشجعها فناولتها الصفحة الأولى ، وأخذت هى تقرأ

الصفحة الثانية ، فعرفت من سطورها الأولى المعنى الذى سألت عنه . وصاحت وهى تقول : « متوحش يتقلد الخناجر والمسدسات . » فقالت ابنتها سارة : لقد قلت لك هذا من قبل يا أماه ! » فسألت الأم : « وما معنى مقدم الرعاة ؟ » ومن هو القاضى هنرى ؟ قالت سارة : « إنها قد اختارت خادماً راقياً . ولئن سُمح لهذا الأمر أن يؤدى إلى حفلة عرس ! فهيهات لمثلى أن تطيق شهودها . » ( ولم تلبث سارة أن بعثت بهذا التهديد إلى مولى ، فكان لذلك نتائج سنسردها فى مكانها ) — وقالت مسز وود : « ويبدو أن الرجل نفسه قد كتب إلىّ أيضاً . فقالت سارة : « إن هذا كل ما وسعه أن يفعل . » وقال لها زوجها بعد ذلك : « إن هذا من أفضل أعمال الرجولة . » وهكذا ساد الذعر المنزل فى بننجتن . وعبثاً حاولت مولى فى كتابها أن تؤكد لوالدتها ما يتمتع به حبيبها من التقدير العام ، وما يرتجى له من مستقبل حسن . فإن هذا لم يكن له أقل تأثير . . ولم تلبث الأم وهى فى حالة الجزع التى ألمت بها أن خطّت تلك الصفحات الثمانى دون تدبر لما تكتبه .

قالت الجدة وهى تطالع تلك الصفحات ، ووجهها تبدو فيه علائم الصرامة: « أف . أف . أف ! كأنما الفتاة قد اختطفت خطفاً . وكأنها لم تتركه ينتظر ثلاثة أعوام كاملة ! ثم مضت فى قراءة الخطاب ، ولكنها لم تلبث أن ألقته من يدها وهى تضحك . فإن مسز وود قد خطت بيدها تلك الصيحة التى فاهت بها من قبل وأشارت فيها إلى رجل متوحش مدجج بالخناجر والمسدسات .

فقالت الجدة : « ويحك يا لزيا ! ما أشد حماقتك ! »

ثم بادرت فكتبت إلى مسز وود كتاباً لطيفاً ، طلبت فيه منها أن تضع ثقة أكثر فى ابنتها ، التى من لحمها ودمها ، وذكرتها بأن الجنرال ستارك نفسه كان من عادته أن يحمل الخناجر والمسدسات بحكم أعماله فى الحياة . ولكنه كان يخلعها أحياناً وهذا على الأرجح ما يفعله أيضاً هذا الشاب من ويومنج. وقالت فى ختام كتابها : ( لعل من المستحسن أن ترسلى إلىّ كتابه إليك ، فإن قراءته

ستجعلنى أقدر على تكوين رأيى فيه ) .

وأكبر الظن أن هذا الكتاب لم يبعث إطمئناناً كثيراً فى نفس مسز وود . أما ابنتها سارة فقد أثار غيظها وقالت : « إنها تزداد عناداً وشذوذاً ، كلما ازدادت شيخوخة . » ومع ذلك فقد أرسل كتاب الفرجينى إلى دنبارتن ،وجلست السيدة العجوز لكى تطالعه باهتمام وانتباه .

وإليك ما كتبه الفرجينى لأم حبيبته ، التى لم يلقها فى حياته :

إلى مسزجو ن ستارك و د

بننجتن ، ولاية فرمنت

سيدتى : إذا كانت كريمتك الآنسة ود قد أخبرتك من قبل أنها أنقذت رجلاً من الموت . بعد أن أصابه رصاص الهنود ، فإن هذا الرجل هو الذى يكتب إليك هذه السطور الآن . ومع ذلك فإنى لا أظن أنها قد ذ كرت لك أمر هذا الحادث بأكمله . لأنها هى الوحيدة فى كل هذه البلاد التى ترى أنه كان أمراً يسيراً . لهذا لا بد لى أن أقص عليك أهم نواحى هذا الموضوع ، لو أن فتاة من هذه الأقاليم الغربية قامت بمثل هذا العمل لاعتبره الناس عملاً مجيداً . ولكن لم يكن ينبغى لأحد أن يتوقعه من فتاة نشأت كما نشأت مس و د . »

قالت الجدة : « هذا الكلام قد يصح ، لو لم يكن لى فى تنشئتها نصيب أكبر مما كان لأمها . » ثم مضت تطالع الكتاب .

« لقد كنت مشرفاً على الموت حينما عثرت علىّ . . وكنت لا أشعر بشىء عندئذ . فلم تلبث أن ردتنى إلى هذا العالم ، بعد أن قطعت نصف الطريق إلى العالم الآخر . لم ترد أن تعرف أن من الجائز أن يصيبها من الهنود ما أصابنى ، فأصرت على ألا تتركنى . وأنا رجل يبلغ وزنى إبان الصحة مائة وثلاثة وسبعين رطلاً عدا ملابسى الثقيلة . ومع ذلك رفعتنى عن الأرض . وأنا لا أستطيع معاونتها بشىء ، لأنى كنت فى ذلك اليوم فى حالة من العجز لا تسمح لى أن أبذل أى عون . غسلت جرحى . وأعادت إلىّ رشدى بجرعات من شرابها الخاص

وقبل أن تبلغ بى المنزل اعترتنى نوبة من الهوس ، ولكنها استطاعت أن تبقينى على ظهر جوادى ، وأخذت تتحدث الى بعبارات رصينة ، فأصغيت لكلامها ولم يصبنى الجنون كما كنت أنتظر ، وأوصلتنى فى أمان إلى سريرى . وقد قال الطبيب إنى كنت صائراً إلى الموت حتماً ، لولا عنايتها وتطبيبها ورعايتها . وقد زاد حبى لها عما كان ، ولم أكن أظن أن هذا ممكن . ولكن الحقيقة أن الحب قد يزداد إلى ما لا نهاية ، لأن كتابتى هذه السطور جعلتنى أزداد شغفاً بها .

« والآن يا سيدتى مسز وود . يؤسفنى أن أقص عليك نبأ أعرف أنه لن يسرك ، وأنا أعرف أنك لن تختارى لها رجلاً مثلى ، لأنى حرمت فرصة التعليم ، ونسبى ليس من طراز عال . وليتنى كنت أعرف كيف أجعل هذا النبأ أخف وقعاً . ولكن الحقيقة أفضل شىء .

« أنا من أسرة قديمة إنجليزية فى فرجنيا ، ولى جدة تمت إلى أصل أرلندى اسكتلندى تزوجها جدى من ولاية كنتكى . وقد عشنا دائماً فى بلدتنا نمارس الزراعة والصيد ولا نحاول أن نحسن من حالنا المتوسطة . وقد حاربنا عند ما أتيحت لنا الفرصة ، تحت قيادة هكورى العجوز ، وفى بلاد المكسيك . وقد قتل أبى واثنان من إخوتى فى معركة الوادى عام أربعة وستين [1] .

« وقد كان من المألوف فى أسرتنا أن يهجرها أحد أبنائها فى كل جيل ، وقد كنت أنا الذى هربت هذه المرة . فقد كان لى إخوة كثيرون يكبروننى فلم أعد أحتمل غطرستهم . وقد أصبحت اليوم فى حالة حسنة ، والثراء على مرأى العين منى . ولم تتقدم بى السن كثيراً ، وبنيتى من القوه بحيث أمكنها أن تحتمل ما كابدته من المشاق . إنها لن تقوم بالتدريس بعد أن تتزوجنى . ليتنى أستطيع أن أجعل هذا النبأ أيسر وقعاً عليك يا مسز وود . ولا أريد أن أسرف فى بذل وعود ، سبق لى أن سمعت الكثير منها . ولكنى على استعداد أن أخبر أى رجل فى أسرتك أى شىء يريد أن يسأل عنه ، والقاضى هنرى كفيل بأن يشهد بما

---

(١) إحدى معارك الحرب الأهلية الأمريكية .

يعرفه عنى من حسن السمعة . لقد مارست كثيراً من الشدائد . ولكنى أستطيع أن أقرر أننى لم أقتل يوماً حباً فى القتل أو فى الكسب ، ولست من هذا الطراز ، بل أفضل السلم دائماً . وقد عشت فى أماكن بها قضاة ومحاكم بالاسم فقط ، ولكن ليس هنالك من العدل إلا ما يعمله الرجل المخلص الأمين ، فى مساحة تزيد على خمسمائة ميل . إننى لم أحدثها بهذه الأمور بعد ، لا لأنى أخجل من ذكرها . بل لأن فى الحياة اشياء كثيرة حالكة السواد إلى درجة لا ينبغى لفتاة مثلها أن تعرف عنها شيئاً .

« ولعل الأوفق أن أقص عليك كيف عرفت أنى أحب مس وود . إنى لم أعد فى سن الشباب ، وليس النساء بالنسبة الىّ شيئاً مجهولاً . ومن كان مثلى كثير الرحلات والأسفار لا بد له أن يصادف الكثير منهن فى جولاته . ولكن لم أكد أرى مس وود حتى توقفت ولم أبرح . حدث هذا منذ ثلاثة أعوام ، ولكنى ما زلت حيث كنت . ولقد يبدو لك أن تسألى : بأى حق يطمع مثلى فى مثلها ؟ ولقد سألت نفسى هذا السؤال بعد أن أنقذت حياتى ، وكان من الصعب علىّ أن أصل إلى هذا القرار ، وهى معى فى كل حين . ولكنى قلت لنفسى : إنك قد ضايقتها بحبك ثلاثة أعوام ، فإذا سمحت لحبك هذا أن يضايقها أكثر من ذلك فإنك لا تحبها كما ينبغى لك ، وأولى بك الآن أن تبتعد عنها ، وهى التى أنقذت حياتك ، ولم أكن أدرى ماذا سأفعل بحياتى بعد ذلك ، وأحسب أنى كنت سأرحل إلى مكان ما وأشتغل بكل جهدى . وهكذا يا سيدتى مسز وود أخبرتها بعزمى على أن أرحل عنها . ولكنها أبت علىّ ذلك . ولن يكون من السهل عليها أن تعتاد الحياة مع رجل مثلى »

ولم تكد الجدة أن تصل إلى هذا الجزء من كتاب الفرجينى ، حتى استحال عليها أن تمضى فى القراءة ، فنهضت وذهبت إلى المكتب الذى أودعت فيه رسائلها الخاصة . ووضعت يدها على حزمة الكتب ، وتساقط دمعها فوقها بهدوء . وقالت فى همس : « لهفى على هذا الذى ضاع منى ! »

وفى اليوم التالى كتبت رسالتها إلى مولى ، فكانت هذه الكلمة من دنبارتن بمثابة البلسم الشافى من اللذعات الأليمة التى كانت تتسلمها مولى ، فإن أصوات العالم قد أخذت تصل إليها فى جموع عديدة ، ولكن لم يكن بينها صوت عذب سوى ما كان يبلغها من هذه الجدة . فأصبحت أيامها ملأى بالجراح التى تصيبها . وليس بجانبها أحد يشفى تلك الجراح بقبلاته . ولم تعد تصلها حتى رسائله ، وكل ما تعرفه عنه أنه ذهب إلى جهات مقفرة فى المهمة التى أرسل من أجلها .

وقد ذهبت به هذه المهمة إلى جهات بعيدة .

فاخترق الحوض إلى الأماكن الخفية فى أول كريك ( نهر البومة ) ثم مرّ بمسلات « واشاكس » ومن فوق الفاصل المائى إلى جروفنتر ( البطن الواسع ) ثم لم يزل يخترق القمم والشعاب حتى وصل إلى الأقاليم الشرقية من ايداهو . وهناك قابلته طبقاً للتعليمات التى أرسلها إلىّ ، وشاركته فى جزء من مهمته .

ذهبت إلى لقائه وليس معى دليل . وقد ذكر لى من قبل اسم محطة صغيرة على الخط الحديدى ، ورسم لى منها الطريق الذى أتبعه مهتدياً ببعض المعالم الواضحة ، ولو أنى ممن يؤمنون بالنذر ، فإن العاصفة السوداء التى صادفتها عند ما بدأت رحلتى راكباً جوادى ، تبدو اليوم لعينى كأنها نذير بما سيحدث لى . ولكنى كنت من قبل أعيش وسط المدن والدخان ، فكانت ايداهو حتى فى المطر الغزير مصدر ارتياح وغبطة لى .

## ٣٠

# اصطبل فى العراء

عند ما لاح لعينى ، بعد لأى ، أول المعالم وهو عبارة عن مجموعة من شجر الحور ، بدت قائمة مبهمة من خلال المطر المتساقط ، وهى على مسافة ميل من المبانى البعيدة ، عند ذلك أحسست بأن جسمى المضنى أخذ يرحب باقتراب ساعة الراحة ؛ فلقد ركبت منذ الساعة السادسة صباحاً وها هى ذى السادسة مساء ، لم أسترح خلال هذه المدة كلها سوى ساعة الظهيرة ، وعلى الرغم من أن الضيعة التى قدر لى أن أستريح فيها تلك الليلة كانت عبارة عن أطلال واصطبل وحظيرة ، فإنها كانت تلائم حالتى الجسدية والروحية ؛ إذ كان يلزمنى — بعد أن قطعت اثنتى عشرة ساعة فى رحلتى صامتاً — أن أتناول طعامى فى صمت ، وأرقد فى صمت وسكون . فى وقت الظهرة ، عند ما خلعت معطفى الطويل برهة لم يكن هنالك ما يذكرنى بالسكك الحديدية والمدن والأعمال ، سوى منظر الجريدة ، التى كانت محشورة فى جيب ذلك المعطف حتى نصفها . ولولا فائدتها فى إيقاد النار بالليل لما صحبتنى كل هذه المسافة . كانت البطحاء من حولى قد زالت حرارتها وسكن غبارها بسبب المطر ، وامتلأت هواء سجسجا عذباً . وقد بدت على بعد أمامى سفوح التلال ، من خلال المطر ، مبهمة غامضة . فلم تكن بى حاجة للتحدث إلى أحد أو الاقتراب من أى كائن بشرى . كنت غارقاً فى حلم يشعرنى بأنى فى بداية الخليقة ، وكأن الخواطر نفسها لم تعد تتحرك . ولم يكن ينقص هذا الحلم الجميل سوى أن أقضى الليل راقداً مع الوحش ، وسط الوعول والغزلان ، ولما كان هذا الحلم غير متاح لى ، فإن رفاقى فى رقادى هذا

المساء تلك الماشية التى كانت تبدو لعينى كأنها مجرد نقط منتشرة حول أطلال الضيعة .

وسيكون مبيتى مساء غد على الأرجح مع الفرجينى على سفوح التلال . لقد اخترقت شرقى ايداهو طبقاً لما اوصى به فى كتابه إلىّ ، مرجئاً رحلة الصيد فى جبال سوتوث ( أسنة المنشار ) ، حتى نقوم بهامعاً عن طريق جبال تيتون . وهو طريق كان معروفاً له ، ولكن لا يعرفه سواه من الرجال الأبرياء إلا قليل . وقد سماه فى خطابه « ممر اللص سارق الخيل » زعم أن أعماله تدعوه إلى أن يكون هناك فى ذلك الوقت . وسيمر فى عودته ببلاد وندرفر ( نهر الرياح ) لقضاء بعض الشئون . وهناك يمكننى أن أذهب بالمركبة إلى السكة الحديدية ، أو أعود معه الطريق كله راكباً إلى سنك كريك . وقد اختار للقائنا غداً نقطة التفرع لأحد الجداول وهى واقعة فى سفح التلال ، وقد بدأت هذه النقطة تظهر لعينى . ولم يكن من الميسور له أن يتلقى منى رداً على كتابه . ولكن إذا لم أصل إلى نقطة التفرع فى موعد حدده — ولم يزل هناك أربعة أيام قبل حلول ذلك الموعد — فإنه سيدرك أنى سلكت خطة أخرى . وقد كان أشبه شىء بما يجرى فى العصور الغابرة أن ألقى صديقى بهذه الطريقة ، على ضفاف نهر بعيد مجهول حتى إن الخرائط أخطأت فى رسم مجراه . وحينما خلفت ورائى الضوضاء والآلات ، وأخذت أسعى فى سهولة ويسر ، وليس معى سوى حصان آخر لحمل أمتعتى . وجعلت أتوغل وسط القفار ، شعرت أن هذه الأرض العجوز هى أمى حقيقة وأنى قد عدت إليها مرة أخرى ، بعد أن كنت تائهاً وسط المبانى والتقاليد وقيود الحضارة . سوف أصل إلى نقطة التفرع قبل موعدى بثلاثة أيام . لأنى ظننت أن من المستحسن أن أجعل هذه الأيام الثلاثة بمثابة احتياط لما قد يكون هناك من الاحتمالات . فإذا لم يكن الفرجينى هناك فإنى أستطيع أن أقضى تلك الأيام فى صيد السمك ، وأنعم بأوقات الفراغ . وإذا كان هناك ولم يتهيأ للرحيل بعد، فسيكون بوسعى أيضاً أن أصيد السمك ، وأنعم بالفراغ ، وعاد إلى ذاكرتى ما كنت عليه من الجهل فى

العام الأول من لقائنا . فشعرت بارتياح أن أصبحت الآن موضع الثقة. فى تلك الأيام الأولى كان لا يسمح لى أن أبتعد عن الضيعة مسافة نزهة بعد الظهر ، إلا إذا كنت معه كأنى مربوط إليه بحبل . أما اليوم فإنى كنت أجتاز بقاعاً مجهولة من غير دليل . والرجل الذى يقوم بمثل هذا الأمر لا يستحق أن يدعى غمراً .

أبعد شىء تراه عينى وأنا راكب فى ذلك المساء هو سفوح التلال — هدفى فى رحلة الغد — وأقرب منها فى هذه البطحاء المبلولة أجمة من شجر الحور ، وأقرب منها المنازل التى سآوى إليها ليلتى هذه ، والماشية مبعثرة حولها . وهنا أخذ حصانى يصهل ، فشعرت بأنه يسرع الخطى ابتهاجاً بانتهاء رحلة اليوم ، فانحنيت لأربت على عنقه ، فلاحظت أن أذنيه مرهفتان ، وتشيران إلى الأمام ، حيث ينتظر كل منا الطعام والراحة . وعاد مرة أخرى إلى الصهيل طويلاً ، وفى شىء من الضجر ، وأخذ يغذ السير ، يتبعه فى ذلك الحصان الذى يحمل الأمتعة . هنالك أدركت أنه لم تزل فىّ بقية من ذلك الجهل بالأمور . فإن الأشباح التى كانت منتشرة فى الفضاء لم تكن ماشية بل خيلاً .

وقد أظهر لى جوادى خطئى ؛ لأنه عرف أبناء جنسه من بعيد ، فأخذ يسارع نحوهم . فابتسمت قليلاً ، حين أدركت أن عينى ليست هى عين ابن هذه السهول . متى يتاح لى أن أعرف — بشىء يشبه الغريزة — كيف أميز بين منظر الخيل والماشية على بعد ميلين أو ثلاثة أميال وسط السهول ؟

ولم ألبث أن قطعت تلك الأميال ، وتغير منظر المبانى عند ما اقتربت منها ، فبدت لى وحشتها فى صورة أوضح ، ولأمر ما داخل نفسى بسبب ذلك بعض الخوف . وكانت الخيل من حول الديار واقفة مرهفة آذانها تراقبنى حين أقبلت — فكان فى منظرها ما يريب — أو هل كان ذلك بسبب الصمت والسكون ؟ فإن هذا الصمت الذى أحببته إلى الآن كل الحب ، لا يطاق وسط هذه الأبنية المهجورة . ثم انفتح باب الاصطبل وخرج منه رجال وقفوا يراقبون مقدمى .

وزاد عددهم عند ما ترجلت عن جوادى ورأيت من الحماقة أن أحس بهذا الانقباض ، فاجتهدت لكى أحييهم تحية يطيب لها خاطرهم . وقلت لهم إنى أرجو أن يكون لديهم مكان لشخص آخر فى هذا المساء . وقد رد بعضهم تحيتى ، ولكن لم يرد أحد منهم على هذه العبارة . . ثم أخذت أتبين أنى أعرف بعض هذه الوجوه على الرغم مما ارتسم عليها من الصرامة والشدة . وفى تلك اللحظة خرج الفرجينى نفسه من الاصطبل ، فسرى عنى لرؤيته وبادرت بمخاطبته :

« أترى أنى قد جئت ؟ »

قال : « نعم ، أرى . » فأخذت أحدق فى وجهه ، لأن صوته كان يشتمل على تلك الغرابة التى أحسست بها فى كل شىء حولى. ولكنه كان ينظر إلى رفقائه وقال لهم : « هذا السيد يؤمن جانبه . »

قال واحد منهم — وتذكرت أنى رأيته فى سنك كريك — : » من الجائز أن يكون كما تقول ولكنا لم نكن ننتظره الليلة . »

قال آخر : « ولا غداً »

قال ثالثهم : « حتى ولا بعد غد . »

قال الفرجينى بأسلوبه البطىء : « أكبر الظن أنكم لم تتعودوا التبكير فى حياتكم . لأى أمر من الأمور . »

قال أحدهم وهو يضحك : « إنا لم نرد أن نتهمك بالتواطؤ معه . »

قال الآخر : « كلا : حتى مع علمنا بما كان بينك وبين ستيف من الصداقة يوماً ما . »

وأيا كانت الفكاهات التى أرادوا التندر بها الآن ، فإنه لم يتقبلها على أنها فكاهات . وقد رأيت نوعاً من الانقباض على محياه ، وأحمر وجهه على أثر ذلك . والتفت إلىّ وقال : « كان المنتظر أن ننتهى من عملنا قبل اليوم. ويؤسفنى قدومك هذا المساء ، لأنى أعرف أنك تفضل أن تكون بمنأى عن هذا . »

قال واحد من الآخرين : « إننا نريد منه أن يوضح لنا قصده ، فإذا اقتنعنا

بما يقول أطلقنا سراحه . »

فصحت فيهم : « تطلقون سراحى ؟ » ولكنى لم ألبث أن رأيتهم يبتسمون فى غير كلفة ، فهدأ ثائرى وقلت : « لست أدرى أيها السادة ؛ كيف تهمكم حركاتى إلى هذه الحد . هذا تحية منكم إلىّ . فهل تسمحون بأن ننتقل إلى الداخل حتى أشرح لكم قصتى ؟ »

كان طلبى هذا وجيهاً جداً لأن المطر بدأ يهطل مدراراً ، ومع ذلك ساد الصمت برهة ، إلى أن قال واحد منهم : « لا بدّ مما ليس منه بدّ . »

وفضّل الفرجينى ألا يقول شيئاً ، وسار بجانبى إلى داخل الاصطبل ، وقد جلس بداخله رجلان ، يحرسهما رجل ثالث . فأدركت من هذا المنظر حقيقة الأمر الذى عثرت عليه عن غير قصد . فتسرعت بسؤال الفرجينى : « هل يشنقان غداً ؟ » ولكنه التزم الصمت .

وصاح الرجل من ورائى : « أتستطيع أن تخمن معنى ما تراه . لك ثلاث محاولات . »

ولكنى لم أكن فى حاجة إلى التخمين ، وعند ما تردد الموضوع فى ذهنى أعاد إلى ذاكرتى منظر أجمة الحور بشكلها المظلم الرهيب ، ولم يكن هناك إلى مسافة عشرة أميال شجر آخر يبلغ الارتفاع المطلوب . إذن فهذا هو العمل الذى أشار إليه الفرجينى بإيجاز فى كتابه إلىّ . وأجلت الطرف فى أركان الاصطبل فلم يكن هناك سجين غيرهما . وقد كنت أتوقع أن أرى ترمپاس ، كما أنى خشيت أن أرى قصيرا . فإن أمانة قصير الساذج المسكين لم تكن من القوة بحيث تقاوم الإغراء ، وعلى الأخص بعد أن ابتعد عن رفقائه القدماء . وقد سبق لى أن سمعت مراراً فى سنك كريك أنه لا بد من تحطيم عصابة خاصة أمعنت فى سرقة الخيل والماشية ، وكانت تسرق فى إحدى الولايات وتبيع فى ولاية أخرى ، وتعرف كيف تختفى فى ثنايا الجبال بين الولايتين . والآن وقد جاء وقت العمل ، فقد حشدت القوة اللازمة وجهزت حملة قوية ، وها هى ذى قد كللت جهودها

بالنجاح بقيادة الفرجيني وإن تأخر نجاحها قليلاً عن الموعد المحدد . أما أنا فقد حضرت مبكراً عن موعدى ، ولذلك كنت شاهداً على ما جرى . كان من السهل علىّ أن أشرح لهم سبب وجودى . وبعد أن أتممت الشرح قال واحد منهم بقلب طيب : « إنك وجدتنا هنا ، ووجدناك هنا ، وإنى لأعجب أينا أكثر اندهاشاً لذلك ؟ »

قلت — وأنا أحاول أن أتوددهم غاية جهدى : « لا أحد يدرى . كذلك لا يدرى أينا أكثر اعتراضاً على وجود الآخر . »

قال الآخر : « ليس لدينا هنا أى اعتراض . إننا نرحب ببقائك ، ولكنا لا نرحب بانصرافك ، فيما يخيل إلىّ . أليس كذلك أيها الرفقاء ؟ »

وكان ظاهراً من الرد المرسوم على وجوههم أنهم لا يوافقون على انصرافه . وقال أحدهم : « لن تذهب من هنا حتى ننتهى من عملنا . » وقال آخر : « إنه ليس فى حاجة لأن يشهد ما قد يحدث . » وقال ثالث : « إنى أنصحك أن تنام إلى ساعة متأخرة من صباح غد . »

لم أكن أبغى البقاء فى ذلك المكان . وكان بوسعى أن أعد لنفسى معسكراً بمعزل عنهم قبل أن يظلم المساء . ولكننى أمام هذه الحيطة التى لا داعى لها ، كنت عاجزاً عن عمل أى شىء . ولم أحاول أن أسألهم إلى أى نوع من الجواسيس أنتمى . وأى نوع من النجدة أستطيع أن آتى به فى هذه البلاد المقفرة ، إن حضورى قبل موعدى هو الأمر الوحيد الذى أزعجهم . وحولت نظرى نحو الأسرى . فتأكدت أنهما أثنان لا أكثر . كان أحدهم يمضغ التبغ ويتحدث من آن لآن مع حارسه كأن ليس فى الأمر ما يهمه . أما الآخر فقد جلس فى صمت تشوبه البلادة ، لا يحرك بصره . ولكنه كان يحرك وجهه ، فقد رأيته لا يفتأ يبل شفتيه بالشراب . وإنى لفى تأملى لهذين السجينين ، المقضى عليهما بالموت ، واللذين طلب منى أن أنام غداً حتى لا أرى ما يصيبهما ، إذا بأحدهما الذى يمضغ التبغ يهز رأسه نحوى :

وقال : « ألست تذكرنى ؟ » عند ذلك تبينت أنه ستيف ؛ ستيف الذى رأيته فى ملسن بو ؛ ستيف المرح الذى قابلته أول ليلة قضيتها فى الغرب . ولئن لم أعرفه فوراً فما ذلك إلا لتغير طرأ على لحيته . إنه يجلس اليوم محكوماً عليه بالموت . فأصابتنى لذلك صدمة باردة أليمة أخرست لسانى فلم أقل شيئاً .

أما هو فلم يحس بمثل هذا الضعف . فسألنى : « ألم تذهب حديثاً إلى ملسن بو ؟ لقد مضى زمن منذ كنت هناك ؟ »

فأشرت بالإيجاب . وودت لو استطعت أن أقول عبارة تنم عن العطف من غير تكلف ؟ ولكن الكلمات لم تطاوعنى ، فوقفت مبهوتاً خجلاً ، ولاحظت عندئذ أن الأسير الصامت كان يلبس قميصاً من الصوف الرمادى مثل قميصى . وألقى ستيف علىّ نظرة شاملة ، فرأى فى جيبى تلك الجريدة التى أحضرتها من القطار ، وكتبت عليها بالرصاص طائفة من الأرقام ، فسألنى هل أسمح له بها برهة ؟ فأعطيته إياها بلهفة . ورجوته أن يحتفظ بها ما شاء ذلك . وأسرفت فى إظهار تلهفى ، بسبب ما كنت فيه من الحيرة . وقلت له : « لا حاجة بك لأن تردها إلىّ ، وهذه الكتابات التى عليها لا أهمية لها . فأرجوك أن تحتفظ بها فألقى علىّ نظرة قصيرة ، وقال وهو يبتسم : «شكراً لك؛ إنى لست أحتاج إليها بعد صباح الغد . » وأخذ يبحث فى محتوياتها . وقال : « إن انتخاب جيك يبدو مؤكداً ، ولاغرو فإن مقاطعة فريمونت مدينة بالكثير لجيك . » وكان يخاطب زميله ، فلم يرد عليه بكلمة . وتركته وهو مهتم بالأنباء المحلية .

لقد رأيت الموتى من قبل غير مرة ، بعضهم يعلوه الشحوب ، وبعضهم مظهره يبعث الرعب لأن نهايته كانت مفظعة ، غير أن أثر هذه المناظر سرعان ما يزول . ولكنى أرجو ألا يكون من نصيبى بعد هذا اليوم أن أكون فى صحبة رجال ينتظرون أن يقتلوا . غداً فى مثل هذه الساعة يكون القميص الرمادى مطوياً على جثة هامدة . إلى متى يمضى ستيف فى مضغ التبغ ؟ لقد أمكننى بعد لأى أن أحصن فكرى من هجمات هذه الخواطر . ولكنى التمست أن يسمح لى بالمبيت

فى مكان آخر ، واقترحت عليهم الكوخ المجاور . فقرأت فى وجوههم أن كلماتى لم تزدهم إلا شكاً فى أمرى . فقالوا : « إن الكوخ ينفذ المطر منه ، وإن هذا المكان أكثر جفافاً . وقال أحدهم بصراحة : « إنك كنت تنوى المبيت فى هذا الاصطبل ، فما الذى غير فكرك ؟ » وأنىّ لى أن أخبرهم بأنى شديد النفور مما يفعلون مع علمى بأنه هو الوسيلة الوحيدة لإقامة العدل فى هذه البلاد ؟ إن أعصابهم الخشنة لم تكن تدرك معنى هذه المشاعر الدقيقة . لكن الفرجينى كان يدرك بعض ما أحسه وقال لى : « إنى شديد الأسف لما تشعر به من الضيق . » هنالك لاحظت أنه هو أيضاً كان يحس بضيق يختلف كل الاختلاف عما كان يحسه الآخرون من قلة الأكتراث .

كانت عظامى متعطشة إلى الراحة بعد ركوبى اثنتى عشرة ساعة . ففرشت البطاطين على الدريس فى ركن منعزل ، وتغطيت بها . ولكنى فى رقدتى ازددت يقظة ، وتطاير الشعور بالتعب بسبب انتباه حواسى ، ومضت لحظات وهم جلوس يتهامسون باحترام ، فأثاروا رغبتى فى معرفة ما يقولون بسبب عجزى عن سماعه . وخيل إلىّ أنى سمعت اسم ترمپاس وقصير مرة أو مرتين . ولكنى لم أكن واثقاً من ذلك . ثم شعرت أن الهمس قد توقف ، وتفرق الهامسون . وسمعت صوت أحذيتهم حين خلعوها وألقوها على الأرض . كما سمعت صوت تنفس النائمين يتزايد وسط الهدوء الشامل . وقد زارهم النوم جميعاً ، الواحد بعد الآخر ، ولكنه لم يزرنى ، وفى الخارج كان المطر يتساقط باطراد ، وفى أحد الأركان كان ينهمر بكثرة من ثقب فى السقف . وأحياناً كانت تهب ريح باردة تحمل معها عبير الحشائش المبلولة . وكثيراً ما استنشقت هذا العبير من قبل فكان يبعث النوم إلى الجفون . ويكون آخر شىء تعيه الذاكرة . أما الآن فإنى بت مفتوح العينين ، أفكر فى تلك التجارب . وشعرت باللصين أثناء الليل يتقلبان فى مضجعهما بأصوات غريبة ويتبادلان عبارات خافتة مع حارسهما . لقد طالما سمعت رفاقاً آخرين فى مثل هذا المكان يتحركون ويتمتمون بأصوات خافتة أثناء

الليل ، ثم يعاودهم النوم ، لأن هذا أمر طبيعى مألوف ، وكنت جديراً أن تكون هذه هى حالتى فى هذه الليلة حيث الفراش من الدريس ، والمطر الهطال فى الخارج ، والبطاطين التى ألفتها ، والنسمات الباردة تهب من آن لآخر . غير أن شعورى بوجود ستيف وهو يمضغ التبغ ، وزميله فى قميصه الرمادى ، جعل الساعات رهيبة وانتباهى شديداً . وأخيراً سمعت أحدهم ينهض من نومه ويرتدى ثيابه وبعد لحظة رأيت فجأة نوراً من خلال جفونى المقفلة ، ثم ساد الظلام بعد ذلك ، والظاهر أنهم أضاءوا مشكاة و وجهوها نحوى خطأ ، ثم حولوها عنى ، لأنى أنا الشخص الوحيد الذى لم يكونوا يريدون إيقاظه . وأخذت الحركات والكلام الهادئ تتكاثر من حولى ، وأخذ بعضهم يخرج من الأصطبل ، وقد أثار ضوء الفجر فى خاطرى ذكرى أجمة الحور ، فمكثت راقداً فى هدوء ، وقد بردت يدى وقدمى . والآن يوشك الحادث أن يقع . فكيف يكون وقوعه يا ترى ؟ لقد وصف لى أحد الشهود مثلاً من الأمثلة ولكن هذا وقع عند أحد الجسور ، وكانت الفريسة واحدة ، أما اليوم فهل يقف أحدهما متفرجاً حتى يرى الآخر يقضى فى أمره أولاً ؟

أحسست بعد قليل برائحة الدخان وبأصوات أوعية من الصفيح ، وقد نسيت أمر الفطور ، وقد كان أحدهم يعده فى الركن الجاف من الاصطبل ، وأظنه كان بمفرده لأنى سمعت أصوات الآخرين وخطواتهم خارج الاصطبل ، وسمعت صوت الخيل تدفع إلى الحظيرة وتسرج ، ثم شعرت بأن القهوة قد أعدت وسمعت الطاهى يدعوهم ، فدخل واحد منهم وأقفل الباب وراءه ، وفعل الآخرون كما فعل ، لأنى كنت أحس مع كل فتحة بضوء النهار يدخل الاصطبل ، وصوت المطر يزداد وضوحاً ، ثم يتضاءل الصوت والنور بعد ذلك ، إلى أن تكلم أحدهم فأمر بأن يترك الباب مفتوحاً بسبب الدخان ، وسألهم ممن تبغون الاختفاء ؟ أمن الهاربين الذين أفلتوا ؟ وقد ضحكوا من هذه الكلمة ، وتركوا الباب مفتوحاً ، وهكذا عرفت أن هنالك لصوصاً آخرين خلاف الاثنين المقبوض عليهما . وفى

هذا تفسير ما أحسوا به من الشبهة نحوى ، ورغبتى فى المبيت خارج الاصطبل ، فقد رأوا أن بقائى معهم لا يكلفهم شيئاً ، وواجبهم أن يحذروا حتى من أبعد الاحتمالات .

وامتلأ الاصطبل ضياء وهواء طلقاً ، وجعلت أصغى إليهم من فراشى ، وقد دعاهم الإفطار إلى المزيد من الكلام . وكانوا الآن أكثر اطمئناناً الى ، إذ لم يكن لدى ما أفعله سوى التظاهر بالنوم . وكانوا يتحدثون بلهجة ودية ، من غير تكلف كأن هذا الصباح لا يختلف عن أى صباح آخر فى الأسبوع . وكانوا يخاطبون الأسيرين بشىء من العطف الأخوى ، دون أن يتكلفوا إدخالهما فى الحديث ، أو يتعمدوا إبعادهما عنه ، وخيل إلىّ أنهم جميعاً قد جلسوا معاً حول الفطور ، سواء فى ذلك من حكم عليهم ، أو الذين حكموا عليهم بالإعدام . ولم أسمع الفرجينى يتكلم ، ولكن سمعت صوت ستيف . وكان يتكلم مع آسريه عن بعض الحوادث الخاصة بالقبض عليه .

فسألهم : « أتذكرون كومة الدريس ؟ تلك الكومة البعيدة عند الفرع الرابع لنهر جرو ونتر ؟ » فقال أحد الذين قبضوا عليه : « كان ذلك يوم الخميس والمطر غزير » قال : « نعم لقد كان المطر يتساقط ، لقد ضللناكم فى تلك المرة ، فإنى كنت مضطجعاً على الحافة لكى أبلغ عن حركاتكم . »

فضحك كثير منهم وقالوا : « كنا نحسبكم فى ذلك الوقت عند جدول سيربد . »

« هذا ما خطر لى عند ما رأيت الطريق الذى سلكتموه بعد كومة الدريس ، وفى يوم السبت رأيناكم تولوننا ظهوركم فى أعالى جدول سيريد ، ونحن مستريحون وسط الشجر فى الناحية الأخرى من نهر سنيك . وكانت هذه ثانى مرة عبثنا بكم فيها . »

فضحكوا مرة أخرى ، ولو أن ضحكهم كان من أنفسهم ، مع أنى كثيراً ما رأيت رجالاً منهم يبدون عداوة أشد وهم يلعبون الورق .

ومضى ستيف فى حديثه فقال : « هل نمضى فى طريقنا إلى إيداهو ؟ أو نرتد عائدين من فوق الجبال ؟ إنكم لم تستطيعوا أن تعرفوا أى الطريقين نريد أن نسلك . وبعد ذلك أمكننا أن نستدرجكم إلى تلك الحيل التى توهمتم أنها هى الحيل التى تطلبون . . . آه ! لقد كنا بحق عصبة قوية » ، ثم سكت فشعرت لأول مرة أن كلامه فيه شعور بالكمد . « ليس فى العالم شىء أقوى من أضعف نقطة فيه . » كان الفرجينى هو الذى نطق بهذه الجملة وكانت أول كلمة قالها . . . فأجاب ستيف : « بالطبع ! » وكانت لهجته فى مخاطبة الفرجينى مختلفة وجافة حتى ظننت أنه حسب أنه المقصود بعبارة أضعف نقطة ولكن لم ألبث أن تبين لى من كلام الآخرين أنى مخطىء فى هذا الفهم .

قال أحدهم : « هذا صحيح ، إن النقطة الضعيفة هى التى ينقطع عندها الحبل أو تنفصم عروة الجماعة ، إذا ما أجهدت ، ولقد كنت فى صحبة رفيق ضعيف يا ستيف . »

قال ستيف وقد عاد إليه صوته الهادئ : « أصبت ؛ إنى كنت كما تقول . »

قال الآخر : « كان الواجب أن تنفصل عنه يا ستيف . »

وساد السكون لحظة . ثم قال السجين باهتمام : « نعم . إننى جالس هنا اليوم لأن واحداً منا ارتكب خطأ . وأخذ يلعن المخطىء . ثم قال : « لقد أفسد علينا مشروعنا كله بإيقاده تلك النار الجنونية . » ولعن المخطىء مرة أخرى . وتبادل الآخرون عبارات : « ألم أقل لكم ذلك ؟ » .

قال واحد منهم : « إنك لم توقد تلك النار يا ستيف ! » وقال الآخر : « لقد قلت هذا عند ما رأيت الدخان ، قلت ليس هذا من صنع ستيف ، فما هو بالشخص الذى يوقد النيران ، ليدل على مكان جماعته . »

خطر لى عندئذ أنهم يزجون الثناء إلى ستيف .

قال ثالثهم : « ومن نكد الدنيا أن يفلت ذلك الأبله وتقع أنت يا ستيف . »

وبعد ذلك بدا لى أنهم ينتظرون . فأحسست أن وراء هذا الحوار أمراً .

فقال الأسير : « وهل أفلت ؟ »

فانتظروا مرة أخرى . وإذا بالأسير ذى القميص الرمادى يتكلم بصوت أجش : « أنا الذى أوقدت تلك النار أيها الفتيان ! »

فأجابوه بلطف : « جئت متأخراً يا ادورد ، إنك لا تحسن الكذب . »

فضحك ستيف عندئذ ، فسأله واحد منهم : « ما الذى يضحكك يا ستيف ؟ » قال : « هذا الذى أشاهده. »

قال : « أتعنى أن أدورد المسكين أبطأ فى تأييده لك فى حديثك ؟ إنك أنت الذى يضحك منه يا ستيف ، فما كان ينبغى لك أن تلعن الذى أوقد النار، إذا أردت أن توهمنا أنه حاضر هنا . ومهما يكن من أمر فإننا لن نؤذى قصيرا إذا قبضنا عليه . ويكفى أن نذيقه الخوف والرعب ، فيعود إلى مسالك الفضيلة ، حيث يسوقه طبعه إذا لم يكن فى صحبة ترمباس . »

وتكلم ستيف عند ذلك بصوت قاس فقال : « لقد قبضتم على إدورد وعلىّ . فحسبكم هذا فى حملة واحدة ! »

« إن لنا فى هذا رأياً آخر يا ستيف ، فإن إفلات ترمباس يترك فى عملنا نقصاً كبيراً . »

قال السجين : « هل أفلت ترمباس أيضاً ؟ »

« نعم يا ستيف ! أفلت ترمباس هذه المرة . ومعه قصير هذه المرة . نعلم هذا علم اليقين كأننا رأيناهم يفلتون . ويسرنى أن يكون قصير طليقاً . فإنه خليق أن يوقد ناراً أخرى أو يرتكب حماقة أخرى فى المرة المقبلة ، وهى المرة التى نقبض فيها على ترمباس . »

تحول حديثهم بعد ذلك إلى موضوعات أخرى فجعلت أفكر فى الحوار الذى دار بينهم وما انطوى عليه من كفاح . لا شك أن ستيف هو الذى ارتكب الخطأ المضحك . فخسر نقطة فى لعبه معهم . فقد كان غرضهم أن يستكشفوا الأسماء وكان غرضه — وهو اللص الكريم — أن يخفى الأسماء . فلم يسعهم إلا أن يستدلوا

على ترمپاس وقصير من بين كثير من الأسماء المحتملة . فكانت هفوة من ستيف أن يلعن الرجل الذى أوقد النار . فاستنتجوا من ذلك أنه ليس موجوداً بينهم . وأنا شخصياً أوافقهم على أن ادورد شخص لا يحسن الكذب وإلا لكان من الواجب عليه أن يعلن فوراً أنه سبب إخفاق الحملة . أما إذا كان قصير هو المخطئ فلا شك أن الرجل الآخر هو ترمپاس . لأن الاثنين متلازمان كالكلب وصاحبه. لقد استطاع ترمباس أن يجتذب قصيرا من الخير . وأن ينشئه فى الشر ، ولقد لفت نظرى أن الفرجينى ظل صامتاً أثناء هذا الحوار ، بعد أن أدلى بملاحظته الوحيدة .

بعد ذلك سمعتهم يخاطبون الأسير الآخر : « إنك لا تتناول فطورك يا ادورد.» « تشجع إدورد ! انظر إلى ستيف كيف يأكل بشهوة ! » غير أن إدورد لم يكن يبغى الإفطار ، وأخذوا يجمعون الصحاف الصفيح ، ويضعونها فى الصناديق .

قال شخص آخر : « أشرب هذا القدح من القهوة على الأقل ، حتى تشعر بالدفء . »

وقد جعلتنى هذه الكلمات أحس أنى أنا الذى سأشنق ، وأخذ جسمى يبرد أسوة بجسم ذلك الأسير ، كان الموقف قد استولى على مشاعرى كلها .

« فلنبدأ إذا كان كل واحد مستعداً ! »

كان هذا صوت الفرجينى ، يختلف عن أصوات الآخرين . وقد سمعتهم ينهضون طوعاً لإشارته فغطيت رأسى بالبطانية ، وقد أحسست بخطواتهم وهم خارجون ، عند ما مروا بالقرب من فراشى . وقد اضطرب الهشيم ( اللدريس ) الذى كان بعضه تحتى وبعضه فى الاصطبل بسبب شىء ثقيل كان يُجر فوقه أو يحف به ، وبعد أن ابتعدت الخطوات بأصواتها المتشابكة إلى الخارج سمعت واحداً يصيح : « احترس فإنك تؤذى ذراع إدورد . » وسمعت آخر يقول : « مسكين إدورد ، إنه لم يستطع أن يشرب قهوته ! » ثم سمعتهم فى الخارج يركبون جيادهم ، وأخذت حوافر الخيل تبتعد ، حتى ساد الصمت حول الاصطبل اللهم إلا قطرات الغيث ، التى كانت تتساقط بوقع منتظم مطرد .

## ٣١

# شجر الحور

لست أدرى كم لبثت وحدى هناك ، وكان الفرجينى هو الذى رجع ، ولم تكد عينى تقع على وجهه ، وهو واقف عند طرف فراشى ، حتى حوّل بصره عنى بعد أن حدّق فى وجهى لحظة . وما أذكر أنى رأيته من قبل يبدو فى مثل صورته الآن ، حتى ولا فى خانق بتستون حيث عثرنا على جثتى هانك وزوجته . وإلى هذه اللحظة لم تتح لنا فرصة للتحدث ، إلا فى حضور الآخرين .

فبدأت الحديث بعد قليل وقلت : « يبدو أن المطر لا يزال ينهمر » قال . « نعم إنها فترة مطيرة . » وجعل ينظر من الباب إلى الخارج وهو يصلح شاربه :

وكنت البادىء بالكلام مرة أخرى فقلت : « كم الساعة الآن ؟ » فنظر إلى . ساعته ملياً وقال : « قبل السابعة باثنتى عشرة دقيقة . » فنهضت وجعلت أرتدى ملابسى . فقال : « لقد انطفأت النار . » وأخذ يضع بعض الحطب فوق الرماد ثم لم يلبث أن أحضر فنجاناً ، فقلت له : « لا حاجة بى إلى هذا . » قال : « إن ركوبنا لمسافة طويلة . » قلت : « أعرف هذا ، وفى جيبى من ( البسكوت ) ما يكفى . »

وبعد أن لبست حذائى مشيت إلى الباب ، ونظرت إلى السحاب . وقلت : « إن منظر السحب يدل على أنها ربما تنقشع . » ونظرت إلى ساعتى . فسألنى عن الزمن ، فقلت : « الربع قبل — إن ساعتى وقفت . » ثم أخذت أملؤها ، وهو ينظر إلى ساعته . فسألته أنا عن الزمن . فقال : « الساعة السابعة وعشر دقائق . »

فجعلت أضبط ساعتى ببطء ، فقال : « إن ستيف كان يملأ ساعته بانتظام ، وقد سهرت على حراسته أمس حتى الساعة الثانية . » كان كلامه كمن يتكلم فى غيبوبة ، أو هكذا يرن الآن على الأقل فى ذاكرتى .

وأخذت أنظر مرة أخرى إلى الهواء وإلى السهل الفسيح الذى يغشاه المطر ، وكانت السفوح الشرقية التى نقصدها صفراء شاحبة . وقد أخذت تتحرك على الحشائش بقع من الضوء الغامض . ولم يكن هذا ضوء الشمس الصريح ، بل انعكاساً لبقع بدأ السحاب ينجاب عنها . وانتشرت فى الهواء موجات تائهة من الدفء . وإنى لفى تأملى هذا السحاب والندى ، وإذا ببصرى يقع صدفة على أجمة الحور البعيدة . يسبح حولها البخار الذى خلفته العاصفة ، ولا شك أن المدى بعيد بينى وبينها . قعدت إلى الداخل وأخذت أطوى الأغطية .

قال الفرجينى — وهو جالس لدى الموقد : « ألا تريد أن تعدل عن رأيك ؟ إن المسافة خمسة وثلاثون ميلاً . » فأجبته كلا : وأنا أحس بخجل شديد ، لأنه لاحظ ما اعترانى من التأثر والخور .

وشرب قدحاً ساخناً ، ثم جلس يفكر ، وجعل يمر بيده على جبينه حتى أخفى عينيه . ثم ملأ قدحاً آخر وشربه ، ونهض فجأة على قدميه كأنما أراد أن يحرر نفسه من شىء يقيده . وقال : « هلم نجمع أمتعتنا ونرحل من هنا ! »

كانت خيولنا فى الحظيرة ، وأمتعتنا تحت سقف البناء المتداعى الذى كان من قبل هو المنزل . فأخذ يجمع الأمتعة فى صمت . وأنا أسرج جوادى . ثم جعلنا نحزم الأمتعة فى صمت على ظهر فرسَىْ الحمل ، وأحكمنا العقد ، وشددنا الحبال الرطبة . ولم نكد نركب ، ونبدأ طريقنا حتى تلفتّ ورائى إلى المكان الذى بتّ فيه ليلتى .

ورآنى الفرجينى فقال مفسراً نظراتى : « الوداع إلى الأبد ! »

« أجل وأيم الحق ، هذا ما أرجوه »

قال : « وهذه أمنيتى أيضاً » . كانت هذه أول كلمات تبادلناها اليوم بلا تكلف.

فناولته زجاجتى . وقلت : « إن هذا يفيدنا الآن . » وشرب كلانا قليلاً ، فشعرنا بالراحة بسبب الشراب . وبسبب كلامنا البعيد عن التكلف . فقد مضت ساعة ونحن نتجنب الحديث الجدى ملتزمين الكلام عن الجو أو ما يشابهه ، بينما كان ذلك الأمر الصامت ، الذى كنا نتحاماه ، يملأ الهواء الذى حولنا ، ويكمن وراء كل حرف ننطق به . والآن أوشكنا أن نبتعد عنه ، وأن نتركه فى الاصطبل وراءنا ، فأخذنا نزيحه عن قلوبنا بالكلام عنه . ولهذا بدأت أشعر بالارتياح يتغلغل فى نفسى .

قلت : « إنك لم تفعل هذا من قبل . »

قال : « كلا ! إنى لم أضطر لهذا يوماً . » وكان يركب إلى جانبى وهو ينظر إلى قرن سرجه . فقلت : « لا أحسب أن لى المقدرة على مثله . »

فقال — وفى صوته نوع من التحدى : « لن أتردد عن ارتكابه مرة أخرى هذا الصباح . »

— « ليس هذا ما عنيته ، إن الذى حدث ضرورىّ هنا ، وليس هناك وسيلة أخرى . »

— « لن أتردد عن القيام مرة أخرى فى هذا الصباح نفسه ، بما قمت به من قبل . »

— « وأنا أيضاً ، لو كان بإمكانى أن أقوم به . » وقد خيل له أنه بكلامه هذا يريد أن يسوغ ما عمله اليوم ، ويثبت أنه حق وعدل .

ولم يجب على كلماتى ، بل سار قدماً ، وهو ينظر إلى سرجه . وبعد قليل جعل يمر بيده مرة أخرى فوق جبينه حتى أخفى عينيه وقد علاه العبوس .

فقلت : « بودى أن أتأكد أنى سأظهر الجلد والصبر ، إذا حكم علىّ بالإعدام . » فقد خطر لى فى تلك اللحظة منظر الرجلين ، وعجبت أيهما أشابه ، إذا كنت فى موقفهما . هل أستطيع أن أطالع الجريدة وأبدى اهتمامى بالانتخابات المحلية ، وأتحدث عن الموت الوشيك كأنى أتحدث عن لعب الورق ؟ أم يكون

موقفى بحيث أضطرهم لأن يجرونى جراً ؟ فيا ويح ذلك المسكين فى قميصه الصوفى الرمادى. . . ثم قلت بصوت مسموع : « كانت الحال فى الاصطبل كريهة. »— وذلك بعد أن سرت بجسمى قشعريرة .

ومر بيده للمرة الثالثة على جبينه ، فحاولت أن أظهر بعض العطف نحوه وقلت : « أخشى أن يكون بك صداع . » قال متمتما : « لا أريد أن أظل ناظراً إلى وجه ستيف . »

فقلت مندهشاً : « ستيف ! ما خطبه ؟ كل ما رأيته منه كان عظيما . ولما لم يعد من الموت بد فإنه — »

— « هذا صحيح ! أما ادورد ، فأظنك تفكر فيه ، أما أنا فقد نسيته . إذن لم يعجبك سلوك ادورد ؟ » فنظرت إليه فى حيرة وقلت : » لست أظن أن ستيف فى آخر لحظة — » فقطع كلامى بضحكة تكاد أن تكون وحشية وقال : « كلا . لا يقلق بالك على ستيف . لقد ثبت إلى النهاية . »

إذن ما باله ، لا ينفك يرى وجه ستيف ، وتمحو هذه الرؤيا كل شئ آخر، وتنال منه إلى هذا الحد ؟ لقد بدا لى أنه يزداد هياجاً كلما ازددت هدوءاً . ومع ذلك فإنى لم أوجه إليه سؤالا ًوركبت فى صمت دقائق عديدة ، وهو مطرق برأسه دائماً ، إلى أن استأنف الكلام بلهجته التى أدهشتنى من قبل ، والتى يبدو فيها عدم أكتراثه بأىشىء ، وقال : « إذن آلمك منظر ادورد ،وجعلك تحس برعدة ، أو فشعريرة ، أو ما شاكل ذلك . »

فقلت له : « لست أظن أنى أنا وأنت خلقنا من طينة واحدة . »

فلم يعبأ بردى هذا ، ومضى يقول : « ولو أنه سلك مسلك ستيف لكنت أهدأ بالا . ولا شك عندى أن من المؤلم رؤية ادورد يلقى الخطب بهذا الشكل . وما بالك لو رأيته حين جد الجد ؟ إن الأمر فى نظرى هو الآتى : إن الرجل قد تبلغ به السفالة والإجرام بحيث لا يجدى معه علاج سوى القتل ، وعلى الرغم من ذلك فإنه ينتمى إلى النوع الذى تنتمى إليه . ويؤلمك أن تراه يركع ويسجد

ويمسك برجليك ، ويريك جبنه عارياً صريحاً . وهذا يشعرك بالخجل . لهذا آلمك سلوك ادورد واشمأزت منه نفسك ، أما مسلك ستيف فقد جعل كل شيء يبدو أمامك سهلاً هيناً . » كان فى صوته نغمة تهكم وسخرية وهو ينظر إلىّ ولكنها لم تلبث أن انقلبت إلى نغمة حزن ، وهو يقول : « لقد كان كلاهما مجرماً أثيماً . ولكن لو أن ستيف أظهر الجبن أيضاً لكان الخطب أهون علىّ بكثير . » ثم سكت قليلاً ، وأضاف : « وستيف لم يرتكب الإثم مرة واحدة . »

ارتعد صوته وهو يتكلم ، فأحسست بتلك العاطفة التى أخذت تستبد به فيما يظهر ، بعد أن فرغ من العمل الذى قام به ، ولم يبق أمامه سوى التفكير ، وقد كان رأيه بسيطاً ؛ وهو أن المرء يجب أن يموت شجاعاً ، فإذا خانته شجاعته ارتكب إثماً كبيراً ، ولم يعد يستحق أى شفقة . لذلك كان المسلك المثالى الذى سلكه ستيف مثيراً لعاطفته ، إلى درجة نلمس معها احتقاره للرجل الآخر .

ولكن لم يكن هذا آخر شيء أدلى به فى هذا الموضوع . فقد عاد إلى فكرة الأسير الذى يريد أن يجعل الخطب سهلاً أمام جلاده ، وقال — وهو يستذكر حوادث الصباح : « لقد ظل على هدوئه إلى آخر لحظة ، حتى لقد أراد أن يعطينى جريدتك . ولكن لم — »

فقلت مقاطعاً : « لا حاجة لى بها . إنى فرغت منها . »

قال — وهو يطالع الصورة المرسومة فى خاطره : « لقد تلقى الموت بسهولة كما كان يتلقى الحياة . وكما ينبغى للرجل ، وكما ينبغى لى أنا أيضاً . لم يحاول تلك المسرحيات ، أو إلقاء كلمة أخيرة . بل لم يزد على أن ودع الفتيان عند ما وضعنا جواده تحت العارضة . ولا حاجة بك إلى أن تبدى تأففاً . » ثم قطع القصة وقال « إنك لن تسمع أى تفاصيل أخرى تزعجك . »

فقلت — وأنا أتكلف الضحك : « إنى أعرف أنى رعديد ، ولن ترانى يوماً أزاحم وأحملق إذا أصيب شخص فى الطريق . بل أبادر بالانصراف . »

فجعل يفكر فيما ذكرت ثم قال : « إنك لا تعنى كل ما قلت ، وما كنت

لتتكلم هكذا عن الذين يزاحمون ويحملقون لو أنك كنت حسن الرأى فيهم . إن الحملقة ليست من الشجاعة فى شىء ، بل هى مجرد الشغف السخيف بالاستطلاع . ولم يكن فيك هذا الخلق — »

فى تلك اللحظة رفع يده لكى يشير بها إلى شىء . ولكنها سقطت على الفور، وامتنع عن الكلام ، وجذب حصانه ووقفه .

فاهتزت أعصابى لهذه المفاجأة . ونظرت إلى الجهة التى كان ينظر إليها ، فإذا شجر الحور أمامنا وعلى مقربة منا . وقد نسينا الأجمة ونحن نسير ونتكلم ، والآن أصبحنا على بعد مائة ياردة منها وطريقنا يمتد وسطها .

قال الفرجينى : « هلم ندر حولها ! »

وبعد أن عدنا إلى طريقنا — بعد أن درنا حولها — استمر فى حديثه فقال : « إنك لم تكن مكلفاً بمثل هذه المهمة . » ولكن لا بد للمرء أن يحمل التبعات التى كلف بها إلى النهاية وظنى أنك أنت أيضاً ستنهض بتبعاتك . »

قلت : « هذا ما أرجوه . وما رأيك فى ادورد ؟ »

قال : « إن ادورد لم يكن رجلاً ، وإن كنا ظننا به الرجولة إلى أن حدث هذا ، لقد بدأت أنا وستيف رعى البقر معاً فى مزرعة بردو إلى الشمال من شيين . فى تلك الأيام كنا نعمل كل شىء معاً ، جداً كان أو عبثاً ، كان ذلك منذ ست سنوات . لقد كانت لستيف صفات ومزايا كثيرة . »

وأحسب أننا قطعنا ميلين قبل أن تكلم ثانية : «أغلب ظنى أنك لم تلاحظ ستيف ، أى لم تلاحظ مسلكه نحوى ؟ » ولم ينتظر منى رداً على سؤاله هذا ، بل مضى يقول : « إن ستيف لم يخاطبنى بكلمة إلى النهاية ، لقد تجنب ذلك عمداً . وقد رأيت كيف كان يتحدث بمودة إلى الفتيان الآخرين . »

فسألته : « وهل انصرفوا كلهم ؟ » فنظر إلىّ مبتسماً وقال : « لا شك أننا أصبحنا فى وحشة وانفراد . »

قلت : « ما كنت أحسبك تحس الوحدة ! »

قال : « أحسبها ! إنهم ذهبوا إلى السكة الحديدية . ثلاثة منهم سيشهدون فى قضية ببلدة إيفانستن ، والقاضى هنرى يريد أن يذهب رجالنا إلى مدسن بو . . لقد كان ستيف يتجنبنى ؛ أتراه يظن أنى قد خنت عهده ؟ »

قلت : « وما عليك إذا كان يظن هذا ؟ إنك تعلم أنك لم تخنه . . . إذن لن يذهب أحد إلى نهر الرياح سواك ؟ »

قال : « كلا ! هل لاحظت أن ستيف لم يرد أن يدلى إلينا بأية معلومات عن قصير ؟ هذا عين الصواب ، وسأفعل مثله لو كنت مكانه . » وهكذا كان يعود بى دائماً إلى الموضوع نفسه .

وقد بدأت الشمس الآن تشرق بضيائها ودفئها فى فترات تبلغ الدقيقتين أو الثلاث ، وانفتحت خلجان زرقاء وسط السحب الضخمة البيضاء . وهذه أخذت تتحرك وتلتقى ، ثم تفترق كالأيدى حين تمتد وتنتشر . وأخذ يغشى العالم غطاء من الهدوء الناعس بعد عواصف الليل الساهرة . والنجاد الفسيحة أخذت تتدفأ فى الشمس وتتجفف. ولم يبد للعين كائن حى واحد ، لا من الطير ولا من الوحش . وأخذ الهدوء يعود إلى نفسى المنتعشة ، ولكن الفرجينى لم ينل منه شيئاً . وكلما ناقش الموضوع بصوت مسموع زاد همه واكتئابه .

« إذا كان لك صديق ، مشربه فى الحياة مشربك ، يصاحبك فى رحلاتك ويشاركك فى لهوك وعبثك ، وتلائم طباعه طباعك كل الملاءمة . ثم تراه يوماً وقد جعل يكوى بوسمه الخاص عجل رجل آخر . فتقول له بكل صراحة وإخلاص إن هذا المذهب ليس مذهبك . ولن يكون مذهبك يوماً ما . فيذهب احتجاجك سدى . لأنه فيما يبدو أصبح كل همه أن ينال الغنى بسرعة وأن يصبح من كبار رجال الإقليم . وتمضى السنون ، وقد أصبحت أنت المقدم فى مزرعة القاضى هنرى ، أما هو فلا يزال حليف الأدغال والأجم من شجر الحور ، فأى حق له يطالب به ؟ ومن الذى اختار مسلك العدوان ؟ إنه لا يستطيع أن يقول : هذا صديقى القديم، الذى أنصره وينصرنى . . . أله الحق أن يقول هذا ؟ »

فقلت له محتداً : « ولكنه لم يقل هذا . »

قال : « كلا . ولكنه كان يتجنبنى . »

قلت له : « أنصت إلىّ . لنفرض أنه همس فى أذنك عند ما كنت تحرسه وقال لك : أطلق سراحى ! هل كنت تجيبه إلى ما طلب ؟ »

قال الفرجينى بحماسة : « كلا يا سيدى . »

فسألته : « إذن ماذا تبغى ، وماذا عساك أن تفعل ؟ »

لم يستطع أن يجيبنى ، ولكنى رأيت أنه لم يقنع بكلامى . فزدت على ذلك قولى : « أتراك كنت تريد التصديق على الأمر من الرجل الذى أردت شنقه ؟ أظن أن هذا المطلب لا يخلو من الغلو ؟ »

وتحول فكره المضطرب إلى نقطة أخرى فقال وهو يفكر : « لقد وقف ستيف من قصير موقف الشهامة . فإن غلطة قصير هى التى أودت به ؛ ومع هذا كله ، فإنه لم يرد منا أن نقبض — »

قلت له مقاطعاً : « إنك تخلط الأمور بعضها ببعض ، وما عهدتك تخلط الأشياء من قبل ، والغلطة على كل حال لم تكن غلطة قصير . »

قال : « غلطة من إذن ؟ »

قلت : « غلطة ذلك الشخص — أيا كان — الذى أشرك رجلاً أحمق فى أمر خطير كهذا »

قال : « هذا صحيح . وكان ترمباس هو الذى أتى بقصير . ومع ذلك فإن ستيف لم يرض أن يشى به . »

فقلت فى محاولة أخرى : « ولكنهم جميعاً فى الخطب سواء . » ولكن هيهات أن يسمع صوت المنطق . بعد أن فقد تمييزه للأمور وسط ضباب العاطفة . لقد كان يعرف — ويعرف عن يقين — أن ما فعله هو الصواب . ولكن سكوت صديقه القديم عنه فى هذه الساعات الأخيرة قد خلف جرحاً لا تبرئه أية حجة مهما كانت قوية . لذلك ظل يردد : « إنه ودع الرفاق جميعاً ، ولم يودعنى . »

وذهبت كل جهودى فى تحكيم العقل والمنطق عبثاً ، ولم أستطع أن أحوله عن مجرى تفكيره . وعاد بعد قليل إلى الكلام فى تسويغ ما فعل : « هل أنا الذى تخليت عنه ؟ أليس هو الذى تخلى عنى يوم صارحته برأيى فى سرقة العجول ؟ لقد التزمت خطتى ولم أحد عنها وكان هو الذى اتخذ سبلاً جديدة . إن الرجل الذى كان رفيق أسفارى ، ليس هو الذى خلفناه وراءنا . الاسم واحد بالطبع ، والجسد واحد ، ولكنه مختلف ؛ غير أنه احتفظ بذاكرته . ومن الأسف أنك لا تستطيع أن تغير ذاكرتك . »

وأتبع هذه العبارة بزفرة عنيفة حزينة . لم أسمع منه مثلها من قبل . فرأيت نفسى من غير تفكير أضع جوادى فى محاذاة جواده وأحيط كتفيه بذراعى . ولم أكد ألمسه حتى غلبه التأثر وقال : « كانت بينى وبين ستيف معرفة أكيدة . » وهكذا انتهى بنا الأمر إلى أن أصبح كل منا فى مكان الآخر . فنى الصباح الباكر كان هو يبدى الجلد وأنا أظهر التأثر . والآن أصبحت أنا الذى أواسيه وأقوى عزيمته .

وألهمنى التوفيق أن ألتزم الصمت . فتناول يدى بعد قليل ، وصافحنى وهو ينظر إلىّ . لقد كان دائماً أبعد الناس عن إظهار عواطفه . فانصرف بعد ذلك إلى الربت على عنق جواده : « أيها الحصان مونتى ، إنك تحسب أنك كثير الدراية . ولكن هناك أشياء كثيرة لا تعرفها . » ثم شرع فى استئناف الحديث بيننا :

« إن حالة قصير تبعث على الرثاء . »

قلت : « أجل إنها جد مؤسفة . »

قال : « هل تعرف من أمره شيئاً ؟ »

« أعرف أنه رجل لا ينطوى على شر جدى ، وأن فيه بعض الخير من غير شك ، وليس له المخ اللازم لسارق الماشية . »

« نعم . هذا صحيح ، لقد قاده ترمباس إلى عمق يزيد عن قامته ، ومن الجائز

للرجل المتوسط أن يصيب بعض النجاح فى الولايات الشرقية . ولكن إذا أردت أن تمارس أمراً فى هذه الجهات الغربية ، فلا بد لك أن تتقنه . لا بد لك أن تتقن توزيع ورق اللعب ، وإذا سرقت يجب أن تتقن السرقة . وإذا زعمت أنك سريع فى إطلاق النار ، فليكن زعمك صادقاً لأن فيه إغراء للناس . ومنهم من لا يستطيع مقاومة الإغراء فيحاول أن يثبت أنه أسرع منك . وفى هذه البلاد الغربية يجب أن تتقن مخالفة الأوامر الدينية . كان الأجدر بقصير أن يظل فى بروكلين ، لأنه سيظل فجاً طول عمره . هل تعرف قصته ؟ لقد أنبأنى بحالته وظروفه . إنه لا يعرف لنفسه أباً ، ولعله كان من الجائز له أن ينتسب إلى ثلاثة أو أربعة ،ولا أظن أمه كانت يهمها من أمره شىء قبل ولادته أو بعدها . وعاش مشرداً ؛ حتى إذا بلغ الثامنة عشرة أخذ يشتغل فى دكان بدال . ولكن فتاة كانت تصاحبه جعلت تستولى على أجره وتطلب منه المزيد . فرآه البدال يوما يسرق صندوق النقود ، فطرده من الدكان . ولم يكن هنالك شخص يودعه ، لأن الفتاة ذهبت إلى الريف لترى عمتها كما زعمت . فوقف قصير على مقربة من الدكان . ثم قبل قطة البقال مودعاً . وقد قال لى إنه كان يطعم هذه الهرة ، وكثيراً ما كانت ترقد فى حجره . وهو الآن يرسل النقود إلى تلك الفتاة . إن هذه البلاد لا تلائم قصيرا ، لأنه سيظل فجاً غمراً طول حياته » .

قلت : « ربما فضل أن يسلك سبيل الأمانة بعد أن أفلت بأعجوبة . »

فهز الفرجينى رأسه وقال : « إن ترمباس قابض على ناصيته . »

ولم يلبث اليوم أن أصبحت سماؤه زرقاء ، وأرضه دافئة . وقد بدأنا ندور ونصعد وسط منحدرات السفوح الأولى . وقد تكلمنا حتى لم يبق ما نقوله . ولما بلغنا أول جدول جار ، استرحنا طويلاً ، ورقدت على الأرض العارية . واستولى على سبات عميق ، حتى لم أفق بسرعة عند ما هزنى الفرجينى ليوقظنى . ولكن ذكرنى ما نحن فيه منظر أجمة الحور ، وهى تبدو فى السهل من تحتنا على بعد كبير منا .

قال الفرجينى : « إنها ستكف عن مراقبتنا قريباً . » وكان يريد بقوله نوعاً من المزح . ولكن لا شك إننا اغتبطنا جميعاً عند ما ركبنا بعد قليل فى أرض شديدة التصعيد وفقدنا فى طرقها الملتوية منظر السهول . وتبين لى أن رفيقى لم ينم ، وزعم أن هذا يرجع إلى اضطراره أن يوازن الحقائب على ظهرى الجوادين ، وأنه أخذ يتمشى على جوانب الجدول صعوداً ونزولاً ، لعله أن يصيب بعض السمك ، ولكن عينيه التائهتين كانتا تنطقان بالسبب الحقيقى الذى ذاد عنهما النوم ، وهذا السبب هو ستيف ، فإن هذا الأمر لن ينتهى أثره من نفسه بسرعة .

## ٣٢

# طريق الأوهام

لم نقطع خمسة وثلاثين ميلاً في ذلك اليوم . بل ولا خمسة وعشرين. لأن الفرجيني تركني لأنام وقد عسكرنا مبكرين ، وحاولنا أن نصيد بعض السمك فلم نوفق ، ومع ذلك فإنه لم يحزن لهذا ووعد بأن نصطاد أحسن الأسماك غداً عند ما نصعد إلى المرتفعات العليا ،لم يتكلم بعد ذلك في الموضوع الذى كان يشغل باله ، بل إنه لم يمسه من قريب أو بعيد ، وعند ما كنت أجلس لأكتب مذكراتي ، كان يذهب إلى جواده مونتي ، فأسمعه يتكلم أحياناً إلى هذا الصديق .

في اليوم التالي اتجهنا نحو الجنوب ، تاركين الطريق الذى يعرفه الجميع باسم « طريق كونانت » قاصدين إلى المجاز المختصر وسط جبال التيتون ،وهي سكة لا يعرفها إلا القليلون . وكان اسم الجدول الذى تبعناه الآن ( بتش كريك ) أو جدول الكلبة ، وكان صيد السمك هنا من السهولة بحيث أخذنا نتباطأ فكان في هذا الإبطاء متعة لي وللخيل على الأقل . فقد أصابت هي مرعى جديداً وظلالاً وارفة وسط الغابات الكثيرة هنا . وأما أنا فحسبي أن أنشق عبير الجبال ، وأنظر إلى مرتفعاتها وإن لم أوفق في صيدى للسمك ، وقد أصبح طريقنا الآن هو الطريق الذى تعقبوا فيه الأسرى قبل الظفر بهم ، وقد رأيت في الطريق أثر حوافر خيل كثيرة كاد يطمسها المطر ولكنها جديدة . وهي آثار القوم الذين قابلتهم في الإصطبل . قال الفرجيني : « من السهل أن ترى آثار مونتي ، لأنه الوحيد الذى جددت نعاله حديثاً . ومن هذه النقطة تبدأ مسالك عديدة تفضي كلها إلى المكان الذى جئنا منه . »

أخذنا عندئذ نصعد منحدراً صخرياً ناعماً واسعاً . وكان يتفرع منه طريق سهل ينتهى إلى واد مرتفع الجوانب ، ولكن المسلك الذى يقابلنا ، والذى يجب علينا أن نسلكه كان شديد الوعورة بحيث اضطررنا إلى أن نترجل ونقود الخيل بأيدينا ، وهكذا وصلنا إلى منبسط عال فى الجبل ، تكسوه الحشائش وتقل فيه الأدغال ،وقد ظهرت فيه آثار الخيل مرة أخرى ، وقد كادت تطمسها الأمطار.

وكان الفرجينى يمشى فى المؤخرة وراء الخيل ، فصحت به : « إن شخصاً مرّ من هنا بعد سقوط المطر . »

فقال متعجباً : « بعد سقوط المطر ! إن هذا لم يمض عليه أكثر من يومين . » ثم أخذ يختبر الأثر قال وهو مقطب : « رجل وحصان ، وجهتهما كوجهتنا ، فكيف مر بنا دون أن نراه ؟ » .

قلت : « لعله اتخذ واحداً من المسالك الأخرى العديدة ؟ »

— « نعم ،ولكن الذين يعرفونها قليلون ،وهى فوق ذلك مسالك وعرة جداً . »

— « أهى أشد وعورة من هذا الذى نحن فيه الآن ؟ »

— « كلا ، ولكن أنى له أن يعرف واحداً من تلك الطرق ؟ ولماذا لم يسلك طريق كونانت وهو واضح سهل ، وليس أطول كثيراً من هذا ؟ رجل وحصان ! لست أدرى ما عساه أن يكون أو ما الذى يبغيه هنا ؟ »

فقلت : « لعله أحد الباحثين عن المعادن . »

— « لم يحضر للبحث عن المعادن هنا سوى جماعة واحدة ، وقد أعلنوا أنه ليس فى هذه الجهات صخور تحمل أى معدن من المعادن . »

فعدنا إلى ظهور خيلنا دون أن نجد حلا لهذه المعضلة والظاهر أنها كانت أكبر فى نظر الفرجينى منها فى نظرى . فما الذى يدعونا لأن نجد تعليلا لوجود أى رجل سائح وسط الجبال ؟

قال الفرجينى : « وهذا غريب أيضاً . » وكان الآن راكباً أمامى ، ثم وقف وجعل ينظر إلى الطريق وقال : « ألا تلاحظ شيئاً ؟ »

ولم يلفت نظرى شىء . فقال : « ما باله يمشى دائماً بجانب الجواد ، ولا يركبه ؟ » وكنا نحن قد عدنا إلى الركوب بعد أن تسلقنا الصخرة ، وبدأنا السير فى الطريق السهل وكان هذا منذ نحو نصف ميل . ومع ذلك فقد كان لدى تفسير طبيعى ، فقلت : « إنه يقود جواداً من جياد الحمل ، لأنه صياد فقير ، مضطر لأن يمشى على قدميه . »

قال الفرجينى : « ليس من المألوف أن تُركّب لخيل الحمل النعال فى الأمام والخلف . ثم ترجل برفق ولمس أثر الأقدام وقال : « لم تمض عليها أربع ساعات ، لأن الشمس لم تجففها بعد ! »

وسرنا فى طريقنا . ومع أنى لم أجد وجهاً للغرابة فى أن يفضل إنسان أن يمشى ويقود جواده فترة من الزمن — وكثيراً ما فعلت ذلك لكى ألين عضلاتى — فإنى بدأت أحس بما أحس به الفرجينى عن هذا المسافر ، الذى ظهرت آثاره فى طريقنا ونحن فى وسط رحلتنا كأنما نزل من الهواء . وجعلت أتذكر أنه قد سلك طريقاً آخر حتى وصل إلى المنحدر الصخرى الضخم ، وأصبح طريقنا بعد ذلك واحداً . وإن من العجيب أن صياداً فقيراً لا يملك غير حصان واحد يفضل هذا الطريق الموحش الوعر . وهذه الخواطر لم يكن من شأنها أن تعيد إلى ذلك الارتياح الذى أحسست به بعد أن خلفنا وراءنا أجمة الحور فى مكانها من السهول . لذلك صحت بحدة عندما رأيت الفرجينى يقف فجأة : « ماذا جرى الآن ؟ »

فجعل يحدق فى الطريق ، ثم أدار جسمه وهو جالس فى سرجه ، وحدق فى وجهى وقال :

— « إنهما اثنان ! »

— « أى اثنين ؟ »

— « لا أدرى ! »

فقلت له بحدة : « إنك تدرى على الأقل إذا كان الأثر لرجلين أو

بالجوادين . »

ولكنه لم يجب على سؤالى هذا ، بل ظل جالساً لا يتحرك ، وهو يتأمل الثرى ، فأحسست بضجر شديد وسط هذا السكون الشامل ، فتقدمت بجوادى لأرى بنفسى ، فرأيت أمامى أثر أقدام رجلين .

قال الفرجينى : « ما رأيك فى هذا ؟ يوشك أن يكون أمراً مضحكاً . »

قلت : « إنه لشىء عجيب جدًّا . » وأخذت أبحث عن تعليل . ولكن لم يكن هناك صخرة يمشى عليها الإنسان ثم يخطو منها إلى التربة اللينة . وكأنما نزلت هاتان القدمان من الهواء أيضاً . وأخذ الخيال يعبث بى فيصور لى رجلا ميتاً يلبس قميصاً من الصوف الرمادى اللون .

قال : « ألا ترى أنهما رجلان يسافران ومعهما حصان واحد يتناوبان ركوبه ؟ »

قلت : « بالطبع ! » ثم تقدمنا بضع خطوات . فقال — وقد بدا فى الطريق ما يؤيد ظنه : « انظر ، لقد ركب المسافر رقم واحد . . . ولكن . يا للعجب ما هذا ؟ » فى تلك اللحظة سمعنا صوتاً ، خشب يتكسر وسط الغاب بالقرب منا ، فالتفتنا ، فرأينا وعلا يختفى . وقد خلفنا ، ينظر كل منا إلى صاحبه مبتسماً ، ويحاول أن يسبر غوره فقال الفرجينى : « إننا على كل حال لا نحتاج إلى لحمه اليوم »

قلت : « إنه من النوع ذى القرن المدبب ! »

قال : « أجل ، إنه ذو قرن مدبب . »

ومرت بنا بعد ذلك فترة قطعناها أثناء ركوبنا فى التحدث عن الوعول . وجعلنا نتساءل عما إذا كنا سنصادف بعضها مرة أخرى بالقرب من الطريق . ولكن لم نلبث أن ساد الصمت بيننا . فقد وصلنا إلى موضع تحيط به قمم الجبال ذات الأطراف المدببة كأنها أسنان حادة ، وتمتد على منحدراتها السفلى حقول من الثلج ، يشرق عليها ضوء النهار ، فى حين أن الأشجار والحشائش

التى كنا نمشى وسطها قد أظلها ظلام المساء . ولم تزل تسبقنا فى طريقنا الآثار الجديدة لحوافر الجواد وقدمى ذلك الرجل ، سواء أكنا راكبين وسط الأشجار . أو فى العراء ، فى السهول أو النجاد . ولم تمض على انطباعها فى الثرى أربع ساعات . بل لعلها كانت أحدث من ذلك بكثير . ألم يكن من الجائز أن نشاهد فجأة أمامنا أصحاب تلك الآثار ، عندما ينعطف بنا الطريق ؟ لقد جعلت أراقب هذا الأمر . وعادت الخواطر مرة أخرى تعبث بى ، فجعلت أقاومها بالحجج المنطقية على النحو التالى : لئن كان الرجلان يتناوبان الركوب ، فذلك لأن المشى يتعبهما ، كما يتعبنى أو أى شخص آخر . وفوق ذلك فإن معهما حصاناً يستخدمانه لهذا الغرض . بمثل هذه الأفكار حاولت أن أبدد الخاطر الوهمى الذى خطر لى بأن هذه الآثار إنما كانت تطبع على الثرى أمامنا مباشرة بأيد خفية ، لأنها هى الدليل الوحيد على أى وجود تستطيع أبصارنا أن تحققه .غير أن الأوهام تغلبت على الأفكار . ولم يمنعنى سوى الحياء من أن أسأل الفرجينى السؤال التالى : « هل استخدم حصان واحد هناك فى أجمة الحور ، لإيقاع القصاص بالرجلين ؟ أحصان واحد ؟ أم أن حبال الشنق قد أخلت السرجين من راكبيهما فى آن واحد ؟ . هذا هو الأرجح ، لذلك لابد أن يكون هؤلاء الذين أمامنا . . . . ورأيت أوهام الطفولة توشك أن تتغلب على تفكيرى ، فأخذت أرد نفسى بعنف إلى صوابها . فإنى رأيت أن هذه الأوهام الكامنة وراء عقلى ، نذير لى بأخطار أشد وأنكى من الخواطر التى أثارتها . فذكّرت نفسى أننى رجل كامل الرجولة ، وأن لى من العمر خمسة وعشرين ربيعاً ، وأنه لا يكفى أن تبدو سنى فى مظهرى ، بل لابد أن تظهر أيضاً فى شعورى . وقلت لنفسى بصوت مرتفع بالرغم منى : « هل بت تخشى الظلام .؟ »

ـــ « ما هذا ؟ »

أيقظنى هذا السؤال من أوهامى ، فجأة ، وكان صادراً من الفرجينى ، وهو يمشى ورائى . فقلت له : « لا شىء . إن الهواء أخذ يبرد فى هذا المكان . »

ولم نلبث أن وصلنا إلى موضع يصعد الطريق عنده بشدة بحيث ترجلنا مرة أخرى لكى نقود خيولنا . والظاهر أن هذا ما فعله الرجلان من قبل . ولفت نظرى اختلاف فى أثر أقدام الرجلين فبادرت بالإدلاء بما لاحظته :

ـ إن أحد الرجلين أثقل وزناً من الآخر . »

قال الفرجينى : « كنت أرجو ألا أضطر لأن أذكر هذا لك . »

قلت : « إنك أسبق منى دائماً ، ولكن مرحلة تعليمى تتقدم شيئاً فشيئاً . »

قال : « هذا صحيح . وستصبح مع هذا التقدم المطرد كأنك واحد من أبناء البلاد . »

ولم نلبث أن بلغنا أعلى المنحدر الوعر ، وعدنا إلى الركوب . وللفكاهة فائدة عظيمة فى مثل هذا الموقف ، فجعلت أبتسم أنا والفرجينى حينما سمعته يسمى أحد الرجلين رطلا والثانى أوقية . فلما بلغنا آخر نقطة فى صعودنا ، وأصبحنا على حافة الحوض الذى تحيط به قمم الجبال ، قال الفرجينى : « لقد ركب الرطل ، أما الأوقية فيمشى على قدميه . فنظرت إليه من فوق كتفى ، فرأيته يلف حول عنقه منديله الأحمر الذى أثر الهواء فى لونه . ثم تناول حجراً ورمى به أحد جوادى الحمل ، الذى كان متخلفاً عن الركب وصاح به : « ويلك يا غليظ الإهاب . إنك تستطيع أن ترى المنظر من هنا . »

كان يبدو لى أنه فى حالة طبيعية ، يجلس على سرجه باسترخاء ، ويخاطب الخيل بصوته الرقيق ، فضحكت من نفسى ومن الأوهام التى دارت بخلدى. فلم تلبث فكرة الرجلين الميتين يركبان حصاناً واحداً وسط الجبال أن اختفت ، وعدت إلى وضح النهار .

فسألته : « أتظن أنا سنلحق بهذين الرجلين ؟ »

ـ « هذا غير محتمل ، لأنهما يسيران بنفس سرعتنا »

ـ « إن أوقية أسرع فى المشى . »

ـ « هذا صحيح فى الصعود ، ولكن فى الهبوط ينزل الرطل بسرعة أكبر . »

لم نلبث أن وصلنا إلى حافة الحوض . وقد بدا تحت أرجلنا كأنه صحن كبير ، تكتنفه الصخور والغابات ، والحشائش والجداول . وقد ارتفعت حوله القمم العالية كأنها أسنة فوق أبراج ، وقد بدت عارية باهرة فى البقية الباقية من شعاع الشمس . فوقفنا هنيهة نتأمل هذا العالم المتسامى ، وأتحنا بذلك فرصة لدوابنا لكى تتنفس . أما الحافة التى كنا عليها فكانت تمتد كأنها سور وعر ما بين هذه القمم ، وهى نصف دائرة طولها يبلغ الخمسة الأميال أو الستة ، عريضة جداً فى بعض المواضع وأحياناً تنكمش وتتضاءل كما كانت فى المكان الذى وقفنا به . وقد اخترقها طريقنا ما بين صخور أثرت فيها التربة ، حتى أكسبتها أشكالا وصوراً عجيبة ، وكثير منها يشبه الكمأة ( عيش الغراب ). أو الرءوس المشوهة المحمولة على قضبان . وقد انتشرت حول الصخور هنا كتل من الثلج المتراكم . ولكن ركوب نصف ساعة لن يلبث أن يصل بنا إلى الحشائش والغابات . فأخذت أطل ، وأطل معى صاحبى ، فلم تقع أعيننا على الرجلين السابقين .

قال الفرجينى وهويحدق فى دوح الصنوبر : « إنهما بلاشك قد عسكرا فى مكان ما فى هذا الحوض لأنهما لم يسلكا هذا الطريق مصادفة . »

هبت نسمة باردة هابطة من بين الصخور ثم ارتفعت مرة أخرى فى دوامة ، فارتفع معها فى الهواء قطعة من ورق الصحف ، لم تلبث أن التصقت بحجر بالقرب منى ، فترجلت وتناولتها . فقال الفرجينى : « ما الأنباء الأخيرة ؟ » وقد ظل راكباً على جواده . ثم قال : « يبدو لى أن الأنباء عظيمة الخطر ؛ ألا تستطيع أن تخبرنى ما الذى جعل عينيك تبرزان بهذا الشكل ؟ »

فأجابه صوتى : « نعم ؛ » وكأن المتكلم شخص يهمس بجانبى . ثم أخذ صوتى يقلد لهجته ويقول : « هذه بلاشك آخر الأنباء . وأظن الأولى أن تطالعها بنفسك . » وناولته الورقة باسماً ، وأنا أراقب ملامحه ، وأنا أشعر كأن السحب تتدافع داخل رأسى .

ورأيته يمر بعينه على السطور بسرعة ، ويقلبها على الجانب الآخر ثم قال : « لا أرانى قادراً على فهم سر هذا الاهتمام . فكل ما هنالك أن الانتخابات ستعقد فى مقاطعة فريمونت ، وأن هناك من يتوقع أن يفوز جيك . »

فقاطعته بحدة : « ولكنها ورقتى ، وهذا جزء من جريدتى . وعليها العلامات التى خططتها بالرصاص بيدى !! »

فلم يبد على ملامحه أقل تغير يمكن أن يرى حتى بالميكروسكوب . وكان جوابه أن أمسك الصحيفة ونظر إليها نظرة الناقد وقال : « تعنى أن هذه هى الصحيفة التى أعرتها ستيف ، والتى أراد أن يعطيها لى لكى أردها إليك ؟ وهذه الإشارات ، هى التى كتبتها أنت ؟ » ثم أمسكها بيده يتأملها لحظة أخرى ، كما يفعل بعض الناس حين يطالعون عقداً قبل إمضائه ، ثم ردها إلى وقال : « على كل حال إنها قد عادت إليك . »

فقلت له باستخفاف : « بل جزء منها فقط . » وعندما تناولتها منه لمست يدى يده مصادفة . فكانت يده باردة كالثلج . فقال على سبيل الإيضاح : « إنهم لم يفرغوا بعد من قراءة الجزء الآخر . وعلى كل حال لا تفرط فى هذا الجزء ، بعد ما تكبدوه من العناء . »

قلت له : « أصبت ؛ ويا ليت شعرى ، أمدين أنا بها لرطل أم لأوقية ؟ »

وهكذا مضينا فى فكاهتنا ونحن ننحدر إلى الحوض العظيم . وقد بدت لنا بوضوح آثار الحوافر والنعلين فى الطين الناعم الذى بلله الثلج الذائب .

قال الفرجينى : « ليست بهما حاجة لإلقاء ورق هنا للدلالة عليهم . »

قلت : « اللهم إلا إذا اشتد الظلام . »

— « سنقيم معسكرنا قبل ذلك . ومن الجائز أن نرى نارهم . »

ولكنا لم نر لهم ناراً . وجعلنا نهبط وسط سكون رهيب ، وقد ابتعدت عنا الصخور التى تشبه الكمأة ( عيش الغراب ) ، واقتربت منا الغابات . ونزلنا

على ضفة جدول ، نحتمى بشاطئيه المرتفعين من الرياح القارسة التى كانت تهب من فوق القمم من آن لآن ، فتحرك دوح الصنوبر بشدة حتى ينبعث منها حفيف شديد يجتاز الحوض كأنه صوت موج البحر الهائج . ولكنا كنا فى حمى خيمتنا ، وقد قررنا أن نضربها هذه الليلة ، وسرنى أنها أخفت عن عينى منظر القمم الجبلية . وكانت ترى من البقعة التى خيمنا فيها ، فتبدو أشباحها السوداء فى ضوء النجوم محلقة فى السماء ، ومن الصعب أن يرضى المرء فى مثل هذا الليل بحجرة للنوم تطل عليها هذه القمم ، ويجاورها شجر الصنوبر ، وتهب عليها تلك الرياح . فلم نكد نتم غسل أوانى العشاء حتى أوينا إلى الخيمة ، وقد أضأنا فيها مصباحنا ، وجلسنا نلعب الورق .

قال الفرجينى — ونحن نلعب : « إننا هنا فى مكان دافئ لا تصل إليه الريح . »

قلت : « ويزيدنا التدخين دفئاً . » ومرت بنا ساعة فى اللعب لم نتبادل كلمة عن أى شىء سوى الورق .

ثم قال الفرجينى : « سيكون سرورى عظيماً عندما نبرح هذه الجبال . فإن ضخامتها تروعنى . »

وسكت دوح الصنوبر وسكتت ضوضاؤه ، ولكن صمتها كان مثل زئيرها .

ثم قال : « ومع ذلك فإن السهول قد تبدو ضخمة هائلة فى بعض الأوقات . »

وانتهينا من أحد أدوار اللعب ، فقال : « دعنى أنظر إلى هذه الورقة مرة أخرى ؛ وجلس يقرؤها كأنه يتم مطالعتها من أولها لآخرها ، على حين أخذت أنا فى إعداد الأغطية لأجعل منها فراشاً دافئاً . ثم لما رأيت أن الصحيفة تستغرق كل انتباهه ، أعددت عدتى ، ودخلت بين الأغطية لأنام ليلتى ، وقلت له : « عما قريب ستحتاج إلى شمعة أخرى للمصباح . »

فألقى الصحيفة ، وقال : « لن أتردد فى أن أفعل ذلك مرة أخرى ، أفعله كله عن آخره . لقد كان يعرف عادات هذه البلاد تمام المعرفة ، ومن الواجب أن يرعاها . ولا يستطيع أحد أن يلومنى على أن هذه هى عادة البلاد . فإما أن تترك ماشية الغير فلا تمسها بسوء ، أو تحتمل تبعة أعمالك . وقد كان ستيف يعرف هذا كله منذ البداية . أكان يريد منى أن أتناول أجرى من القاضى ثم أغمض العين على ما يرتكب من الإثم ؟ إنه لابد قد تغير كثيراً عن ستيف الذى كنت أعرفه ، إذا كان يتوقع منى هذا . وما أظنه كان ينتظر منى هذا . إنه كان يعرف تماماً أن الجهة الوحيدة التى تعفو عنه هى هيئة المحلفين فى المحاكم ، لأن اللصوص أمكنهم أن يتسلطوا على المحلفين فى مقاطعة جونسون . وإنى على كل حال لن أتردد فى الإقدام على ما عملته مرة أخرى . »

وكاد اللهيب فى المصباح أن يخبو ، فارتفع بقوة ، ثم انخفض وصار أزرق اللون . فسكت الفرجينى كأنه يهم بإصلاح المصباح . ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا . بل آثر أن يجلس صامتاً ، وأنا أراه بمشقة ، وكأنه يراقب اللهيب وهو مشرف على الموت . . لم أجد لدى عندئذ ما أقوله له ، وأدركت أنه الآن يلتمس بنفسه الوسيلة لكى يعود إلى هدوئه واطمئنانه . وقد استطاع أن يجعل منظره الخارجى طبيعياً جداً ، حتى نسيت ملمس يده الباردة ، ولم أقدر أن أدرك إلى أى حد دفعته العاطفة بعيداً عن جادة الصواب . ولم يلبث أن استأنف الحديث فقال : « أذكر أننا كنا فى شيين مرة . . » ثم أخذ يقص على زيارته لهذه المدينة فى أحد الأعياد هو وستيف . قال : « وكنا فى ذلك الوقت عبارة عن مهرين . . » . وأطال وصف ما ارتكبه المهران معاً ، والمغامرات التى كانا يقومان بها معاً وهما فى حومة الشباب . وقال على سبيل الإيضاح : « لأنى أنا وستيف كنا فى معظم الأوقات نصطادمعاً ، فى تلك الأعوام المرحة» . ثم أخذ يذكر عن المغامرات النسائية أموراً تصلح لأن تصدر عن بعض وحوش الطبيعة مثل الوعل أو النمر . وكان كلامه عن هذه الأشياء بأسلوب طبيعى

ساذج كأنما يتحدث عن فصول السنة أو المدن أو أى واقعة ، ولذلك لم يكن يؤذى السمع . ولكن تكراره هنا بلاشك يؤذى النفس .

ثم ختم فجأة حديثه وذكريات حياته مع ستيف ، وخرج من الخيمة وسمعته يجر كتلة من الخشب ليجلس عليها بجانب النار . وعندما علا لهيبها انعكس ظله على جدار الخيمة ، وكذلك ظل كتلة الخشب التى كان جالساً عليها بقلبه الكسير . وقد كنت أحسبه استطاع أن يملك أعصابه وأن يسوغ أعماله على الرغم من أن ستيف تجنب توديعه . لابد أن أكون قد نمت قبل عودته ، لأنى لا أذكر سوى أنى استيقظت فألفيته بجانبى ملتفاً بأغطيته . وقد اختفت الظلال التى كانت النار تعكسها ، وأخذ ينعكس على جدار الخيمة ضوء رمادى بارد . وكان نومه مضطرباً ، وعلى جبينه سطور من الألم . فلما نظرت إليه أخذ يتمتم ببعض العبارات ، ثم نهض فجأة بعنف وصاح : « كلا ؛ كلا ؛ على حد سواء . » وهكذا أيقظ نفسه بنفسه وهو يحدق تحديقاً شديداً . ثم سأل : « ماذا حدث ؟ » ولم يستطع أن يدرك أين كنا إلا بعد لأى . ولما عاد إليه وعيه تماماً كان جالساً فى فراشه وبصره يحدق فى بصرى . وقد كان بصره زائغاً أكثر مما كان فى أى وقت . والعبارة التى فاه بها بعد ذلك كانت صادرة عن الحلم الذى كان يحلم به ، إذ قال لى : « لعل من المستحسن أن تتركنى وترحل عنى . فإن هذا الخطب ليس خطبك . »

فضحكت وقلت : « أى خطب تعنى ؟ »

قال — وعيناه ما برحتا تحدقان فى — : « أتظن أننا إذا غيرنا طريقنا فإننا قد نتجنب لقاءهما ؟ »

وهممت بأن أرد عليه رداً فكاهياً ، بأن أوقية يجيد المشى ، فأسكتنى صوت حوافر جياد آتية من بعيد ، فخرج الفرجينى من الخيمة ومعه بندقيته . ولما تبعته ببندقيتى كان واقفاً على رأس الشاطئ وقد امتلأ قوة ونشاطاً ، ولكن لم يخرج من تحت ستار الدجى شىء سوى خيولنا الثلاثة الشاردة ، وقد مرت

وسط شجر ملقى على الأرض ثم انطلقت نحو زميلها الجواد المربوط الذى كان يرعى بقدر مايسمح له بذلك حبله . فوقفت إلى جانبه ، ولعلها حدثته بما حدث ، لأن الجياد الأربعة وقفت كلها ملتفتة إلى جهة واحدة ، وكأنها تنظر إلى مطلع الفجر الغامض . ووقفنا كلانا أيضاً ننظر ، وقد شعرت بأنبوبة البندقية باردة فى يدى . فلم نر شيئاً سوى الفجر الغامض المبهم يتغلغل وسط دوح الصنوبر وينشر رداءه على قاع الحوض . والقمم العالية مع سموها ، لم تصل إليها بعد أشعة الشمس ، ومن ورائنا كان للنهر هدير هادئ .

فقلت لصاحبى : « أظن أن دباً أهاج الخيل ؛ »

فأثبت فىّ نظرته الغريبة مرة أخرى . ثم نظر إلى الخيل وقال فى تأن شديد « إنها تشم أشياء لانستطيع نحن أن نشمها . أتستطيع أن تثبت أنها لا ترى أشياء لا نستطيع نحن أن نراها ؟ »

فسرت فى جسدى رعدة ، ولم أتمالك أن نظرت نظرة الخائف إلى الجهة التى كنا نراقبها ، ولكنى لم ألبث أن رأيت أحد الخيل يرعى العشب . فاطمأن خاطرى . وقلت مشيراً إليه : « أيا كان الذى يراه فإنه قد سئم النظر إليه . »

فابتسم الفرجينى لحظة ، وكانت الخيل كلها قد عكفت على الرعى . فقال : « لاشك أن الأمر لم يكن بذى خطر ، لأنه لم يؤثر فى شهيتها . »

فأخذنا نحن أيضاً نعد فطورنا . وأيا كان الخوف الغامض الذى أحسست به إلى الآن فإنه لم يلبث أن زايلنى بسبب ما أخذت أشعر به من انزعاج حقيقى صريح . ذلك أن الصدمة التى سببها ستيف أخذت تؤثر فى الفرجينى . وكان هو نفسه يحس بها ويحاربها بكل قواه ، ولكنها أخذت تتغلب عليه . فكان مثله كمثل السباح القوى الذى تألب عليه الريح والمد . ولم يكن فى هذا المكان المقفر من يلقى إليه بحبل يتشبث به غيرى . وكانت ضرباته فى الماء طلباً للنجاة قوية جريئة ، على قدر قوة التيار المضاد الذى كان يلغيها .

فقال — وهو يتحسس طريقة للخلاص : « أكبر الظن أنى أحدثت

ضوضاء فى الخيمة . »

فألقيت إليه بحبل ينقذه وقلت : « نعم — كنت مصاباً بكابوس ، أو عسر هضم ، وأحسبك أسرفت فى قراءة الجرائد قبل الرقاد . »

فأمسك بالحبل ، وقال : « هذا صحيح . لقد رأيت رؤيا حمقاء ، ما ينبغى لرجل ناضج أن يحلم بمثلها . ولا يتوقع مثلها من رجل مثلى . »

قلت : « بلى أتوقعها ، وقد سبق لى أن أصبت بمثلها بعد عشاء طويل من سمك المحار والشمبانيا . »

قال : « أجل ، العشاء الطويل . إن هذا الطول هو السبب فيما حدث . »
ثم نظر خلفه وقال : « لقد عاد ستيف . . . »

قلت : « عاد إليك فى حلمك ذى السمك المحارى —؟ » . ولكنه لم يمسك الحبل هذه المرة ، وقال وهو ينظر إلى فاحصاً : « نعم ، عاد إلى وناولنى الصحيفة . »

قلت : « وبهذه المناسبة أين هذه الصحيفة ؟ »

— « أشعلت بها النار . ولكنى لم أكد أتناولها منه حتى ألفيتها مسدساً مصوباً إلى صدرى . وتكلم ستيف فقال : ( أتظن أنك تصلح للحياة ؟ ) فرددت عليه بمنتهى الحدة ، وأكبر الظن أنى صببت عليه اللعنات والشتائم ، وأظنك سمعتنى . »

— « يسرنى أنى لم أسمع ، لأن لغتك أحياناً . . . »

فضحك وقال : « إن لغة المرء وليدة الموقف والظروف . ولو أنك فى مكانى لكان كلامك وكلامى توأمين . »

— « إذن فالخيول الثلاثة رأت دباً ؟ »

— « ربما كان دباً ، هذا جائز . » — وهنا تلقفه التيار مرة أخرى — « ما رأيك فى الأحلام ؟ » قلت ، وقد كادت حبالى أن تنفد : « إنها الكبد — أو الأعصاب . »

ولكنه أخذ يسبح بقوة من تلقاء نفسه ، فقال : « لعلك تظن أنى شخص لا يوثق به . ولا يستطيع ان يثبت للخطوب ، ولكنى أعلم غير هذا . وما كان ينبغى لحادث كهذا الحادث أن يؤثر فىّ هذا التأثير ، وكثيراً ما انفصمت عرى الصداقة بين الأشخاص من قبل . وكم من صلات متينة تقطعت بسبب المنازعات أو الحروب . ومن العار أن يتزعزع جنانى بسبب قطعة من جريدة قديمة . إنى شديد الخجل من نفسى لأنى أحرقتها . أجل إنى شديد الخجل لأنى كنت ضعيفاً إلى هذا الحد . »

قلت : « لا بأس عليك ، والمرء كثيراً ما يعتريه الوهن . » بعد ذلك أصبحت حبالى واهية ، فأخذت أرسم الخطة لسياسة أتبعها فى الساعات التالية .

ولم نلبث أن أتممنا فطورنا . وشرعنا فى القبض على الخيل ، وبينما نحن نسوقها أمامنا إذا بى أسمع الفرجينى يقص علىّ بعض قصص العفاريت . ويقول : « فى الساعة الثالثة والنصف صباحاً رأت الأم ابنتها الهاربة واقفة أمامها وفى ذراعيها طفل رضيع . ولكنها لم تكد تتحرك حتى اختفى كل شىء ، وقد اكتشفوا فيما بعد ، أن هذه هى الساعة التى قضت فيها الأم الشابة نحبها فى بلدة نوجالس وأرسلت الأم فى طلب الطفل وقامت بتربيته بنفسها . وقد عرفتهما بنفسى فى وطنى . فهل تصدق هذا ؟ » فلم أقل شيئاً . فقال هو مؤكداً : « إننى أنا أيضاً لا أصدق هذه القصص . خصوصاً إذا ذكرنا أن الوقت فى نوجالس يختلف عن الوقت فى رتشمند بثلاث ساعات ، ولم أكن أعرف هذه الحقيقة فى ذلك الوقت . »

إن هذه الجبال بقممها الصامتة لها تأثير رهيب فى النفس ، وكنت أنا أحس ذلك ، مع أنى لم يكن لى مسألة كمسألة ستيف تنغص تفكيرى . ولقد أيقنت أنه سيسترد كل قواه بمجرد خروجنا من بين هذه الجبال .

وقد عاد يتم قصته : « من الجائز أن كلا من الأم وابنتها كانتا تفكران

بشدة إحداهما فى الأخرى فى تلك اللحظة . أما ستيف فإنه ميت ، انتهى أمره . . ولا أظنك تعتقد أن بعد الموت أمراً ؟ »

قلت : « ليتنى كنت أعلم ؛ »

قال : « إنى على كل حال مرتاح الضمير ، وذكر الآخرة لا يزعجنى كثيراً . ولكن إذا عاش المرء فى عالم الأحلام ، بعد أن يرحل . . . » وسكت لحظة وقد حول بصره عنى ، ثم قال : « إن المرء يصادف ظلاماً كثيفاً ، أينما وجه خطاه ، ولذلك ظننت أنى لم أعد أفكر فى هذه الموضوعات . ولكن يخيل إلى الآن أن كثيراً من الرجال الناضجين ، الذين نصفهم بالعقل والرزانة ، قد كمن فى نفوسهم صبى صغير ، ذلك الصبى الذى كبر حتى استوى رجلا وبقيت فيهم بقية منه ؛ فيجعلهم يخافون الظلام ، وأنت نفسك ذكرت الظلام بالأمس . وهذه المحنة التى مرت بى قد أيقظت هذا الصبى فى نفسى ، وعبثاً حاولت أن أهدئ روع الطفل حتى يعود إلى رقاده . ومهما قلت له إن النهار آت لا ريب فيه ، فإنه لا يكف عن البكاء والتشبث بى » . . وهكذا أمكن للفرجينى بخياله البراق أن يرسم هذه الصورة الواضحة لما يعتريه .

وسمعنا فى تلك اللحظة صوتاً خافتاً فى أحد الأركان البعيدة من الحوض ، فوقفنا واجمين . وقال : « صه ؛ » ولكنا كنا كمن يرقب الفجر ، فلم نحس شيئاً آخر بعد ذلك . فقلت : « إنهما قد اصطادا الدب . » فلم يجب بشىء . وجعلنا نسرج الخيل فى صمت . ومع أننا لم نحاول أن نسرع ، فإنى أظن أنه لم يمض أكثر من نصف ساعة ، حتى كنا حزمنا الأمتعة وركبنا . ولم يكن بالشىء الجديد أن نسمع عياراً نارياً فى مكان كثر صيده . ومع ذلك فإن هذه الطلقة كان لها فى خاطرى وقع يختلف عن أمثالها . ومن الجائز أن الذى يدفعنى إلى هذا الظن الآن ، هو التجارب التى مرت بى بعد ذلك .

عندما أقمنا معسكرنا بالأمس كنا انتحينا ناحية بعيداً عن الطريق ، وأخذنا الآن نتبع مجرى النهر بعض الوقت ، ثم اخترقنا غابة بعد ذلك لنعود

إلى الطريق . وبهذه الوسيلة وصلنا إلى آثار خيلنا حيث كانت تجرى بالأمس عائدة إلينا بعد انزعاجها . وقد ظهر أثر حوافرها بوضوح فى الطين وقد مزجت به ورق الصنوبر .

فقلت : « لم يكن هنا أحد سواها . »

قال الفرجينى : « وهى لا تبدى أى علامة تدل على تذكرها أمراً أخافها . »
وبعد قليل برحنا الغابة وخرجنا إلى مكان مفتوح . فقال الفرجينى : « هنا كانت الخيل ترعى . » وكانت العلامات واضحة كل الوضوح . ثم قال : « وهذا بلا شك المكان الذى أزعجوا فيه . فلتبق مع الخيل لحظة ريثما أدور دورة . »

فمكثت فى مكانى ، ولا شك أن الخيل كانت هادئة جداً عند زيارة هذا الموضع ، مع أنك إذا عدت بحصان إلى مكان صادف فيه بعض الوحوش حديثاً فإنه يرهف أذنيه ويفتح منخريه .

وكان الفرجينى قد توقف وأخذ يشير إلى بأن أقترب منه ؛ فلما بلغته قال : « هذا هو الدب الذى زعمته ، وهو كما ترى دب ذو رجلين ، وكان معه حصانه الخاص . » وقد كان فى الأرض حيث ربط الجواد أثناء الليل .

فقلت ــ وأنا أتأمل آثار الرجل فى الطين : « يبدو أنه أوقية . »

ــ « نعم إنه أوقية . . وقد كان أوقية شديد الرغبة فى الحصول على جواد آخر ، حتى يستطيع هو وصاحبه رطل أن يركبا كما تركب السادة . »

ــ « ولكنى لا أرى أثراً لزميله رطل معه . »

ــ « إن رطلا كان فى الغالب يصنع القهوة هناك فى ذلك الركن ، عندما حدث هذا الحادث . ولم يكن أحدهما يتوهم أن هناك خيلا تجول هنا أثناء الليل ، وإلا لحضر الاثنان معاً . »

وعدنا على الأثر إلى دوابنا .

قلت : « ألا تريد أن تبحث عن هذا المعسكر لكى تتأكد . »

قال : « أفضل أن أتأكد أولا ، فإنى أخشى أن يكون فى هذا المعسكر من ينتظرنى . » واستخرج بندقيته من تحت رجله ، ووضعها على السرج معدة للإطلاق . فحذوت حذوه ، وهكذا استأنفنا السير باحتراس ، مع تغيير يسير فى اتجاهنا . وقال الفرجينى : « ليس هذا كل ما سنكشف عنه ، إن أوقية خطرت له فكرة طيبة ، ولكنى أخشى أنه ارتكب غلطة كبيرة بعد ذلك . »

ولقد بدا لى أننا اهتدينا إلى معرفة الكثير من غير مشقة ، فإن أوقية ذهب لكى يحضر جوادهما الوحيد ، فلما وجد فى المرعى ثلاثة جياد أخرى حاول أن يمسك أحدها فأخفق ، وهربت إلى مكان خشى أن يتبعها إليه .

قلت للفرجينى : « إن قصيراً لم يكن يعرف كيف يحتبل جواداً . »

فابتسم الفرجينى وقال : « قصيراً ؟ إن اسم قصير لا يكاد يختلف عن أوقية . ولكن ليست هذه هى الغلطة التى قصدتها . »

كنت أعرف أنه كعادته ، لن يبوح لى الآن بشىء . وفى الدقائق العشرين الأخيرة كان الفرجينى قد استرد قواه كلها ، لأنه وجد أمراً يركز فيه تفكيره ، فعاد إلى هذا العالم بعد أن كان تائهاً فى بيداء لا يكاد يرى فيها سوى شبح ستيف . ولم يبق فى وجهه من علائم اضطرابه السابق سوى ذلك السؤال الأليم الذى يبدو فى عينيه . وقد عجبت من أمر صديقه القديم ، الذى كان يتسم بالشجاعة وحفظ العهد ، هل يرضى بأن يلحق به كل هذا الأذى فى اللحظة الأخيرة ، إذا كان يعلم أن هذا الجرح سيؤلمه إلى هذا الحد .

وكنا قد بلغنا جسراً عالياً نستطيع أن نطل منه على ما حولنا . فقال الفرجينى : « إنك تود دائماً أن تركب فى الأمكنة العالية ، حينما يكون بالقرب منك أناس لم يفصحوا عن نياتهم » . فسرنا مسافة فوق ذلك الجسر ، ثم انحدر بنا فجأة وأخذ يقودنا حتى أوصلنا بسرعة إلى الطريق ، وقال : « انظر ! ها هو ذا ! »

كان فى الطريق أثر جديد جداً لحصان . ولكنه كان الآ ن يعدو بكل

سرعته ، ولم يكن بجانبه آثار نعلين . ولم يكن من الممكن لأى نعلين أن يجاريا الجواد فى عدوه . وقد كان الراكب اليوم مغذاً السير . أما بالأمس فإن الجواد كان يساق على مهل . فمن ذا الذى كان يركبه اليوم ؟ هيهات أن يهتدى إلى جواب أكيد عن هذا السؤال ، ولكن من الشخص الذى لم يركبه اليوم ؟ . . . رجعنا أدراجنا إلى قلب الحوض ، الذى تحيط به القمم العالية ، ذات الرؤوس المدببة ، كأنها أسنان صاعدة فى سماء امتلأت بضوء الشمس ، وخلت من السحب ، ومن تحت القمم يلمع الثلج ببياضه الناصع .

قال الفرجينى : « إنه خاف منا ، ولم يكن يعرف عددنا ، لأن ثلاثة من الخيل قد يكون معها بضعة عشر حصاناً فى مكان غير بعيد » .

وبعد أن سرنا عائدين فى الطريق ، حيث نخترق غابة الصنوبر ، لم نلبث أن عثرنا على معسكرهم . هنالك أدركت الغلطة التى ارتكبها قصير . لقد عاد بعد إخفاقه فأبلغ الرجل الآخر بوجود خيل أخرى . وكان يجب عليه أن يكتم هذا الخبر . إذ لابد لهما الآن من الفرار بسرعة ، ولا يستطيع اثنان أن يهربا بسرعة على حصان واحد . كانت هذه الغلطة الأخيرة التى ارتكبها قصير المسكين . وقد كان ملقى جثة هامدة بجانب النار الخامدة ، ووجهه إلى أعلى — وهو يشبه وجه الكلب الضال ، وشعره الأشقر الكثيف غير مهذب ولا مرجل كما عهدناه دائماً . وقد رماه قاتله من الخلف . فأغمضنا عينيه .

قال الفرجينى : « لم يكن من طبعه أن يؤذى أحداً . ولكن يجب عليك أن تتقن ما تعمله فى هذه البلاد . »

لم يكن هنالك أثر ولا أقل دليل يدل على الرجل الآخر . ولم نلبث أن وجدنا مكاناً نستطيع أن نوارى فيه قصيراً ، ونغطيه بالثرى . وعندما رفعناه رأينا الجريدة التى كان يحتفظ بها لإشعال النار . وقد أتى بها من أجمة الحور ، حيث ذهب هو وصاحبه بعد رحيلنا للتأكد من مصير صديقيهما ، أو للحصول

على حصان آخر . ومن الواضح أن العصابة عندما دوهمت لم تستطع أن تهرب إلا بجواد واحد . وقد كانت الجريدة معه بأكملها ما عدا الجزء الذى التقطناه أمس . وفوق ذلك كانت عليها كتابة بالقلم الرصاص لم تخطها يدى ، ولم أستطع أن أفهم معناها لأول وهلة . وظننتها مفتاحاً يرشد إلى شىء فأخذت أقرؤها بصوت عال ، وقد جاء فيها ما يلى : « وداعاً يا جفرى ! لم أكن أستطيع أن أكلمك دون أن أبدو بمظهر الأطفال » . فسألت : « من جفرى هذا ؟ » ولكنى لم ألبث أن أدركت معناها ، عندما نظرت إلى الفرجينى . وكان واقفاً بجانبى جامداً ، ثم مد يده وتناول الصحيفة ، وجعل يحدق فى الكلمات من غير حراك . ثم قال : « إن ستيف كان يدعونى جفرى ، لأنى — على ما أظن — من أهل الجنوب ، ولم يدعنى بهذا الإسم شخص آخر . »

وأطبق ببطء هذه الرسالة المرسلة من ميت ، وقد حملها ميت ، وطواها فى ردائه خلف السرج ، ثم وقف دقيقة وقد أسند جبهته على السرج . ثم عاد بعد ذلك وجعل يتأمل وجه قصير لحظة . وقال : « ليتنى أستطيع أن أشكره . أجل ليتنى كنت أستطيع ذلك . »

ثم حملنا قصيراً إلى مثواه الأخير ، وغطيناه بالثرى . ثم وجعلنا على الثرى طائفة من أغصان الصنوبر. ثم استأنفنا رحلتنا ، وفى نهاية الضحى كنا قطعنا مسافة فى طريقنا عبر جبال تيتون ، وأمامنا آثار الحوافر فى خطاها السريعة ، وهى تزداد عنا بعداً فى كل ساعة حتى اختفت عن أعيننا تماماً عند العصر . وبعد ذلك لم نعثر لها على أثر فى الطريق .

# ٣٣

## تصاب العانس بالأرق

اختفت آثار تلك الحوافر عند السفوح الشرقية لجبال تيتون ، حيث يوجد مختبأ فى الجبال ، يصل إليه المرء بوساطة ممرات عديدة شديدة الالتواء والوعورة ويستطيع كل من سلب إنساناً ممتلكاته أو حياته ، أن يعتصم بهذا المكان إذا اشتد فى طلبه رجال القانون ، أو طلاب القصاص من الأهالى . فقد كانت تحيط به الربا الوعرة ، والغابات الكثيفة ، فتخفيه عن العالم من جميع الجهات ويوشك ألا تكون هناك ثغرة واحدة فى هذا السياج المحكم ؛ وكل مدخل عبارة عن ثنية وعرة موحشة . ونهر الثعبان يخترقه من الشمال بخوانق عميقة تكتنفها المستنقعات والصنوبر ، ويخرج منه فى الجنوب بوساطة هوات سحيقة . وتنبع روافد هذا النهر وسط قمم عالية ، ثم تنحدر إلى الوادى بوساطة مجار يكاد عبورها يكون مستحيلا . فجداوله المعروفة مثل باسيفيك كريك ، الآتى من ممر المحيطين ، وبفالو فورك ، الذي لا يخترق أى ممر ، وبلاك روك المنحدر من ممر تو— وو—جو تى . . هذه كلها وكثير غيرها كانت مياه وحشة ووحدة ، وما أسهل أن يضل المرء بين مخابئها التى تعد بالآلاف ، ومع ذلك فقد كان فى قاع هذا الوادى مساحة من الأرض السهلة تمتاز بالسعة والجمال تطل عليها من الغرب جبال التيتون التى تكسوها الثلوج البيضاء الزرقاء ، وتكتنفها سلسلة من البحيرات من الناحية الغربية . كما تطل عليها مرتفعات عديدة من الجهات الاخرى . هذه المساحة التى كانت

بمثابة ميدان فسيح سهل وسط الجبال ، كانت غزيرة الماء والمرعى والصيد . وقد أمكن أن يتسلل إليها جيل من البدو المتشردين . وأمكنهم بمضى الزمن أن يبنوا المساكن وأن يتزوجوا وينسلوا ، وأن يدعوا أنفسهم باسم « سكان حفرة جاكسن الأمناء » وهو اسم عريض ، ولعله اليوم أصدق دلالة على سكانه مما كان فى ذلك الزمن .

إلى هذا المكان اختفت آثار الحوافز . ولم تكن قد بنيت فيه مساكن كثيرة بعد . ولكن الراكب المجهول كان يعلم تماماً أنه سيجد المأوى والترحيب بين أمثاله من الشريرين . ولقد يستطيع رجال القانون أن يعرفوا اسمه ، ولكنهم لن يستطيعوا أن يتخذوا أى خطوة أخرى نحوه لانعدام الأدلة . وما عليه إلا أن ينتظر ريثما يهدأ سخط الناس ورغبتهم فى الاقتصاص منه ، وهو كل ما يخشاه هو وزملاؤه اللصوص . ثم يتحسس طريقه بالتدريج ، حتى يظهر فى المجتمع مرة أخرى .

ولم تلبث الشائعات أن بدأت تنتشر فى البلاد ، بالطريقة الغامضة نفسها التى اختفى بها عن العيون . فلا يعرف من الذى تكلم لأول مرة ونشر الأنباء بين الناس . ومع ذلك فقد سرت الأنباء يوماً ، وتناقلتها الأفواه بالهمس ؛ أما فى سنك كريك ، وغيرهما من الجهات فى طول البلاد وعرضها ، فقد كان الناس يعرفون سراً أن كلا من ستيف وإدوارد وقصير لن يكون لهم وجود بعد اليوم ، وذلك من قبل أن تنتشر الشائعات . وكم من راكب التقى براكب آخر على قارعة الطريق ، فجذبا عنانى جواديهما للتحدث فى هذا الحادث وما قد يكون له من الأثر فى تجارة الماشية ، وفى حانات البلدة كثيراً ما كان الرجال يأتمرون ويتهامسون فى هذا الموضوع .

وهكذا وصل النبأ إلى مسامع مولى وود ، وكان أول الأمر فى صورة مقنعة بريئة إذ لحق بها أحد الجيران ، عندما كانت راكبة بمفردها وقال : « عمى صباحاً ! ألا تحسين الوحدة ؟ » فلما أجابته إجابة ودية ، قال لها بحسن نية : « سيعود

إليك الرفيق الحبيب بعد قليل ، لأنه قد أتم مهمته . ويباليته أتمها أكثر مما فعل . على كل حال إلى اللقاء ! »

فكرت مولى فى هذه الكلمات ، ولم تدر لماذا أثارت فى نفسها شعوراً غريباً . فإن عقلها الذى تكوّن فى ولاية فرمنت لا يمكن أن يدرك الحقيقة فى سهولة طبيعية ، ولكن الوساوس بدأت تساورها عندما عادت من نزهتها . لأنها لم تكد تدخل دار آل تيلر ، حتى ألفت هناك عدة أشخاص ، وقد سكتوا فجأة عند قدومها ، ولم يكن لهم من المهارة ما يمكنهم من التحدث فى موضوع آخر . فجلست بينهم لحظة ، وهى تحس فى قلق أن هؤلاء القوم جميعاً يعرفون أمراً تجهله ، ولا يراد إطلاعها عليه . فانزعج خاطرها . هل حدث لحبيبها مكروه؟ كلا . ليس هذا هو الأمر الذى يضمره أولئك القوم ! لأن الرجل الذى قابلته أثناء ركوبها ذكر لها أنها سترى من يؤنس وحدتها بعد قليل . وأخذت تسائل عن موعد عودته . إنه لم يستطع أن يخبرها بموعد عودته . وقد أخذت الآن تحس فجأة أن صمتاً هائلا كان يحيط به فى الأيام الاخيرة . ولم يكن هذا صمت الغياب ، أو امتناع الرسائل والكتب ، بل نوع آخر من الصمت وقد أصبحت تحس بوقعه الآن فى نفسها .

فى اليوم التالى انكشف السر فى المدرسة . فى الفترة التى يطلق عليها اسم « الفسحة » سمعت مولى من النافذة ما يدل على أن الأطفال يلعبون لعبة جديدة ، ووصلت لمسامعها صيحات قوية مرحة . سمعت أحد الأطفال يأمر طفلا بالوثوب ، فيقول الآخر : « إنى لا أريد أن أثب . » فصاح كثيرون منهم : « إنك قلت إنك ستثب ، ألم يقل إنه سيفعل ؟ والآن ثب بسرعة ! »

قال الآخر : « ولكنى لا أريد » وكان صوته حزيناً ، فلم تتمالك مولى أن خرجت لترى بنفسها .

فرأت الأطفال قد أوقفوا الصبى بوب كرمودى على الباب الكبير وإلى

جانبه شجرة ، وقد لفوا حول عنقه حبلا . وقد أمسك أربعة من الصبية بالطرف الآخر فى سرور ومرح . ووقف الآخرون يرقبون باهتمام ، وقد أمسكت ثلاث فتيات كل واحدة بيد صاحبتها ، وهى لا تفتأ تثب من شدة الاهتمام .

فصاحت فيهم مولى : « لم هذا أيها الأطفال ؟ »

فصاحوا جميعاً : « إنه قد تلا الصلوات وانتهى الأمر ، وهو مجرم نريد عقابه . ثب يا بوب ! »

« لا أريد . »

« إنه جبان ، لا يستطيع أن يتجرع الدواء . »

قالت مولى : « دعوه أيها الأطفال . إنكم ربما آذيتموه جدياً . » وهكذا أفسدت عليهم لعبتهم ، ولكن لم يخل الأمر من ارتفاع أصوات الاحتجاج من شباب ويومنج الناشىء .

قال لها هنرى دو : « إنه وعد بأن يفعل . » وأضاف جورج تيلر على سبيل الإيضاح : « إنه قال إنه سيلعب دور ستيف . ولكن ستيف لم يجبن . » ثم أخذ جورج يقص على ناظرة المدرسة باهتمام كل ما حدث لستيف وإدورد والناظرة تصغى بانتباه .

وبعد أن سرد القصة كاملة ، قال له هنرى دو : « ولكنك وعدت والدتك ألا تخبر ، وها أنت ذا الآن أفشيت كل شىء . » ثم هز رأسه فى تعاظم .

هكذا عرفت فتاة انجلترة الجديدة ما فعل حبيبها راعى البقر . فلم تتحدث فى الأمر مع أى إنسان ولم تذكر همومها إلا لنفسها . ولم يكن حبيبها معها لكى يدافع عن نفسه . وربما كان هذا هو الأوفق ، ولكن هذه الساعات كانت ملؤها الغم والكدر .

وتذكرت زيارتها لدنبارتن عندما صاحت جدتها — وقد رأت صورة حبيبها لأول مرة فى ثياب الرعاة : « أحسب أن هنالك أياماً لا يقتل فيها أحداً . » فأجابتها فى فكاهة ويقين : « إنه لا يقتل أحداً أبداً . » غير أنها فيما بعد قد

تسرب إليها بعض الشك ، عندما كان راقداً فى بيتها وهو جريح ، وكل يوم يزداد قوة بفضل رعايتها . فقد فاه بكلمة أثارت شكوكها عندئذ . ومن الجائز أنه فى جولاته الكثيرة ، قد ارتكب مثل هذا الأمر دفاعاً عن النفس ، أو لإيقاع القصاص العادل بمجرم أثيم . غير أنها بادرت بسرعة إلى إرجاع هذه الفكرة إلى ماضى أيامه قبل أن تلتقى به . فإذا كان قد حدث مثل هذا ، فإنها لم ترد أن تعرف عنه شيئاً . و بعد ذلك أرسل كتابه المعروف إلى بننجتن ، وكشف عن حقيقة نفسه صراحة إلى أمها ، فكان جزاؤه المر على ذلك أن كل خطاب جاءها من بننجتن قد استخدم كتابه هذا سلاحا ضده . فقالت أختها سارا فى كتاب لها : « إنه يفتخر بأنه لم يقتل أحداً للذة أو للكسب . هذه هى عبارته نفسها ، وفى وسعك أن تتصورى ما كان لها من التأثير الفظيع فى والدتك . أهنئك يا عزيزتى بأنك اخترت لك حامياً ، شديد التحرج إلى هذا الحد . »

هكذا رأت أختها الكبرى أن تكتب إليها بمثل هذه العبارات . أما أقاربها الأقل قرابة فاكتفوا بالإشارة والتلميح إلى الموضوع . وبذلك اضطرت للتسليم بصحة هذه المعلومات . غير أن هذه الحوادث إنما حدثت قبل أن تعرفه وكانت أحداثاً بعيدة غامضة ، خالية من ذكر أى تفاصيل أو مناسبات . وكان فى ذلك الوقت مجرد شاب ، ولا شك أنه لم يفعل شيئاً من ذلك إلا للمحافظة على حياته . لهذا كان وقع اكتشافها هذا هيناً ، وعلى الأخص لأن لهجة أختها قد حركتها للدفاع عن فتاها .

أما الآن . . . !

بعد منتصف الليل نهضت مولى من فراشها وأرقها ، وأوقدت شمعة ، ثم وقفت تتأمل صورته . لقد سبق لجدتها أن قالت بعد أن تأملته : « إن وجهه طيب . » فعادت الآن هذه الكلمات إلى خاطرها . وهاهى ذى صورته أمامها تتمثل فيها قامته كاملة : المهماز فى رجله ، والسراويل الجلدية ، والحبل

بطياته العديدة فى يده ، والمسدس على فخذه ، والقميص الصوف الخشن على جسده ، وقد عقدت ( الكوفية ) حول عنقه — وعيناه تنظران إليها بجد واهتمام . فطربت لرؤيتهما حتى فى تلك الساعة . واستطاعت أن تطالع الحياة فيهما . ووقفت لحظة طويلة تنظر إليه . ثم دقت فجأة يداً بيد ، وأطفأت الشمعة ، وعادت إلى سريرها ، ولكن النوم ظل نافراً عنها .

ورأتها مسز تيلر بعد ذلك ببضعة أيام فقالت لها : « إن بوجهك شحوباً يا عزيزتى ! »

« أنا ! »

« إنك لا تأكلين شيئاً . »

« بل آكل . » وعادت مولى لتعتكف فى حجرتها .

وصاحت مسز تيلر بابنها : « يا جورج ! تعال هنا ! »

ولقد يبدو أن العقاب كان شديداً ، وأنا أحسبه شديداً ! فى ذلك المساء عندما عاد مستر تيلر إلى أسرته ، تلقى جورج جزاء عصيانه ضرباً موجعاً .

قالت مسز تيلر لزوجها : « ويخيل إلىّ أنها خرجت فى الوقت المناسب لكى تمنعهم من كسر رقبة بوب كرمودى . »

فى اليوم التالى حاولت مسز تيلر أن تفعل المستحيل . فاتجهت بنفسها إلى حجرة مولى وود . فردت الفتاة تحيتها بلهجة متعبة . وجلست السيدة ببطء وأخذت تجيل النظر فى الحجرة وزينتها الجميلة . وقالت : « ما أجملها منزلا ، يا عزيزتى ، إذا اعتبرناها منزلا . ولكنى واثقة أنك ستزينين منزلك الحقيقى ، على هذه الصورة . »

فلم تجب مولى بكلمة .

قالت مسز تيلر : « لا أدرى ماذا سنفعل بعدك ، ولكنى لن أقبل شيئاً آخر ولو أعطونى العالم كله ، أظن أنه لن يلبث أن يعود إلينا . »

قالت مولى بشدة : « أرجوك يا مسز تيلر ألا تقولى شيئاً الآن ، فإنى

لا أطيق سماع شيء . » ثم انفجرت تبكي بكاء البؤس والشقاء .

« ولكن يا عزيزتي . إنه . . . »

« لا . لا تقولي كلمة واحدة ، أرجوك أشد الرجاء ، وإلا تركتك وخرجت . »

فانتقلت كبرى المرأتين إلى الصغرى ، وطوقتها بذراعيها . وسكن الدمع بعد قليل ، ولكن سقوطه لم يجدها نفعاً ، إنه لم يكن كالمطر الذي يعقبه صحو . وما كل العواصف تتلوها سماء صافية . ونظرت مسز تيلر إلى الفتاة ووجهها الشاحب وأدركت عجزها عن فعل شيء يرد إليها هدوء قلبها .

وبعد أن عادت من مهمتها القليلة الجدوى إلى دارها ، قالت لزوجها : « إنك تعرف بالطبع أنها تشعر بمنتهى الألم . »

قال تيلر : « ما الذي يؤلمها ؟ »

— « أظنك تعلم كما أعلم تماماً . وإن شئت أن أتحدث عن نفسي ، فإني أرجو أنك لن تضطر يوماً للاشتراك في شنق إنسان . ! »

قال تيلر بهدوء : « نعم ، ولكن إذا قضت الظروف ، فلن أستطيع التهرب . »

— « على كل حال لست أريد لمثل هذا الأمر أن يحدث . »

— « ما الذي تقوله الآن ؟ »

— « المؤلم أنها لا تقول شيئاً ، ولا تريد أن تتكلم ، ولا تريد أن تدعني أتكلم . وتظل جالسة مكانها لا تبرحه . »

قال الزوج : « إذن سأذهب أنا للتحدث معها . »

« حسبتك أعقل من ذلك يا جورج . إنك لن تجد فرصة لكي تقول كلمة واحدة . ومع ذلك فإنها لن تلبث أن تنتابها العلل إذا لم يزل عنها اضطرابها هذا . »

قال تيلر مستفسراً : « ما الذي تنتظره من هذا القطر وسكانه ؟ أتحسب أننا سنحذو حذو سكان ولاية فرمونت ؟ »

قالت زوجه : « إننا لانستطيع التحكم فيما تنتظره وتتوقعه . ولكن وددت لو استطعنا أن نساعدها . »

لم يكن هذا فى وسعهما ، ولكن المساعدة جاءت من جهة أخرى . فقد أقبل القاضى هنري ، راكباً فى اليوم التالى . فذهبت إليه مسز تيلر الطيبة القلب ، وكاشفته بما يساورها من القلق ، فبدا الاهتمام فى وجه القاضى وقال : « هل من واجبى أن أتدخل ؟ »

قالت مسز تيلر : « نعم أيها القاضى يجب أن تتدخل . »

قال : « ولكن أليس الأوفق أن أبعث به إليها بمجرد عودته « فيحلان المشكلة فيما بينهما . » فهزت مسز تيلر رأسها وقالت : « إن هذا سيزيد المشكلة تعقيداً ، وما ينبغى أن يلتقيا الآ ن . »

فتنهد القاضى ، وقال : « حسناً ، ما دمت تلحين فى هذا الأمر ، فإنى سأضحى ببعض طباعى . » ولم يكن به أية رغبة فى أن يضطلع بهذا العبء . وكان يفضل أن يتهرب من أداء هذا الواجب . لقد كان من قبل قاضياً من قضاة الجمهورية[1] وكان مثال الاستقامة والعدالة ، وقد احتمل تبعات منصبه الخطير بمزيج من العلم — وهو ضروري — ومن الشجاعة والعقل — وهما أكثر ضرورة . وكان شديد الإخلاص فى خدمة القضاء . والآ ن يراد منه أن يدافع عن أمر يبدو لأول وهلة ، بل ويبدو للمرة الثانية والثالثة ، وفى كل وقت ، بمثابة التحدى للقضاء ، وهو أشد ضرراً من الجريمة نفسها . إن كل رجل مستقيم فى العالم ، يعلم علم اليقين الفرق بين الحق والباطل . وعلمه هذا هو ثروته الروحية . فإذا كان سلوكه مخالفاً لاقتناعه هذا ، أدرك أن فى هذا خروجاً وسقوطاً عن المستوى . واستطاع أن يرى هذا فى وضوح تام . فإذا كانت هذه السقطة هى كل ما أصاب الرجل الصالح فإن كل أيامه ستكرس للندم والإصلاح . ولكن ليس هذا كل شىء فإن الرجل الطيب قد يواجه

( ١ ) تمييزاً له عن قضاة الولايات لأن لكل ولاية قضاتها ومناصب الجمهورية أجل خطراً .

مواقف أو أزمات ، تعترضه فى الحياة ــ كما يعترضه أحد قطاع الطرق ــ وتطلب منه أن يضحى بيقينه واقتناعه بما هو حق ، وذلك من أجل عمل كله خير ، أيِ أنه يؤمن بأن يرتكب الباطل لكى يحق الحق . ولست ممن يؤمنون بعمل الشر ، لكى يأتى منه الخير ، كلا . وأظن أن كل رجل يحاول بإخلاص تسويغ هذا المسلك إنما يخدع نفسه . ولكنى أستطيع أن أقرر ما يأتى : إن وصف أى عمل بأنه شر يحملنا على كثير من التساؤل . فإن الكثير من عمل الإنسان يكون خيراً أو شراً تبعاً للزمان والمكان اللذين يؤلفان ما يسمى بملابساته . وإذا انتزعت من أى عمل ظروفه ، فإنك بهذا تكون قد أبعدته عن معناه . فيا رجال الإصلاح حذار أن تتبعوا هذه السنة . واحذروا أن تصفوا الشىء بأنه شر يوم الثلاثاء ، لأن هذا العمل نفسه كان شراً يوم الإثنين .

هل يشق عليكم إدراك ما أعنيه ؟ إذن فإليكم مثلا يوضحه . فى يوم الإثنين خرجت لأمشى فوق حقل جاريِ ، فلم يكن هناك أى خطأ أرتكبه بعملى هذا . وفى يوم الثلاثاء نصب الجار لافتة بأن من يمشى على أرضه يتعرض للمحاكمة القانونية ، فإذا مشيت على نفس الحقل يوم الثلاثاء كان عملى هذا خرقاً للقانون . هل بدأتم تدركون ما أرمى إليه ؟ أم أنكم تعترضون على هذا المثل لأن المشى يوم الثلاثاء لم يصبح خطأ بل أصبح فقط « غير قانونى؟» إذن هاكم مثلا آخر ، ستجدون الإجابة عنه أشق من الأول قليلا . أرجوكم أن تفكروا جدياً ، فى أمر شاب وشابة خرجا يوم الثلاثاء من أحد الأبواب ، بعد أن عقدا قرانهما وراء ذلك الباب بوساطة شخص ثالث ، فأصبحا زوجاً وزوجة وليس يعنينا أنهما فى يوم الإثنين ، فى صميم قلبهما ، كانا مرتبطين برباط مقدس من الإخلاص والولاء ، فلو أنهما لم يذهبا إلى ما وراء ذلك الباب ، وأهملا ذلك الشخص الثالث كل الإهمال . وانطلقا معاً يوم الإثنين لا يربطهما سوى رباط مقدس من الولاء والإخلاص ! فهيهات أن تجدوا أحداً يغفر لهما هذا المسلك . إذن فكروا جدياً فى هذه الأمور : فى اللافتة ،

والشخص الثالث ، والفرق الذى ترتب على وجودهما . والآن لنختم هذا الحديث بأن نعود إلى اللافتة .

افترضوا أنى مشيت فوق حقل جارى يوم الثلاثاء ، بعد أن رفعت عليه اللافتة ، لأنى رأيت جريمة قتل توشك أن ترتكب فى ذلك الحقل فجريت وحلت دون ارتكابها . هل كنت أفعل الشر لكى يأتى منه خير ؟ ألا ترون أن البقاء بعيداً ، وترك الجريمة تُرتكب ، هو فى هذه الحالة الشر كل الشر ؟ أما مخالفة اللافتة فهو الحق كل الحق . وإنى لأرجو أن تكونوا أدركتم أن العمل الواحد قد يبدو فى عدة أضواء مختلفة من ناحية الحق والباطل ، تبعاً لنوع الجو الذى يحيط به . فليس ينبغى أن يقال عن أى إنسان : « إنه عمل الشر لكى يأتى منه خير . » بل الذى ينبغى أن نتساءل عنه أولا وقبل كل شىء هو : هل العمل الذى قام به كان فى الواقع شراً ؟

اغفروا لى سؤالى إياكم أن تستخدموا عقولكم . فإن هذا شىء لا ينبغى لكاتب روائى أن ينتظره من قرائه . ولنعد الآن إلى القاضى هنرى وإلى ما كان يدور بخاطره عن القصاص العرفى .[١] »

لقد كان يعلم حق العلم أنه إذا أراد أن يعالج هذا الموضوع مع فتاة انجلترة الجديدة ، فإنه لن يستطيع إقناعها بالحكم السطحية والألفاظ المأثورة ، وعلى الأخص إذا أراد أن يكون لكلامه أثر طيب . فإنها على شىء كثير من الذكاء ، وهو شديد الرغبة فى أن يؤثر فيها أطيب التأثير . وكان يود من أجل سعادتها أن يجرى حبها فى مجرى هادئ سهل ، وكان يود ذلك أيضاً وبصورة أقوى من أجل فتاه الفرجينى .

وجعل يفكر فى شىء من القلق : « إنى أنا الذى أرسلته لهذا الأمر ،

(١) هو ما يسمونه فى أمريكا Lynching ، وهو أن يقوم الناس بقتل شخص ، ارتكب فى نظرهم إثماً ، دون الالتجاء إلى الوسائل القانونية . وهذا فى العادة ما يفعله بعض الجماعات من البيض للفتك بالسود وقد يخرجونهم من السجن حتى يقتل الشخص قتلا عرفياً ، بدلا من القصاص الشرعى .

وعلىّ يقع بعض التبعة فى هذا القصاص العرفى . وحسب الفرجينى ما حلّ به من الشقاء بسبب فقده ستيف . فإذا استفحل الخطب ، وأخذت الأفكار تساور عقل هذه الفتاة . فإنها ربما — » ثم سكت وهو يتمتم : « يالها من ورطة ! » وتنهد . لأنه كان يعلم — ما يعلمه الناس — من أن هنالك أشياء كثيرة يجب أن تعمل فى صمت ، فى هذا العالم ، وأن من الخطأ التحدث عنها .

غير أنه لم تكد تنصرف الأطفال من المدرسة ، وتعود الفتاة إلى دارها ، حتى كان عقله الراجح قد رتب الموضوع ترتيباً كاملا ، وطرق بابها ، وقد وطد عزمه ، كما قال ، على أن يضحى ببعض طباعه ، فى سبيل ذلك الغرام الصادق .

ولم يضيع وقتا فى الوصول إلى الموضوع ، قال لها فوراً : « إن أموراً متجهمة حدثت . » فلما لم تجب على هذه العبارة بشىء . قال متمتما : « ولكن يجب ألا تسيئى فهمنا . فإننا نحبك حباً لا نستطيع معه أن نسمح بهذا . »

قالت مولى وود وقد تناولت هى أيضاً الموضوع من غير مقدمات : « أيها القاضى هنرى ، هل جئت لكى تنبئنى أنك ترضى كل الرضا عن القصاص العرفى ؟ »

قال : « أما عن إحراق الزنوج علناً فى البلاد الجنوبية فلا . أما عن شنق لصوص الماشية فى ولاية ويومنج ، وفى غير علانية ، فنعم . وأظنك تدركين أن هنالك فرقاً بين الحالتين . »

قالت الفتاة بلهجة جافة : « ليس هناك فرق من ناحية المبدأ . »

قال القاضى فى تؤدة : « يؤسفنى أنك لم تستطيعى أن ترى فرقاً مع أنى أراه بوضوح ، وأنا واثق أن إدراكك لا يقل عن إدراكى ؟ » وقد استطاع القاضى أن يتوخى الجد والبشاشة فى آن واحد . أما الفتاة فكانت أعصابها متوترة جداً ، فكانت تتكلم بعنف على الرغم منها .

قالت : « ما الفرق بينهما من ناحية المبدأ ؟ »

قال القاضى بهدوء وتفكير : « ما الذى تقصدين بالمبدأ . »

قالت مولى فى غضب : « لم أكن أحسبك تلجأ إلى السفسطة . وأنا لست من علماء القانون . »

لو أن القاضى كان أقل حكمة مما هو ، لابتسم ساخراً من هذه العبارة ، ثم تنفجر الحرب بعنف بينهما ، وتزداد المشكلة تعقيداً ، وهو يحاول أن يجد لها حلا . غير أن القاضى كان يعلم أنه لابد له أن يتدبر كل كلمة تقولها الفتاة الآ ن .

فقال لها مطمئناً : « لم يكن قصدى السفسطة . وأنا أعرف الحيلة التى يتهرب بها المرء من سؤال يلقى إليه ، بأن يسأل سؤالا آخر . ولست أريد التهرب من أى سؤال تريدين منى أن أجيب عنه . وإذا استطعت أن تظهرِى لى أنى مخطىء فإنى أرحب بذلك . » ثم ابتسم وقال : « ولكنى أريد منك أيضاً أن تكونى منصفة ؟ »

— « كيف بعدت عن الإنصاف ؟ »

— « إنى أريد أن يكون استعدادك لقبول حجتى كاستعدادى لقبول حجتك فإذا كنت تستخدمين لفظ المبدأ ، فإن من الواجب أن تساعدينى على الرد بأن تذكرى ما تعنين بالمبدأ . فإنى بكل إخلاص لا أرى وجه الشبه بين إحراق الزنوج علناً فى الولايات الجنوبية ، وبين شنق لصوص ماشية ويومنج فى الخفاء . إنى أعد ذلك الإحراق دليلا على أن الجنوب لا يزال فى حالة أدنى إلى الوحشية . أما الشنق فدليل على أن ويومنج قد صح عزمها على أن تصبح قطراً متمدناً . إن قصاصنا العرفى خال من أعمال التعذيب ، ولا ندعو النظارة لكى تشهد المأساة ، إننا لم نجلب للولايات المتحدة مثل هذا العار . بل نقتص من المجرم بأسرع الوسائل ، ومن غير ضوضاء . ألا زلت ترين أن المبدأ واحد فى الحالتين؟

أنصتت مولى لكلامه بانتباه وسلمت بأن الوسيلة مختلفة فى كل حالة .

قال : « الوسيلة فقط ؟ »

قالت : « هكذا يبدو لى ، لأن فى كلتا الحالتين مخالفة للقانون والنظام . »

ــ « أتظنين أن كليهما سواء ؟ الآن اقتربنا من مسألة المبدأ . »

ــ « أجل كلاهما سواء : مواطنون عاديون يأخذون القانون بأيديهم »

قال القاضى : « الآن وصلنا إلى مسألة المبدأ . فأرجوك أن تذكرى لى بعض المسائل . من أى يد ينتزعون القانون ؟ »

ــ « من أيدى المحاكم . »

ــ « من الذى عمل المحاكم ؟ »

ــ « لست أفهم ما تعنى . »

ــ « كيف أصبح فى البلاد محاكم ؟ »

ــ « الدستور . »

ــ « وكيف أصبح فى البلاد دستور . من الذى صنعه ؟ »

ــ « النواب على ما أظن . »

ــ « ومن الذى صنع النواب »

ــ « أحسبهم قد انتخبوا أو عينوا أو ما أشبه ذلك . »

ــ « ومن الذى انتخبهم ؟ »

ــ « انتخبهم الناس بالطبع . »

ــ « سميهم المواطنين العاديين . فإنى أحب هذه التسمية التى أطلقتها عليهم من قبل . هم كما ترين ، المصدر الذى جاء منه القانون . لأنهم هم الذين اختاروا النواب ، الذين وضعوا الدستور ، الذى أنشأ المحاكم . هؤلاء ما هم إلا الأيدى التى وضع المواطنون فيها القانون ، على أسوأ الفروض لا يكون القصاص العرفى سوى استرداد الناس لما أعطوه من قبل . والآن فلننظر إلى الأمرين اللذين قلت إنهما سواء من ناحية المبدأ ، أنا لا أظن أنهما سواء . لأنهم فى الجنوب يختطفون الزنجى من السجن ، حيث كان ينتظر حتى يشنق ، ولم يزعم أهل الجنوب يوماً أنه سيفلت من القانون . أما فى ويومنج فإن القانون ترك لصوص

الماشية يفلتون عامين كاملين . إن حالة بلادنا سيئة ، ونحن نبذل ما فى وسعنا لكى نصلح هذه الحال قليلا ، إلى أن يدركنا ركب الحضارة . أما الآن فإننا لا نزال بعيدين عنه ، فالمحاكم عامة ، والمحلفون خاصة ، الذين وضعنا القانون فى أيديهم ، لا ينفذون القانون . إن أيديهم ذابلة ، أو هى أيد صناعية جعلت للزينة ، وليس فيها حياة ولا مقدرة على القبض على شىء . وهى أعجز ما تكون عن إمساك أحد لصوص الماشية ؛ فاذا رأى المواطن العادى هذا ورأى أنه قد وضع العدل فى يد ميتة ، فلا مندوحة له عن أن يقبض على العدل بيديه . حيث كان أمره من قبل فى العهود القديمة . إن شئت فقولى إنها حالة بدائية ، ولكنها ليست تحدياً للقانون ، بل توكيداً لسلطانه بوساطة الرجال المستقلين الأحرار ، الذين يرتكز بناء المجتمع عليهم . هذه هى مسألة المبدأ ، يا مس وود كما تبدو لى . فهل تستطيعين أن تساعدينى على أن أرى خلاف ذلك ؟ »

كلا ، لم تكن تستطيع .

قال القاضى : « لعلك ما زلت على رأيك بعد ؟ »

قالت : « إنى أرى هذا كله بشعاً مفظعاً . »

قال : « نعم ، كذلك الحكم بالإعدام بشع مفظع ، وكذلك الحرب . ولعلنا يوماً أن نستغنى عن كليهما . ولكنّ كليهما ليس أفظع من السرقة والقتل بلا وازع ولا رادع . »

بعد أن ذهب القاضى فى طريقه إلى سنك كريك ، لم يتكلم أحد مع مولى فى هذا الموضوع . ولكن وجهها لم تعد إليه البشاشة مرة واحدة . كان واضحاً من نوبات الصمت التى كانت تعتّريها أن أفكارها مابرحت مضطربه . وكانت أحياناً تقف ليلا أمام صورة حبيبها تحدق فيها بمزيج من الحب والانكماش .

## ٣٤

# على قدر إصبعها

لم أسمع بعد ذلك من أنباء الفرجينى شيئاً حتى جاء نى منه كتاب يطلب خاتمين ، وكنت قد عدت إلى وطنى عن طريق واشاكى وورلنس بعد أن رأيت أى منظر أسود قد تتمخض عنــه بلاد الماشية ، ومع ذلك فإن ستيف وقصيراً لم يبرحا ذاكرتى ، وما إخالنى سأنساهما . وقد عبر الفرجينى عن هذا الموضوع كله يوم تركته ، وقد رآنى ألقى على السهول والجبال ما يشبه نظرة التوديع . فقال : « إنك ستعود إليها . لو كان هناك جدث لكل رجل أمعن فى ارتكاب الإثم هنا ، لأبصرت الكثير منها حيثما التفت . وهذا أبعث على الحزن مما لو كانت هنالك مقبرة . ومع ذلك فإنك تحب هذه البلاد على الرغم من كل شىء . »

وقد انجلى عنه الحزن ، على الأقل فى الظاهر ، عندما كتب إلىّ عن الخاتمين . أما باطنه فكان فيه مكان للحزن والسرور بالطبع ، لأنه كان يعرف ستيف ، وقد وارى قصيراً التّراب بيديه . وقد راقب الحياة عن كثب . وهيهات لمن كان له قلب أن يمر بهذه التجربة ولا يحمل الحزن فى صدره إلى الأبد . ولكنه لم يكن يظهره للناس ، بل يحفظه لنفسه ، فكان فى هذا ما يقوى بشاشته ويجعله أقدر على خدمة رفقائه .

كان الأمر الذى أرسل فى طلبه الآن من الأمور التى تشرح الصدر ، فقد كان مقره الآن بعيداً عن الجهات التى تشترى منها الخواتم . ولم يكن فى وسعه أن يسافر إلى الولايات الشرقية ليحصل على مطلبه . لقد كان فى شيبين

مجال لشراء الخواتم ، وفى دنفر مجل أعظم . ولا شك أن أعماله العادية تتيح له الفرص لزيارة كل من البلدين . ولكنه قد وطد العزم على شراء الخاتمين من الشرق ، فلا بد من شرائهما من أفضل مكان فى البلاد . وأقل من هذا لا يكون على « قدر أصبعها » كما قال . أما خاتم الزواج فكان أمره سهلا . وكل ما هنالك أنه يجب أن يكون لامعاً ، مصنوعاً من أنقى الذهب ، على أن ينقش فى داخله الأحرف الأولى من اسمها واسمه ، واليوم والشهر والسنة .

ذلك أن موعد الزواج قد تقرر . وقد بلغ الأمر هذا المدى . وحدد لذلك اليوم الثالث من شهر يوليه ، ويجيء بعد ذلك ستون يوماً وستون ليلة يكون فيها عرساً ، متحرراً من جميع واجباته فى سنك كريك . يستطيع أن يأخذ عروسه إلى أى مكان تختاره . وقد اختارت المكان .

إن أصوات العالم — التى سبقت الإشارة إليها — قد أثارت فيها أكثر من مجرد الغضب ، فقد تخلف عن الغضب عزم وتصميم ؛ إن أختها لن تعطى الفرصة لكى تحضر أو لتتخلف عن الحضور . ولو أن أمها أرسلت رداً على كتاب الفرجينى ، لكان هنالك مجال للتسامح . ولكن عجزت المسكينة عن هذا الأمر ، كعادتها فى كل موقف خطير صادفها فى حياتها . وقد بعثت ببعض الرسائل ، ولكنها كانت مجرد رسائل ، وإن كانت لا تخلو من العطف والمودة . وإذا كان الفرجينى تألم من مسلكها هذا . فإن أحداً فى العالم لم يعرف ذلك . وعلى الأخص تلك الفتاة ، التى ترك هذا الأمر فى قلبها بقعة باردة متجمدة . وسيقال إن هذه ليست بالحالة التى يحسن فيها الزواج . وهذا صحيح ، فلا خير فى البقع المتجمدة فى أى وقت وفى أى حال . غير أن طبيعة مولى قد تكلفت بمعاقبتها . فإن طبعها هو الذى جعلها تحس وسط هذه السعادة الحارة ، بتيار بارد يسرى فى نفسها . كانت سعادتها تعادل نصف سعادة حبيبها ، ولكنها أخفت هذا عنه ، حتى اللحظة التى استطاعت فيها أن تتغلب على طبعها ، وأن تستشعر السعادة كاملة .

ومهما يكن من أمر ، فإنها الآن قد أصدرت حكمها باستبعاد بننجتن ، فلن يكون زفافها فى فرمنت بل فى ويومنج . ولن تكون هنالك أصوات للعالم تهمس ، أو عيون للعالم تحملق عندما تحلف يمين الحب والإخلاص له ، ويقسم لها يمين الحب والولاء . إن هذه الأيمان المقدسة يجب أن يدلى بها ، وهذا الخاتم يجب أن يوضع فى إصبعها ، فى هذه الأرض الوحشية من بلاد الماشية ، حيث رأته للمرة الأولى راكباً ، وهو يقتحم النهر وتياره الجارف ، لكى يحملها إلى الشاطىء على ظهر جواده . فلتكن هذه السماء الصافية هى التى تظلهما ، وليكن مشيهما أولا فوق هذا الثرى ، فى هذه الجهات النائية . أما العالم فليجىء دوره فيما بعد .

لابد لها — أولا — أن تقضى على ضفاف الأنهار ، وفى الأودية العميقة الضيقة ، شهراً يخترقان فيه الجبال الوحشية ، إلى أبعد مما استطاع أن يصحبها من قبل ، تارة يبيتان تحت خيمة ، وتارة تحت قبة السماء ، وليس معهما رفيق سوى جواديهما . وبعد أن تقضى وإياه شهراً كهذا تذهب ، بعد ذلك إلى بننجتن للقاء أمها ، ثم تذهب به إلى جدتها فى دنبارتن ، لكى تراه رأى العين ، وتستطيع بعد ذلك أن تعلن أن آل ستارك يفضلون من الرجال من كان كامل الرجولة .

وهكذا تقرر أن يكون اليوم الثالث من شهر يوليو هو التاريخ الذى ينقش فى خاتم الزواج . أما الخاتم الآخر فقد قضى الفرجينى وقتاً كثيراً ممعناً فى التفكير فى أمره ، دون أن يبوح بسره لأحد حتى أنه تمكن من الحصول على قياس أصبعها دون أن يشعرها بالسبب . ولكنه لم يتخذ هذا الإجراء إلا بعد أن أتم رسم خطته .

وفى الوقت الذى أخذت مسألة الخاتم تشغل خاطره أتاحت له الفرصة أن يتعلم من مسز هنرى بعض الأمور عن الجواهر الكريمة ، فإن مسز هنرى كثيراً ما صاحبت زوجها فى مغامراته بتسلق الجبال ، حيث تضطرها وعورة

الصخور أن تستخدم يديها . وفى أحد الأيام صحبها الفرجينى ، لكى يساعد فى تخطيط بعض الحدود ، ونزعت السيدة خواتمها حتّى لاتخلشها الصخور ، وتسلمها الفرجينى منها أثناء السير فى الجبل .

ولما رد إليها جواهرها ، قالت : « أراك تطيل النظر إلى ياقوتتى ، ولكن لو كان الخيار بيدى لاخترت العقيق ، ولكن ما حيلتى وقد ولدت فى نوفمبر . »

وعلى الرغم من أنه لم يفهم لهذه العبارة معنى ، فإن الكلمات أثارت فيه اهتماماً شديداً . ولكنه لم يقل كلمة إلا بعد أن هبطوا مسافة خمسة أميال . وفى هذه الفترة استطاع بذكائه أن يدرك ما قصدته مسز هنرى — بعض الإدراك . ولكنه أراد أن يكون واثقاً كل الثقة . فأخذ يصطنع الذكاء والمكر حتّى يحصل على المعلومات التى ينشدها ، دون أن يبوح بغرضه .

قال : « إن الرجال قد يلبسون الخواتم ، وبعض رجال المزرعة يفعلون ذلك . ولست أرى بأساً فى أن يلبس الرجل خاتماً ، ولكنى لم أفعل هذا فى حياتى قط . »

قالت السيدة وهى لم تدرك مرماه بعد : « من الجائز أن لهؤلاء الرجال حبيبات . »

ـ « كلا يا سيدتى ، ليست حبيباتهن ممن يستأهلن أن تلبس لهن الخواتم — وهذا صحيح فى حالتين على الأقل . وقد اكتسبوا هذه الخواتم فى لعب الورق ، ويسرهم أن يروها تلمع فى أصابعهم . ولكنى لم أر رجلا يتحلى بالياقوت . »

لم تجد مسز هنرى ما تقوله رداً على ذلك . فمضى يقول : « إنى شخصياً قد ولدت فى شهر يناير . » هنالك ألقت السيدة عليه نظرة ، وأدركت مرماه ، دون أن تحتاج إلى مزيد من التفكير .

فقالت : « إن يناير شهر غال جداً فى الخواتم . لأن جوهرته هى الماس . »

فتمتم الفرجينى وهو يمعن فى التفكير : « الماس ! على كل حال هذا لن يضيرنى بشىء ، لأنى لن ألبس خاتماً . أما شهر نوفمبر ، فجوهرته هى — ؟ »

« الياقوت . »

« نعم . لاشك أن فى الجواهر جمالا بديعاً . وفى الكنائس الإسبانية يرى المرء جواهر ذات حجم كبير من آن لآن ، ولا أظن أنها من الزجاج ، ولكن هل أفهم من هذا أن هنالك جوهرة خاصة لكل شهر على مدار السنة ؟. »

قالت مسز هنرى وهى تبتسم : « نعم ؛ واحدة لكل شهر . والجوهرة التى تنشدها هى عين الهر . »

فنظر إليها ، وقد أخذ وجهه يحمر . فقالت : « أكتوبر هو عين الهر . » ثم ضحكت ضحكة عالية ، لأن يوم ميلاد مس وود هو الخامس عشر من أكتوبر . فنظر إليها الفرجينى وهو يبتسم ووجه محمر خجلا .

قالت : « إنى لا أشك أنك تستطيع أن تخفى أغراضك عن الرجال ، ولكنها أمام أعيننا تبدو شفافة واضحة ، على الأقل فى الأمور العاطفية . »

قال : « إنى آسف ، ولكنى لا أريد أن أعطيها عين الهر ، ومع أنى لا أؤمن بالخرافات ، فإنى لا أريد أن أهديها عين الهر . ولا بأس عندى أن تهديها إليها أمها أو شخص من أقاربها . ولكنها لن تأخذها منى . هل تفهمين هذا يا سيدتى ؟ »

فهمت مسز هنرى تماماً هذا الشعور الرقيق من هذا الرجل الوحشى . وسرها أنها تستطيع أن تبعث فى قلبه الطمأنينة التامة من ناحية هذه الجواهر. فقالت له : « لا يحزنك أمر هذه الجواهر . إن الناس يزعمون أن عين الهر جوهرة تجلب الشقاء ، ولكن هذا لا يصح لمن هى جوهرة الشهر الذى ولد فيه . فإنها عندئذ لا تكون فقط بريئة من كل أثر سيء ، بل لها قوة هائلة لجلب السعادة . فلتكن إذن جوهرة خاتمك هى عين الهر . »

بعد ذلك تجرأ الفرجينى وسألها أسئلة مختلفة ، فأرته خواتمها، وقدمت له بعض النصائح عن تركيبها وأفهمته أنه ليس هناك عرف خاص بهذه الهدية وتقديمها . فقد تكون الجوهرة مما تفضله السيدة أو ما يفضله خطيبها . وحسن

جداً أن يختار الرجل جوهرة الشهر الخاص بحبيبته .

فدار بخلد الفرجيني ، على الرغم من قولها إن هذا الأمر حسن جداً ، أن ينشد ما هو أحسن . وأخذ يفكر طويلا فى هذه الأساطير الخاصة بالجواهر . فهدته عاطفته إلى فكرة لم يلبث أن قام بتنفيذها .

ولما تم صنع الخاتم كان مرصعاً بعين الهر ، ولكن كانت حولها أربع جواهر صغيرة من الماس . وهكذا كانت جوهرة شهرها متصلة بجوهرة شهره . حتى يكون حظهما وحبهما مرتبطين برابطة وثيقة لا تنفصم عراها .

وقد أمكنه أن يحصل يوماً على حجم إصبعها ، بعد أن انجاب الشتاء ، وظهرت الحشائش الخضراء ، فصنع لها خاتماً من الحشيش الملتوى ، وقد مدت إليه يدها لكى يكون القياس دقيقاً . ثم صنع خاتماً آخر لنفسه . وبعد أن لبس كل منهما خاتمه بعض الوقت ، طلب منها أن تبادله خاتماً بخاتم ، وهكذا جاء الخاتم على حجم إصبعها تماماً . ولما نظر إلى عين الهر ولمعها الملتهبة ، اهتز قلبه شوقاً وطرباً . لأن شهر يونيو يوشك أن ينتهى . أما خاتم الزواج ، وهو ( الدبلة ) الذهبية الخالية من الجواهر — وقد رأى محافظة عليه أن يربطه حول عنقه ليلا ونهاراً — فقد كان له لهب باطنى أشد وأعمق من لمعان عين الهر .

وهكذا لم يلبث اليوم الثانى من شهر يوليو أن أقبل ، وقد دام عقاب مولى حتى هذه اللحظة . فتمنت لو أن أمها بجانبها فى هذا الوقت ، ولكن هيهات لهذه الأمنية أن تتحقق .

## ٣٥
# الحقد المبيّت

وصل المحب وحبيبته إلى آخر ربوة فى طريقهما ، فلم يبق بينهما وبين البلدة سوى اثنى عشر ميلا . وكان المنظر الممتد تحت أقدامهما كأنه خريطة منبسطة أمامهما، لا تتبين العين فيها إنساناً أو وحشاً ، ولكنها تشاهد صورة مخططة ملونة للإقليم وما اشتمل عليه من ربى وسهول واضحة المعالم ، تشرق الشمس على أرجائها الواسعة الساكنة . وقد انفتح هذا المنظر أمام العاشقين عندما وصلا فجأة إلى نهاية الهضبة ، حيث ركبا صباحهما هذا متجاورين لا يكاد رأس أحد الفرسين يسبق الآخر .

فلما رأى الفرجينى أن رحلة اليوم قد أشرفت على نهايتها ، نظر إلى الفتاة التى بجانبه ، وامتلأت عينه بالبريق الذى يلمع من عين العريس . وأحس بالخاتم الذهبى فى مكانه الأمين فوق صدره ، ذلك الخاتم الذى سيضعه حول إصبعها غداً برفق وتؤدة . ثم خلع القفاز عن يدها اليسرى وانحنى وقبل ذلك الخاتم الآخر الذى أهداه لها . وكأنما امتزجت تلك النار المتوهجة فى عين الهر باللهيب المشتعل فى قلبه ، فرفعها بذراعه لحظة عن جوادها وهو يحتضنها . أما هى ، فإن حبها له ، كان يشوبه إحساسها بألم الوحدة ، الذى أخذ ينال منها كأنه المد الزاحف . كلما اقترب يوم الزفاف ، لم يكن أحد ينتظرها فى تلك البلدة لكى يشهد زواجها منه . ستقابلها فى الطريق وجوه عديدة ملؤها المودة والترحيب . ولكنها كلها لأصدقاء جدد ، صادفتهم فى هذه البلاد الموحشة . ولن يبتسم لها وجه واحد ممن عرفتهم فى طفولتها . فلا غرو

إذا كان فى أعماق قلبها صوت ينادى تلك الأم النائية فى ولاية فرمنت . إن رؤية وجه مسز تيلر – برغم ما فيه من المحبة والعطف – فى يوم الزفاف لن يكون فيه الغناء .

كانت البلدة أمامها فى الفضاء الشاسع لولاية يومنج . ومن حولها الحقول المزروعة ، وقد امتدت غرباً إلى مسافة قليلة ، وشرقاً إلى مسافة بعيدة ، فى مربعات نمت فيها الزروع الخضراء والصفراء . ولم تكن البلدة سوى خرقة تافهة وسط هذه الحلل السندسية . فى نهاية الحقول الشرقية تمتد المراعى فى سهول لا ترى العين نهايتها ، ولا يكتنفها سوى مجرى نهر ضيق قد حفر مجراه خلالها . أما فى الغرب من المدينة – فتبدو جبال بولج ، صاعدة محلقة فى الجو ، ولم يزل هواؤها بارداً ، بسبب ثلوجها التى لم تذب بعد ، وغابات الصنوبر المنتشرة على منحدراتها . وقد انحدرت ثلاثة جداول من ثلاثة ينابيع فى الجبال ، وهى التى يتألف منها المجرى الأول للنهر ، وتتحد هذه الجداول على بعد ميلين من البلدة – وإن كانت المسافة تبدو من هنا كأنها بضع خطوات – وينحدر النهر نحو المدينة تحيط به دوح الحور من الجانبين كأنه ممشى فى حديقة يحف به العشب من الناحيتين . وقد خيم السكون على هذه الخريطة كأنه انسجام يؤلف بين أجزائها ، فيزيد من جلالها وروعتها .

فهمست الفتاة : « ما أبدع هذا ، وما أشد حبى له ، ولكن ما أفخمه وأضخمه ! » ثم مالت نحو حبيبها لحظة ، كأن روحها كانت تلتمس موئلا وملاذا . لأن هذا الجمال الهائل ، والسكون الشامل كان يوحى إليها اليوم بالروعة ويوشك أن يملأ قلبها رهبة . ولاح لمخيلتها منظر الكثبان الخضراء الناعمة فى أوطانها . فأغمضت عينيها فرأت فرمنت ، شارعاً فى قرية ، ومكتباً للبريد ، والشجر المتسلق يكسو الجدار من فوق الباب ، وأمها تقتطف الورد الأصفر من إحدى الخمائل .

وسمعت صوتاً ، ففتحت عينها بسرعة ، فألفت حبيبها وقد دار فى سرجه

يراقب فارساً آخر يدنو منها . ورأت يد الفرجينى فى وضع خاص ، فعلمت أنه قد جرد مسدسه ، ولكن الآخر لم يزد على أن مرّ بهما مراً ، وهما واقفان يطلان من نهاية الربوة .

وقد هز الرجل رأسه للفرجينى ، فقابله الفرجينى بالمثل . وقد أصبح الآن تحتهما على الطريق المنحدر . كان بالنسبة لمولى وود شخصاً غريباً لم تره من قبل . ولكنها رأت عينيه وهو يهز رأسه لحبيبها . فأدركت — حتى بدون حاجة إلى المسدس — أن هذه لم تكن حالة بغض من أول نظرة ، وقد صدق ظنها ، فإن البغضاء لم تكن وليدة الساعة ، لأن عينى الرجل قد انبعثت منهما بغضاء تراكمت على مدى خمس سنين . فسألت حبيبها عنه . فقال : « إنه رجل أراه من وقت لآخر . »

قالت مولى وود : « وهل اسمه ترمپاس ؟ »

فنظر إليها الفرجينى فى دهشة : « كيف ، ومتى أتيحت لك رؤيته ؟ »

« لم أره إلا هذه الساعة ، ولكنى أعرف . »

« عجباً لك ؛ إنك لم تخبرينى من قبل أنك قد وهبت القدرة على قراءة الأفكار . » ثم ابتسم لها ابتسامة عذبة .

« عرفت أنه ترمپاس بمجرد أن رأيت عينيه . »

قال حبيبها بمزيج من الظرف والتهكم : « ياللعجب ؛ لابد لى أن أنتبه إلى مظهر عينى حينما تنظرين إليهما . »

قالت : « إنى أظن أنه هو الذى ارتكب ذلك القتل ! »

قال متلطفاً : « وأى فكر تقرئين الآن ؟ »

ولكنه لم يستطع أن يردها عن هذا الموضوع بفكاهته . فتناولت يده بيدها ، أو على الأقل جعلت فى يدها الصغيرة كل ما استطاعت أن تتسع له من يده الضخمة . وقالت : « إن لى بعض العلم بما حدث فى — فى — ذلك الخريف. » وأبت أن تشير إليه بعبارة أوضح — « وأعرف أنك قد فعلت فقط. . . »

قال متمما عبارتها : « ما لم يكن من فعله بد . » وكان صوته فيه الجد والحزن معاً .

قالت — ولم تزل قابضة على يده : « نعم . ويبدو لى أن ذلك الـ . . . القصاص العرفى » ( قالت هذه الكلمة فى همس ) « هو السبيل الوحيد . ولكن إذا كان قد قضى عليهما بالموت من أجل سرقة الماشية ، فإن من البشاعة أن سفاحاً مثل هذا . . . »

« من يستطيع الإثبات ؟ »

« ألست تعرف ذلك ؟ »

« إنى أعرف أموراً كثيرة فى قرارة نفسى . ولكن هذا ليس برهاناً . لم يكن هناك سوى جثة الرجل القتيل وأثر الحوافر فى الثرى — ثم ما تكهن به الناس . »

قالت : « ولكنه لم يتعرض حتى لأن يقبض عليه . »

« كلا ، إنه قد ساعد على انتخاب رئيس النيابة فى تلك المقاطعة . »

فتجرأت مولى وتقدمت خطوة نحو حظيرة أسراره وقالت فى تردد : « لقد رأيت — منذ لحظة — الأمر الذى فعلته . »

فعاد إلى مخاطبتها بلهجته الفكاهية الساخرة : « إنك ستملئين قلبى رعباً ، إذا ظللت تبصرين الأشياء على هذا النحو . »

« إنك جردت مسدسك للقائه . »

« يغلب على ظنى أنى فعلت ما تقولين . ولم يكن هنالك أقل داع لذلك . » ثم أخرج المسدس مرة أخرى ، وهز رأسه نحوه ، كأنه شخص قبضوا عليه متلبساً بارتكاب هفوة .

فنظرت إليه الفتاة وأدركت أنه لابد لها أن تبتعد عن حظيرة أسراره ، فقد أصبح موقفها بالنسبة إليه غير ما كان عليه من قبل أن رضيته حبيباً . فلم يعد الآن كما كان فى العهد الطويل الذى قضاه فى اكتساب مودتها ، ذلك العابد

الذى يمزج الطاعة والخضوع بالتمنع والإباء ، وهى لم تعد الآن تلك المثالية التى تمزج عطفها وودها بالسخرية والازدراء . إن سمو مولدها وتعلمها الذى كان لها من قبل سلاحاً لإبقائه فى مكانه وللتغلب عليه ، قد تراجع الآن أمام خصال هذا الرجل الفطرية . فباتت تدرك أن حبيبها راعى البقر ، بكل ما ينقصه ، أجل شأناً من كل ما يمكنها أن تصل إليه ، بكل ما لها من المزايا . فإنه لا يزال عابدها ، ولكنه أيضاً سيدها ، ولهذا أحست أمام ابتسامته الخلابة بعجزها التام ، وعاودها الحنين إلى أمها لكى تكون إلى جانبها اليوم ، وأخذت تنقل بصرها من الرجل الوحشى إلى فيافى ويومنج ، إلى البلدة التى سيعقد قرانهما فيها . ولكنها أخفت عنه شعورها بالوحدة إكراماً لمنزلته .

كان ممتطياً جواده مونتى ، يتأمل فى مسدسه ، ثم أراها حية من ذوات الجرس قد التفت على جذور بعض الأعشاب ، وسألها : «هل تسمحين بأن أصيبها؟ »

قالت – وهى تحاول أن تكون منشرحة الصدر : « إنك قلما تخطىء الهدف . »

قال : « لقد سمعت أن الزواج يؤثر فى أعصاب الرجل . » ثم سدد سلاحه فزق الحية من أول طلقة ، وقال : « لعل الوقت لم يحن بعد لكى تتأثر الأعصاب ثم أطلق ثلاث رصاصات أخرى فى جسد الأفعى ، بعناية بالغة ، وقال : « أظن أن فى هذا الكفاية . »

« ألم يكن فى الأولى الكفاية ؟ »

« أجل فيها الكفاية لقتل الأفعى . » ثم جعل ساقه اليمنى فوق الجواد أمام السرج ، على عادة رعاة البقر ، ونظف المسدس ، ووضع فيه رصاصاً جديداً .

واقتربت مرة أخرى من مكامن أسراره فقالت : « هل . . . هل رآك ترمپاس كثيراً فى المدة الأخيرة ؟ »

« كلا . لم أره منذ وقت غير قليل . وأكبر الظن أنه لم يشعر بوحشة لبعدى عنه . »

وقد ألقى الفرجينى رده هذا بصوت عذب رقيق . ولكن حبيبته لم تجدفيه ما يطفىء غلّها ، فأدارت وجهها عنه ، ومسحت دمعة .

فجذب عنان جواده مونتى حتى صار محاذياً لها ، وطبع على خدها قبلة حارة ، وقال لها برفق : « لست الوحيدة التى تقرأ الأفكار . » فمالت نحوه وألقت برأسها على صدره . فمضى يقول : « لقد كنت أظن أن الطريقة التى اخترناها لزواجنا هى أجمل الطرق . »

قالت فى همس : « وهى فعلا أجمل الطرق . »

فمضى الفرجينى فى الإدلاء برأيه فى هدوء ، وكأنها لم تقل هذه الكلمة : « ليس هناك أقوام تحملق ولا ضوضاء ، ولا شرائط ، ولا قبعات جميلة ، ولا ظهور أمام الجماهير ، ولا خطب تلقى ، ونحن نتمنى ألا نسمع شيئاً أو نقول شيئاً . »

فكان جوابها أن زادته عناقاً والتصاقاً .

« لن يكون هناك سوى أسقف ويومنج ليجرى العقد . ولن يكون حتى هو هناك ، بعد أن يتم العقد . . . لقد كنت موقناً أن هذا أسمى بكثير من جميع أنواع الزفاف التى رأيتها . »

ثم سكت لحظة . فلم ترد عليه بكلمة .

فقال : « ولكن والدتك ليس لها مكان فيه . »

فنظرت فى وجهه مندهشة . فقد خيل إليها أن روحه قد سمعت نداء روحها.

فقال : « إن هذا ليس صواباً ولا قريباً من الصواب ، بل هو الخطأ كل الخطأ . »

قالت : « ولكنها هيهات أن ترضى بالحضور إلى هنا . »

قال : « ينبغى لنا أن نذهب إلى هناك . ولست أدرى كيف ألتمس منها الصفح . »

فصاحت مولى : « لم تكن أنت الذى اقترح أن يتم الزفاف هنا . »

قال : « ولكنى مسئول ، لأنى لم أعترض . فلم أقل لك إن من واجبنا أن نذهب إليها . لقد فاتنى هذا ، لشدة تفكيرى فيما أشعر به . لأنك تدركين — وإن كنت لم أقل لك هذا من قبل — أن أمك قد أهانتنى . فعندما كتبت إليها إنك ستقبليننى بعد انتظار هذه السنين الطوال ، وعندما كتبت إليها ذلك الكتاب ، أخبرها فيه بكل شىء عن نفسى ، وبأن أسرتى دون أسرتكم — وغير ذلك مما قلته لها ، أحسست بألم لأنى لم أتلق منها رداً . ولم ترسل لى كلمة سوى ما يرد به فى رسائلك . لقد تحدثت إليها عن آمالى ، وعن قصورى ، وقلت لها أكثر مما قلته لك ، لأنها والدتك . فأردت أن ألتمس منها أن تصفح عنى إذا استطاعت . وأن تحس بأنى سأحيطك بكل عناية ورعاية . وكفاها أن ابنتها هجرت وطنها لكى تتولى تثقيف الأطفال هنا فى بير كريك ، أجل كفاها ذلك . دون حاجة إلى أن أتدخل فأزيد الأمر تعقيداً . . . لقد فاتتنى تلك تلك النقطة ، بسبب انصرافى إلى التفكير فى مشاعرى . »

فردت مولى : « لم تكن أنت الذى اقترحت أن يتم الزفاف هنا . »

لقد أمكنه بلباقة عظيمة أن يصور الأمر على أنه صعوبة خاصة بوالدتها وحدها — وبذلك وفر عليها ألم الاعتراف أو الإنكار . ثم قال لها : « لاشك أنى أنا السبب . فهل لك أن نصرف النظر عن ذلك ؟ »

« نصرف النظر عن أى شىء ؟ » إنها لم تفهم ما عناه . .

« عن النظام الذى قررناه لهذا الأمر . فإن الخطة لا تعدو أن تكون مجرد خطة . ومع أنى أبغض التغيير والتبديل ، فإن بغضى لأن أسبب لأمك ألما أكبر . أو ، على الأقل ، يجب أن يكون أكبر . وهكذا يمكننا أن نبدل ، إذا وافقت على ذلك ، ولا يزال فى الوقت متسع . »

قالت « نبدل ؟ »

« أعنى أننا نستطيع أن نذهب إلى بلدك الآن . فنأخذ مركبة السفر هذا المساء ، فيتسنى لوالدتك أن تشهد زفافنا . ونعود بعد ذلك فنختم رحلتنا فى

الجبال ، بدلا من أن نبدأها بالجبال . وهكذا ترين أن الأمر لا يعدو مجرد النقل والتبديل . »

لقد كان من الصعب عليه أن يدلى بمثل هذا القول ، ومع ذلك فقد عرض هذا الرأى كأنه يريد أن يحثها على قبوله . وقد انطوى الاقتراح على ضروب من الحرمان لم يجرؤ على التفكير فيها ، فلابد له أن يؤجل يوم زفافه ، وأن يرجىء تلك السعادة ، التى وقف على أعتابها أخيراً ، بعد أن كافح من أجلها ثلاثة أعوام . وأن ينقض رحلة العرس بعد أن تعب فى ترتيبها واتخاذ العدة التامة لها . والجبال منه قاب قوسين أو أدنى ، والغابات والخوانق التى اعتزم زيارتها بعد أن يتم الأسقف العقد . وتلك الجهات المنفردة ، التى لا يصحبهما فيها سوى الوحش . لقد كانت الخيل والخيمة وبندقيته وأداة صيد السمك ، كلها مهيأة معدة فى البلدة لكى يبدأ الرحلة غداً . وقد عنى بادخار كل ما يوفر لها الراحة . ومع ذلك فقد رضى أن ينتظر قليلا ، بعد أن انتظر ثلاثة أعوام . ولن يكون الزفاف على الصورة التى كان يتمناها . بل سيكون هناك تحديق الجماهير وثرثرة الألسن . ولكن فى وسعه الانتظار . وسيأتى الوقت الذى يتاح له فيه أن يخلو بحبيبته ولو بعد حين . لذلك تكلم كأنه يريد أن يؤثر فيها .

فصاحت به : « كلا . كلا ، لن أقبل هذا أبداً . »

لقد بادرت برفض الفكرة رفضاً باتاً . لأنها لم تكن تطيق أن تراه يحتمل هذه التضحية ، أليس فى النية أن يزور الوالدة بعد أربعة أسابيع ؟ فى هذا الكفاية . لو أن أسرتها قبلته ورحبت به ، لكان للأمر وجه آخر . ولكنها لم تقبله ؛ فلا يحق لها أن تنتظر شيئاً كهذا . وعلى كل حال لقد قطع الأمر شوطاً بعيداً . ولات حين رجوع . لذلك قالت لصاحبها إنها لن تصغى إلى كلامه ، وإنه إذا لم يكف عن هذا القول فإنها ستعدو بجوادها ، وتدخل البلدة بمفردها .. ثم رأت محافظة على شعوره أن تخفى عنه تماماً إحساسها بالوحدة والألم الذى شعرت به ؛ لأنه أبى أن يشركها معه فى أمر ترمپاس ، مع أن كثيرين غيرها يعرفونه

وهكذا جعل الإثنان ينحدران معاً ، فى شىء من البطء لكى يطيلا هذه الأميال الأخيرة ، وركوبهما معاً على الجوادين ، يسيران جنباً لجنب، وهذه كانت حالهما الآن ، الفتاة فى زيها الرمادى المحتشم ، وهى تمعن فى التفكير . والرجل فى سراويله الجلدية والحزام المدجج بالرصاص والقميص الصوفى . وقد جعل ينظر بجد فى الفضاء تلك النظرة الشاملة ، التى يعرفها سكان هذه الأقطار .

والآن وقد عرف الفرجينى ما كان يدور بخاطر حبيبته تماماً ، فإنه قرر أن يخرج على أعز عاداته ، وسننه التى كان يلتزمها . فقد كان حريصاً على ألا يذكر أى رجل بشر أمام أى امرأة . ويرى أن خصومات الرجال ليست لآذان النساء . وفى عرفه أنه لا ينبغى للنساء الصالحات أن يعرفن سوى جزء من حياة الرجال . لقد قضى أعواماً فى التشرد ، فأصبح لسعة علمه بالشر ، يقدر الطهر والبراءة تقديراً مضاعفاً ، ولكنه الآن سيخرج عن هذه العادة ، بعد أن علم بما كان يدور فى خاطرها . وسيذكر رجلا واحداً بالشر أمام امرأة واحدة ، لأن صمته قد آلمها — ثم ألم تكن بعيدة عن أمها ، شديدة الإحساس بالوحدة ، مهما عمل من أجلها ؟ إنها يجب أن تسمع بقصة خصومته فى لغة سهلة وبصورة عرضية ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

ولذلك بدأ حديثه بعيداً عن الموضوع ، فلم يقل لها مثلا : « سأصدقك الخبر الآن ، لقد رأيتنى أتأهب للقاء ترمپاس . لأنى كنت دائم التأهب للقائه فى الأعوام الخمسة الماضية . » بل شرع فى الكلام بعيداً جداً عن الموضوع ، وبذلك الاحتراس الشديد ، الذى هو من مميزات الرجل الوحشى من جهة ، والدبلوماسى البارع من جهة أخرى .

فقال : « لاشك أن هنالك اختلافاً كبيراً بين الرجال والنساء . »

قالت : « أواثق أنت من هذا تماماً . »

— « أليس هذا من حسن الحظ ؟ أى أن يكون لدينا النوعان . »

— « لست أعلم أن هذا من حسن الحظ . فإن من الممكن أن تقوم الآلات

بالأعمال الثقيلة التى يقوم بها الرجال . »

— « ومن الذى يخترع الآلات ؟ »

فضحكت وقالت : « إننا لن نحتاج لتلك الأشياء الضخمة الكثيرة الضوضاء فإن عالمنا سيكون عالماً لطيفاً . »

— « رحماك اللهم ! »

— « ماذا تعنى بهذه العبارة ؟ »

— « رحماك اللهم ؛ سر بنا يا مونتى ؛ عالم لطيف ملآن كله بالنساء .! »

قالت مولى : « وهل تستطيع أن تزعم أن الرجل لطيف ؟ »

« إن هذا الموضوع ينطوى على شىء عجيب . هل سمعت يوماً أحداً يقول نكتة عن الحم ؟ ومع ذلك فإن فى العالم حماً بقدر ما فيه من حماة . ولكن أى الفريقين يثير الضحك ؟ »

فقالت مولى — ولم تعترف بالهزيمة : « سبب ذلك أن الرجال هم الذين يكتبون الصحف الفكاهية . »

— « أتسمع يا مونتى ؟ إن الرجال هم الذين يكتبونها . ولو أن النساء كتبن صحيفة مضحكة ، فإنى أتوقع أنها تكون لطيفة . »

فكفت الفتاة عن مجاراته فى هذه المساجلة الفكاهية ، وقال الفرجينى : « ولكن ألا تظنين حقاً أنه ليس من المألوف أن نرى الحم يطوف بأنحاء الدار ؟ أما مسألة اللطف ، فإنى أذكر أنى اضطررت مرة إلى النوم فى حجرة مجاورة لاجتماع عقدته جمعية السيدات لتحريم الخمر ، رحماك اللهم ؛ . . . وقد استحال علىّ أن أغير حجرتى ، وجاء صاحب الفندق يعتذر إلىّ فى الصباح التالى . وقال إنه لم يعد يندهش لرؤية الأزواج يشربون إلى هذا الحد . »

فضحكت حبيبته ، وشاركها فى ضحكها ؛ لأنه لم يتمالك نفسه من التأثر ، بمخترعاته البارعة . ثم قال : « أجل إن هناك فرقاً كبيراً بين الرجال والنساء . خذى مثلا حالة ذلك الفتى وحالتى . »

قالت مولى — وقد اتخذت لهجة الجد بسرعة : « أتعنى ترمپاس ؟ » ونظرت إلى الطريق الممتد أمامها فأبصرت ترمپاس لا يزال يُرى فى طريقه إلى البلدة . »

ولم يرد الفرجينى منها أن تأخذ الأمر بجد أكثر من اللازم . فقال وهو يشير إلى ترمپاس : « نعم ، هو وأنا ؛ إنه لا يحسن الظن بى . وهيهات أن يكون غير ذلك ؛ وأكبر الظن أنه سيظل كذلك دائماً . وقد رأيت منذ قليل ما جرى بيننا . أظن أن هنالك فرقاً بين حالتنا وبين اجتماع السيدات لتحريم الخمر . »

لم تتمالك الفتاة نفسها من الضحك من أسلوبه فى إلقاء هذه الجملة . وأحست بالسعادة تبعث الحرارة فى صدرها ، لأن لهجة الفرجينى فى الكلام عن ترمپاس الآن لم تعد تدل على رغبته فى إخفاء شىء عنها . فطفق يقص عليها القصة فى لغة سهلة ، تزداد عذوبة باستخدامه لهجته الجنوبية . وقد استطاع أن يخفى الصورة الدميمة بالطريقة الرشيقة التى سرد بها القصة .

« كلا ، إنه لا يحسن الظن بى ، ولا يرى أنى على شىء . وقد سبق لى أن قابلت رجلا فى وادى جون داى ، وآخر فى كانيادى أورو ، كلاهما لا يحسن الظن بى . ومن الطبيعى أن يلقى الإنسان شخصاً هنا وهناك . لكن ترمپاس يفوقهم جميعاً . لأن الآخرين كانوا صريحين فى خصومتهم ، وكان من السهل بعد ذلك أن تصفو ضمائرهم .

« لقد اضطررت أن أثبت حقيقتى لترمپاس منذ وقت طويل . وقبل أن أراك بزمن غير قليل . ولم يكن الأمر بذى خطر ، ولا يعدو لعب الورق ، أيام كنت أنفق مالى وإجازاتى فى طوفان من العبث الذى لا يجدى . ولكنى كثيراً ما كنت أربح فى لعب الورق ، وعلى الأخص فى البوكر . فاجتمعت بترمپاس ذات ليلة ، والظاهر أنه رآنى حدثاً ، فكره أن يكسب نقوده فتى يبدو حديث السن ، ولم يتورع عن الإبانة عما فى نفسه . واضطررت أنا أيضاً لأن أشرح حقيقة أمرى فى جلاء ووضوح . فأمكنه أن يفهم بسرعة أن عمرى قد تم نضجه .

« وكدت أنسى هذا الحادث تماماً . ولكن ترمپاس له ذاكرة تعد من أقوى خصاله . . . ثم حدث بعد ذلك بزمن طويل أنه تألم أشد الألم لأن القاضى هنرى جعلنى مقدماً عليه وعلى بعض رعاة البقر ، لكى نأخذ ... »

« ولكن لم يكن هذا هو الحادث الثانى . »

« لماذا ؟ »

قالت فى تردد : « ألست تذكر ؟ ألا تذكر أمراً آخر ؟ »

« ليتنى كنت أدرى . »

« إنه حادث وقع عند أول لقاء لنا »

قال : « نعم ، إن ذاكرتى تحتفظ بذلك اليوم ، كما تحتفظ بهذا . . . » وأخرج من جيبه منديلها الذى التقطه من حافة النهر عندما حملها من المركبة ، التى سقطت فيه .

قالت : « إن التقاءنا ذلك اليوم لا يعد لقاء . وإنما أعنى ما حدث يوم الرقص . ولم أكن قد رأيتك بعد . وكان ترمپاس يذكرنى بألفاظ بذيئة ، فتكلمت أنت وقلت له : « قف على رجليك أيها الوغد وقل لهم إنك كذاب . فلما سمعت بهذا الحادث ، قضى على مقاومتى . » وغطى الاحمرار الشديد محيا مولى .

فتمتم الفرجينى : « نسيت هذا . » ثم قال بحدة : « وكيف سمعت أنت بذلك ؟ »

« مسز تيلر . . . »

« لا يمكن أن يخبر رجل امرأة بمثل هذا الخبر . »

فضحكت وهى تشعر بانتصارها وقالت : « فمن الذى أخبر مسز تيلر ؟ »

فأحس ببعض الهزيمة ، وابتسم وقال : «إن الأزواج فصيلة خاصة من الرجال .» وكان هذا كل ما استطاع أن يقوله رداً عليها . ثم عاد فقال : « مادمت تعرفين هذا الحادث . فإنه هو فعلا الدورة الثانية فى المنازلة . وقد ظن ترمپاس

أننى لا يحق لى منعهمن أن يقول ما يشاء عن امرأة لا تربطنى بها أية صلة.ولكن جميع النساء يجب أن يكونوا موضع الرعاية من كل رجل . وهكذا اضطررت لأن أعطى ترمپاس إيضاحاً آخر أمام ملأ من الناس ، فكان هذا تكراراً لحادثة الورق . وازداد ظنه سوءاً بى أكثر من ذى قبل .

« ولم أستطع أن أحسنه بحال من الأحوال ، فقد حدثت بعد ذلك أمور شتى – وأنت تعرفين أكثر الحوادث الأخيرة – واليوم أرى الرجل للمرة الأولى منذ أحداث الخريف الماضى . والظاهر أنك تعرفينها أيضاً . وهو يعلم أننى لا أستطيع أن أثبت أنه كان واحداً من عصابة لصوص الماشية ، وليس لدىّ برهان بأنه قاتل قصير المسكين . ولكنه يعلم أنه أفلت منى بصعوبة وأنى سددت عليه باب السرقة برهة . فهل يدهشك أنه يكون سىء الظن بى إلى هذه الدرجة ؟ ولكنى أعد نفسى فاشلا فى الحياة ، إذا كنت قد عشتهذه الأعوام التسعة والعشرين دون أن أكتسب عدواً واحداً ، مع وفرة الفرص التى أتيحت لذلك . »

وهكذا انتهت قصته ، وقد استطاع أن يجعلها موضع سره فى أمور لم يسبق له التحدث فيها ، فأسعدها أنها باتت أقرب إليه بهذا المقدار . وزال عنها بعض الخوف الذى كان يخالط حبها .

والتزم الصمت أثناء بضعة الأميال التالية . ولكنها وجدت فى صمته الكفاية وقد اختفت صورة فرمنت من خاطرها ، وأمست ويومنج أقل وحشة من قبل ، وجعلا يهبطان معاً إلى الخريطة المنبسطة أمامهما . ولكنها لم تعد خريطة ، بل أرضاً نما زرعها ، وجلست فيها الكلاب ، وحلق فوقها الطير . وبعد قليل قالت : « فيم تفكر ؟ »

« لقد كنت مشغولا ببعض المسائل الحسابية ، لو أننا حسبناها بالساعات لبدت قصيرة جداً ، فإذا حسبناها بالدقائق كانت شيئاً كثيراً ، عشرون فى ستين تساوى ألفاً ومائتين . فإذا حولناها إلى ثوان ، كانت النتيجة اثنتين وسبعين ألفاًمن الثوانى . اثنتين وسبعين ألفاً . أمامنا كل هذهالثوانى قبل أننتزوج . »

« ثوان ؛ الآن صارت الفترة تحسب بالثوانى . »

« هذا ما أفكر فيه ، ولهذا أقطع منها ستين كل دقيقة . »

وبهذا القطع المستمر أخذ الوقت ينصرم . وتزداد الأميال ، التى تركوها وراءهما . وبدأت تظهر فى الفيافى العذراء آثار القنوات التى حفرت حديثاً ، كما ظهر أول سياج حول المزارع ، ولم يلبثا أن كانا يمران بمنازل وحقول ، وهى طلائع العمران . والطريق الذى كان من قبل حراً صار الآن حبيساً ما بين خطوط متصلة من الأسلاك الشائكة . وظهر على الأفق الشرقى عمود من التراب يدل على أن المركبة تقترب بركابها ، وهى على الأرجح ، تحمل الأسقف ، وقد حددا موعد زواجهما ليتفق مع زيارته اليوم . وكان اليوم لا يزال حاراً مشرقاً ، غير أن الظل العظيم ، أخذ يتقدم من سفوح جبال بولج نحو البلدة . ثم لم يلبثا أن أخذا يقابلان بعض الأهالى . عرفهما البعض فأحنوا رؤسهم محيين ، ولم يعرفهما البعض فكان يحدق فيهما . وعندما دارا ليدخلا الشارع الرئيسى ، حيث الفندق والبنك ، ومخزن الأدوية ، ودكان البضائع ، والحانات السبع ، لقيا ترحيباً عظيما ؛ إذ كان هناك الأصدقاء الثلاثة — هنى وجن ، وسيبولوموين ولن ماكلين ، وكلهم يريد شرب نخب الفرجينى إذا سمحت السيدة ؛ ووقف الثلاثة مبتسمين ابتسامة عريضة ، وقد خلعوا قبعاتهم . ولكن الفرجينى أدرك أن وراء هذا الانبساط غرضاً آخر .

قال هوى وجن : « سنحسن سلوكنا . »

قال سپيو : « سيكون حسناً . »

قال لى : « نعم . »

قالت مولى — وقد سرت لرؤيتهم : « أيهم الرجل الصادق الأمين ؟ »

قال الفرجينى : « ليس فيهم واحد يُطمأن إليه . إن أصدقائى القدماء يبعثون الخوف فى نفسى عند ما أذكر أساليبهم وأعمالهم . »

قال لن ماكلين : « إن أيام الخطبة هى التى خوفتك ، وسيرد إليك الزواج

شجاعتك . »

قالت مولى : « إنى أضع ثقتى فيكم جميعاً . فسيصحبنى الآن إلى الفندق ، وبعد ذلك تستطيعون أن تشربوا نخبه كما تريدون . »

ومضت فى طريقها ، بعد أن ابتسمت لهم ، وترك جواده يمشى بجانب جوادها . ولكنه نظر إلى أصدقائه ، فرأى عينى سپيو الزرقاء وقد أغلقهما حتى صارتا كخطين ، ونطق سيبو بالجملة التى خرجوا جميعاً لكى يقولوها له : « لا تبدل ثيابك ! »

فصاحت مولى : « وعليه كل هذا التراب ! » غير أن الفرجينى أدرك ما عناه سپيو بقوله « لاتبدل ثيابك » ولم تستطع مولى لبراءتها أن تدرك معنى هذه الكلمات أكثر مما يستطيع القارئ العادى وهو يطالع سفراً قيما ، أن يدرك أن هنالك فرقاً بين أسلوبه وبين أسلوب الجريدة الصباحية . وقد كان هذا ما أراده سپيو حتى لا يسبب لها انزعاجاً .

وهكذا سمحت لحبيبها فى الفندق أن يذهب ، بعد أن قبلها ، دون أن يخطر ببالها خاطر عن ترمپاس . وانصرفت إلى أمتعتها التى كانت فى انتظارها ، ففتحت بعض الحقائب وغيرت ثيابها .

كان هنالك أيضاً ملابس العرس معدة للفرجينى ، وما يلحق بها من لوازم المدنية التى لا بد منها لسكان الجهات الموحشة عند ما يفدون على المدن ! إذ لا يمشى أمام الجماهير ، مختالا بمهمازه وأسلحته الجهنمية ، سوى الغر القليل التجربة من رعاة البقر . وقد مضت على الفرجينى أعوام كثيرة وهو لا يأبه بلبس هذه الأشياء الصبيانية ، ويكتفى بزى هادئ رزين عند ما يجوب الشوارع . بحيث لا يمتاز فى المدن على سواه إلا بما ينم عنه وجهه ومسلكه . غير أن سپيو طلب منه اليوم ألا يغير ثيابه ، ولهذا خرج ومسدسه فى جيبه الخلفى . ولم يلبث أن لحق بأصدقائه الثلاثة .

قال : « شكراً لكم ، إنه مرّ بى هذا الصباح . »

قال وجن : « إننا لا نعرف شيئاً عن نواياه . »

قال ماكلين : « ولكنه يتسكع فى هذه النواحى . »

قال سپيو : « ويكثر من الشراب . وهذا يذكرنى . »

وانطلقوا إلى حانة صديق لهم، حيث كان يجلس لسوء الحظ ، بعض الحمق من الناس . وإن كان من الصعب أن نقرر مبلغ حماقة أى إنسان من أول نظرة نلقيها عليه .

أخذوا يشربون نخبه فى هدوء واعتدال ، وقالوا للفرجينى — بصوت خافت — « فى صحتك . » فرد عليهم بصوت خافت : « فى صحتكم ! » محولاً بصره عنهم وذلك بعد أن تلاقت عيونهم لمدة قصيرة ، وهم واقفون أو متكئون بعضهم بالقرب من بعض . وقد صافح سپيو الفرجينى ، ثم أشار إلى نفسه ، وقال : « سيجىء دورى يوماً ما . » فقد أخذ يحس فى قلبه الهائم . بأنه يغبط الرجل الذى استطاع أن يحمل نفسه على الزواج . ثم أحنى رأسه مرة أخرى وقال : « فى صحتك »

وهكذا وقفوا لدى البار ، قلوبهم مفعمة بالعاطفة ، خالية من الكلمات تعتلج فيها المحبة والذكرى . فقد طالما شهدوا جميعاً أياماً عصيبة معاً . وهالهم الآن أن العاطفة توشك أن تقهرهم .

قال وجن : « إن الهواء حار . »

قال ماكلين : « إن الحرارة فى قرية بكس إلدر أشد . وقد بدأت أسنان طفلى تظهر . »

وجف معين الكلمات مرة أخرى . فجعلوا يبدلون وقفتهم ، وينظرون إلى أقداحهم ، ويقرأون بطاقة الزجاجة . ومن آن لآخر وجّهوا الكلمة لصاحب الحان ، عن صناعته ، أو عن التحف التى تزين جدران الحانة .

قال ماكلين : « رأس جميل »

قال صاحب الحان : « إنه كبش عظيم ، صدته بنفسى فى الخريف الماضى على جبل جراى بل . »

قال الفرجينى : « كان الضأن كثيراً على جبال تيتون فى الخريف الماضى . »

كان على البار آلة يلهو بها رائد الحانة بأن يضع فيها قطعة من النيكل[1]. فتهبط إلى داخل الآلة ، وبعد أن تتخبط فى أركانها تستوى فى النهاية فى أحد الثقوب . فيكسب المرء أحياناً عشرة أمثال ما وضع . ولكن هذه النتيجة لا تحدث إلا نادراً . . . وقد أخذ الأصدقاء الثلاثة والعريس يلعبون بالنيا كل بعض الوقت ، ويشترونها بقطعة من الفضة إذا نفدت .

سأل صاحب الحان : « هل ذهبت إلى جبال التيتون فى طلب الكباش . » وهو يعلم أن الفرجينى كان يطلب لصوص الماشية .

قال الفرجينى : « نعم . وأريد عشر قطع أخرى من النيكل . »

قال صاحب الحان : « هل أحرزت كل ما كنت تبغيه من الغنم ؟ »

قال الفرجينى : « لم يسعف الحظ »

« أظن أن فى البلدة اليوم واحداً من أصدقائك . »

— « هل قال إنه صديقى ؟ »

فضحك صاحب الحان . والفرجينى يراقب قطعة من النيكل تتخبط داخل الآلة .

عندذلك تقدم هنرى وجن وعرض على الفرجينى عرضاً صريحاً ، فقال : « إننا سنكفيك مؤونة هذا الأمر . »

قال لن : « واحد منا أو كلنا نكفيك شره . »

ولكن سپيو التزم الصمت . فعلى الرغم من أنه لا يقل إخلاصاً وولاء عنهما ، فإنه كان أكثر منهما فهماً لصديقه . فكان يعلم أن عبارة « لا تبدل ثيابك » هى أول وآخر عون يستطيع تقديمه فى هذا الأمر . أما ما تبقى بعد ذلك فيجب أن يترك للرجلين ، طبقاً لما هو مألوف فى جميع هذه الأحوال . أما الصديقان الآخران ، فكان رأيهما أن هذه حالة خاصة ، لا تخضع للعرف المتبع . لذلك لم يجدا مانعاً من التدخل .

---

(١) هى خمسة سنتات ، أى جزء من عشرين من الدولار ، وهى تصنع من النيكل .

قال ماكلين معتذراً : « إن الإنسان لا يعقد قرانه كل يوم . وسندفعه إلى مغادرة المدينة اليوم ليخلو الجو . »

قال وجن : « نوفر عليك العناء . وما عليك إلا أن تقول كلمتك . »

ورأى صاحب الحانة أن يضم صوته : « سيهدىء من طبعه أن يقضى ليلته فى الريف . وعندئذ لن يكون لديه مجال للثرثرة . »

غير أن الفرجينى لم يقل كلمته ، بل التزم الصمت وظل عاكفاً على اللعب بالنياكل .

قال ماكلين متمتما : « فكر فيها ! »

قال الفرجينى وقد بدا الحزن فى وجهه : « ومن عسانى أفكر فيه سواها . لقد نشأتْ نشأة تختلف عنا كل الاختلاف . » ثم أطرق برأسه قليلاً ، والآخرون ينتظرون بانتباه.

عند ذلك خطرت لصاحب الحان فكرة جديدة : فقال ، « إنى الآن قائم بأعمال العمدة فى هذه البلدة ، وسأودعه السجن حتى يتم الزفاف وترحل من هنا .

وردد هنرى وجن : « قل الكلمة ! »

التقت عين سپيو بعين صاحب الحان ، وهز رأسه بمقدار ربع بوصة . فهز صاحب الحان رأسه بنفس المقدار . وقد فهم كل منهما الآخر . فإن الأمر قد وصل إلى نقطة لا مخرج منها إلا بالوسيلة القديمة الأبدية ما بين الرجل والرجل . فى مثل هذه الأمور الشخصية البحتة لا يلجأ إلى القانون إلا الرجل التافه .

قال الفرجينى : « إذن لقد أخذ يتحدث عنى . »

قال سپيو : « كان من تأثير الويسكى . »

قال ماكلين : « لو أنه كان فى حالة يدرك معها معنى كلامه ، لأمعن فى الهرب . »

قال وجن : « ولقد حرصنا على ألا نعيد على مسامعك ذكر ما سمعناه ، اللهم إلا إذا طلبت منا ذلك . »

فى هذه اللحظة اقترب بعض الحمق لكى يصغوا إلى هذا الحوار الممتع . والعادة فى كل مجتمع يتألف من ستة أشخاص أن يكون بينهم أحمق واحد على الأقل . أما الجماعة التى نحن بصددها فكان عددها يبلغ العشرين .

قال أحد الحمق — وبه ظمأ لكى يظهر خطره — : « إن هذه البلاد تعرف كلها أنك لست بالرجل الذى يَسِمُ عجولاً غير عجوله . »

فنظر إليه الفرجينى نظرة ملؤها الهدوء والجد وقال : « شكراً لك على شهادتك بحسن أخلاقى . » فأحس الأحمق بالعظمة والكبرياء . والتفت الفرجينى إلى أصدقائه ، وأخذت يده تدفع قبعته إلى الوراء ببطء وتحك رأسه الأسود فى تفكير .

وعاد الأحمق السعيد إلى الكلام فقال : « يسرنى أن أراك تحمل مسدسك وأظنك تعلم ما يزعمه ترمپاس عن الأمر الذى قمت به فى جبال التيتون . إنه يزعم أنه لو عرف الناس كل شىء خاص بمقتل قصير .... »

فقاطعه الخمار ملاطفاً وقال له : « اشرب قدحاً على حساب المحل ، فإن فى هذا ما يجعل أخبارك أكثر طرافة . » ثم دفع الزجاجة أمامه ، فأحس الأحمق أنه أقل خطراً مما كان يتوهم .

قال سپيو : « إن هذه التقولات طافت بكل مكان قبل أن تصل إلينا ، وإلا لكنا منعنا انتشارها ، إن له أصدقاء بالبلدة . . »

خطت الحيرة عقدة فى جبين الفرجينى . فإن هذه الجماعة كانت تعلم أن شخصاً قد اتهمه بأنه لص وقاتل . وتعلم أيضاً أن الفرجينى يعرف ذلك . غير أن هذه حالة لها ظروفها الدقيقة من غير شك . فهل فى وسعه أن يتجنب لقاء ذلك الرجل ؟ إن المركبة لن تلبث أن تتحرك نحو الجنوب لتنقل الركاب إلى القطار . وقد سبق له اليوم أن اقترح على حبيبته أن يلحقا بها . ولكن هل يستطيع — من أجلها — أن يترك فى الميدان عدواً يتقول ويغتاب دون أن يرد عليه ؟ على الرغم من أنه لم يسمع كلام ذلك العدو .

وبينما الفرجينى يردد هذه الخواطر ، إذا بالأحمق يتدخل مرة أخرى ويقول : « إن هذه البلاد بالطبع لا تصدق ما يقوله ترمپاس . فإن هذه البلاد ... »

وسكت ولم يدل بآراء أخرى . فقد أحس الجميع بحركة صادرة من مؤخرة الحانة ، التى تنتهى إلى مستودع الصفائح والعلب الفارغة ، والجانب الخلفى من المدينة ، وظهر ترمپاس أمامهم ، شجاعاً بفضل ما احتسى من الويسكى .

فى هذه اللحظة ظهر جميع الحمقى فى الميدان ، وخر واحد منهم على الأرض حيث ألقى به الفرجينى لأنه حاول أن يقبض على ذراعه . وحاول الآخرون أن يمسكوا ترمپاس ، ولكن رصاصته حطمت السقف قبل أن يتمكنوا من انتزاع المسدس من يده . وقالوا له عند ما أخذ يصب سيلاً من السباب والبغضاء : « لا تنطق بهذه الكلمات الآن ، إن هذا لا يليق . » ومع ذلك ظل الفرجينى واقفاً فى هدوء لدى البار . وقد تحولت العيون إليه فى كثير من الدهشة . وتمتم أحدهم لجاره ! « إنى لن أحتمل نصف هذا السباب . » ولكن الفرجينى احتفظ بهدوئه ، على حين أخذ الحمقى يحاولون أن يردوا ترمپاس إلى عقله . ولكن هيهات لأحمق أن يحول بين الرجل وما كتب له . لم يلبث ترمپاس أن تخلص منهم ، وقال : « إن أصدقاءك أنقذوا حياتك . وإنى أنظرك حتى الغروب لكى تغادر البلدة . » ثم أعقب هذا بسيل من الفحش المقذع .

فساد الصمت التام . ثم تكلم الفرجينى : « لست أبغى بك شرا . يا ترمپاس . »

فقال الآخر — وقد التفت ساخراً إلى ما حوله : « إنه لم يرد منازلتى يوماً ، وقد ظل يتقى شرى خمسة أعوام . ولكنى اليوم قد حبسته فى الحظيرة . »

فضحك بعض أنصار ترمپاس .

فقال الفرجينى : « أواثق أنت يا ترمپاس أنك تعنى كل ما تقول ؟ »

فطارت زجاجة الويسكى فى الهواء — وقد رماها ترمپاس — فأصابت زجاج النافذة خلف الفرجينى .

قال : « إن هذه لا قيمة لها بالإضافة إلى ما قلت، إن كنت تعنى ما قلت.»

قال ترمپاس : « اترك البلدة قبل الغروب . هذا كل ما هنالك . » ثم دار وانطلق إلى خارج الحانة من ذلك الباب الخلفى الذي دخل منه .

قال الفرجينى : « أيها السادة ! إنى واثق أنكم ستسدون لى جميلاً . »

قال صاحب الحانة : « بلا شك ، وسنحرص على ألا يكون لأحد أى دخل فى هذا الأمر . »

فأحنى الفرجينى رأسه للجماعة . وخرج إلى الشارع .

فقال سپيو — وهو يتنهد : « من المؤلم حقاً أنه لم يستطع أن يرجىء هذا الأمر . »

ومشى الفرجينى فى الهواء الطلق بأفكار مضطربة . وقال يحدث نفسه : « إن لى رأيين فى أمر واحد . »

وقد سارع الناس إلى التحدث فى أمره ، ولكنه إذا مر بهم سكتوا ، ثم يعاودون الحديث بعد أن يبتعد ، وهم ينظرون إليه . وهكذا كان الصمت يسود كل بقعة حين يمر بها .

قال واحد منهم — ولم يقرأ فى وجه الفرجينى أثراً للاضطراب — : « لا يبدو أنه يعبأ بهذا الأمر كثيراً . »

قال آخر : « ولكن لعل فتاته تعبأ به قليلاً . »

قال ثالثهم : « إنها لن تعرف من الأمر شيئاً حتى ينتهى . »

« لماذا ؟ ألم يخبرها ؟ »

« لن أخبرها لو كنت مكانه . فليس هذا من شأن النساء . »

« ربما كان الأمر كما تقول . وكنت أفضل لو أن ترمباس قتل قبل اليوم. »

« ولكن ما قولك ، إذا كان يعيش بعد اليوم ؟ » وقد نطق بهذا السؤال أحد أفراد الحزب المعارض، وهو من المتهمين بسرقة البقر .

قال الآخر : « إنى أستطيع الإجابة على سؤالك ، لو كانت عندى عجول

الناس الآخرين لكى أسمعهما بوسمى .» فكان هذا الرد باعثاً على الضحك ثم الصمت.

هكذا أخذت البلدة تتحدث ، وتقضى وقتها فى مثل هذا الحوار حتى مغرب الشمس .

وظل الفرجينى ماشياً وحده فى الهواء الطلق ، حتى بلغ نهاية البلدة ، ثم وقف برهة وقال : « أحب إلىّ أن يحل بى المرض ، من أن أكون متردداً هكذا . » وأخذ يجول ببصره فيما حوله ثم ابتسم من نفسه وقال : « أكبر الظن أنى سينتابنى المرض لولا أنه ليس لدىّ متسع من الوقت له . » ثم خطرت بباله حبيبته ، جالسة هناك فى الفندق وحدها ، بعيدة عن الأم والأهل والديار ، تنتظر إيابه ، وهى تجهل كل شىء . فنظر إلى الغرب فرأي أن بين الشمس وقمم الجبال مسافة لا بأس بها من السماء . ولكن الظل الممتد من سفوح الجبال قد غطى نصف البلدة . فقال : « بقيت أربعون دقيقة . إن نشأتها تختلف عن نشأتنا كثيراً . » ثم تنهد وهو يعود أدراجه . ولعله كان لا يدرك وهو يمشى على مهل ، مبلغ ما ألم به من الشقاء . وأعاد قوله مرة أخرى : « إن نشأتها تختلف عنا كثيراً »

قابله الأسقف أمام مكتب البريد وحياه ، فخفق قلبه حين أحس بقبضة صديقه الحارة المتينة . ورأى الأسقف أن عينيه تلمعان فجأة ، كأنما يوشك الدمع أن يسقط منها . ولكن لم يتساقط شىء . ولم يزد على أن قال : « إنى مسرور بلقائك . » غير أن الأسقف قد بلغت مسامعه تلك الأحاديث ، وكان هو أيضاً مضطرباً ، ففاتحه فى الموضوع مرة واحدة وقال : « ما هذا الذى أسمعه ؟ »

فنظر إليه الفرجينى بصراحة ، وقال « إنك تعلم عن هذا الأمر مثل ما أعلم ، وإن سألتنى عن شىء أجبتك . »

فسأله الأسقف : « هل أخبرت مس وود ؟ »

فأطرق العريس برأسه ، وظهرت على محيا الأسقف علائم الاهتمام والحيرة مرة واحدة . ورفع الفرجينى رأسه . فأبدى له الأسقف أشد العطف ، ولمس

ذراعه فعل الأخ ، وقال : « إن هذا من نكد الطالع . »

قال الفرجينى – وهو لا يكاد يخفى اضطراب صوته : « إنى أريد أن أفعل اليوم أكثر مما فعلت فى أى يوم آخر فى حياتى . »

« إذن اذهب وأخبرها الساعة ! »

« ولكن هذا لا يؤدى إلا إلى إزعاجها . »

« اذهب وأخبرها فوراً . »

« لقد كنت أخشى أن تطلب منى أن أهرب من ترمپاس . ولكنك تعلم أن هذا ليس فى وسعى . »

كان الاسقف يعلم ذلك كل العلم . فلم يسبق له فى جميع تجاربه فى هذه المجاهل أن صادف شيئاً كهذا . كذلك كان يعلم أن ترمپاس شر ، وأن الفرجينى خير . وأن لصوص الماشية أخذوا يزدادون عدداً وشهرة ، وأنهم كثيراً ما ساقوا ضعاف الشباب إلى الدمار ، وأنهم كثيراً ما ولوا رجالهم المناصب وأن لهم سلطاناً على المحلفين ، وأنهم خطر داهم يتهدد ويومنج . فلا شك أن قلبه كان مع الفرجينى . ولكن هناك أيضاً إنجيله الذى يبشر به ويؤمن به ، ويجتهد أن يحيا طبقاً لتعاليمه . فوقف ينظر إلى الأرض ، ويمر بإصبعه على حاجبيه ، وتمنى لو أنه لم يسمع شيئاً عن هذا كله . ولكنه لم يكن الشخص الذى يتهرب من تبعاته بوصفه خادماً مخلصاً للدين وللكنيسة فسأل الفرجينى فى تؤدة : « هل أنا على الحق إذا كنت واثقاً أنك حسن الظن بى ، وبإخلاصى ؟ »

– « ليس فى الأمر ظن ، إنى أعرف تماماً أنك رجل مخلص أمين . »

قال القس : « إذن فرأيى أن تهرب من ترمپاس . »

– « لا أظنى هذا عدلاً منك يا سيدى . كلنا ندرك أنك لا بد لك أن تفعل بنفسك تلك الأشياء التى توصى الناس بأن يفعلوها . فأفعالك مطابقة لأقوالك يا سيدى . أجل وإنك لتتكلم دائماً كلام الرجال . ومع ذلك فإنك لا تضع نفسك فوق مرتبة الآخرين . وتعرف كيف تسرج جوادك بنفسك . وقد رأيتك

تجول وأنت أعزل وسط الهياج لدى النهر الأبيض، عند ما كان اثنان من القسس يلهثان ويرتعدان من الخوف على حياتهم ، لعنة الله عليهما . »

بادر الأسقف بتوبيخه فوراً على ذكره اثنين من رجال الدين بهذه الألفاظ ، على الرغم من أنه لم يكن راضياً عنهما أو عن مذهبهما . ثم ختم عبارته بقوله : « ربما كان كل شخص أداة فى يد العناية الربانية . »

قال الفرجينى : « لئن صح هذا ، فإن العناية كثيراً ما تستخدم أدوات ، لا أستطيع ، لنجاستها أن ألمسها بعمود طوله عشرة أقدام . والآن ، لو أنك يا سيدى كنت فى مكانى ، ولم تكن أسقفاً ، هل كنت تهرب من ترمپاس ؟ »

قال الأسقف مبتسما : « هذا أيضاً ليس من العدل . لأنك تريد منى أن أستعير من رجل آخر آراءه ، ومع ذلك أظل محتفظاً بشخصيتى . »

— أجل يا سيدى . ذلك ما قصدت . إنه أمر محال، ولن يتسنى لك أولى أن نبلغ من هذا الأمر شيئاً . »

قال الأسقف : « لئن كان للكتاب المقدس — وهو الذى أؤمن به وبأنه كلام الله — بعض السلطان عليك . »

« إن الكتاب المقدس منزلته كبيرة عندى . وكثيراً ما وجدت فيه حقائق رفيعة . »

قال الأسقف مستشهداً بالكتاب المقدس : « لا تقتل ! أظن هذا واضحاً . »

فابتسم الفرجينى بدوره : « واضح لى يا سيدى كل الوضوح . فاجعله أيضاً واضحاً لترمپاس ، وفى هذه الحال لن يكون هنالك قتل . وغير هذا لا يجدى . »

واستشهد الأسقف مرة أخرى بالكتاب المقدس : « الرب يقول : أنا المنتقم وأنا المثيب . »

فقال الفرجينى : « إذن ما شأن الأدوات التى تتخذها العناية الربانية ؟ إن هذا كله لن يصل بنا إلى غاية . وإذا بدأت تستخدم الكتاب المقدس على هذا

النحو يا سيدى ، فسرعان ما يختلط الأمر عليك . »

قال القس محرضاً ، وقلبه الحار الكريم من وراء كلماته : « يا صديقى العزيز ، ارحل عن البلدة هذه الليلة فقط ، وسيغير فكره . »

فهز الفرجينى رأسه قائلاً : « إنه لن يغير كلماته التى قالها . أو على الأقل لا بد لى أن أمكث هنا حتى يغيرها. وقد تركت له الخيار. وقلما تجد بين الناس من يتقبل ما تقبلته منه اليوم فى تلك الحانة. فلماذا لا تسأله هو أن يبرح البلدة؟»

صار الأسقف فى حيرة من أمره . فإن أصعب الصعاب التى يصادفها رجل الدين ، هو اصطدامه بالغرائز البشرية .

قال الفرجينى : « إنك فى هذا قد ساعدتنى كثيراً ، وسأذهب لأخبرها ، أو على الأقل سأخبرها إذا آنست أن فى كلامى فائدة لها . »

فرأى الأسقف أن هنالك فرصة واحدة لإمكان التأثير فيه . وقال : « إنك بلغت التاسعة والعشرين ؟ »

قال الفرجينى : « وتجاوزتها قليلاً . »

« وكنت فى الرابعة عشرة عند ما هربت من أسرتك . »

«نعم ، لأنى سئمت رؤية إخوتى الكبار يتحكمون فى حركاتى وسكناتى ليلاً ونهاراً.»

« أعرف ذلك . وهكذا كانت حياتك ملكاً لك خمسة عشر عاماً . ولكنها الآن ليست ملكاً لك . فقد بذلتها لامرأة . »

« أجل وهبتها حياتى ، ولكن حياتى ليست كل شىء بالنسبة إلىّ . إنى أهبها حياتى مرتين ، بل خمسين ، بل ألف مرة — ولكنى لا أستطيع أن أهبها — لا هى ولا أى شخص فى الأرض أو فى السماء — ذلك الذى أعتز به وهو — وهو — هيهات لا أستطيع الإفصاح —وما جدوى الكلام ياسيدى؟ ، أستودعك الله . »

ثم قبض على يد الأسقف مصافحاً وغادره . فقال الأسقف : « الله يحفظه ، الله يباركه ! . »

* * *

فتح الفرجينى الحجرة التى كان يحفظ فيها بالفندق الخيمة والأغطية والسروج ، وغير ذلك من المعدات الكثيرة التى أعدها لرحلة العرس فى الجبال . ورأى الجبل من النافذة تكسوه زرقة المساء ، ولكن بعض أشجار الحور فى السهل الممتد دون الجبال ،لم تزل تبدو خضراء زاهية فى أشعة الشمس . فاستخرج من بين أمتعته مسدساً ، ومسحه وعمّره . ثم استخرج من قرابه المسدس الذى جربه فى الصباح وتأكد من سلامته . ودسه بين سرواله وقميصه كعادته عند ما يواجه خطراً . أما المسدس الآخر الذى لم يجربه بعد فوضعه فى القراب خلفه بحيث يكون ظاهراً . ونظر مرة أخرى من النافذة فرأى الجبال تكسوها الزرقة كما كانت من قبل ، أما شجر الحور فقد غابت عنه أشعة الشمس . وتجاوزته الظلال فى امتدادها . فقد انقضت خمس عشرة دقيقة من الأربعين ، قال : « إن الأسقف مخطئ . وليس من العقل أن أخبرها . » ثم التفت إلى الباب ، فى اللحظة التى دخلت فيها بنفسها . فصاحت لما رأته : « أوه ! » واندفعت نحوه . فجعل يسب ويلعن وهو يعانقها ويقول : « الحمق . يا ويل الحمق ! »

فأسندت رأسها على كتفه وقالت : « كان انتظارى لك مصدر إنزعاج شديد . »

قال : « ومن الذى نبأك بهذا ؟ »

قالت : « لست أدرى ، لقد أقبل شخص وأبلغنى الخبر . »

فقال وهو يلاطفها : « إن هذا من نكد الطالع . . أجل إن هذا من سوء الحظ . »

قالت : « لقد أردت أن أجرى لأبحث عنك . ولكنى لم أفعل . لم أفعل ، ولزمت غرفتى حتى أبلغت أنك حضرت . »

فقال : « إنه لجد عاثر . . يا له من حظ سيء ! »

قالت : « ولكن كيف غبت كل هذا الوقت ؟ على كل حال لا بأس ! فقد عدت إلىّ . وانتهى الأمر . »

قال ــ وقد امتلأ غيظاً وأسفاً : « كان يجب أن أدرك أن أحد الحمقى سيبلغك الخبر . »

قالت : « على كل حال لا بأس . فقد انتهى الأمر . » ثم شدت ذراعيها حوله لحظة ، ثم أطلقت سراحه . وقالت : « والآن ماذا سنفعل ؟ ! »

قال : « الآن ؟ لا شيء . » فنظرت إليه دون أن تفهم مرماه . فمضى يتكلم بهدوء . « إنى أعرف أن الخطب بالنسبة إليك أشد وأقسى . وذلك ما قدرته من قبل . »

فقالت ــ مرددة ما فاهت به من قبل : « ولكن لقد قضى الأمر . »

وفى هذه المرة كان هو الذى لم يفهم مرماها . فقبلها وقال : « هل ظننت أنه قضى الأمر ؟ لم يزل هنالك بعض الانتظار ، ولكم وددت لو أنك لاتنتظرين وحدك ، ولكن الأمر لن يطول . » وكان مطرقاً برأسه فلم ير السعادة فى محياها ، تستحيل إلى جمد ، ثم تتحول إلى رعب وحدة . فقال : « بذلت غاية جهدي . أظن أنى ذهبت إلى أبعد مدى . فتركته يقول لى أمام الملأ كله ما لم يقله وما لن يقوله أحد . فجعلت أفكر فيك بكل شدة ، وبكل قوتى ، ولولا ذلك لكنت جديراً بقتله فى تلك اللحظة . أعطيته الحرية لكى يغير رأيه ، وقلت ذلك مرتين ، وكنت أكلمه بهدوء كما أخاطبك الآن . ولكنه أصر . وأحسبه يعلم أنه أسرف فى الكلام على مسمع من الجميع ، فلا يستطيع أن يتراجع عن تحديه . ولا بد له الآن أن يمضى إلى النهاية »

فردت فى صوت خافت : « النهاية ؟ »

قال : « نعم ! » وكان صوته فى غاية الرقة .

فحدقت فى وجهه وقالت : « ولكن ــ أأنت ؟ ؟ ــ » وكان عجزها عن تكوين ألفاظها واضحاً .

قال : « إنى قد اتخذت أهبتى ، فهل تبادر إلى خاطرك ــ ما الذى خطر ببالك ؟ »

فتراجعت خطوة إلى الوراء : « ما هذا الذى تنويه ؟ » ثم وضعت كلتا يديها على رأسها وصاحت فى ألم : « رباه . أتريد أن تذهب ؟»فخطا خطوة نحوها ، وكان ينوي تطويقها بذراعيه ولكنها تراجعت نحو الحائط وهى تحدق فيه دون أن تتكلم .

فقال بسرعة : « إنى لن أدعه ليقتلنى . »

قالت : « أتعنى بهذا أنك — من الممكن أن تأتى لنذهب بعيداً ، لم يزل فى الوقت متسع . وفى وسعك أن تذهب حيث لا يصل إليك . والكل يعرف أنك شجاع ، ما الذي يعنيك من أمره . إنك تستطيع أن تتركه فى هذا المكان . وسأذهب معك حينما تشاء ، إلى أى منزل ، أو إلى الجبال ، أو أى مكان بعيد ، سنغادر هذا المكان الكريه معاً . . ثم . . . ثم — إنك لا تصغى إلىّ ! » ومدت يديها حوله قائلة : « ألا تصغى إلىّ ؟ »

فأمسك يديها وقال : « واجبى أن أمكث ها هنا . »

فاشتد قبضها على يديه وقالت : « لا . لا . لا . إن هناك أموراً أخرى . هناك أمور أفضل من سفك الدم عن عمد . فكر فقط فى معنى هذا . . فكر فى أنك ستذكر هذا الأمر دائماً . إن هذا ما يشنق الناس من أجله . إنه جريمة القتل . »

فألقى بيديها من يديه وقال فى جد : « لا تسميه بهذا الأسم ! »

قالت — كأنها تحدث نفسها كمن استولى عليه ذهول : « إنك تفعله باختيارك . وتستعد له بمحض إرادتك . »

فأجابها الفرجينى : « إنه هو الذى اختار ؛ أنصتى إلىّ ! هل تسمعين كلامى ؟ » وقد رأى فى نظرتها جموداً .

فهزت رأسها إيجاباً . فقال : « إنى أشتغل فى هذه البلاد . وهى الوطن الذى أنا تابع له ، بل هى حياتى . فإذا أصبحت فى نظر القوم جباناً »

« من الذى سيظنك جباناً ؟ »

« الجميع . إن أصدقائى سيحزنون ، ويحسون العار . وأعدائى سيطوفون بالبلاد ويقولون إنهم طالما قالوا ذلك . لن أستطيع بعدها أن أرفع رأسى أمام العدو أو الصديق . »

— « حتى لو أوضح لهم الأمر ؟ »

— « لن يكون هنالك ما يستدعى الإيضاح ! إذ كل ما هنالك هو الحقيقة والواقع » . وكاد أن يستولى عليه الغضب .

قالت الفتاة ابنة انجلترة الجديدة : « إن هنالك شجاعة أعظم من الخوف مما يقوله الناس . »

فنظر إليها حبيبها ابن الجنوب وقال : « من المؤكد أن هناك شجاعة كما تصفين . وهى الشجاعة التى أبديها لك الآن بخروجى عن رأيك . »

« ولكن إذا كنت تعلم أنك شجاع ، وكنت أعلم أيضاً أنك شجاع . فماذا يهمنا ما يراه الناس جميعاً ؟ ألا تكون بسالتك أجل وأعظم ، إذا كنت تسير فى طريقك ، غير ... »

فقاطعها بقوله : « إنى سائر فى طريقى . ألا تستطيعين أن تدركى ما الذى يجب على رجل أن يفعله ؟ إن هذا الذى أنا مقدم عليه ليس من أجل الأصدقاء أو الأعداء . إذا حدث يوماً أن وصفنى رجل بأنى لص سارق ، وسمعت بهذا ، فهل أدعه لينشر هذه الفرية فى طول البلاد وعرضها ؟ أما لكرامتى علىّ حق يجب أن أؤديه لها ؟ وهل يكفى أن أجلس فى ركن ألاطف كرامتى وأطيب خاطرها ، وأقول لها : « لا تحزنى ! فإنى واثق أنك لست من اللصوص » . ؟ كلا إن هذا لا يكفى ولا يغنى فتيلاً . إن ما يفتريه الناس علىّ وعلى كرامتى ليس بالأمر البعيد الذى لا يمسنى بسوء . فإن تركى إياهم يقترفون هذا الإثم دليل قاطع على أنى لا أعرف لكرامتى قدرها ، فلا أحميها من عدوانهم ، ولا ألحق بهم الجزاء الرادع الذى يستحقونه . وما أحقر الرجل الذى يكون هذا شأنه ! »

فعلا وجهها الشحوب ولم تجب . فقال : « ألا تستطيعين أن تدركى ما

يجب على الرجل أن يفعله ؟ »

فأجابته بصوت غريب كأنه ليس صوتها . وقالت : « كلا لا أستطيع ، وليس فى وسعى أن أدرك معنى للقتل يقدم عليه المرء فى هدوء وبرود . إنى لما سمعت بما حدث فى الخريف الماضى — من قتل أولئك اللصوص الذين يسرقون الماشية ، جعلت أقول لنفسى لقد كان مكرها على هذا الأمر لأنه واجب فرضه المجتمع . وأقنعت نفسى — فى ليالى السهاد التى سهرتها — إن ويومنج بلد يختلف عن فرمنت . أما هذا الأمر الذى أنت مقدم عليه — » وهنا اعترتها رعدة « إنى كلما فكرت فى الغد ، وفى أمرك وأمرى وفى — إنك إن فعلت هذا ، فلن يكون هنالك غد لى معك . »

وعند ما فاهت بهذه الألفاظ ، علا وجهه الشحوب أيضاً . وقال : « أتعنين ؟ — » ولم يستطع أن يتم سؤاله . ولم تستطع هى أيضاً أن ترد عليه بكلمة بل حولت وجهها عنه .

فسألها مرة أخرى : « أيكون هذا هو نهاية ما بيننا ؟ »

فهزت رأسها هزة عنيفة خفيفة بما يفيد الإيجاب .

فوقف جامداً ويده ترتعد قليلاً . وتكلم بعد لأى متمتماً : » هل لك أن تنظرى إلى وتعيدى ما قلته ؟ » ولما لم تحرك ساكناً قال : « هل لك أن تفعلى ذلك ؟ »

وقد استطاع برقته أن يجعلها تلتفت إليه . ولكنه لم يستطع أن يؤثر فى تصميمها . فلم تزد على أن ألقت عليه نظرة تنم عما تحس به من القنوط .

فقال : « إذن هل قضى الأمر حقاً ؟ »

فحاولت أن تحرك شفتيها بالألفاظ ، فلم تستطع .

فنظر من النافذة إلى الخارج ، فلم ير إلا ظلاماً سائداً . وقد استحالت الزرقة التى كانت تغشى الجبال إلى لون بنفسجى قاتم . فقبض يدها فجأة قبضة شديدة وقال : « إذن أستودعك الله ! »

فعند ما سمعت هذه الكلمة خرت على قدميه وأمسكت بساقه وقالت تسترحمه : « من أجلى ؛ من أجلى ! »

فسرت رعدة من أول جسمه إلى آخره وأحس بها فى ساقه وهى قابضة عليها ، ورفعت بصرها إليه ، فرأته قد أغمض عينيه على حزن عميق . ثم فتحهما فقرأت فى نظراتهما الثابتة أبلغ الرد على سؤالها . وانحنى ففك يديها عن ساقيه ورفعها حتى وقفت إزاءه ، وقال : « لم يعد لى الحق فى أن أقبلك . » وقبل أن يتمكن غرامه من أن يثنيه عن عزمه ، اندفع إلى الخارج وبقيت وحدها .

فلم تسقط ، ولم تترنح ، بل وقفت جامدة ومضت فترة من الوقت — بدت كأنها لحظة وبدت أيضاً كأنها دهر طويل — ثم سمعت طلقة نارية بعيدة ، ثم طلقتين . ورأت من النافذة الناس ، وقد أخذوا يعدون . فانطلقت عندئذ نحو غرفتها . وألقت بنفسها على أرضها ، ووجهها إلى أسفل .

* * *

كان ترمباس قد انطلق من الحانة ، إلى عزلته تاركاً وراءه الانذار الذى أصدره . وكان ما هدد به وتوعد علناً وبصوت جهورى قد عرفه جميع سكان البلدة ، ولا يلبث أن يعرفه جميع سكان المقاطعة . فيحمله الفرسان معهم إلى المنازل النائية فى المجرى الأعلى والأسفل للنهر . وإذا أظلم الليل حملته مركبة السفر إلى الجنوب لتذيعه . وتذيع ما ترتب عليه من نتائج . إذ لا بد أن ينتهى كل شى قبل أن يظلم الليل . فالنهاية آتية بعد مضى خمسة أعوام ، وهى آتية قبل أن يظلم المساء . لقد استيقظ ترمپاس فى الصباح وليس لديه مثل هذه النية . وعند ما حاول أن يتذكر صباح ذلك اليوم ، بدا له غريباً ، نائياً ، بعيد المنال . ثم جعل يفكر كيف تناول طعام الفطور . وكيف يتناول عشاءه هذا المساء . لأن العشاء سيأتى فيما بعد ، وقد أخذ الكثير يتناولون عشاءهم ؛ إذ ليس أمامهم أمر كهذا الذى أمامه . فضاق صدره وأحس بالبرودة تسرى فى جسده ، عند ما

فكر فيهم ، وهم ناعمون مستريحون وبين أيديهم الصحاف وأقداح القهوة .

ونظر إلى الجبال ورأى الشمس لا تزال فوق المرتفعات . والظلال تمتد من سفوحها . وأحس وراءه ذلك الصباح الذى فارقه إلى غير رجعة . فكان يراه بوضوح . وكأن خواطره أذرع مدها ليلمسه بها ، لكى يشعر أنه يعيش فى ذلك الصبح مرة أخرى . أما الليل الذى يوشك أن يغشاه فلم يكن يراه . ولم ترد عيناه وفكره أن تتصوره ، لقد أمهل عدوه حتى مغرب الشمس . وهيهات له الآن أن يتراجع . وقد جعل يتذكر لقاءهما الأول منذ خمس سنين فى ملسن بو ، والعبارات التى قيلت فأثارت كراهيته . ولعلها أثيرت قبل أن تقال كلمة ، وبمجرد أن التقت عيونهما . فإن كل شخص غريب نلقاه ، يطل من عينه إما صديق أو عدو ، ولا نلبث أن نتبينه . ولكن كيف استطاعت خمسة أعوام من الكره والبغضاء أن تسوقه اليوم فجأة إلى هذا المأزق ؟ صحيح أنه قرر منذ الخريف الماضى أن يثأر من هذا الرجل ، الذى كان يعترض كل مشروع من مشروعاته الشريرة ، ويسلبه ثمرة إجرامه . ولكن كيف دفعه التورط إلى اختيار هذه الوسيلة للثأر من عدوه وجهاً لوجه . إنه يعرف طرقاً عديدة أخرى أحسن من هذه . والآن قد وقع فى شرك تهوره وتسرعه . فأصبحت كلماته بمثابة أبواب أوصدت أمامه جميع السبل ، إلا سبيلا واحداً ، وهو أن ينفذ تهديده حرفياً مع وجود شهود يرونه وهو يقوم بالتنفيذ .

نظر ترمپاس مرة أخرى إلى الشمس والظلال ، ولم يزل أمامه فسحة من الوقت حتى الغروب . وهكذا كان قلبه وإحساسه بالكمد سبباً فى قلب الأوضاع . فصار هو الذى يحسب مقدار الفسحة من الوقت التى بقيت له ، ولكنه لم يجرؤ أن يبرح البلدة أمام أعين العالم ، بعد أن سمع العالم كله تهديده ووعيده . إن أصدقاءه أنفسهم سيهجرونه بعد عمل كهذا . هل يمكنه أن يضرب ضربة قبل الموعد المحدد ؟ لقد خطر له فعلا هذا الخاطر . ولكنها كانت فكرة عديمة الجدوى . فلئن استطاع أصدقاؤه أن يتقبلوه بعد عمل كهذا ، فإن أعداءه

سيتصيدونه ، ويصبح دمه هدراً . وهكذا آخذ الشرك الذى نصبه ينطبق عليه .

خرج إلى الشارع الرئيسى . ورأى الفرجينى على مسافة منه يتحدث إلى الأسقف ، فأخذ يتسلل بين المنازل ، وهو يلعن الأثنين . وقد أفادته رؤيتهما ، لأنها بعثت فى قلبه اليائس بعض حرارة الغضب — فمضى إلى بعض الحانات وتناول بعض الوسكى .

فقال له صاحب الحان : « لو أنى فى مكانك لما شربت كل هذا القدر . » غير أن أعصاب ترمپاس كانت من الاضطراب بحيث لا تتأثر بالسكر . فتناول مقداراً آخر ، ثم خرج . فلم يلبث أن ألتقى ببعض رفقائه من لصوص الماشية فمشى معهم قليلاً . فقالوا له : « لن يطول الانتظار كثيراً الآن . » ولعله لم يسمع فى حياته كلمات أشد وقعاً من هذه الكلمات . ومع ذلك فقد جاهد نفسه حتى رد عليهم وقال : « كلا ، لقد أزفت الساعة . » وقد هاله ما أبداه كل منهم من البشاشة والارتياح ، حتى كاد قلبه أن يتحطم لذلك . واقترحوا عليه أن يشربوا نخب نجاحه . فمشى معهم إلى حانة أخرى ، فلم يكد يدخلها حتى ارتاع إذ رأى رجلاً متكئاً على البار . ولاحظ رفقاؤه ارتياعه. ثم تبين له أن الرجل شخص غريب لم يسبق له أن رآه من قبل . فقال : « لقد حسبته قصيراً . » وكاد أن يعض لسانه حتى يقطعه . فقال له أحد رفقائه : « إن قصيرا فى مرقده الهادئ فى جبال التيتون . ولا حاجة به لأن تفكر فيه . فى صحتك ! »

وربتوا على ظهره . فتركهم ومضى يفكر فى عدوه وفى البغض الشديد الذى يضمره . وقد امتلأ صدره غماً وغيظاً كأنه جواد فاشل. وإن تكلف المشى بقوة مبدياً شجاعة مستمدة من الشراب الذى تجرعه . ورأى على مقربة منه رجلا يمشى مع زميليه ماكلين وسپيو . وكانوا يراقبون البلدة حذراً من أن يقوم أصدقاء ترمپاس بخيانة .

قال وجن : « إننا سنخلى لك الميدان . »

قال ماكلين : « لن يكون فى هذا السباق غش أو تدليس . »

قال سپيو : « وسنراك فى نهاية السباق . »

ثم غادروه . وهو لا يكاد يتصور أنهم أناس حقيقيون من لحم ودم .

وأخذ ترمپاس يتأمل فى الجدران ونوافذ المنازل . أهذه كائنات حقيقية ؟ وهل هو نفسه الذى يمشى فى هذا الشارع ؟ كان ينظر إلى كل ناحية ، ويحس فى كل مكان شيئاً ، لم يكن يدرى ما هو . ثم أدرك أنها الشمس التى اختفت تماماً وراء الجبال . فأخرج مسدسه من جيبه .

رأى الفرجينى أن يحتاط فلا يخرج من الباب الأمامى للفندق ، ومشى من الطرق الخلفية ، وتوقف فى مشيه مرة ، فأحس بخاتم الزواج ، الذى علقه فى عنقه بسلسلة ، متدلياً على صدره ، فرفع يده إليه وخلعه وجعل ينظر إليه ، ثم استخرجه من السلسلة وحرك ذراعه إلى الوراء لكى يلقى به إلى أبعد مسافة ممكنة . غير أنه أحجم عن ذلك ، وقبل الخاتم متنهداً وألقى به فى جيبه . ثم مشى فى الدار يترقب ، ورأى رجالا فى مختلف الأرجاء ، فكانوا يدعونه يمر دون أن يخاطبوه بكلمة ورأى أصدقاءه الثلاثة ، وهم أيضاً لم يوجهوا إليه كلمة ، ولكنهم تعقبوا خطاه من بعيد ، إذ كان معلوماً للجميع أن قصيرا قد قتل برصاصة من الخلف . غير أن الفرجينى لم يلبث أن اتخذ لنفسه مكاناً لا يستطيع أحد أن يهاجمه فيه إلا من الأمام . وقد تجنب منظر الجبال إذ لم يعد يطيق رؤيتها . فقد كان معتزماً أن يبدأ رحلة عرسه غداً من تلك الجبال بالذات .

وسمع نفسه يقول : « مضى وقت غير قليل على غروب الشمس . »

ثم أحس كأن ريحاً انتزعت كمه عن ذراعه ، وأنه قد رد عليها بالمثل ، ورأى ترمپاس يتساقط أمامه . ثم رآه يرفع ذراعه من الأرض ، ثم يسقط مرة أخرى ، وفى هذه المرة بقى راقداً بلا حراك . وكان الدخان لا يزال يتصاعد من المسدس الملقى على الأرض ، فنظر إلى مسدسه فرأى الدخان يتصاعد منه أيضاً .

قال : « أظن أنه قضى الأمر . »

ولكنه عندما اقترب من ترمپاس كان يسدد مسدسه نحوه ، فوقف لحظة إذ

رأى يد الصريع تتحرك ، ورأى إصبعين من أصابعه تتشنجان ، ثم سكنا . فإن الأمر قد قضى حقيقة . ووقف الفرجينى يطل على ترمپاس .

وتكلم بصوت مرتفع فقال : « لقد أصابت الرصاصتان اللتان أطلقتهما . أما رصاصته فكادت بلا شك أن تحطم ذراعى. لقد قلت لها إنى لن أكون المصاب.»

وكاد ألا يشعر بالجمع الذى التف حوله يهنئه . وأحس بيد تصافحه ، وكانت يد سپيو ودمع الفرح يقطر من عينيه . فأثار هذا الفرح عميق أحزانه فكاد أن يبوح لأصدقائه بمكنون سره . لكنه لم يفعل .

وقال : « إذا جاء أحد فى طلبى من أجل هذا ، فإنى فى الفندق . »

قال سپيو : « من الذى يطلبك من أجل هذا ، لقد رأيناه ثلاثتنا يجرد مسدسه أولاً . » ثم قال مبدياً إعجابه : « لقد كنت فى غاية الهدوء . رفى غاية السرعة . »

قال الفرجينى بحزن : « سأراكم بعد ، أيها الرفاق . » وغادرهم ومضى لسبيله .

فنظر إليه سپيو مندهشاً وقال ، لرفيقه ماكلين : «إنه يبدو وكأنما نزلت به كارثة . »

مشى الفرجينى إلى الفندق ، ثم وقف على عتبة باب حبيبته . وكانت سمعت صوت خطواته ، ونهضت واقفة . ونظرت إليه وقد انفرجت شفتاها ، وحدقت فيه ، ولكنها لم تتحرك ولم تتكلم .

قال : « رأيت من الواجب أن تعرفى . أنى قتلت ترمپاس . »

فصاحت : « الحمد لله ؛ » وارتمت بين ذراعيه . ودام العناق طويلاً لا يتخلله كلام . أما ما تهامسا به بعد ذلك خلال القبلات فليس بأمر ذى خطر .

هكذا ظل ضميرها ــ بمبادئه التى نشأ عليها فى إنجلترة الجديدة ــ يحارب إلى النهاية ، ثم استسلم فى النهاية لسلطان الحب . وفى اليوم التالى ارتحل الفرجينى بعروسه إلى الجبال ، بعد أن باركهما الأسقف ، وابتسمت لهما مسز تيلر ابتسامة ضخمة ، وقد لبست العروس ــ بعد لأى ــ خاتم الزواج .

## ٣٦

# فى دنبارتن

اختار الفرجينى جزيرة وسط نهر متدفق ، لتكون أول معسكر فى رحلة عرسه . وقد فكر فى هذا المكان قبل ذلك اليوم بأسابيع عديدة ، وصادف هوى فى نفسه . وبعد أن استقر رأيه على هذا ارتسمت صورة المكان فى ذهنه ، لا تكاد تبرحه فى يقظة أو منام . وقد أقام بالجزيرة من قبل مراراً ، فى جميع فصول السنة ولكنه كان يفضلها فى هذا الوقت من السنة . وكثيراً ما كان يطيل رحلته بلا مسوغ ، لكى يصل فى نهاية يومه إلى هذا الموضع . ويتعشى بما يصيده من سمك النهر بالقرب من صخرة يعرفها . ثم يستسلم للرقاد ، وهو منصت لخرير الماء عن جانبيه .

كانت هذه الجزيرة فى نظره هى أول مكان يظهر فيه عالم الجبال فى صورته الحقة . فهنا يصادف أول شجر الصنوبر . وهنا ينمو الأقاح الجبلى فى ظل الصنوبر . وكان يخيل إليه أنه لا يستنشق هواء الجبال المنعش العطر إلا بعد أن يبلغ هذا المكان ؛ ففى المنحدرات التى دونه لم يكن هنالك سوى شجر الحور ، والحشائش التى تكسو الربا والآكام الوعرة ، وهواء السهول الحار . أما هذا المكان فهو نقطة التحول لا محالة . فكان عليه أن يستحث جواده فى صعوده من الجهات السفلى وهوائها إلى الجهات العليا ، فيتحدث إليه بصوت عال ويعده بالمرعى الخصيب بعد قليل . حتى إذا وصل بعد لأى وأمسى محاذياً للصنوبر القائم على الجزيرة ، عبر النهر إلى معسكره الأمين ، حيث يلقى بسرجه وأغطيته عن ظهر الجواد المكتسى عرقاً . ثم يخلع ثيابه هو أيضاً ، ويثب على ظهر جواده العارى ، وهو يصيح مرحاً ، ويقوده — وقد ألجمه حبلاً — إلى المرعى الذى وعده

به . وهو عبارة عن بقعة سهلة منبسطة وسط المنحدرات ينمو فيها العشب كثيفاً غزيراً . وبعد أن يصل بجواده إلى هذه البقعة يترجل عنه ويضربه بيده ضربة يرن صداها وسط الهدوء الشامل ، فيندفع الحصان فى عدوه ومرحه ، ينعم بالحرية التى أتيحت له الليلة ، فيتمرغ ما شاء فوق الأعشاب ؛ وكثيراً ما كان صاحبه يتمرغ مثله ويقبض على العشب بيديه فيجر جسمه فوقه ، وبذلك يروض عضلاته بعد الركوب الطويل . ثم يذهب إلى مكان فى النهر بالقرب من النقطة التى يصيد منها ، حيث يبلغ الماء عمقاً يسمح بالسباحة ، ثم يعود إلى معسكره فى الجزيرة ، فيلبس ثيابه ويُعد أداة الصيد . وبعد أن ينتهى من صيده وعشائه ، يضطجع فى كسل وتراخ ، مسنداً رأسه إلى سرجه ، يراقب النار وهى تنطفىء شيئاً فشيئاً ، ثم لا يلبث أن يداعب النوم عينيه ، وخرير الماء يحف به عن جانبيه .

لقد تعددت زياراته لهذه الجزيرة ، وقضى الساعات الطويلة ينعم بأحلامه فيها حتى بات يعدها ملكاً خالصاً له ؛ فإنها لم تكن ملكاً لأحد ، لموقعها النائى وسط إقليم منعزل بكر لم يمسسه العمران . ولم يرض يوماً أن يعسكر هنا إنسان آخر ، أو يشاركه أحد تلك البهجة والغبطة التى يحس بها فى هذا المكان . ولهذا رسم خطته منذ أسابيع على أن يأتى بها إلى هنا بعد الزفاف ، بل فى يوم الزفاف نفسه . حتى تقاسمه دوح الصنوبر والصخرة المشرفة على النهر ، التى اعتاد أن يصيد السمك منها . ويطلب منها أن تنشق عبير الجبال الحقيقى لأول مرة . ويراقب معها النار وهى تنطفىء بالتدريج فى موقد المعسكر ، ثم ينصت معها إلى خرير الماء المتدفق حول الجزيرة .

لم يخطر له يوماً قبل رسمه الخطة لعرسه ، أن الجزيرة قد استولت على لبه إلى هذا الحد . كان يعرف أنه يحب الاختلاف إلى المكان منفرداً لا يصاحبه أحد . ولكنه لم يتبين حبه الشديد لهذه البقعة ، إلا بوساطة حبه الشديد لعروسه ، فلم يكن من رأيه أن يحلل نفسيته ومشاعره وعواطفه ، اللهم إلا إذا كان هنالك عمل يتطلب ذلك ، ومع هذا فإنه لم يقل لها شيئاً عن ذلك المكان ، وبعد أن رسم

الخطة للذهاب بها إلى هناك ، أخفى الخبر عنها حتى تراه بعينيها لأول مرة ؛ لأن التطلع لرؤيتها قد يدفعها إلى توقع شيء أروع من الحقيقة .

وهكذا ركبا يوم الزفاف ، وابتعدا عن البلدة ، حتى بدت منازلها خلفهما كأنها نقط تخفى وتظهر . فلما اقتربا من سفوح الجبال أخذت توجه إليه بعض الأسئلة . وقالت إنها ترجو أن يكون معسكرهما فى مكان ناء عن البلدة ، ولو اقتضى الأمر أن تركب كل ما يتطلبه هذا من الأميال . فهى لا تحس أى تعب . أليس الأوفق أن يتابعا السير حتى يجدا مكاناً قصياً فى معزل عن كل شىء ؟ وهل وقع اختياره على مكان ما ؟ . . . وجهت إليه هذه الأسئلة . فلما لم تحظ منه برد سوى الصمت والايماءة بالرأس أدركت أنه كان يضمر أفكاراً ونيات لا بد لها أن تنتظر حتى تنكشف لها .

لم يلبثا أن اخترقا تلال السفح ، متبعين مجرى النهر ، الذى يخترقها ، وقد خلفا وراءهما التراب والسياج الذى يحيط بالمزارع . ومن آن لآن كانا يصلان إلى نقطة يشرفان منها على السهول والبيوت الممتدة فوق السهول . ولكن بمضى الساعات وتتابع الأميال ، سرهما أن أصبح سيرهما فى طريق لم تطأه الأقدام كثيرا ، وأن آثار الناس أخذت تختفى عن العيون . وكأن الحقول المحروثة المزروعة ، وغلاتها المتعددة الألوان التى شاهداها بالأمس ، وقد أصبحت فى عالم غير هذا العالم الذى يركبان فيه الآن. فهذه الأزهار الصفراء اليانعة ، وخمائل الصفصاف ، وشجر الحور المحلق فى الهواء ، لم تغرسها يد سوى يد الطبيعة . ولم تلبث آثار المركبات ذات العجلات أن اختفت وسط الصخور الحمراء ، وبعد ذلك أصبح الطريق ، مسلكاً من مسالك الجبال الوعرة . غير أن الهواء الذى كانا يتنفسانه لم يزل هو هواء السهول الدافىء يحمل رائحة الحشائش لا عبير الصنوبر . كذلك لم تصادفهما بعد غابة تغطى المنحدرات السمراء التى كانا يركبان وسطها . وقد اضطر إلى أن يترجل مرتين لكى يحكم ربط حبال الخيل التى تحمل الأمتعة ، بعد أن تفككت بسبب وعورة الطريق ، وذلك حتى لا تتأذى ظهورها بما

تحمله . وقد تحول مجرى النهر الذى يتبعانه إلى خانق عميق فى موضعين ، بحيث اضطرا إلى الابتعاد عنه . ولما عادا إليه للمرة الثانية لفت نظرها أن ماءه قد أصبح صافياً تماماً . وقد خيل إليها من قبل أن ماءه كان صافياً فى السهل الذى يلى البلدة . ولكنها لاحظت الآن أن لتدفق الماء لمعاناً وبريقاً . فأدركت أن التربة قد استحالت إلى تربة الجبال ، فإن الماء فى المجرى الأسفل يحتوى بعض القلويات ، التى تكسب لونه الشفاف بعض الكدرة . وقد أحاطت بهما الآن العزلة التامة ، حتى صار كلامهما نزراً . فإذا تكلما كان حديثهما بصوت خافت . وجعلا يمران فى طريقهما بأركان هادئة تصلح للتعريس . وبالقرب منها الماء والحطب والمرعى اللازم للخيل . وقد صادفهما مثل هذا المكان غير مرة ، وخطر لها أنه لا شك سيتوقف هنا ، ولكنه مضى راكباً أمامها ( وذلك بسبب ضيق الطريق ) إلى أن جذب عنان جواده ، ولم تكن تتوقع ذلك . ثم أشار بيده .

فسألته فى تردد : « ما هذا ؟ »

فأجابها : « دوح الصنوبر »

فنظرت فأبصرت الجزيرة والماء يلتف من حولها ، متدفقاً تارة ، ومنبسطاً ناعماً تارة أخرى . وقد أرسلت شمس المساء على أغصان الصنوبر ضياء ذهبياً يخالطه احمرار ، وقد أرسلت صخرة الصيد ظلاً وارفاً على خليج صغير من الماء الهادئ له شاطئ من الرمل الناعم . وقد انبسط المرعى وسط وهج الأصيل ، كأنه صفحة من الزمرد . لأن يد الصيف الجافة لم تمسسه بعد . وأشار بيده إلى الجبال العالية ، وقد ازداد قربها منها ، وأراها الموضع الذى يخرج فيه النهر من بين ثنياتها وقال : « غداً سنكون وسطها »

فقالت بصوت خافت : « إذن سنقضى الليلة ها هنا ؟ »

فاكتفى بإيماءة من رأسه رداً عليها . فأخذت تحدق فى الجزيرة وقد أدركت السر فى أنه لم يتوقف من قبل . فإنهما لم يمرا بشيء يقرب من هذا المكان روعة وجمالاً .

وكان فى الطريق هنا متسع لأن يركبا جنباً لجنب ، فسارا جنباً لجنب إلى موضع العبور واجتازا النهر إلى البر المقابل ، يسوقان خيل الأمتعة أمامهما ، حتى وصلا إلى المكان الآمن الذى اعتاد أن يعسكر فيه . فساعدها على الترجل فى موضع مغطى بأوراق الصنوبر الغضة . وأحس كلاهما برعشة تسرى فيه ، وقفت لحظة مخفية وجهها على صدره . ثم أخذت تجيل الطرف فى الشجر الباسق . والشاطىء الهادىء والنهر الدافق ، وسمعها تشير بهمس إلى روعة المكان وجماله .

فقال لها — وهو لا يزال يمسكها : « إن سرورى عظيم . إن هذا ما كنت أحلم به ، ولو أنه يبدو الآن أعظم من أحلامى . » وازدادت اقتراباً منه وهى صامتة فقال : « لقد صح عزمى على أن نشهد أول غروب للشمس هنا ، وأول شروق لها . »

وقد أرادت أن تساعده على رفع الأمتعة على ظهور الخيل ، وأن تشاركه فى إعداد المعسكر ، وأن تقوم بنصيبها فى إيقاد النار وطهو الطعام . وأخذت تذكره بوعده السابق بأن يعلمها كيف تعقد الحبال لربط الأمتعة على الخيل ، وكيف تفكها . وكيف يحكم ربط السرج على ظهور الخيل التى تحمل الأمتعة ، وكيف ينصب الخيمة . فلماذا لا تتلقى درسها الأول الآن ؟ غير أن فى المستقبل متسعاً للوفاء بما وعد . أما هذا المساء فلا بد له أن ينفرد بالعمل . واقترح عليها أن تذهب حتى يتم إعداد المخيم لهما ، وأن تقوم بارتياد الجزيرة سيراً على الأقدام أو أن تركب جوادها إلى المرعى ، حيث تتمكن من مشاهدة الجبال المحدقة بالمكان ، وكيف يحيطان به فى شبه دائرة محكمة .

وقال لها : « إن العالم كله بعيد عن هذه البقعة » فأطاعت نصحه ، وانطلقت تجول فى أرجاء مخبئهما هذا . وقد أخبرها ألا تعود حتى يناديها .

ولم تكد تذهب حتى بادر فوراً برفع الأمتعة والسروج عن الخيل ، وأرسلها لكى ترعى فى المرعى المقابل للجزيرة ، وبدأ بالخيمة فنشرها ، وقد سبق له مراراً

أن تخيل المكان الذى يجب أن تضرب فيه . وكيف يبدو منظرها ، بلونها الأبيض ، تحت ظل الصنوبر الأخضر ، الذى يحيط بها . وكانت الأرض هنا منبسطة ناعمة ، خالية من الأحجار والجذور . يغطيها ورق الصنوبر المتراكم كأنه بساط وثير . واذا هبت ريح أو تساقط مطر ، فإن الأغصان متشابكة فوقهما ، ومن حولهما فى ثلاث جهات حواجز من الصخر العالى والنبات الغليظ . وأعد الأوتاد للخيمة ، ثم نصب عمودها الأمامى ، وثبت الحبال والأطناب ، بعضها فى الثرى والبعض مربوطاً إلى جذوع الصنوبر . فلما أمكن للحبال المشدودة أن ترفع الخيمة إلى العلو الملائم ، أخذ يثبت أطرافها بالأوتاد من الجانبين ومن الخلف ، تاركاً الجزء الأمامى مفتوحاً حتى يستطيعا أن ينظرا إلى موقد النار وإلى جزء من مجرى النهر . واقتطع طائفة من أطراف أغصان الصنوبر الغضة ونشرها فوق أرض الخيمة ، ليجعلها وثيرة لينة ، ثم فرش من فوقها جلد الجاموس والبطاطين ، وعند رأس الفراش وضع الحقيبة التى تشتمل على أمتعتها . أما أمتعته فقد وضعها فى الخارج تحت شجر الصنوبر بعد أن نصب لها وقاء من القماش . وبنى للنار موقداً بحيث يتصاعد منه الدخان بعيداً عن الخيمة والشجر ، ووضع بالقرب منه أدوات الطبخ والمؤونة والزاد . ولم يلبث أن أعد عشاء هما الأول ، فى نور الشفق . ومع أنه أحضر معه الكثير من الزاد ، فإنه اصطاد فى عشر دقائق مقداراً كبيراً من سمك النهر . فلما حضرت أخيراً على ظهر جوادها ، استجابة لندائه ، لم يبق لها ما تفعله سوى أن تجلس وتطعم من المائدة التى أعدها . وجلسا معاً بعد العشاء يرقبان البقية الباقية من وهج الشفق ، وكيف يزحف الليل فى تؤدة ورفق . ولم يلبث ما تبقى من نور النهار أن زال من السماء . وحل محله لون بنفسجى قاتم ، وأخذت النجوم الأولى تظهر وسطه بالتدريج ، وبينها مسافات واسعة . وقد رأيا هذه المسافات تمتلىء شيئاً فشيئاً بالمزيد من النجوم والكواكب. على حين ازدادت النار بالقرب منهما التهاباً واشتعالاً فى ظلام المساء . وبعد ذلك أرسلها إلى الخيمة ريثما قام هو بغسل الأوانى ، وتعهد الخيل ليتأكد أنها لم تذهب بعيداً عن المرعى .

ثم عاد إليها بعد أن دجا الليل تماماً . وقد تم كل شيء طبقاً لما تصوره خياله من قبل ؛ دوح الصنوبر تكسوه أشعة الشمس الغاربة ، والموقد تخبو فيه النار قليلاً قليلاً ، وصوت الماء الآن وهو يتدفق بخريره على شواطئ الجزيرة .

كان باب الخيمة متجهاً نحو الشرق ، وقد نظرا منه أول شروق للشمس يطلع عليهما معاً . وقد صور له خياله هذا الصباح أيضاً ؛ والانتباه المبكر ، وخرير الماء الذى لا ينقطع . ومنظر النهر المتدفق والإحساس بأن العالم بمنأى عنهما . هكذا تحقق ما كان يتصوره ، سوى أنه قال لها : « إن هذا يفوق أحلامى . »

ثم رأيا ضياء الشمس يشرق على قمة كثيب ، ثم لم تلبث الشمس نفسها أن ظهرت ، فغمرت الهواء بسيل من الدفء والحرارة ، لم يلبث أن انتشر فوق النبت والشجر . وعلى شواطئ الجزيرة أخذ الحباب يلمع فى أشعة الشمس .

قال لها : « إننى ذاهب إلى النهر » ، ثم انطلق وخلفها فى الخيمة ، وكان قد أخبرها بالأمس أن هذا الشطر من الجزيرة له . ولها الشطر الآخر ، وقد أعد لها فيه مكاناً لتستحم فيه . فلما انصرف ، أمكنها أن تجد المكان ، بعد أن مشت إليه وسط الشجر والصخور . وهكذا استحم كل منهما فى النهر البارد تفصل الجزيرة بينهما . فلما عاد إلى المخيم ، وجدها تعمل بجد ، وقد أخذ الدخان الأزرق يتصاعد من النار وسط الشجر ، ثم يتجمع فى الطبقة العليا بسبب سكون الهواء . وهى تعد طعام الافطار . وقد أمكنها أن تسبقه لأنه قضى وقتاً طويلاً فى لبس ثيابه ، ولم يرد أن يقابلها إلا وهو حليق نظيف . فنظرت إلى عينيه وهما فى صفاء الماء الذى كان يسبح فيه ، وإلى المنديل الحريرى الناعم وقد ربطه بعناية وإتقان ، فجرت إليه لما رأته مقبلاً وصاحت به : « لا تدعنا نغادر هذا المكان . »

وجلسا طويلاً يتناولان فطورهما معاً ، وينشقان عبير الأرض المشبع بأريج الصنوبر والعشب الندى ، وبعد انتهاء الوجبة لم يستطع أن يمنعها من مساعدته فى الغسل والتنظيف . ثم حان الوقت بعد ذلك — طبقاً للمألوف فى الرحلات الجبلية

ـ لأن يطوى المعسكر وتستأنف الرحلة قبل أن ترتفع حرارة النهار . ولكنهما تباطآ لغير ما سبب أول الأمر ، سوى أنهما يحبان قضاء هذه الساعات فى غير عمل . وبعد ذلك عند ما جمع نشاطه و وقف على قدميه وأعلن أنه لا بد له أن يذهب ويجمع الخيل ، سألته لماذا ؟ أليس الأولى به أن يصيد فى هذا المكان ، حتى يكون لديهما من سمك النهر ما يكفيهم وقت الظهر . وكان يعرف أن المكان الذى سيقضون فيه ساعة الظهر ، سيكون فيه من السمك ما لا يقل عن الموجود هنا ، غير أنه رحب باقتراحها لكى يتخلف هنا مدة أطول .

فذهبت معه إلى صخرة الصيد ، وجلست تراقبه . كانت الصخرة عالية تزيد على ارتفاع قامته وهو واقف ، وكانت تمتد إلى منتصف النهر ، فكان الماء يدور حولها مرغياً مزبداً ، ثم ينبسط بعد ذلك كأنه بركة . لم يلبث أن صاد سمكاً كثيراً ، ولكن الشمس كانت ترتفع فى السماء وكان من الواضح أن السمك لم يعد يرتفع إلى سطح الماء . ومع ذلك فقد استمر يلقى شِصّه فى الماء وهى جالسة تراقبه . وفى الجانب الآخر من النهر ، كانت الخيل تجول جولاتها ، أو ترقد وسط المرعى . وبعد فترة من الزمن قال لها متنهداً : « لعل الرحيل قد وجب . »

فقالت بصوت رقيق : « وجب ؟ »

قال : « هذا إذا كنا نريد أن نذهب اليوم إلى أى مكان . »

فسألته : « هل بنا حاجة لأن نرحل إلى أى مكان ؟ »

فأثلج صدره سؤالها هذا ، وقال : « إنك إذن لا تريدين أن نبدل معسكرنا اليوم . »

فهزت رأسها نفياً . فعند ذلك طوى أداة الصيد وجاء فجلس بجوارها وقال متمتماً : « يسرنى جداً أننا لن نبرح هذا المكان حتى الغد . »

قالت : « لا غداً ولا بعد غد ، ولا اليوم الذى يليه ، ولا فى أى يوم إلا يوم لا يكون من الرحيل بد . » ثم مدت يديها نحو الجزيرة والنهر وقالت : « لا شىء يفوق هذا . »

فاحتضنها وقال : « إنك تشعرين نحوه بمثل ما أشعر . ولم أكن أجرؤ أن أتمنى أن يكون كلانا يحبه إلى هذا الحد . »

وبينما هما جالسان يتحدثان بجانب الماء أقبل من أعلى النهر حيوان وحشى صغير ، فجعل يسبح حول الصخرة . ولم يكن قد رآهما ، ولا أحس وجودهما . فالتزما الهدوء التام وراقباه ورأسه اليقظ يندفع وسط الحباب بسرعة ، ثم يخترق البركة ويسبح إلى الشاطىء المقابل ، وهناك خرج إلى منبسط من الرمل ، وأخذ يدير رأسه الرمادى وأنفه الأسود المدبب فى مختلف الجهات ، دون أن يراهما ثم أخذ يتمرغ على ظهره فى الرمل الدافىء الجاف . وبعد أن قضى فى التمرغ دقيقة وقف على أرجله مرة أخرى ، وهز فروته بقوه ثم مضى فى سبيله .

عند ذلك أخذ الزوج العريس يبدى ما كان يخفيه الخجل فى أعماق قلبه . فقال بلهجة الحالم : « إنى كمثل هذا الكائن ، وكثيراً ما فعلت الذى فعل» ، ثم مد ذراعيه ورجليه ببطء وتمدد بطوله الكامل على ظهره ، تاركاً رأسه مستنداً عليها ومضى فى حديثه فقال : « لو عرفت كيف أتحدث بلسانه الحيوانى ، لأمكننى أن أكلمه ولأمكنه أن يأتى ويقول لى : « هلم نتمرغ فوق الرمل ، ماذا يجديك حملك الهموم ؟ وماذا جنيت من أنك إنسان ؟ تعال وتمرغ على الرمال معى ! هذا ما سيقوله لى . » ثم سكت الفرجينى لحظة . ثم عاود الكلام فقال : « ولكن الأمر الذى يقيدنى هو أنى شخص مسئول . وعلىّ تبعات لا بد من احتمالها . ولو أمكن لى ولك أن ننسى هذا ! » ثم سكت مرة أخرى . وعاد إلى الكلام بلهجة الحالم فقال : «إنى كثيراً ما عسكرت فى هذا المكان . فكان تأثيره فى نفسى بحيث تمنيت لو كنت قطعة من أرضه أو من مائه أو شجرة من شجره حتى أمتزج به كلى ، وبحيث أصبح جزءاً لا ينفصل عنه . » وسألها وهو ينظر إليها : « ما السر فى هذا الشعور وما كنهه ؟ إنك لا تعلمين ، وأنا كذلك لا أدرى فياليت شعرى هل يحس كل واحد بما أحسست به فى هذا المكان ؟ »

فأجابت : « لا أظن أن كل واحد يحس بمثل هذا . »

قال : « كلا . لا يحسه إلا الذين يفهمون أموراً لا يستطيعون التعبير عنها بالألفاظ . » ثم رفع يده ولمس حبيبته لمساً خفيفاً ، وقال : « لكنك أنت قد فهمت سر هذا المكان . وهذا هو الذى يجعله ، — يجعلنى وإياك الآن — فوق الذى كنت أتصوره فى أحلامى . مع أن أحلامى كانت سعيدة جداً . »

ثم زفر زفيراً ينم عن الهدوء والسعادة الكاملة ، وجعل يتمدد كأنه يزداد التصاقاً بالثرى . . . وهكذا ظل راقداً يتحدث إليها بما لم يتحدث به يوماً لأحد ، حتى ولا لنفسه . وهكذا تعلمت من أسرار قلبه كل جديد عليها ! مثل زيارته السابقة لهذا المكان ، وما لها من منزلة فى نفسه ، والأسباب التى دعته لاختيار هذه البقعة لتكون معسكراً لعرسه . ثم قال : « لكن الذى كنت أجهله كل الجهل ، هو أن يكون المرء مشتاقاً متلهفاً لهذا ، ثم لا يدرى ما خطبه وما مرامه»

وبعد أنأتم كلامه ، ظل راقداً ممدداً ناعماً ، وهى تنظر إليه وإلى التبدل العظم الذى طرأ عليه ، كأنه طلوع شمس . فهل هذا الفتى الحالم هو الرجل الذى كان معها منذ يومين ؟ إن البون ليبدو شاسعاً ، ومع ذلك فلم يمض يومان على ذلك الذى وقع ليلة زفافهما ، عند ما نفرت منه ، وهو واقف أمامها ، تتمثل فيه القسوة والنقمة ، وقد استطاعت أن تستذكر الآن تلك الساعة المظلمة ، ولكنها لم ترد أن تتحدث عنها . لقد رأت منظر التدمير يلمع فى عينيه كأنه الفولاذ الحاد فهل هاتان هما نفس العينين ؟ أهذا الفتى الذى أسند رأسه وشعره الفاحم على حجرها هو ذلك المخلوق الذى تتحاماه الرجال ، والذى يتساقط الموت من يديه ؟ أين اختفى ذلك الرجل فى جسم هذا الفتى ؟ إنه يبدو حين تنظر إليه الآن كأنه لم يتجاوز التاسعة عشرة من عمره ، إنه لم يكن يبدو فى مثل هذا الصبا حتى يوم التقيا لأول مرة فى ليلة الرقص،التى أسرف فيها من عبثه ومجونه . إن هذه الساعات التى قضياها فى هذه الجزيرة هى التى بدلت من أمره وألبسته هذا الثوب البرىء الطاهر .

وجاء وقت الظهيرة ، ومرّ بهما ناعماً هادئاً . وكانت خطته أن يقضى بعد

الظهر معها فى ارتياد الغابات المجاورة ، أو المشى على شواطىء النهر العليا . غير أنه رأى أن لا بد له أن يتم بعض وجوه النقص فى المخيم ، ما دامت إقامتهما فيه ستمتد إلى بضعة أيام ، فصنع مقعداً من الخشب ومنضدة بسيطة ، وأقام حول الخيمة سياجاً محكماً من الخشب ، ليكون وقاء أكمل إذا هبت عاصفة . واحتطب مقداراً كبيراً من الخشب للموقد ، وجعل منه كومة . وبذلك استكملوا حاجاتهما. وأقاما فى معسكرهم ستة أيام وست ليال ، يتمنيان لو كانت الأيام والليالى أطول فأطول .

وقد هبت عليهما فى عصر أحد الأيام ريح عاصف ، فأفادهما السياج الذى نصب حول الخيمة أجل فائدة ، وقد جعلت الريح تهز دوح الصنوبر هزاً عنيفاً ، وتكتسح الجزيرة بشدة ، وقد اختفت الشمس تماماً ، وأخذت السحب السوداء ترعد ، وصواعق البرق اللامع تسقط عن كثب . ونفذ المطر من بين أغصان الصنوبر . وجعل ينصب على الخيمة . ولكنه كان قد نصب الخيمة بحيث ينزلق الماء عنها بسرعة ، وينحدر إلى الخندق الذى حفره حولها . وجلسا معاً داخل الخيمة ينظران إلى السيول الدافئة والبروق اللامعة ، ورأته ينظر إليها نظرة إشفاق ، فبادرت بالرد على نظراته ، وقالت : « كلا ، لست خائفة . ولئن سقطت شعلة من النار ، واحترقنا معاً ، فماذا يهمنا ؟ »

وهكذا جلسا يرقبان العاصفة ، حتى تلاشت ، وقد استحال وجهه بتأثيرها إلى محيا ملؤه الفتوة والصبا . وهى أيضاً قد تأثرت بلا شك بروحه ومرحه .

ولما آن لهما أن يغادرا الجزيرة كارهين ، لكى يسيحا فى الجبال ، لم يكن رحيلهما عنها نهائياً ، بل صح عزمهما على أن يعودا إليها ليقضيا الليلة الأخيرة من رحلتهما . كذلك تواعدا — كما يفعل الأطفال — على أن يعودا إليها كل عام فى يوم زفافهما ، مؤمنين — كما يؤمن الأطفال — أن هذا سيكون أمراً سهلاً ميسوراً . وقد أمكنهما فعلاً فى بعض السنين أن يحتفلا غير مرة فى الجزيرة بيوم زواجهما ، وأمكنهما كل مرة أن يقول أحدهما للآخر : « هذا يفوق ما كنا نحلم به . »

وانقضت ثلاثون يوماً ، لم يريا فيها وجهاً غير وجهيهما ، سواء فى ضوء الشمس الباهر أو نار المعسكر الساطعة . وإذا صمتا لم يكن فى العالم كله صوت اللهم إلا حفيف الرياح ، أو خرير الجداول الجارية ، بالقرب منها . ولقد يلتقيان فى المساء بوعل أو غزال أسود الذنب . يطعمان فى المراعى العالية فى الجبال ، واستطاع مرة أن يريها من وراء سياج من الخشب ، دباً جالساً وممسكاً بين مخالبه كتلة من الخشب . فحرمت عليه أن يقتل الدب أو أي كائن آخر ليست بهما حاجة إليه .

سار بها مصعداً فى شعاب الجبال وخوانق الأنهار ، مخترقاً غابات لم تطأها قدم ، ومتتبعاً الجداول إلى منابعها العليا ، إلى بحيرات دون قمم الجبال بقليل ، قد امتلأت بأطايب السمك ، وإلى مروج يانعة طويلة الأعشاب ، تزدهر فيها آلاف الزهور ، ويشرف على هذه كلها قمم عالية من الصخر والجليد .

فقد ضربا معسكرهما فى مواضع عديدة يقيمون بضع ليال فى موضع ، ويبيتون ليلة واحدة فى غيره ، يرتادان معاً الربوات العالية المنعزلة ، وينعمان بسحرها وشعرها . ولقد يكون أحياناً مشغولاً بالخيل ، أو منهمكاً فى صيد السمك فتجلس بالقرب منه تراقبه وفى عينها من الحب أكثر مما يبدو فيهما من الفهم . ومن الجائز أنها لم تفهمه يوماً فهماً تاماً . ولكنها وجدت فى حبها الكامل ما يكفى . أما هو فقد أحبها إلى أبعد مدى تصل إليه طاقة الرجل ، وقد قال لها مرة وهو فى دَله المحب : « إنى أجد والموت فى الحب عذباً شهياً . » ومع ذلك فإن حبها أكبر من ذلك . لقد جاءها منذ حين ، وأثر الدخان لا يزال فى مسدسه ، لكى يودعها ثم يرحل عنها . فلم تستطع أن تدعه يفارقها . فعند ما تأزم الموقف ، وبلغ غاية الحرج ، كانت هى التى أذعنت ، وهو الذى انتصر . ومع ذلك فقد وجدت فى حبها الكفاية ، بل ما يفوق الكفاية ، على الرغم من التنهد الذى كانت تتنفسه من آن لآن ، وهى وسط سعادتها تراقبه بعينين فيهما من الحب ، أكثر مما اشتملا عليه من الإدراك والفهم .

ومضت عليهما فترة طويلة من الزمن دون أن يتحدثا عن ليلة الزفاف الرهيبة، غير أن الجبال قرّبت بينهما فى كل ما عدا ذلك من شئون العالم ومن شئون حياتهما ، وكان كل منهما فى نهاية الرحلة أشد حباً للآخر ، مما كان أولاً ، وذلك بسبب ما تبادلاه من أسرار ، وما كشف كل منهما للآخر عن دخائل نفسه . وقد وجدت سعادة جديدة فى إلمامها بحديث الرجل وأفكاره ، وما يهبها من قلبه وعقله . وكانت سعادته أعظم بأن تسنى له أن ينبسط بعد أن كان مطوياً على نفسه ، بسبب حياة العزلة التى كان يحياها . فلم يكن يدور بخلده أن نفسه قد انطوت على كل هذه الأمور التى لم يسبق له التعبير عنها إلا فى هذه الساعة .

ولم تكن بهما رغبة للذهاب إلى فرمنت وترك هذه الجبال ، ولكن جاء اليوم الذى لا بد لهما فيه من أن يخلفا وراءهما هذا الحلم الجميل . فعادا مرة أخرى إلى السهول . وقد زالت بينهما الكلفة تماماً ، ولم يبق بينهما وبين بننجتن سوى سفر يقومان به .

قالت له — وهى تضحك : « ليتك تستطيع أن تركب إلى منزلنا فى زيك هذا ! »

فسألها : « أتريدين أن أذهب إلى والدتك راكباً مونتى ومتقلداً مسدساً ؟ »

قالت : « إنى أظن أن أمى سيسحرها منظرك على ظهر جوادك . »

قال : « إن هذا ما كانت تخشى أن تراه حين أذهب إليها . »

قالت : « لقد كشفت أمراً لم أكن أعرفه من قبل ، وهو أنك أكثر ولعاً بالملابس الجميلة منى . »

فابتسم ابتسامة عريضة وقال : « لا شك أنى أحبها . ولكن لا تذكرى هذا لأصحابى . وإلا ادعوا علىّ بأن هذا من أثر الزواج . ومتى رأيت ما أعددته خصيصاً لكى ألبسه فى بننجتن ، فإنك ستزدادين ثقة بزوجك . »

ولم يكن فى ذلك شك . فإنها لم تتمالك أن نهضت وقبلته عند ما رأته بعد ذلك يرتدى بدلة خاصة .

فقال لها : « ستحزن بننجتن ، لأنها لن ترى منظراً من مناظر الغرب الوحشية بعد كل هذا الانتظار . كذلك لن ترى رجلاً يرتدى بدلة من طراز مبتذل . » ونظر إلى نفسه فى المرآة دون أن يخفى سروره بمنظره .

فسألته : « ولكن كيف تسنى لك اختيار هذا ، وكيف عرفت أن ( البزّ ) المنسوج باليد هو الذى يلائمك كل الملاءمة ؟ »

— « كنت أراقب وأتأمل . ولقد كنت من قبل أحتقر رجال الشرق لأنهم لا يتزيون بزى الغرب . كنت عندئذ صغير السن جداً . أو لعلى لم أكن أصغر مما كنت يوم رأيتنى لأول مرة فى بير كريك . إن لابن الغرب منظراً حسناً . وهو بلا شك يعرف ذلك . ولكن ينقصه العلم بأمور كثيرة ، وإن كان فى العادة لا يعرف ذلك عن نفسه . أما أنا فقد أخذت أراقب زوار القاضى هنرى من أبناء الشرق . ومنهم بوجه خاص ذلك المستر أجدن ، الآتى من نيويورك ، وهو السيد الذى كان هناك عند ما اضطررت لأن أقضى الليل ساهراً مع حضرة المبشر ، ولعلك تذكرين ذلك ! أعجبتنى ملابس مستر أجدن أكثر من أى شىء آخر رأيته ، لهدوء ألوانها ، وإتقان تفصيلها ، فتدبرت أمرى عند ما علمت أنى سأتزوجك فأرسلت مقاييسى إلى الشرق ، وأصبح بينى وبين الخياطين هناك علاقات . »

وأكبر الظن أن بننجتن أحست بأنه قد أخلف ظنها . فلم يكن هناك طرافة فى أن تري خارجاً من القطار مجرد إنسان طويل القامة ، بقبعة من القش المألوف ، وبدلة من القماش الاسكتلندى المنسوج باليد ، وإن كان تفصيلها أرقى مما يرى فى بننجتن . أما حديثه — حين يحلو له أن يتحدث — فإنه مما يلقى قبولاً فى كل منزل .

ورأت مسز فلنت أن تثأر لنفسها بأن تشيع فى كل مكان أنها حامدة شاكرة لأن سام بانت المسكين هو الخطيب الذى رفضته مولى — فقد استطاع أن يفوز بما هو أعظم ! إذ تزوج من مس فان سكوتزر الغنية ، وهى من خيرة الأسر فى

ترواده . فأمكنهما أن يجمعا الثروتين وأن يسكنا فى أفخم قصر فى هوزى فولز .

غير أن أكثر سكان بننجتن سرعان ما بدأوا يقولون إن راعى البقر الذى تزوجته مولى جدير بأن يدعى إلى كل منزل ، وأن يكون كفؤاً لأى إنسان . وقد جاء الوقت الذى لم يعودوا يتحدثون عنه بأنه من رعاة البقر . وأنها قد أحسنت كل الاحسان باختياره ، ولكن هذا الوقت لم يأت إلا بالتدريج .

فهل كانت العروس وزوجها سعيدة بزيارة أسرتها ؟ لا شك أنهما بذلا جهدهما ليظهرا بمظهر الفرح والسرور . كذلك بذل الآخرون جهدهم ، حتى أختها سارابل ، فقد أعلنت أنها لا ترى شيئاً يعترض عليه فى الفرجينى . وبهذا نبأت أختها مولى . أما زوجها سام فكان أكرم من زوجه ! إذ أخبر مولى أنه يعدها سعيدة الحظ إلى أبعد حد ، أما ( الست ) الوالدة مسز وود فكانت تجلس على الأريكة باحتراس وتحفظ مع زوج ابنتها الجديد . وتقول لمولى إنها مندهشة لأنها وجدته رقيق الحاشية إلى هذا الحد ، ولا شك أنه حسن الملامح ، بل جميل جداً . وأكبر الظن أنها ستألف لهجة الجنوب وتحبها . . لا شك إذن أن كل إنسان كان يبذل غاية جهده . وإذا كنت أيها القارىء العزيز ممن أسعدهم الحظ بالعيش مع أناس يبذلون غاية جهدهم ، فإنك لست بحاجة إلىّ لأخبرك أى جو سعيد تثيره هذه الجهود .

وبعد ذلك ذهب العروسان لزيارة الجدة العجوز فى دنبارتن .

كان وصولهما لأول مرة فى محطة بننجتن على النحو الآتى : قابلهما سام بل على القطار . أما مسز وود فانتظرتهما فى حجرة الاستقبال بمنزلها ، حيث عانقت ابنتها واستقبلت زوج ابنتها . وأمكنهم أن يضفوا على هذا اللقاء أقصى ما تستطيع أسرة أن تسبغه من مظاهر الحزن ، دون أن ترخى الأستار على النوافذ .

فقال سام بل لزوجته سارا : « ونظراً إلى وجودك يا عزيزتى ، لم يشعر أحد بأن هناك حاجة إلى نعش . »

أما فى دنبارتن فقد تم الأمر على خلاف هذا . فإن قلب السيدة العجوز قد

علمها أموراً أرق وأحسن ، والرحلة من بننجتن إلى دنبارتن تستغرق معظم النهار . وقد بلغا الباب الخارجى وقت العصر . وكانت الجدة العجوز فى حديقتها تقتطف ما تيسر من زهر أغسطس ، فلما وقفت المركبة بالباب صاحت بهما :

« احضرى لى ابن أختى هنا أولاً ، يا عزيزتى ، قبل أن تدخلى المنزل . »

عند ذلك نزلت مولى من المركبة وضغطت على يد زوجها وهمست : « كنت موقنة أنها ستكرم وفادتنا . » ثم جرت فألقت بنفسها بين ذراعى الجدة ، تاركة زوجها ليتبعها . فأقبل على أثرها يمشى ببطء وقبعته فى يده . فتقدمت العجوز للقائه ، وهى ترتجف قليلاً ، ومدت إليه يدها وقالت : « مرحباً بابن أختى ، يا لك من طويل القامة ! قف معتدلاً حتى أنظر إليك ! »

فأطاع الفرجينى الأمر ، وحمرة الخجل تكسوه من شعره الفاحم إلى أسفل عنقه .

ثم التفتت إلى ابنة أختها وقالت : « ضعى هذه الزهرة فى عروة سترته ، يا عزيزتى . . . أظن أنى أدرك تماماً لماذا اخترته زوجاً . »

بعد ذلك جاءت الخادم وقادتهما إلى غرفتهما . فلما تركت العجوز وحدها فى البستان ، جلست متعبة على مقعد ، ولم تتحرك من مكانها فترة من الزمن ، فإن انتباه العاطفة أكسبها ضعفاً شديداً .

وجلست مولى فى الغرفة العليا ، على حجر الفرجينى وأثبتت الزهرة فى عروته ، ثم وضعت يدها على كتفه ، فقال : « لم أكن أعلم أن سيدة متقدمة فى السن تكون على مثل هذه اللباقة . هل تحسبين أن مثلها كثير ؟ »

قالت الفتاة : « لا أدرى . ولكنى سعيدة جداً . »

واستطاعت الجدة عند تناول الشاى ، وفى ساعات المساء أن تنفذ جزءاً آخر من خطتها . واضطلعت هى أولاً بالنصيب الأوفر من الكلام . ولكنها لم تتسرع بسؤاله عن ويومنج ، ولكنها استطاعت أن تصل إلى هذا الموضوع بطريقتها الخاصة ، فأمكنها أن تعرف الأمر الذى كانت تريد معرفته . وقد اتخذت

الحديث عن الجنرال ستارك وسيلة للوصول إلى الموضوع .

فأشارت إلى صورته وقالت : « هذا هو . وما أشك فى أنه قد عانى كثيراً من الأهوال من آن لآن . لقد كانت الولايات الشرقية ملأى فى ذلك الوقت بالشباب الناضر . أما اليوم فإن أكثرهم يذهب نحو الغرب ليبحث عن الثراء ، فهل تراهم يجدونه ؟ »

— « نعم يا سيدتى ، يجده الصالحون منهم . »

— « ولكن لا يمكن أن يكونوا جميعاً — ما يسمونهم — ملوك الماشية . »

— « إن هذا الأمر قد بلغ ذروته الآن ، يا سيدتى . وقد بدأنا نستعد للتغير الذي لا بد أن يطرأ قريباً . على الأقل بعضنا أخذ يتأهب لذلك . »

— « وماذا عسى أن يكون هذا التغير ؟ ومتى ينتظر مجيئه ؟ »

قال : « ستتغير الحال عند ما تنفد المراعى الطبيعية . ولقد توقعت ذلك منذ زمن بعيد . فإذا اضطرنا اللصوص لأن نهرب بماشيتنا هربنا بها . وإذا لم يفعلوا فإننا سنحيط مراعينا بالسياج ، وندخر البرسيم للماشية ونبنى لها المأوى للشتاء . وسيتوفر لدينا من الأجور ما يزيد على نفقات الإنشاء والبناء . وقد اتخذت كل عدتى للأحوال الجديدة . . وفوق ذلك فإنى عند ما اقتنيت أرضى ، اخترت مكاناً فيه فحم ولن يمضى وقت طويل حتى تكون الطرق الحديدية الجديدة فى حاجة إلى هذا . »

وهكذا استطاعت السيدة الجدة ، أن تعلم عن زوج ابنة أختها فى أمسية واحدة ، أكثر مما استطاعت الأسرة فى بننجتن أن تعرفه عنه طوال المدة التى قضاها معهم ، فقد حركته للكلام عند ما أشارت إلى ويومنج ومستقبلها . وقد آنس منها اهتماماً بشئون الغرب مثل الرى والهنود والغابات . فأفاض فى الحديث معها ، كاشفاً لها بذلك عن دقة ملاحظاته ، وشدة ذكائه ، وقد زايله الخجل تماماً . وأرسلت مولى إلى غرفتها واستقبلته ليتحدث إليها ساعة . وبعد ذلك أطلعته على أشياء قديمة لديها كانت تفخر بها وقالت : « وهكذا ترى أننا أيضاً قد قمنا

بما يجب علينا لبناء وطننا . والآن أنطلق إلى مولى . وإلا كنت فى نظركما عجوزاً متعبة . »

وأراد أن يرد عليها ، فلم يزد على أن قال : « إنى أظن . . . » ولم يستطع أن يعبر عما فى ضميره ، وعاد حياؤه فاستولى عليه . فقالت له : « فى هذه الحالة لا بد لك يا ابن اختى أن تقبلنى وترجو لى ليلة سعيدة . »

وهكذا أرسلته إلى زوجه ، وإلى سعادة أجل وأعظم مما عرفاه منذ غادرا الجبال ، وارتحلا إلى الشرق . وقالت لنفسها : « إن فيه الكفاية والغناء ! »

كانت زيارتهما لدنبارتن هى السعادة كلها ، وفيها مكافأة عن أيام البؤس التى انقضت فى بننجتن . وقد بذلت السيدة العجوز لابنة أختها النصائح الثمينة على انفراد ، وبعثت فى نفسها الطمأنينية . وعند ما حان رحيلهما وقفت معهما لدى الباب الأمامى ، وقد أمسكت بيديهما لحظة ، وقالت : « يرعاكما الله أيها العزيزان . وفى زيارتكما المقبلة ستكون حجرة الطفل قد أعدت . »

وهكذا قدر لهذه السيدة أن تحمل بين ذراعيها قبل أن تغادر هذا العالم ، أول طفل من أطفالهما العديدين .

وقد أعد القاضى هنرى فى سنك كريك هديته لهذا الزواج . فإن أعماله المتزايدة فى ويومنج كانت ترغمه على الذهاب إلى جهات مختلفة بعيدة عن مزرعته ، فجعل الفرجينى شريكه فى المزرعة . وعند ما تكاثرت اللصوص على مضى الزمن وأكرهت أصحاب القطعان على الرحيل أو التعرض للإفلاس ، كان الفرجينى متأهباً لمواجهة هذه الصدمة . فنقل القطعان كلها إلى ولاية منتانا .

وفى سنة ١٨٩٢ حدثت حرب الماشية وجلب اللصوص الدمار لأنفسهم أيضاً . على الرغم من أنهم ولوا رجالهم مناصب الحكم فى الولاية ، وتملكوا عدداً من الجرائد . لأن البلاد إذا تمزقت ، لن يبقى بها شىء يسرق .

ولكن الخطوط الحديدية لم تلبث أن مدت ، وامتد فرع منها إلى أرض الفرجينى التى كانت تحتوى الفحم . وكان فى ذلك الوقت من الرجال ذوى

الخطر ، قابضاً بيده على مشروعات عديدة ، وقادراً على أن يقدم لزوجته كل ما تشتهى وفوق ما تشتهى . ولقد تمر بها أوقات تشتاق فيها أيام بير كريك ، عند ما كانت تركب وإياه . كذلك كانت أحياناً تقول له إن شغله الكثير سيقتله . ولكن ليس هنالك ما يدل على صحة هذا القول . وقد أصبح ابنهما الأكبر يركب الجواد مونتى ، ولا بد لى أن أقرر – على أن يظل الأمر مكتوماً بيننا – أن والده سيمتد به العمر زمناً ليس بالقصير .

# فهرس

رقم الصفحة

رقم الصفحة


Bibliotheca Alexandrina
03664837